نبوخذنصّر

عظمة بابل وإحراق نينوى وتدمير مملكة يهوذا

وَضعه في العَربية

فيليب عطاالله

دار الجيل

بيروت

نبوخذنصّر

عظمة بابل وإحراق نينوى وتدمير مملكة يهوذا

كتب للمعرِّب

١ ـ كابيتان (رواية طويلة)
٢ ـ زوجات الفراعنة
٣ ـ السلطان الأحمر (عبدالحميد)
٤ ـ حياة بوذا
٥ ـ نبوخذنصر (ملك بابل)
٦ ـ عقد الملكة ـ الجزء الأول
٧ ـ عقد الملكة ـ الجزء الثاني
٨ ـ بطرس الأكبر (قيصر روسيا الشهير)
٩ ـ كليوباتره ـ الملكة التي كادت أن تغيّر وجه التاريخ

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

مقدمة

إن بعث الحياة في وجه من الوجوه ذات اللحى الجعدة، والتيجان الكهنوتية التي موهت أشكالها الأسطورة الدينية الورعة في الماضي السحيق البهي والدامي، ليس بالعمل السهل والعادي. مع هذا، باستطاعة التاريخ الآن أن يتصدى لهذا الأمر وأن يكشف الكثير من الأسرار الدفينة، شرط أن نترك للتصور الحدسي تحديد دوره العادل والمنصف.

فأي موضوع هو هذا الموضوع، نبوخذنصر!.. نعم، أي موضوع هو! هكذا كانت تقول في نفسها تلك الإنسانة المقدامة والمجدَّة، التي سبق لها أن أقدمت على معالجة موضوع مماثل، هو دراسة «الفرعون المجسد بالذهب» توت عنخ آمون!

فكي تتجرأ على مقارنة نفسها به، لم يكن يلزم هذه الباريسية، السيدة ج. ر. تابوي، تلميذة مدرسة اللوفر التي تابعت دروس ديسو وكونتينو، والتي نهلت من معين السياسة والتاريخ ونشأت في حضنهما، سوى جداراتها وكفاءاتها المتنوعة.

إن المصادر الثلاثة لحضارة البحر المتوسط يمكن تحديدها في ثلاثة مواقع معاً، هي: مصر، وبلاد ما بين النهرين، وضفاف البحر الأحمر. فهناك من جهة، الحضارتان النهرتيان والفصليتان، أي حضارتا مصر وبلاد ما بين النهرين اللتين تميزتا بوفرة تعدد الآلهة، وبالإدراك العميق للطبيعة، وبالطاقة الفنية لاستنبات خيرات الأرض وجعل ثرواتها مستقرة ومتجددة سنة إثر سنة. وهناك من جهة ثانية، الحضارة الصحراوية، أي الحضارة العربية السامية التي استمدت

صرامة مذهبها التوحيدي وثبات إيمانها الأخلاقي من شقاء حياة البداوة والترحل، ومن التجوال العاري القائم على الغزو والنهب.

فالتقت، والحالة هذه، الحضارات الثلاث حول نابوليون الكلدانيين هذا، الذي أرعش، خوفاً وإعجاباً، ناسخي كتبنا المقدسة، وردَّ الغزو المصري، ودمَّر أورشليم التي سبق له أن أنقذها، وقاد شعب إسرائيل العنيد إلى الأسر في بابل. وبعد أن ساد كفاتح مطمئن على المدينة الأسطورية في قصفها ومجونها وتهتكها، بابل، وبعد أن حصَّن عاصمته الفسيحة الأرجاء، وأشاد الصروح والمباني الشامخة نحو السماء، فبلغت أوج المجد والسلطة والبهاء، وتعب من العظمة البشرية بعد أن امتدت فتوحاته حتى حدود الجزيرة العربية التي التهمت صحراؤها الكثير من الأمجاد، غاب في جنون العظمة وصمت التاريخ، تاركاً امبراطوريته لأبنائه البؤساء المولودين من نساء حرمه، كي تنهار تلك الأمبراطورية بعد أقل من ثلاثين سنة!

ومع أن هذه الظاهرة المدهشة، قد حدثت قبل ستة قرون من مجيء المسيح، فلها شواهدها، هم الأكثر تأثيراً وفاعلية في تاريخنا المقدس، أولئك الأنبياء ذوو العقيدة الواحدة الراسخة الذين جاؤوا على ذكر الفاتح الكلداني كبلية لا بدَّ منها، وعظَّموه كأنه مقرعة الرب، ثم شهَّروا به، ولعنوه، وحذروه، وتنبأوا بسقوطه، وعبثوا على الأرض ببقاياه العظيمة. ويكفي أن نذكر من هؤلاء الأنبياء: إرميا، وحزقيال، ودانيال.

فبعض هؤلاء الأنبياء يمثل أمامنا المشهد الأكثر تأثيراً في تلك المأساة الألفية، وهو الصراع بين الحضارات الثلاث، المسيَّر بمشيئة سماوية باتجاه البقاء غير المتوقع للأكثر تواضعاً، والأشد ضعفاً، والأكثر تجرداً في مفهوم الكوائن البشرية. لكن الثبات على الأيمان بوحدة الخلق ووحدة الشريعة الأخلاقية، لا بدَّ له من أن يحقق السلام للإنسانية في يوم من الأيام.

إذن، هذا هو نبوخذنصر، وريث السلالة النبيلة وابن الملك نبوبولاصّر الذي دمَّر مدينة نينوى، المحظيّ من كبير الآلهة مردوك، والذي صافح يد الإله بعل، وخلق قوة عسكرية هائلة من شعب قاده نحو العلى بمهارة، وقيل عنه في نبوءة حبقوق:

«ها أنذا أثير الكلدانيين، الأمة المرة الحثيثة التي تسير في رحاب الأرض لترث مساكن ليست لها. إنها مرهوبة هائلة ومنها يبرز حكمها ووِقرها. خيلها أخفُّ من النمر وأحدُّ من ذئاب المساء، وفرسانها ينتشرون ثم يزحفون من بعيد ويطيرون كالنسر المسرع إلى طعامه. يأتون كلهم للخطف وجملة وجوههم إلى قدام فيجمعون السبي كالرمل. هذا الشعب يسخر من الملوك ويكون الزعماء هزءاً له ويضحك على كل حصن ويْركم تراباً ويأخذه. حينئذ يتغير روحه ويمضي ويعاقَب، وقوته هي في إلهه».

إن هذا المنتصر كأتيلا وتيمورلنك، قد أنزل بالملوك المهزومين أشدَّ ضروب العذاب، ففقأ عيونهم بنفسه، وثقب ألسنتهم وأدخل فيها الحلقات، وتركهم أحياء كي تصلهم وهم في ظلمات سجونهم، بعض الأصداء عن انتصاراته. وقاد إلى الأسر شعوباً بكاملها، فأنزلهم في الثكنات، وأفسدهم، وأغواهم، وقهر حتى الروح فيهم، وغذاهم من أجل انتقامه، دون أن يدري بأن انتقامه سيغذي انتقامهم.

وكان في مواجهة نبوخذنصر، الفرعون نخوَ الذي أعاد تأسيس السلالة المصرية، والذي حفر تلك القناة التي بفضلها تحولت تجارة البحر الأحمر نحو الدلتا، وجعلته يقتفي آثار الفراعنة الشهيرين، أولئك الملوك الذين غزوا فلسطين وسوريا، إذ كان يعتقد أن باستطاعته فتح آسيا القديمة كلها. لكنه ما أن خرج من مصر، حتى اصطدم بقوات الفاتح الآخر!

ويأتي بين هذين الفاتحين، ذلك الشقي المغضوب عليه صدقيًا، آخر المتحدرين من نسل داوود، وقد كان ملكاً ضعيفاً على شعب ضعيف، لا موارد

له ولا أرض ذات مساحة، بل كان محصوراً بين جباله، عائشاً بنعمة نظام رهباني إن هو تفلت منه غدا هالكاً. ومع هذا، ورغم كل المتطلبات والإنذارات الإلهية، كان بصورة دائمة يتفلت من ذلك النظام!

مع ذلك، ها هو في عمق إيمانه المتزعزع دائماً، والمعاقب عليه دائماً، يحمل أمانة الشريعة وضمانة الأخوة المستقبلية التي، من مسافة بعيدة، كانت البشرية تبسط باتجاهها يديها المتوسلتين.

وبين هذين الخصمين الكبيرين، نبوخذنصر ونخوَ، كان صدقيَّا يتوارى متخفياً، ضاماً إلى صدره اللوحات المكتنفة بالأسرار التي أُمليت عليه، والتي عُثر عليها مجدداً قبل السبي الكبير ببعض الوقت، وتليت علانية في عهد الملك يوشِيَّا، إنها كتاب الشريعة الموحى به من يهوه، الإله الأوحد الذي لا مكان له ولا شبيه.

وهذه الشريعة تتعارض مع شريعة الدم والفتح والاستبداد، شريعة نخوَ ونبوخذنصر، لأنها شريعة المحبة والرأفة، والسراج الذي كان النبي صدقيَّا يسهر على نوره.

وهذا النبي الناظر من سُدَّته إلى دمار أورشليم، قد أنبأ الشعب ولم يشفق عليه، لأن العقاب كان ضرورياً كما جاء في سفر إرميا: « سأجعل هذه المدينة في أيدي الكلدانيين فيضرمون فيها النار ويحرقونها هي وبيوتها التي قرَّبوا الأضاحي لبعل على سطوحها. . . . » إلا أنه كان يدرك أن هذا الشقاء هو لفترة من الزمن، لأنه هكذا قال الرب: « بعد انقضاء سبعين سنة على سبيكم إلى بابل، سأفتقدكم وأبرُّ بعهدي لكم بإرجاعكم إلى هذه الأرض، حيث ستمتلكون بيوتاً وحقولاً وكروماً. . . وسأنبت لداود نبتاً صدِّيقاً فيجُري الحكم والعدل في الأرض. . . ».

ولم يكن إرميا نبياً وحسب، بل كان أيضاً رجل سياسة، جعلته يدرك أن المصريَّ باقٍ وأن الكلداني زائل، فاتخذ موقفاً بالنسبة لهاتين القوتين

المتعارضتين، وانتظر أن يعمَّ السلام شعبه نتيجة للخصومة العنيفة بين نخو ونبوخذنصر. واستمر بعيد النظر بصيراً حتى إلى ما بعد موته، فلم يستودع ثروته الثور الكلداني، بل أبا الهول المصري.

وفي الواقع، انتهت مأساة الشخصيات الثلاث على النحو التالي: ولد من هو من نسل داود وكان هربه إلى مصر علامة مملكته الجديدة وفتحه الدائم المستمرّ. وفيما خصّ الصراع بين الحضارات الثلاث: حضارة بلاد ما بين النهرين، وحضارة النيل، وحضارة البحر الأحمر، انتهى باتحاد الحضارتين الأخيرتين وتغلبهما. والإسكندرية، وريثة الفراعنة ومقرّ الترجمة اليونانية للتوراة. كانت المنطلق للعهد الجديد.

وكان سقوط نبوخذنصر، الذي استتبعه فيما بعد سقوط أحشويروش، ملك الفرس وابن داريوس، سبباً لسقوط آسيا، مما جعل المجال حراً أمام حضارة البحر المتوسط كي ترتقي العرش.

هذه الصفحة الخفية من الحوليات السحيقة البعد للإنسانية، يمكن تدوينها ليوم، لا على ضوء الروايات التوراتية وحسب، بل بفضل ما حقق العلم الحديث من معجزات، وما أماطت عنه اللثام القرارات والتفسيرات الموثوق بها للكتابات المسمارية، فها هو نبوخذنصر ماثل أمامنا، لا كمومياء، بل كإنسان حيّ، مثله مثل شارلمان أو نابوليون!

فاقرأ أيها القارىء هذا الكتاب، وتقبّل حتى بعض التصورات الوقحة فيه. فإذا ما سحقت القشرة واستخلصت اللب، ستتفاجأ بأن ترى عيناك هذه الأسطورة المرعبة، تتأنسن وتفرض نفسها على التاريخ.

غبريال هانوتو

عضو الأكاديمية الفرنسية

سقوط نينوى

كانت أيام شهر آب المحرقة من العام ٦١٢ قبل المسيح تتصرم ببطء، والسهل الشاسع لبلاد ما بين النهرين يمتد منبسطاً وضيقاً تحت وطأة الليل الذي يحاصره. ومن ضفاف دجلة حتى تخوم الأفق، كان الدخان الأسود يتصاعد ثقيلاً ليختلط بسواد السماء التي تنيرها حزم من الشرارات المرصعة بنجوم ثائرة مجنونة. إن مجمرة هائلة ينبعث لهيبها من الأسوار الجبارة التي انهارت، وبريقاً من الدم يضيء عالماً مليئاً بالظلال المتحركة... إن نينوى تحترق!

وفي زوايا الأفق الأربع، كانت هناك مجامر قد همدت، ولم يبقَ منها سوى الرماد المنبعث منه بصيص من النور الشاهد على احتضار نينوى، فمدن نينيب، وكلكش، وأصُّور، وأربل، قد بدت في تلك الظلمة بقايا نتوءات قاتمة ومبعثرة، بعد أن تقوَّضت وتهدمت!

وعلى طول النهر، الراسي في مياهه الحمراء والنتنة خطٌّ متصل ومشؤوم من الجثث المنفوخة البطون، بدا السهل وكأنه حشد من البشر! إذ كان يموج بأكثر من أربع مئة ألفٍ من الناس، مع أسلحتهم وحاجاتهم، بعضهم كان على الأقدام، وبعضهم على الجياد، وأخرون في المركبات، وكلهم جاؤوا بدافع التزاحم على الغنائم. فكل الذين حسدوا نينوى على سلطانها، كل الذين عانوا من استبدادها، وكل الذين طمعوا في ثرواتها، ساهموا في تصعيد دخان الحرائق نحو السماوات الرهيبة، كأن نينوى هي الأضحية الوحيدة التي يجب أن تقدم!

وبين هذه الشعوب الفوضوية المهتاجة، التي كانت تتجمهر وتطلق صرخات عدائية، ثلاثة شعوب بدت وكأنها هي المنظم والمنسق لهذا الأنتصار

الذي حقق لها الثأر والانتقام، بعد عذاب واستشهاد دام ألفاً وخمس مئة سنة. وهذه الشعوب، هي:

١ ـ البابليون بمنظهرهم البهي وهم يحملون الرماح ويعتمرون الخوذات المخروطية الشكل، ويلبسون القمصان المزركشة بالخراشف المعدنية المتداخلة.

٢ ـ السكيت، وهم الخيالة ذوو الوجوه المتوحشة، والشعر المشعث، والقمصان والسراويل الفضفاضة المصنوعة من الجلد، التي كانت تخفق في الهواء أثناء عدوهم، وهم منحنون على جيادهم الصغيرة الهزيلة، ليجهزوا على جرحاهم بضربات قوية من فؤوسهم.

٣ ـ الميديون الرشيقون والأنيقون بلبداتهم وستراتهم المشدودة إلى خصورهم، وبقسيِّهم الضخمة الخافقة فوق أكتافهم.

وقد لزم تحالف هذه الشعوب، أربع سنوات من القتال الوحشي المستمر، إلى أن تمكنت من دحر نينوى والتغلب عليها[1].

وها هي الآن سحب الدخان تغطي المدينة بأسرها، وقد بلغت الحرائق أبسطة العشب الأخضر المحيقة بالقصر الملكي، وحولت الحدائق المعلقة إلى مجمرة تنبعث منها ألسنة النار، وصياح الهلع والرعب!

وكان سينشاريشكون، آخر ملوك نينوى، وابن الجيل العشرين لسلالة شهيرة، قد أقام على سطح قصره محرقة هائلة، وجلس هو في قاعة مقفلة داخل القصر، بعد أن جمع حوله كنوزه ونساءه وخصيانه، ينتظر اللحظة التي سيحوله فيها الموت إلى رماد يمتزج برماد أفراد حاشيته وخدم قصره وأشيائه المحببة، غير متأثر بصراخ الألم وصياح الهلع والرعب!

---

(١) كان عدد سكان نينوى في ذلك الوقت حوالى الثلاثماية ألف نسمة، وكانت قد انقضت مدة تجاوزت القرن دون أن يتعرَّض لها خلالها أي غازٍ.

ورويداً رويداً، أخذت المحرقة الهائلة تتخذ شكلاً أكثر قتاماً. ثم همدت ألسنة النار في كل مكان، ليخيّم هرم أسود على المدينة التي فجرتها النيران فتهادت مبانيها وانهارت.

ومن خلال الثغرة الواسعة التي أحدثها فيضان دجلة في السور الشمالي، اندفعت جماهير الغزاة الفوضوية منقضّة على نينوى التي سُدَّت أزقتها بالجثث وركام الجدران، فكان الجنود يتقدمون في هذه الأزقة ويتعثرون، فيمسكون، تحاشياً للسقوط، بأشياء متكلسة ومنتصبة كما تنتصب الجذوع الملتوية السوداء في الغابة المحروقة. وكانت هذه الأشياء أجساداً ما زالت مغلّفة بثيابها وأسلحتها، وقد جرفتها مياه « نحونسور » التي بلغ مستواها على طول الأسوار مستوى الفيضانات المرعبة، فغدت مداً أحمر يهدد ربوتي كويوندجيك والنبي يونس، اللتين لم يبق عليهما من قصور سنحريب وأَصُوربانيبال وشلمنصّر، سوى أنقاض يتصاعد منها الدخان!

ومع هذا المدّ من المياه اندفعت حشود الجنود المنتصرة وأخذت تتوزع بين الجدران المتزعزعة بقصد الإمعان في التخريب والتدمير، وقد انضم إلى هؤلاء الجنود جموع جشعة ومتعطشة لسفك الدماء. وكان الفرح المسعور يدفع بكل هؤلاء، لأنهم كلهم كانوا يعتقدون بأن زمن العبودية قد ولّى... دون أن يتبادر إلى أذهانهم بأن ملوكاً آخرين يحلمون بالمجد، وأن مصير الشعوب المغلوبة على أمرها سيكون ثمناً لهذا المجد.

وصعد إلى القصر الملكي وحده الشاب نبوخذنصر، القائد الأعلى للجيوش الكلدانية، وابن نبوبولاصر ملك بابل، فيما كانت لم تزل هناك أكداس من الرماد الأسود، يتصاعد منها الدخان وبعض ألسنة اللهب التي تلامس الكتابات والنقوش البارزة الجميلة، المعبِّرة عما قاسته بابل من عذابات أنزلتها بها نينوى.

فسعَّر نبوخذنصر بطرف حذائه ألسنة اللهب هذه، كي تقضي النار على كل أثر للمجد الآشوري، إذ يجب ألا يبقى أي أثر سوى الأطلال الموزعة هنا وهناك والتي تشهد على مجده هو، نبوخذنصر!

لقد أسكره منظر المدينة المتغطرسة وقد أصبحت أثراً بعد عين تحت أقدامه. وزاد في نشوته منظر «الزاكورات»، تلك الأبراج الضخمة التي كانت معابد الآلهة لدى الآشوريين، وهي تنهار أمام عينيه محدثة فرقعة كقصف الرعد، ودافنة أمام أبوابها المقدسة جثث الكهنة المبقورة البطون.

وعندما هبَّ الهواء ساخناً وحاملاً إليه غبار الرماد، شعر بأن الإرهاق الذي سببته له متاعب المعركة قد زايله، وبأنه استعاد كامل قوته وأصبح بإمكانه القيام بفتوحات جديدة. وفكَّر بحلفائه من خلال رغبته في الاستئثار بالنصر، فحكم على السكيت بأنهم لا يخيفون لأنهم برابرة جهلة وسيتقاضون أجرهم من التسابق على السلب والنهب. لكن الميديين يريدون حصة، وعلى نبوخذنصر أن يتحالف معهم. ولما لا، أليس باستطاعته أن يبعد طموحهم عن بابل، بتحويل هذا الطموح نحو تلك الأراضي الغربية المليئة بالأسرار؟ فضلاً عن ذلك، ألم يتزوج منذ سنتين آميتيس، ابنة ملك الميديين سياكسار، وفي ذلك أفضل ضمانة لطمأنينة بابل وسلامتها؟

وفيما هو جامد لا يتحرك، وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، رشق بعينيه السوداوين الجنود الميدنيين الذين كانوا يصعدون باتجاهه، وراء ملكهم سياكسار، وهم مسلحون بالفؤوس يفرون بها كما يفرون قطع اللحم، الصفائح الذهبية التي تكسو تماثيل الآلهة المنقلبة والممددة فوق الأنقاض.

ورأى نبوخذنصر فوقهم، فأل الشؤم الذي أبهج قلبه، متمثلاً بالغربان التي اجتذبتها تلك المقبرة الهائلة من الجثث المكشوفة التي كانتها نينوى، فارتسمت حلقاتها المأتمية في السماء الوردية اللون...

مسيرة نحو العرش

بعد انقضاء ثماني سنوات على حريق نينوى، طلع الصباح على بيلوز، تلك القلعة المتقدمة على دلتا نهر النيل التي كانت حصن الدفاع عن مصر، وقد برزت أسوارها بوضوح تحت ضوء الفجر الشاحب. وكان بحر آكّارو الذي يغسل قدميها، يحيطها بزنار من الموج الأبيض، والمستنقعات العميقة ما تزال تعزل جيش الفرعون نخو عن معسكر نبوخذنصر. فوجهاً لوجه، وقف الجيشان يحترزان، ويترقبان الساعة المؤاتية للالتحام الرهيب!

وكان اقتسام الإمبراطورية الآشورية، قد أعطى سياكسار، ملك الميديين، البلدان الواقعة إلى الشمال الشرقي من بابل، وورث نبوخذنصر، تلك التي كانت في الجنوب الغربي، فأصبح الفرعون نخو، والحالة هذه، متولياً من قبله على مقاطعة تخصُّه، فلم يرق هذا الأمر له، ولا قبل بهذا المصير. وظن بأن الساعة قد دقت، وأن الظرف ملائم كي يرفع نير بابل عن كاهل مصر. فأعاد تنظيم جيشه لهذه الغاية، وجنَّد المرتزقة اليونانيين وفتح مضيق السويس، سالكاً بذلك طريق كبار الفاتحين من السلالة الثامنة عشرة. فاحتل، بدون مقاومة تقريباً، فلسطين، وفينيقيا، وسوريا، وبلغ نهر الفرات عند مدينة قرقميش.

ولما حاول يوشيَّا، ملك يهوذا الوفيُّ لتحالفه مع بابل، أن يتصدى له ويمنع مروره، قال له نخو: « اهتمَّ بالأمر الذي يعنيك يا ملك يهوذا، فأنا اليوم لا أستهدفك أنت، بل إن نهر الفرات هو هدفي ». ثم سحق الجيش الإسرائيلي في ماجيدو، وأصبحت الطريق مفتوحة أمامه باتجاه بابل.

عندئذ، وضع الملك نبوبولاصَّر جيوش المملكة مجدداً تحت إمرة ولده نبوخذنصر، وابتسم الحظ مرة ثانية للقائد الكلداني الشاب، الذي زحف بجيشه زحفاً حثيثاً، فالتقى نخو أمام قرقميش حيث هزم الجيش المصري وأرغمه على التقهقر والتراجع بسرعة على طول الساحل. وانطلق نبوخذنصر يلاحق الجيش المهزوم حتى تمكن من استعادة فتح فينيقيا وفلسطين، ويهوذا، ومؤاب، وعمون. وتابع زحفه حتى بلغ وادي النيل التي بفضلها، كانت مصر دائماً تؤخر زحف المنتصرين عليها، والتي سبق للفاتحين الآشوريين الكبيرين أسرحدُّون وسنحريب أن تسلقاها قبله.

هناك، وقف نبوخذنصر مرتعشاً، وأخذ يحدق بعينيه الواسعتين في قلعة بيلوز ومسلاتها وهياكلها، تلك القلعة العسكرية الحصينة والهامة كمركز تجاري للعالم القديم. فمرفأها كانت تلجأ إليه السفن الفينيقية، والسورية، واليونانية، والقبرصية، مما جعل القوافل، بفضل هذه السفن التجارية والطريق التي تربطها بغزة، تحمل إليها الثروات من سائر أنحاء الشرق الأدنى.

ومع أن نبوخذنصر كان قد احتل قلاعاً كثيرة أخرى، إلا أن وراء هذه القلعة سينبلج فجر المجد. فإذا ما احتل بيلوز انفتحت أمامه الطريق إلى ممفيس، كما انفتحت من قبل أمام أسرحدُّون وأصوربانيبال. إن الفراعنة العالقة في ذاكرتهم أسماء الفاتحين الآسيويين، كانوا قد عملوا من بيلوز قلعة حصينة مؤهلة لأن تسحق اليوم انقضاض غزوه. مع هذا، أشرقت على وجه الأمير الظافر ابتسامة الزهو والكبرياء، وبسط ذراعيه نحو تلك المصر الأنيقة الظريفة، التي سيجعلها خادمة له!

فيا لها من نزهات جميلة على ظهور الجياد، وعلى امتداد النهر المتعرج كيفياً وسط الرمال الذهبية اللون، وحفيف الأعشاب الخضراء التي كان النسيم يداعبها برفق ولا يقسو عليها! وكم هناك من الثروات المعروضة والمكدسة، والتي كانت في أغلب الأحيان، المومياءات الراقدة في رموسها، وحدها، تحرسها منذ قرون من اشتهاءات ومطامع الأحياء.

وفيما كان القائد الكلداني يسرّح الطرف ويفكر في كل ذلك، انطلق فجأة نداء رنان، وتوقف رجل أمام نبوخذنصر بعربته البابلية الصغيرة التي كان يجرها جواد فريد، فعرف الجميع إذ ذاك أن هناك بريداً من بابل. ولما اجتاحت المعسكر الكلداني الضجة والضوضاء، ثبت للكل بأن ساعي البريد قد حمل إلى سيدهم خبر وفاة نبوبولاصَّر، والده وملكه.

وضيَّق نبوخذنصر بالأسئلة على الرسول: ألم يحاول نبوشومليشير، أخوه الأصغر الذي بقي في بابل، وبالرغم من كل التقاليد، أن يتوج نفسه ملكاً في غياب أخيه؟ فالشعب الكلداني القابل جداً للانصياع السهل وراء الخيانات المدفوعة، لا قيمة لديه بحق الوراثة، وأهمية الشخص، والتقاليد التاريخية، والشرائع الأدبية، إلا بقدر ما فيها من فائدة له.

فما الذي ينبغي على نبوخذنصر أن يعمله الآن؟ إن النصر على الفرعون نخو وعلى مصر، وتحقيق أحلامه في اجتياز وادي النيل، هي جلُّ أمانيه. ولكن ما فائدة الفتوحات طالما أن عرشه ذاته في خطر؟ لا، باستطاعته أن يلتقي الفرعون بعد عدة أيام، وبانتظار ذلك، عليه أن يتأكد من حياده المتسامح، وذلك بواسطة هدنة تحقق لنخو بعض الترضيات الأدبية، وتتيح لنبوخذنصر أن يكون حراً طليقاً في تنظيم وتثبيت دعائم مملكته، وفي وضع الأسس والقواعد الثابتة لتلك المملكة في بابل، إذ يجب أن تكون بابل عاصمتها وأن يكون هو سيدها.

والهدنة بالنسبة لنخو، هي مشروع سلام. فالفرعون عمل حساباته جيداً بعد أن لمس في قرقميش تفوق الكلدانيين في معاركهم ضدَّ التشكيلات المصرية، وهو أكثر إصراراً وتصميماً من نبوخذنصر، الذي يعرض عليه الهدنة كي يعود يوماً ويفرض إرادته على مصر. فنخو، بقبول هذه الهدنة، لا يتخلى عن طموحاته الهادفة إلى إنهاض الأمبراطورية المصرية من أنقاضها، ووضع حدٍّ للانشقاقات والخلافات فيها، وإعادة تثبيت سلطتها من جديد على آسيا، تلك السلطة التي يبررها ماضيها المجيد وحضارتها الراقية.

ونخو، مثله مثل نبوخذنصر، له مصلحة في كسب الوقت. إذ ليس هناك إمبراطورية يمكنها الزعم أن باستطاعتها الاستمرار إلا إذا كانت سائدة على البحر. فبابل، مهما كانت قوتها الغازية قوية، لن تتوفر لها إطلاقاً إمكانيات التوسع التي بدونها ستجد نفسها في المستقبل أمام طريق مسدود، ما لم تكن تملك منفذاً حراً على البحر. لذا، فإن نخو يحلم بالاستفادة من سنوات الهدنة التي فرضها موت الملك نبوبولاصَّر، كي يجهِّز مصر بأسطول عملاق من المراكب ذات المقاذيف الثلاثية الصفوف، ومن السفن الشراعية الحربية، والبوارج ذات المهاميز القوية.

فبفضل هذا الأسطول، سيصبح نخو سيد البحر المتوسط، وستؤمن له هذه السيادة البحرية القوية، صداقة كل الشعوب العائشة من هذا البحر، والتي تخشى نظرات الاشتهاء والطمع التي ترشقها بها بابل، أي: الفينيقيون، والإسرائيليون، وحتى شعوب الشمال. وكي يبني هذه القوة البحرية على قواعد راسخة ويفسح لها مجالاً أقوى لفعاليتها، سوف يعيد حفر قناة « سيتي »، التي بربطها البحر المتوسط بالبحر الأحمر، ستؤمن لمصر مراقبة المقايضات الأساسية للعالم، وستياح لها، فضلاً عن ذلك، أن تأخذ بابل من الخلف، عبر الخليج العربي.

وتحت خيمة نبوخذنصر، أُبرمت هذه الهدنة التي ثبّتت سيادة بابل على سوريا بأجمعها، وعلى نهر الفرات حتى تخوم مدينة العريش. وكي تُرسِّخ هذه الهدنة، أعطى نخو ابنته نيتوكريس إلى ملك الكلدانيين لتصبح زوجته الثانية.

لكن الوقت بالنسبة لنبوخذنصر، لم يكن يسمح له ببوح العواطف، فهو توّاق إلى غزو عرش أبيه، لا إلى غزو قلب امرأة مجهولة. بالإضافة إلى أن تربية نيتوكريس المفرطة في التهذيب، لم تكن تسمح لها هي الأخرى، بإثارة الشهوة المكبوتة في نفس نبوخذنصر.

وكي يعود إلى بابل بالسرعة القصوى، رفض العودة بالطريقة البطيئة التي تستوجبها مسيرة الجيش، كما رفض فكرة اتّباع الطرق المتعرجة العادية التي

تمتد من قرقميش حتى بلاد ما بين النهرين، وانطلق نحو قدره عبر الصحراء العربية، متبوعاً بالقليل من الخفر المؤلف من وحدات خفيفة سريعة الانتقال، تاركاً جيشه وغنائمه في عهدة كبار قادته.

*

انتصب نبوخذنصر في عرشه ذات العجلات الواطئة. وبحركة لجوجة أمر الخوذيّ بأن يلهب بالسوط أقفية الجياد السورية الضامرة، حتى إذا ما انطلقت تسارع الريح تركت وراءها غباراً من الرمال الصهباء لا يدرك باللمس.

فبدا الأسد الذهبي في مقدمة العربة، الذي كان شعار الكلدانيين، وكأنه يتوثب لينهش الأفق بشدقه الكبير الفاغر! وعلى جوانب العربة، في الجعب الجلدية المتقنة الصنع، كانت النبال تتلامس فينبعث منها رنين لطيف. وفوق الرأس الملكي، كانت تهتز، بفعل رجّة عجلات العربة وهبات النسيم، المظلة المطرزة بالخيوط الذهبية التي كان يمسك بها آسبيناز، ذلك الخصيُّ الأمين لنبوخذنصر الذي سجّل التاريخ اسمه.

وفي مسيرته المجنونة نحو العرش، لم يكن نبوخذنصر يفكر حتى بالتلفت إلى ورائه ليرى عما إذا كان الجنود الذين اصطحبهم، والذين كانوا يمتطون عربات أخرى، ما زالوا يقتفون إثره. فكبرياؤه لم تكن تسمح له بأن يشك في مصيره.

وهكذا اجتاز المسافة المحاذية لبحر آكادور الكبير حتى بلغ بلد آدوم. وهناك انحرف يميناً باتجاه الصحراء العربية، مزدرياً مدينة أورشليم ومملكة يهوذا، حيث بلغه، وسط الانشقاقات الداخلية، النداء المكتنف بالأسرار للأنبياء الذين عظموا مجده خدمة لإله رهيب يجهله!

وازدرى أيضاً السواحل الغنية لفينيقيا، مملكة ملوك صور وصيدون، مع أن ثروات وكنوز هؤلاء الملوك كان بإمكانها استهواء شعبه وتحقيق رغباته. فنبوخذنصر قد فضّل الوصول إلى العرش أولاً، كي يقضي بسترعة على الدسائس

ويقطع دابر المؤامرات التي تحاك، ويستدرك التخليات عنه، التي كان يُعمل لها!

لكنه بعد تتويجه، سيحتم عليه تحمل المسؤولية بأن يحكم كل هذه الشعوب التي أصبحت مع مصر، خاضعة لسلطان بابل بعد سقوط نينوى. وستحتم عليه هذه المسؤولية بأن يحكمها ويستميلها إليه بإدراك وتفهم، حتى وإن كانت شعوباً مختلفة ومتنوعة. فإن هو استطاع إقامة الصلح والقضاء على الضغينة فيما بينها، وإن أرضى ميولها النظرية من دون أن ينمّيها، وتمكن من توحيد قواها وجعلها في خدمة امبراطورية واحدة هي امبراطوريته، يكون قد حقق المثل الأعلى الوحيد الذي بواسطته يستطيع خدمة أمجاده. فأية سياسة سيجيزها نبوخذنصر لنفسه؟

إن السياسة لا تستطيع أن تحقق له إلا ما حققته له أمس أمام قلعة بيلوز، أي نصف ما يرغب به وما يطمح إليه. إذ من غير المستطاع حكم العالم إلا بالقوة. وقد دلت البينات أن حكم القوة سهل المنال بالنسبة للشعوب الأكثر بربرية وتوحشاً، إذ يجب أن يتمّ بفعل ضربة قوية وسريعة، تقضي على الانتصارات الأدبية، وتمزق المعاهدات، وتنكث بالمحالفات، لأن القوة لا تتثبت بالكتابات، حتى وإن تمت في أبهة وطبعت بالطابع الاحتفالي. فالقوة تعني الخراب والدماء والقتل، وهي ليست مبررة إلا إزاء ذاتها. وعلى الشعب أن يتحملها من دون نقاش في شرائعها وقوانينها. إن القوة سلطتها في ذاتها، وهذه السلطة تطلب كحق وواجب لها، كل ثروات العالم، وهي لا تنتسب إلا إلى أهل الطمع والأنانية الذين لا يعكر صفوهم معكر، ولا يهمهم شيء من أمر السلام، والعدالة، والمساواة. وهم لا يخافون حتى الآلهة، لأن الآلهة في نظرهم مع الأقوياء، وأن الانتصارات هي فعل الإرادة الإلهية!

ومن يجرؤ على الزعم أن باستطاعته فرض إرادته على العالم بصورة دائمة ومستمرة، وأن يجعل هذا العالم هدفاً لطموحاته؟ فهكذا هدف لا يستطيع أن يحتكر لمصلحة صاحبه كل الثروات الروحية والمادية، كما أنه لا يستطيع أن يبيد بالنار أو بالدم كل الأنساب الطموحة والمزاحمة.

إن تصورات نبوخذنصر، الذي لم يكن قد ضمن عرشه بعد، قادته بسرعة إلى أبعد مما تذهب به عربته، لقد قادته إلى غزو العالم. مع ذلك، فإن واقعيته تريد تحديد المقدمة المنطقية لهذا الغزو.

فمملكة يهوذا فريسة سهلة المنال، لأنها تتمزق من تلقاء ذاتها بسبب الصراع الداخلي بين ملوكها، وبين قطاع الطرق وقادة العصابات المتعطشين إلى الملذات والشهوات والفُسق والفجور. وبسبب إطراء أنبياء هذا الشعب، الذي أسكرته الأحلام الصوفية لغرائزه الخسيسة. فضلاً عن ذلك، كانت أورشليم سياسياً، الأداة المجامِلة والمهتمة بمطامح المصريين الذين عرفوا دائماً كيف يضمنون تحالفها بإرضاء ملوك يهوذا في تحقيق جشعهم وطمعهم.

وقد عرف الأشوريون هذه الحقيقة جيداً، لكنهم أخفقوا في تعاملهم مع الإسرائيليين، لأنهم لم يدمروا كل مدنهم، وكل هياكلهم، ولا سبوا الشعب ونهبوا ثرواته كما فعل شلمنصَّر في السامرة. ففي هذه الحالة، ماذا سيطلبون من إلههم يهوه، الذي وعدهم بأن يضع شعبه المختار في مقدمة شعوب العالم، عندما لا يعود هذا الإله يسود إلا على الخراب والدمار؟

فهذه القوة الروحية التي تستمدها الشعوب من الشريعة الإلهية، ومن المثل الأعلى الموعودة به دائماً ولم يتحقق إطلاقاً، لا يمكنها الصمود عند سقوط الشعائر المادية لهذا المثل الأعلى.

وبعد أورشليم، يأتي دور صور! صور المتعجرفة التي تزدري بالقوة لأنها تملك الثروات التي تستخدمها وتوزعها بمرونة على كل القطاعات والأعمال. فشلمنصَّر وسنحريب ما استطاعا التغلب عليها لأنهما اعتقدا أن الفطنة واللباقة تفرضان عليهما بأن يتحالفا مع هؤلاء الملوك الفينيقيين، والتجار ذوي الفن العظيم الذين تمخر مراكبهم البحار وعليها يسنون الشرائع. فتصرفوا على أساس الاكتفاء بتدمير المدن الفينيقية الأخرى والاستيلاء على ثرواتها.

وكان إيتوبعل، ملك صور، قد قدم خضوعه إلى بابل بعد سقوط نينوى. وفرضت عليه مصلحته بأن ينضم إلى فريق المنتصرين، وأن يتقي السلب والنهب بخفة، لأن العشر قُدِّم إليه طوعاً ومجاناً.

لكن نبوخذنصر لم يكن مغفلاً، فقد عرف أن إيتوبعل ليس سوى حليف سري للفرعون نخو، فشاء أن يأخذ ضمانة ضدّ القوة البحرية المتجددة لمصر. فأساطيلها المتحدة باستطاعتها غداً إذا ما حاصرت بابل وضيَّقت عليها الخناق، أن تأخذها كما تؤخذ السمكة في عيون الشبكة الضيقة.

فلمجابهة هذا الخطر، لا يستطيع نبوخذنصر أن يعتمد على مساعدة ملك الميديين، سياكسار، حليفه القديم ضدّ نينوى، لأن السياسة هنا قد أظهرت قدراتها. فبتوجيه مطامح الميديين نحو شمالي وغربي بابل، أثار الملك نبوبولاصر ضد حلفائه، الليديين والفريجيين الذين استأثروا بالصراع الدائم والمتجدد ضدّ الجيوش الميدية، مما قدم مساعدة فعالة للأفواج الكلدانية في حربها الاستقلالية ضدّ آشور. ومهما يكن من أمر، فإن عبقرية نبوخذنصر وإرادته، كفيلتان بتلافي كل نقص وبسدّ كل فراغ، وستقاومان الثروات بالثروات.

ألن تُفتح له على يمينه، إمكانيات شبه الجزيرة العربية التي لا حد لها؟ إن الصفوف المتراصة من القوافل التي تنقل إلى سواحل البحر المتوسط الثروات الخيالية المتوفرة على شاطىء نهر الهندوس، سوف يجعلها تنحرف بالقوة باتجاه الخليج العربي ونهر الفرات. وأية فرصة ذهبية ستكون هذه الفرصة، بالإضافة إلى غزوات مربحة على تلك الممالك العربية المتفرقة كلها، لكنها كلها رائعة وبهية، كمملكة دوما الضخمة، ومملكة نجد المشهورة بمراعيها ومواشيها، والمملكة الأردنية الغنية رغم توحشها، وأخيراً مملكة سبأ المدهشة الساحرة في أقصى الجنوب. وذكرى المسيرة الشاقة وحدها، التي يعد نفسه بها، كفيلة، في خلال مدة طويلة، بأن تؤمن لبابل قبابل المُقطعية من هذه الشعوب البسيطة.

وعندئذ، سيبقى سيد العالم وحده وجهاً لوجه أمام مصر. وسيقابل مجدداً نخو أمام بيلوز، حيث يجد الفرعون المذكور نفسه أمام خيارين لا ثالث لهما: إما الخضوع والاستسلام، وإما الهزيمة. وعلى النيل، ستكرس سلطة بابل المطلقة، وستتكلَّل مطامح نبوخذنصر بالنجاح.

وأمر نبوخذنصر بأن تُستحث الجياد أيضاً لتزيد من سرعة جريها. فالصحراء بدت لعينيه كأنها مسرح هائل للأشباح، ينبسط تحت سماء صامتة ارتسمت آفاقها في الفضاء اللامتناهي، فأرعشته شدة هذه العزلة مع الطبيعة، وشاء الانطلاق بسرعة أكثر، وإلى البعيد البعيد في تلك المساحة الشاسعة الجذابة. ولا غرو ولا عجب، ألم تكن أحلامه تتقدمه في هذا السباق؟

وكانت الشمس في تلك الساعة متألقة في القبة الزرقاء وفي أوج وهجها، فبدت السهول البعيدة ترتعش تحت وطأة الحرارة وبسبب الرمال المتطاير في كل مكان. وفجأة، بدَّدت صغار الغزلان التي فرت في كل اتجاه العزلة التي رافقت ذلك الجري الطيفي، فتوغل نبوخذنصر أكثر من ذي قبل في تلك المجاهل الصحراوية التي كانت الرمول والحجارة فيها، رغم الشمس الساطعة، ترسم في مخيلته صورة مرعبة عن دمار محتوم وفي زمن لا يدرك، يحوم فوقه الموت ويلفُّه الصمت والهلع!

فهل ستسقط بابل من عليائها كما سقطت نينوى من قبلها؟ لا! إن نبوخذنصر سيؤمن لبابل البحر، ذلك البحر الذي كانت تفتقر إليه نينوى بصورة دائمة. وهو سيخفض مياه الخليج العربي حتى مستوى المرفأ الذي سيحفره في حمى أسوار بابل، وكل أساطيل العالم ستقصده لترسو في مياهه، وبذلك لا يبقى في البحر والبر إلا سلطة واحدة، هي بابل، وإلا ملك واحد، هو نبوخذنصر، الذي سيحتل مكانه بين الآلهة في كل روعة وبهاء مجده. فتتمجد قوته ويكون قدوة للأجيال المقبلة.

وتابعت عربة نبوخذنصر جريها، إلى أن أخذ كل شيء يتلاشى ويمحّي، لحظة أن غابت الشمس في الأفق وراء البحر، تاركة خلفها إطاراً وردياً وأخضر، أخذ يتصاعد في السماء ويكفهر رويداً رويداً، حتى غدت السماء بعد قليل قبة هائلة مجللة باللونين الأزرق والأسود.

فأغلق الخادم آسبيناز المظلة التي كانت تقي رأس الملك من الحرارة، مما أتاح لنبوخذنصر أن يستمتع بسحر تلك الساعات التي تلفها الحيرة والغموض. فأخذ ينظر إلى السماء التي كانت أولى النجوم قد أضاءتها، فرأى في هذه الكوكبات الغامضة آلهته الحقيقيين الذين يدونون في السماء مصائر الرجال. وقد بدت هذه النجوم في ذلك المساء وكأنها قريبة من الأرض، حيث تسير عربته التي، وإن بدت صغيرة جداً وسط هذه الصحراء الرملية الفائقة الحد، فهي مع ذلك تحمل قدر بابل وحظها.

وعندما هبّ الهواء في ذلك المساء، ارتعش نبوخذنصر رغماً عنه، تحت ذلك الألق الحزين والبارد لتلك الكواكب المتسلطة عليه. فكل إرادة بشرية، مهما كانت متكبرة ومتعجرفة، ومهما كانت واثقة من نفسها، ألا يتوجب عليها أن تنحني أمام عظمة ومهابة تلك القبة السماوية التي عليها، منذ كان العالم عالماً، حددت القدرات الإلهية مصائر البشر في تحركات الكواكب الكاشفة للغيب؟

فمنذ آلاف السنين، فسّر الكهنة الكلدانيون أحكام هذه الآلهة المتلألئة، أسياد الأيام والليالي والفصول والسنين، وقد خضع لها الملوك كما خضع لها بقية البشر!

أخذ نبوخذنصر الجفول ينظر بقلق إلى هذه النجوم، ويتساءل: ألا يكفيه أن يجبر الكهنة، بالقوة عند الحاجة، كي تخضع تفسيراتهم للظواهر السماوية، إلى مشيئته؟ ثم من سيجرؤ على ألا تأتي الاستشارة التي سيلتمسها في الليلة الأولى لاستلامه الملك في بابل، غير مطابقة لأحلامه؟

بعد هذا التساؤل، تهيَّب نبوخذنصر الآلهة وخاف من انتهاك الحرمات المقدسة. . .

وكم كانت تثقل كاهليه هذه القبة الليلية المزروعة بالنجوم المشعة كالذهب الوهاج، والبعيدة جداً عن يده الممدودة نحوها، إما بدافع التهديد، وإما بدافع الصلاة؟!

هل يكون بدافع الصلاة، ربما، إذ في تلك الساعة كان يستعيد في ذاكرته استشارة الكواكب التي تلقاها أشوربنيبال من منجميه بشكل صلاة، حينما ارتقى العرش، إذ قالوا له:

« لتمنح الآلهة الملك، سيدي، يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، فرح القلب، وراحة الجسد والحبور. لتمنحه عرشاً دائم الاستقرار، لأيام مقبلة، ولسنوات عديدة ».

ولكن حتى وإن أصبح سيد العالم كأشوربنيبال، فإن امبراطوريته ستنهار كما انهارت امبراطورية أشوربنيبال، وعندئذ، ستستمر الكواكب ساطعة، كما هي أبداً، غير مكترثة للعظمة البشرية وانحطاطها. وستقدم القبة السماوية إلى آخرين من أصحاب المطامح الأرضية، المنحنى الكاشف للغيب في دورانها الفلكي.

أعليه إذن أن يتخلى عن طموحاته؟ لقد ثار كل ما فيه من كبرياء أمام هذه الفكرة التي تنكر عليه قوته الكامنة، التي أخذت تغلي في عروقه وتدفعه في ذلك الليل إلى الأمام، نحو العرش الطامع فيه. وحاصل الكلام، لماذا عليه أن ينظر إلى ما وراء العالم؟ إن الاستيلاء على العالم يكفيه لتخفيف أهوائه. والآلهة التي ستساعده على ذلك، سيترك لها مهمة خلق الأوهام لرعاياه التي تجعلهم خاضعين للحياة وخدماً طبيعيين للأنفس القوية كنفسه.

فالعالم هو لذاك الذي يعرف كيف يثير في شعبه أشدَّ أنواع الشغف والهوى. إن أجداده الذين نمُّوا في السومريين شغف الحضارة، سيطروا على

الساميين. وحمورابي، مؤسس بابل العظيم، عرف كيف يشيد مجد ملكه على الشغف الشديد بالعدالة والحق، إلى أن أتى يوم، حوّل فيه الشغف المرعب بالحرب في نينوى، مجرى العالم، وقد دام ذلك ثلاثة قرون تحت وصاية شرسة. لكن الشوق الشديد إلى الاستقلال، رفع بابل وأسقط نينوى.

فأي هوى باستطاعة نبوخذنصر أن يثيره الآن في قلوب رعاياه، كي يسخرهم من أجل طموحاته؟ وكيف يمكنه أن يبرر في أعينهم التضحيات الجمة التي يتطلبها الفاتح لتخفيف أحلامه، وهم أصحاب نفوس واقعية؟ إن الأعذار التي سيقدمها نبوخذنصر لممارسة قوته، سيبررها بالضرورات الاقتصادية. وحب المغامرة وراء الصفقات، حب كامن بصورة دائمة في قلوب البابليين، لذا سيستهويهم الأمر ويلبون النداء.

ولما لم يعد بالإمكان حتى تمييز تلك الحلقة السماوية الرحبة في ذلك الامتداد الفضائي اللامحدود، حثَّ نبوخذنصر جياد عربته على متابعة السير. لكن موجة من الحزن اجتاحت كيانه عندما ثبت لديه بأن مصير الأهواء كلها إلى زوال، وأن الرغبة في خوض المعارك التي تشفي الغليل وحسب، مصيرها الفتور والخمود أكثر من غيرها بعد شفاء الغليل. وكم بدت في نظره أكثر عمقاً وأكثر استقراراً، تلك الرغبة التي جعلت التمثال المصري الجبار مستمراً، رغم الجميع، في ثباته واستقراره السنيّ منذ ألفين وثمنماية سنة. فهذه الرغبة الملحاحة لم تتحقق إلا بدافع الإيمان أن هناك متعة لا حدَّ لها، جعلت المصري يصبو إلى هدف أساسي في حياته، ألا وهو بناء قبر له يكون «بيت راحته» حيث سيستمرُّ فيه، وفي مأمن من التقلبات البشرية، متمتعاً بحياة بشرية ثابتة في ركنه الأكثر سعادة!

وهنا انتفض نبوخذنصر متمرداً. فهو بعد النهاية المحتومة للأعمال البشرية العظيمة، يريد أن تجد إرادته في القوة والسلطان، شكلاً جديداً من التمجيد والتعظيم. فالأمبراطوريات قد تزول، لكن مجد الرجال الذين صنعوها سيبقى!

وشعبه قد يخضع في يوم من الأيام إلى سيد أقوى منه، لكنه سيبقى الآلة التي سبق لها أن صنعت مجده هو، نبوخذنصر. وكيفما اتَّجه وسار هذا السيد، سيجد القرميد والحجارة تروي للأجيال المقبلة: « أنا نبوخذنصر، ملك بابل! ما لم يحققه أي ملك سابق، قد حققته أنا !».

ثم توقفت جياد العربة الملكية بعد أن استنفدت قواها، وأخذت بعض الأشكال تتحرك وتهتز في المكان الظليل. فالخيمة التي كانت تأوي نبوخذنصر أمام قلعة بيلوز في الصباح، قد انتصبت وسط المساحة الشاسعة من الرمال، وجعلها الظل أكثر رهبة مما كانت عليه!

وفجأة، ارتمى ضوء مشعّ على الأنسجة الكتانية الناعمة، رافقه تألق غريب غامض. «إنه ضوء الإله القمر»، وقد برزت كرته الفضية الجلية في السماء ذات الزرقة الغامقة، فرسمت على اليابسة ظلالاً خفيفة بأشكال طيفية، امتزج فيها البياض بقساوة الملامح وصلابها. لقد برز بوضوح ظل نبوخذنصر أمام خيمته كتمثال جبار وصلب! فهل نُقش رسمه آنذاك ليبقى خالداً إلى الأبد؟

لا، فالوقت لم يحن بعد، ولن يكون ذلك قبل أن تصبح أحلامه حقيقة صارخة: «نبوخذنصر، ملك بابل، أنا!».

ثـمَّ هـبَّ النسيـم، فتحـول المظهـر الجـانبـي لنبـوخـذنصـر علـى النسيـج المتحرك، إلى ظل غامض الملامح. . .

*

وما أن أصبح الليل في هزيعه الأخير، حتى أُثقل الجو فجأة بضجيج الحياة. فمن تحت عجلات عربة نبوخذنصر وخطوات جياده، كانت تنبعث رنات متباينة النغمات. وكانت الطبقة الجصَّة من الأرض، مشبعة بملوحة البحر، والقار السائل هنا وهناك يبسط بقعاً سوداء لامعة. والطريق المرسوم مستقيماً عبر رمول الصحراء، غدا طريقاً متعرجاً وسط السهول الكنعانية الشاسعة والمزروعة

بالشعير، وظهرت النباتات للعيان، ومنها النباتات الكثيفة الورق، كالسرمقيات، والقرنيات ذوات الروائح العطرية. والحيوانات والطيور تكاثرت جماعاتها حتى غدت أليفة تقريباً، كالبجع، وديكة الخلنج، والحمير الوحشية، والنعائم، وسواها...

وعمرت الأرياف بالناشطين من البشر. ففي كل مكان، انكبَّ الأشخاص البادون كالأشباح عند انبلاج الفجر، على طول خطوط الممرات التي لا عدَّ لها، والتي كانت تمتدُّ بعيداً في الأراضي الخصبة المعطاء، يعملون فيها نكشاً وتثليماً بهمة وعزيمة لا تقهران.

ولما لم تعد الصحراء العربية في عمق الأفق سوى خط وردي باهت لا يدرك، تفحَّص نبوخذنصر بنظره القلق، السهل الأخضر الزاخر بالحركة، فاندهش من هذه التجزئة للأرض، ومن هذه الزحمة للحياة فيها. وبدا له السهل الأخضر بعد المساحة الصحراوية غير المحدودة القياس، أصغر من أن يحقق أحلامه وطموحاته!

وعندما برزت شمس ذلك النهار، كانت مياه نهري دجلة والفرات تجري ملتمعة، فيبدو معها النهران وكأنهما حيَّتان كبيرتان! وعند ملتقاهما، كانت هناك كتلة هائلة قاتمة، تنتصب بقببها وأبراجها ومرامي السهام فيها، إنها بابل العظيمة! وعلى القمم الميدية قبالتها، كانت تربض مدينة أكباتان، عاصمة سياكسار، وكأنها تنظر إليها بعين الغيرة من مجدها. وإلى جنوبي بابل، كان بحر ما رَّاتو الكبير (الخليج العربي)، يمدُّ نحوها شواطئه المتقوسة، كتلك الصدفة الضخمة التي تزعم الأساطير بأن آلهة البحر كانوا يصنعون منها بوقاً لينفخوا فيه!

على تلك الشواطىء في بلاد السومريين، ثبَّت جبليون أقدامهم منذ الفجر الأول للعالم. وهؤلاء الجبليون ذوو الرؤوس الضخمة المستديرة والأجسام العريضة الربعة، جاؤوا من أرمينيا، وأثبتوا مهارتهم وعنادهم في الأعمال الإنشائية، إذ كانوا فلاحين خبيرين، وحدادين ذوي معرفة بالمعادن، وجنوداً

متغطرسين، فحملوا إلى هذه البقعة من الأرض، أولى بذور الحضارة العالمية.

وما زالت مدنهم القديمة: لاغاش، وأوروك، وأريدو، وأور، قائمة حتى اليوم. فالكلدانيون تغلبوا عليهم، لكنهم استمدوا من حضارتهم، الصفات التي جعلت منهم اليوم « الشعب الشرس والعنيف، الشعب المنتشر على أديم الأرض، والذي ينشأ ولا يقبل النصيحة إلا من ذاته ».

بالإضافة إلى ذلك، ففي الشمال، احتفظت أيضاً بلاد أكَّاد، المهد الآخر للعرب والسوريين من أصل كلداني، بمدنها القديمة مثل، كيش وأغادية، الشاهدتين على ماضٍ مثقل بالمجد منذ ألوف السنين.

ومع أن هذا الإطار الضيق لتلك المشاهد الطبيعية، كان مطبوعاً بالرتابة التافهة والخالية من العظمة، فقد اكتشف فيه نبوخذنصر تفوُّق أصله وتاريخه. فهذه المدن التاريخية كلها لسومر وأكَّاد، كانت قد أعطت العالم المتوحش أول نموذج لمملكة يراعى فيها القانون وتمارس فيها السلطة بأسلوب متطور، واستمرت هذه المدن تتنازع وتتقاسم التفوق حتى العام ٢٢٢٥ قبل المسيح، وهو التاريخ الذي تمكن فيه سومو - أبوم، ملك بابل، من جمع سومر وأكَّاد تحت صولجانه، مما أتاح لبابل أن تتألق بكل سنائها وجلالها. فحمورابي الذي كان أشهر ملوكها، وقد دام ملكه من العام ٢١٢٣ حتى العام ٢٠٨٠ قبل المسيح، أملى على العالم شرعته، وقد تبنَّت مصر ذاتها هذه الشرعة. لكن القوة انتصرت على القانون! ففي العام ١٢٧٠ قبل المسيح، افتتح تغلاتفلاسَّار، ملك أشور، كل بلاد الكلدانيين، وأُخضعت بابل لتسلط نينوى الفظ والقاسي، لمدة سبعة قرون كاملة.

إلا أن القواعد القانونية والإدارية التي أعطاها حمورابي لشعبه، كانت من القوة بحيث أبقت لبابل نفوذها السياسي، وجعلتها المنطلق المهيء للسيطرة وبسط السلطان في المستقبل. ويرجع لنبوخذنصر الأول، جدّ نبوخذنصر الثاني موضوع هذا الكتاب والوحيد الذي يحمل اسمه، المجد والفخر في العام ١١٥٠

قبل المسيح، عندما تجرأ على العصيان، وقاد النضال الشرس في سبيل الاستقلال.

وبعده في العام ٧٢١، كان ماروداخ بالادان، بطل تلك الحقبة المأساوية. إذ بقي طيلة ستين سنة، الخصم العنيد لسنحريب الذي اغتصب عرش أجداده. وبعد أن مات ماروداخ بالادان، أكمل النضال بخيارات مختلفة، ولداه: « نابوزير ـ كيفيشليشير »، و « نا ـ إيد ـ مردوك »، وتعاون ابنه الصغير « نابوبيلزيكري » تعاوناً وثيقاً ضدَّ نينوى، مع ملوك عيلام. لكنه انهزم وعوقبت بابل بقساوة. فقد عيَّن أسرحدُّون، ملك أشور، نائباً للملك عليها، هو شمش شوموكين، فحكم المدينة بقبضة من حديد، لكنه أعاد إليها روعتها وبهاءَها. وجاء يوم، اعتقد فيه شمش شوموكين أنه أصبح من القوة بحيث يمكنه أن يعلن استقلاليته كملك على بابل، فحاصره أسرحدُّون في عاصمته، وأسره ونفَّذ فيه حكم الإعدام، ونهب بابل، وأمعن فيها تخريباً وتدميراً حتى قلبها رأساً على عقب، وكان ذلك في العام ٦٥٠ قبل المسيح.

بعد ذاك، عيَّن أشوربنيبال، نائب ملك أشور، نبوبولاصر، والد نبوخذنصر، حاكماً على المدينة، فلم يغير نبوبلاصر إتجاه العمل نحو الإنقاذ رغم الإخفاق وخيبة الأمل. ولكن بفضل مهارته الدبلوماسية التي أمَّنت له التحالفات الضرورية، وبفضل النضال المستمر وغير المنقطع، عرف كيف يصل ببابل إلى النهاية السعيدة. وعندما تمَّ سقوط نينوى في العام ٦١٢، هذا السقوط الذي كانت تعمل له بابل منذ سبعة قرون، كرَّس هذا السقوط مجده.

وها هو نبوخذنصر اليوم، يعتقد بأنه يتوجب عليه، بعد إظهار نفسه بأنه خير خلف لأجداده الكلدانيين الشجعان، أن يتمِّم مجهوداتهم الباسلة. فقوته ستعجل في قدوم اليوم البهيّ الذي سيرى فيه بابل تسطع وحدها على العالم بأسره في عهد مجدها.

وكما يغيّر الزخرف الأشياء، هكذا تغيرت الرتابة اللامتناهية لتلك الأرياف. فتحول المنظر إلى حديقة تخلب الألباب! حديقة امتدت تحت الاخضرار الأزرق البديع لبساتين النخل التي كانت سعفها تتمايل فوق جذوعها الطويلة الرخصة، وبين أشجار الطرفاء، والنخيل، والقصب، والأزهار، حيث خرير المياه في كل مكان. فالقنوات كانت تتقاطع، وتعرجاتها ترصِّع البحيرات ذات المياه الراكدة، كما يرصِّع الصاغة المصوغات بالأحجار الكريمة المتلألئة، وذلك بفضل نهري دجلة والفرات العابرين السهل في تمهل وبطء. . .

فأسكرت نبوخذنصر هذه المناظر الطبيعية المشبعة بالنداوة، وهذه المياه الصافية الجارية التي رصَّعت الريف كله بالأثلام اللازوردية، وبالألوان الفضية والذهبية المتناعسة في الأحواض الاصطناعية الصغيرة.

ولعب النور المسحور بهذه المرايا اللامحدودة، دور حوريات الجمال، فبدا الجو المشبع به كله مشعاً، مما أتاح الرؤية الواضحة إلى البعيد. ومن كل زوايا الأفق، غزت أشعة الشمس الزاكورات المقدسة العالية، فبرز بوضوح تقطع طبقاتها المتعددة الألوان فوق المدن، وكأنها من تصورات الوهم والخيال!! لقد كانت هذه العمارات هي الأولى التي شادها البشر تكريماً لآلهتهم، وكرمز لإيمانهم والتماساتهم. وحضارة العالم الأولى ازدهرت في حماية شفاعتها، وقد وَقَت هذه الحماية المكتبات الشهيرة التي بفضلها عرف العلم الكلداني منذ قرون أن يجمع كل ما استطاعت المعارف البشرية أن تعلنه من يقين، في حل مشاكل الكون والأسرار المغلقة لدوافع ونهايات المصير البشري.

وفجأة، لم يعد نبوخذنصر يرى شيئاً. . . فعيناه تسمَّرتا على السور العالي الذي، بقدر ما كان يقترب منه، كان يظهر أكثر وقاراً في ارتفاعه نحو السماء بأبراجه المثالية ومرامي السهام فيه! وبدت بابل معلقة في السماء كالسديم المتصلب البراق!

فهل وراء هذين السورين، عرف نيرغالوزور أن يصون العرش العائد لنبوخذنصر، من الدسائس والأطماع؟ أم أنه رأى في أخيه اليافع نبوشومليشير، الشخص الأنسب والأنفع والأكثر أهلية لأن يرث العرش؟ ولكن لا، فعاصمة أجداد نبوخذنصر تنتظره، وهي لن تجد من هو أفضل منه للدفاع عنها. فهو سيخضع الفرات، « نهر منطقة النور »، لحاجات الدفاع هذه، لأنه يحلم بتكملة الشبكة الواقية لقنواته التي لا عدَّ ولا حصر لها، فيصبح النهر عندئذ، علاوة على ذلك، عنصراً لا مثيل له للثروة والحياة.

فبدافع من حبه العظيم لهذه المدينة التي كانت موضع فخره واعتزازه وأمل طموحه، وعدها بأن يجعلها حصناً منيعاً ومدينة خالدة:

« كي أرسخ تحصينات بابل، كما لم يفعل أي ملك سابق، سأحيط المدينة من الشرق بسور كبير على مرتفع من التراب المردوم يبلغ طوله أربعة آلاف ذراع، ويمتد من الضفة العليا للفرات حتى الضفة السفلى، وسأعمق مجرى النهر وأدعِّمه بالملاط والقرميد. وسأرفع على حافته جداراً كالجبل من القرميد والملاط، وأُشيد له بوابات ضخمة مرتبطة بمصاريع من خشب الأرز الذي سأكسوه بالنحاس. لكن ذلك لن يكون كافياً. ففي ضاحية بابل، من ضِفَّة الفرات حتى قناة أرحتو، سأرفع ردماً من التراب؛ وسأحيط المدينة بالمياه الجارية كي أقوِّي تحصينها. وسأهتم أيضاً بإقامة ردم آخر من التراب على مسافة أربعة عشر « كيسكلجيت »، وذلك فوق « أور »، قرب « سيبار »، ومن ضفّة نهر دجلة حتى ضفَّة نهر الفرات. وهناك أيضاً ستحيط المياه بالمدينة مثل أمواج البحر، وسأمكِّن الردم بالملاط والقرميد كي لا تقوِّضه المياه. وهكذا تصبح حياة الشعب سعيدة في بابل. . . ».

بعد هذا الوعد، تباطأ نبوخذنصر في سيره بصورة لاشعورية. فهل كان الهدف هناك، مرتفعاً على ربوة من التراب الاصطناعي المشاد منذ أزمنة غابرة غامضة؟ أي مجهول تنغلق عليه هذه المدينة الداكنة القائمة تحت السماء

الصافية، ووراء الشرفات في أسوارها؟ لم يكن الملك يرى سوى هذه الكتلة الرابضة بغموض عجيب في الدائرة الفسيحة من السهل الذي ينتج الغلال اللامحدودة من الشعير والحنطة. ومع ذلك، كانت الأزهار المخملية ترسم بأشكال مختلفة، وبغنى ألوانها المدهشة، زخارف بديعة تشبه الزخارف العربية. وعلى حفافي الطرقات، كانت هذه الأزهار الملزوزة إلى بعضها، كأنها تحيك بألوانها المتعددة قلادات للجياد مبرقشة بالأصفر والوردي والأزرق من الألوان!!

وكان نبوخذنصر كلما اقترب من الزخرف المدهش المعبر عن القوة والعظمة، ازداد شعوراً بهشاشة هذه العظمة وبؤسها. فهذه الأكوام الهائلة من القرميد أخذت تتفكك وتتساقط وبدت في الأسوار كوات فارغة، وارتسمت على القنوات سحابات طويلة ضاربة إلى السواد، لم يُعرف عما إذا كانت ناتجة عن التدفق المقزز للأقذار وبقايا الأشياء، أو بسبب القار الذي كانوا يملطون به القرميد المنهار. فانبثق من بين شفتي نبوخذنصر القسم التالي:

« إن إيمغور - بعل ونيميتي - بعل، السورين العظيمين لبابل، اللذين بدأ بهما نبوبولاصر، ملك بابل الذي أنجبني، ولكنه لم يكمل بهاءهما. أنا، ابنه البكر، الذي يمجد قلبه، سوف أكمل إيمغور - بعل ونيميتي - بعل، السورين العظيمين لبابل ».

وخلف السور العظيم الذي يبلغ طول جهته المنغلقة على المضلّع الرباعي الفسيح الذي هو بابل، مئة وعشرين غلوة، والذي تنتصب على جوانبه الأبراج العريضة المربعة التي يتجاوز علوُّها صفَّ الشرفات بخمسة أمتار، سور ثانٍ شبيه بالأول لكنه يعلوه، هو برج نيميتي - بعل الذي يُرى الآن وقد برز فوقه، وسط قباب النحاس لأربعة وخمسين معبداً، الارتقاء المدوَّخ لاثنتين من الزاكورات المقدسة. الأولى ساطعة بألوانها الفاقعة التي يغلب عليها اللونان الأحمر والذهبي المتوهجان نحو السماء الزرقاء المتلألئة، وهي الهرم الذي فيه الإله بعل مردوك، مدبّر العالم، يستريح منذ بدء الأزمنة، وفيه يأمل نبوخذنصر أن يتسلم

بعد قليل التكليف الملكي بتولية العرش، وذلك في المصلّى الواطىء لمعبد إيزاجيل الذي ينتصب إلى جانب الزاكورة المذكورة.

أما الزاكورة الثانية، فهي البرج الأثري لبورسيبا الخفيف البريق بأشيائه القديمة، وقد احتفظ تحت النور الساطع، بسكون مهيب، وعزلة غريبة تدعو إلى التأمل والخشوع والحلم. وإلى هناك، سيذهب نبوخذنصر هذا المساء لاستشارة الكواكب.

وبدا السوران كأنما يقتربان ويرتفعان أكثر فأكثر بواجهتيهما القاتمتين بالنسبة لألق القباب والأبراج. ولم يعد هناك سوى خندق فسيح عميق يفصل بين نبوخذنصر وواحدة من تلك البوابات المئة ذات المصاريع البرونزية التي تتيح له الولوج إلى عاصمته. فدخل في رواق طويل يقوم على حراسته ثوران ضخمان من النحاس، وعدة تماثيل لأبي الهول برؤوس حيات، كان طول الواحد منها بسماكة الجدار. وفي العتمة، كانت زمر الجنود تجلس جانبياً لتستريح، بانتظار أن تنتهي نوبة حراستهم فيستبدلون بحراس آخرين من قبل أولئك الذين يقومون بدورية تفتيشية على الطريق التي تمتد إلى مساحة طويلة فوق السورين بعرض قدره عشرون متراً.

وفي الجهة الثانية لهذين السورين، يبدو المشهد كذلك أكثر بريقاً مما هو متوقع. فالريف مكسوّ بمعطف ناعم أخضر من سنابل القمح والشعير، ومسوَّر بأشجار النخل التي ينبعث من سعفها حفيف ناعم، ومزخرف بالأزهار المتنوعة وقطعان الماشية الموزعة على امتداده.

وفي أيام الحصار الشاقة والصعبة، يؤمن هذا السهل للبابليين المؤن والموارد المتنوعة. وقديماً كانت الأحياء الآهلة بالسكان في مدينة الحلة، تقدم للملك، وكأنها تقدم عرضاً مسرحياً، مشهد انهماك سكان هذه الأحياء في صناعة القطن، وتجارة الخفافيش المصبَّرة. وكان السور الرهيب، سور نيميتي ـ بعل،

يبسط عليها ظله الكثيف، بجدرانه العالية المصنوعة من القرميد الأصفر اللون، والمؤزَّر بالقار الأسود، الذي يشهد بتفتُّته على كل نكبات الزمان والبشر.

وأخيراً لم يبق سوى ممرٍّ واحد، هو الدهليز القرنيُّ الطويل الذي يقع تحت طريق العسس، كي يلمح نبوخذنصر متاهة الشوارع وسط تكوُّم البيوت والهياكل العائدة إلى كل العصور، والمتنوعة الأشكال والمظاهر. فما أن عبر هذا الممرّ، حتى هرعت إليه جموع الناس تعفّر الجبين بين يديه، فتأكد له بأن العرش الذي أُولي إليه ما زال محفوظاً. ثم التهبت هذه الجموع حماسة وأخذت تدفع بعربته إلى الأمام، حتى وصلت وإياه إلى بوابة أخرى ضخمة من البرونز، كانت مصاريعها الكبيرة مفتوحة. فوقف عندها نبوخذنصر يرنو إلى الجريان الساكن وغير المنظور لنهر الفرات، ثم غاب في النفق الشهير الذي شقَّه والده تحت النهر...

وكانت طريق الجسر الكبير طويلة، فعبرها نبوخذنصر ببطء وفي جو مشبع بالرطوبة، لم يتح للمشاعل أن ترسل سوى نور ضئيل مخنوق. وقد اضطرَّ أن ينحني تحت قباب القرميد المشوي الذي كانت طبقات من القار سماكتها أربعة أذرع تقيها من المياه، وذلك لأن علوَّ هذه القباب لم يكن يتجاوز الأحد عشر قدماً، وعلى امتداد مئة وعشرين متراً.

وبعد أن اجتاز هذا النفق، برز له نور النهار بشحّ وتقتير من خلال بوابة برونزية جديدة. وكانت هذه البوابة تفضي إلى درج عمودي، فصعده نبوخذنصر ليقف بعد دقائق منتصباً بقامته المشيقة في البهو القديم لقصر ملوك بابل... ذلك القصر الذي نُهب ودُمِّر عدة مرات منذ عهد حمورابي. لكن نبوخذنصر، وقد أصبح الآن سيد هذا القصر، سيجعله مركز اقتطاب العالم!

في هذا الوقت، تركت قافلة طويلة مدينة بيلوز، لتسير باتجاه الشمال. والتفتت التعيسة نيتوكريس إلى الوراء لتلقي نظرة وداع حزينة وأخيرة على أرض

مصر الطيبة، لأنها لن ترى بعد الآن أرض اللهو والمرح والضحك هذه التي يطيب العيش عليها وتبتهج النفس، والتي عرفت الأبدية ذاتها كيف تدَّخرها إلى ما بعد الحياة، للذين عرفوا كيف يتذوقون طعمها على هذه البسيطة.

وفي القصر الداكن الذي احتضنته بابل وراء أسوارها الحربية العالية، كان سرير الفاتح بانتظاره...

المصافحة الإلهية

وبعد استراحة في القصر الملكي دامت عدة ساعات. حضر نبوخذنصر إلى بوابة المدينة الملكية المفتوحة على مداها الواسع. وعند طرف الظل الكثيف وقفت جياد العربة الملكية من تلقائها، وقد خطف بريقها الأبصار على حين غفلة. فالجلاجل على أوراكها كانت تختلط بالشراريب اللؤلؤية البلوطية الشكل، وبالزركشات المتعددة الألوان، وتطلق رنينها، فيما كانت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال رياش القنابر الثلاثية العفرات التي كانت تزين رؤوس لجمها الموشاة بنجميات وردية اللون.

وفي سحر الفتنة والبهاء هذا، محلة بكاملها في بابل، هي محلة « جلاب »، كان الشؤم والشقاء مخيمين عليها بشكل واضح، وكانت الشمس تنشر أشعتها الوهاجة على السقوف الصغيرة المخروطية الشكل أو المسطحة، والقائمة على جدران من الطين والقصب الملزوز إلى بعضه البعض وكأنها تريد أن تخفي خرابها، إذ كان الفقر يلف البيوت بالتساوي ويشدها إلى بعضها البعض. ووسط هذا الرسم التكوُّمي لتلك البيوت، انسابت متعرجة أزقة محصبة تتداخل فيها القباب القاتمة والمنعطفات المزدحمة بطبقة من البشر تتسربل القذارة وترسم صورة معبرة عن بؤسها وشقائها.

وكانت هناك أسراب من الغربان وقطعان من الكلاب الشاردة في هذه الأزقة، تتنازع فيما بينها، عضاً بالأنياب ونقراً بالمناقير كوم الأقذار المنشرة في كل مكان. وقد انفتحت المصاريع المخلعة للأبواب الواطئة والمقوسة في الممرات والدهاليز النتنة الواقعة في عمق ساحة مظلمة، وأُخرجت من الغرف

الصغيرة المستطيلة الحصر والأغطية لتنظف مما علق بها من طفيليات وتُطهر بالدخان المتصاعد من أفران الخبز. ولكن ما جدوى الشفقة التي تثيرها الفاقة والروائح النتنة المجسدة في هؤلاء الرعاع، وهم حثالة العبيد الرحالة، والمنفيون الذين لا يحق لهم أن يعرفوا إلا عذابات الموت؟! إن شقاءهم هو الفدية العادلة لمجد بابل وعزِّها! ولا همَّ إن كان عملهم في الأشغال الشاقة لا يترك لهم سوى أمل الموت، ما دام هذا العمل يتيح لهم إقامة النصب التذكارية الخالدة، وتنفيذ الأعمال الجليلة التي تشهد على شكران الملك والشعب البابلي لآلهتهما، وعلى انتصاراتهما ورفاهية المملكة المتعاظمة!

وبفرح وتصميم، استدار نبوخذنصر إلى اليمين، إلى حيث باب عشتار المشاد من التكدس الهائل للقرميد المشوي. والذي كان بحد ذاته قلعة تشرف على المدينة القديمة، حيث العجاج في الظل النديّ من ساحاتها المغلقة، تغذيه بصورة دائمة المداخل الثلاثة التي تخترقها. ومن دون قصد منه، رفع عينيه ونظر بافتتان إلى ما توحيه الأسوار المغراء من قساوة شرسة، فثبت لديه بأنه مع ذلك وفيما غبر، قد هاجم الآشوريون وتقلبات الجو وعوامل الطبيعة هذا الباب الجبار، فتلفظ فمه الملكي بهذا الأمر الذي دوّنه أحد الكتبة، والذي يعد فيه نبوخذنصر بترميم وتجميل الباب الحربي!

« نبوخذنصر، ملك بابل، ابن نبوبولاصر، ملك بابل أنا! سوف أشيّد باب نانا (اسم لعشتار) بالقرميد المطليّ بالميناء الأزرق من أجل مردوك سيدي. وسأضع على عتبات الأبواب ثيراناً قوية من النحاس، وحيات جبارة! ».

وشاء نبوخذنصر أن تكون الأبراج أكثر ارتفاعاً وأكثر سماكة، فتمثلت على الواجهات المقابلة للمدينة، بواسطة القرميد المشويّ والقرميد المطليّ بالميناء، وبشكل نافر ومنبسط أحياناً، تنانين مردوك وثيران حدد، وذلك في صفوف متحاذية ومتراكبة.

ومن الجانب الآخر للباب، امتدت الطريق المقدسة كجادّة مستقيمة، وانبسطت على التراب البلاطات الكبيرة المصنوعة من الكلس الأصهب المملط

بالقار. وكان البعض منها منفصلاً، ومقاوماً للأشعة المحرقة التي نشرتها الشمس على الألوان الخفيفة للقرميد المطلي بالميناء الذي يغطي الجدران العالية. فبدت هذه الطريق لنبوخذنصر كأنها سَكْب من الذهب سيوصله إلى مجازه المشعّ في الشواطىء الصخرية السماوية.

واختفت وراء الملك المحلة البائسة التي منها انبثقت عبر قوس الباب رؤية مفاجئة حملت الجياد على التردد... فالجدار كان عالياً جداً إزاء الأكواخ والمساكن المتداعية والواطئة جداً، مما لم يعد هناك مجال لأن يكتشف المرء شيئاً من هذه المناظر المقززة والزاخرة بالحركة. وانتصبت القلعة إلى اليمين، متوجة كلها بالأبراج ومرامي السهام.

وعلى طول الأسوار التي تتوالى عليها الأبراج، انتصبت الأسود بالحفر البارز، البعض منها أبيض اللون أصفر العُفْرات، والبعض الآخر أصفر اللون أحمر العُفْرات، وكلها مدهشة بأشداقها الفاغرة وأنيابها الحادة، وقد أُتلفت منذ القدم. فالخطوط المنظورة للأسوار الزرقاء، تقود موكبها المرعش والجامد في الحجر حتى الخط الأزرق للفرات.

وإلى الشمال، تدرك ضوضاء صمَّاء في هدير المياه التي يتصورها المرء جارية بين الجدران القرميدية العالية، وفي ضجة المجاذيف، وأغاني وصرخات ربابنة الزوارق... وفي كل الحياة المغلقة لقناة آرحتو، الشريان التجاري الأساسي للعاصمة.

ووراء هذه القناة، كانت هناك منطقة تنعم بالهدوء والرصانة، ويتألق البهاء في قصورها المتتابعة التي تتشابك شرفاتها وحدائقها المعلقة. وترتفع أكثر من هذه القصور، قباب الهياكل والأبراج التي تناطح السحاب، ويلتمع فيها القرميد المطليّ بالميناء راسماً عليها صورة بديعة، جعلت حتى العشب الأخضر مبهجاً ومفرحاً. إنها مدينة حمورابي التي أصبحت الحي الأنيق لبابل، أي « المركاز »، حيث يقطن أصحاب الرتب العالية وكبار الموظفين في المملكة.

لكن نبوخذنصر انخطف بنظره الآن إلى اليمين، حيث ترتفع عند السماء الزاكورة التي تمثل الشكل الهندسي المتجاوز الحد في الضخامة والعظمة، لدرجة أنها كانت تثير الرعب في ذلك الماضي السحيق، إذ إن هذا الهرم المقدس الذي يغفو فيه إلى الأبد ومنذ الأزل الإله بعل، خالق ومدبِّر هذا العالم، يبدو وكأنه قطعة من السماء! فالمسطحات والألوان في هذا المعبد، تتسامى نحو السماء كأنها موجات من الحجارة الصلبة التي لا تتزعزع. وفي عتمته الهائلة، تغوص في أساسات الهرم مجموعة من الهياكل الصغيرة لآلهة تنتسب إلى الإله الأعلى.

وعلى بعدٍ قليل منها، يقوم هيكل إيزاجيل، أو بعل - مردوك، المكسوّ بالصفائح الذهبية، وهو العمل الأول للخلق الإلهي: « عندما لم تكن أية قصبة قد نبتت، وأية شجرة قد كبرت، وأية مدينة قد شُيِّدت، وأي تجمع بشري قد تكوَّن، كان إيزاجيل قد ارتفع وسط المحيط، على حصيرة الصفصاف التي جدلها مردوك على وجه المياه ».

ومن « أريدو » نقله حمورابي إلى بابل حيث كل القادة الكبار والملوك المشهورين جاؤوا إليه يسعون، من خلال التنصيب الإلهي، تتويج انتصاراتهم، وإحاطة ماثرهم وأعمالهم الباهرة بهالة من التقديس. فكان هناك دونجي ملك أور، الذي لم يخش أن يعرِّض كنوزه للسلب في العام ٢٤٠٠ قبل المسيح. فالملك كاشّيت آغوم كاكريما، الذي خصص كتابة في العام ١٧٠٠ لما قام به من تجميل في المعبد المذكور. فملك آشور شلمنصَّر الثاني الذي، حوالى العام ٨٦٠، دخل إلى بابل كفاتح، لكنه أغنى بتقدماته هيكل بعل - مردوك. فملك بابل، ماروداخ بالادان الثاني. فملك آشور سنحريب. ثم أسرحدون وأشوربنيبال. وكلهم أظهروا سخاءهم وأريحيتهم في ترميم وتجميل إيزاجيل، بيت القمة المرتفعة.

ونبوخذنصر يعرف بأن والده، نبوبولاصر، قد عاهد نفسه بأن يعمل لإيزاجيل أفضل مما عمله الآخرون. لكنه هو، من سيضع آخر خاتم على

الأعمال التي قام بها كبار الأسلاف عرفاناً بالجميل، كي تشهد فخامة هيكل الإله الذي سيولِّيه الملك، وعبر العصور، على عظمة وبهاء مملكة لا يساور طموحه فيها أي يشك. . .

*

فوق التمايل اللطيف لسعف النخل، ارتفعت بفخامة وعظمة وصلابة جدران إيزاجيل، التي كانت منذ قرون محط شهوات ومطامع الكثيرين. وحتى القمة، تصاعدت الشرفات بارزة ومتقطعة نحو السماء الزرقاء، وبشكل لولب درجي، كأنها تشق الطريق السماوية وتقود نحو الأبدية.

وكانت الجدران العالية ذات الحجارة المخروطة التي تشكل سوراً مستطيلاً يبلغ طوله تسعماية وستين متراً وعرضه ثلاثماية وستين متراً، محاطة بالساحات الفسيحة، وبالحقول والبساتين الوافرة العطرة المغروسة بأشجار النخيل المتحركة رؤوسها كالمباخر. وعلى الأسوار تتوالى الأبراج بكواتها العريضة التي كان القرميد المطليُّ بالميناء يزينها ويعرض صورة بديعة للفسيفساء المتعددة الألوان، المتقطعة بالأعمدة المستطيلة الناتئة بعض الشيء، والمزخرفة بالأضلاع الجميلة.

هذا الجدار المرتفع كان يعزل مدينة الآلهة، فتبدو بمأمن من تقلبات الدهر والأحوال، لا يستطيع الخيلاء البشري أن يعكر صفو الصلوات فيها. إنها مربَّع سماوي محاط بأسوار عالية فوق أشجار النخيل والقباب، كأحد الأحجار الكريمة المرصَّع بالتسنن الأحمر للفتحات والشرفات.

لمح نبوخذنصر العديد من الشخصيات في الحقول والبساتين، وقد دلت أثوابهم المغضنة، وقلنسواتهم ذات الزوايا المعدنية، وعقد الشريط العريضة المتدلية على أقذلتهم، على صفتهم الكهنوتية. وقد كانوا يروحون ويجيئون في تمايل قليل كأنهم يرنمون الترانيم الدينية، فتأثر نبوخذنصر بما تعبر عنه وجوههم المختلفة، التي تشهد على تجندهم الكهنوتي الشامل كل أنحاء المملكة. إن بعل

مردوك قد صاغهم في قالب واحد، وربط طموحاتهم بطموحاته، فضمن بذلك تلاحم وقوة المملكة.

أوقف نبوخذنصر عربته أمام درج عريض يفضي إلى المصطبة الرئيسية للمدينة، .تلك المصطبة الرحبة التي كل ضلع من أضلاعها يتكون من ألفٍ ومئتي قرميدة، وتبدو رابضة في آخره الكتلة الصاعدة لكيغال وأتامييننكي، كأنما المقصود بذلك البعد إبراز علو المداميك التي لا مثيل لها.

ومن على هذه المصطبة الكبيرة، استعرض الملك مختلف المعابد، ومختلف الأروقة والأبواب. ولم يكن باستطاعة مخيلة الكهنة الشبان الذين يتثقفون ويتدربون هنا، أن تتفلت من هدوء وصفاء هذه الساحة العظيمة، المكونة فخامتها الوحيدة من الخطوط الهندسية البسيطة جداً، والمسننة بالقرميد المطليّ بالمينا، « التي كانت تلتمع تحت أشعة الشمس ببريق سماويّ ». وكانت الحجرات الضيقة المستندة إلى جدران السور، توضع بتصرف المؤمنين كمنازل مفتوحة للقوافل الإلهية. وفي العمق، على سطح آخر، يقوم معبد مردوك الذي يزين السماء بقبته الذهبية.

في باحة هذا المعبد، احتشد موكب من الكهنة ينتظر نبوخذنصر. وكان التقشف بادياً عليهم بما ارتدوه من ألبسة متواضعة تغطي أعلى العنق، وقد مطّوا نحو الأمير الشاب رقابهم النحيلة، وارتسم القلق والفضول على وجوههم المتعبة. وقد تقدم هذا الحشد من الكهنة، بصفته رئيس مجمعهم والكاهن الأكبر الذي تضاهي قراراته في بابل قرارات الملك، نيرغالوروصر، الذي عرف كيف يقي التاج من المطامع والدسائس التي حيكت لإقصاء الوريث الشرعي عن العرش. فهل سيعرف ذلك اليافع الذي برغم صغر سنه، ترتسم على جبين وجهه الفتيّ والجميل غضون الكبرياء الشرسة، ويثقل الانقباض الطوعي فكّه، أن يظهر جدارته وعرفان جميله تجاه إلهه وكهنته؟

لقد أدرك نبوخذنصر بنظرة واحدة كل ما باستطاعته الحصول عليه في إلهه، إذا ما تملقه. وإذا ما خدمه وأغدق عليه وعلى هياكله الثروات، وذلك

بواسطة هذا الرجل، نيرغالوروصر، الذي تعبّر نظرات وجهه كم هو مرعب ومخيف هذا الكهنوت الذي يمارسه، كي يبقى حياً بين الشعب ذلك الإيمان الوطيد وتلك اللامبالاة المطلقة الهادئة، وكي تنعم الأنفس بالسلام، فيفسح ذلك في المجال لحكم الأقوياء!

ووراء الكهنة، بين برجين يشرفان على الأسوار المجاورة، كانت هناك قنطرة انتظم عقدها بواسطة القرميد النيء وغير المزخرف، قد انفتح بابها على أعماقٍ ملأى بالأسرار المغلقة، فاستلفت ظله الأنظار وجعلها تغوص في رهبة دينية، زادتها شدة صفوف الأعمدة الضخمة التي غمرتها ظلال الليل.

من هذا الباب، دخل نبوخذنصر إلى المعبد متبوعاً بنيرغالوروصر وموكب الكهنة. ووراء كاهنة مردوك الكبيزة التي كان نصفها الأعلى يبرز من خلال شالٍ ذي شراريب كثيرة، وقف « الكالو »، أو المعزمون الذين يعرفون بواسطة طبولهم، كيف يسكِّنون قلوب الآلهة الغاضبة. ثم تقدم « الباعازو »، منفرداً، العرافين والسحرة الذين بمقدورهم استبانة مشيئة الآلهة وتفسير الأحلام.

وفي باحة أخيرة انتصب وسطها هيكل من القرميد التف حوله الكهنة صفوفاً صامتة، دخل نبوخذنصر ونيرغالوروصر المقدس الذي يقيم فيه الإله...

وفي الرواق، وكي يضفي الظل مزيداً من الرهبة، كانت الجدران مطلية بالقار الأسود، وبخطوط بيضاء تسهب في التعبير عن الرتابة. ومع كل خطوة، كانت الظلمة المحصورة بين الجدران السوداء العارية تزداد شدة، مما جعل كثافتها المقلقة تخنق حتى وقع خطوات الموكب، الذي كان أفراده يسيرون كالأشباح الصفراء في تلك العتمة الكثيفة.

مع ذلك، انبجس من الباب شعاع محصور امتدَّ نوره حتى العمق، فالتمع تحت القبة الذهبية الكبيرة والمرصعة بالحجارة الكريمة، ألَقُ المعدن والجواهر الثمينة، إذ كان ينتصب هناك في مِشكاة مستطيلة تمثال مردوك فوق التنين، حيوانه الملازم له والمتخذ صفته.

وكان تاج ذلك التمثال المصنوع من الذهب الخالص كسيد لا يمس، مثقلاً بالحجارة الكريمة، وأذناه المفتوحتان إلى التوسلات البشرية، تتجاوزان الحد في كبرهما كرمز لسعة الإدراك والفهم. وفمه المستخف المزدري، ترتسم عليه ابتسامة غامضة فوق لحيته المتموجة.

فوقف نبوخذنصر وجهاً لوجه أمام التمثال الضخم الذي يعلوه بخمسة أمتار[1]. وللحال دفعه الشعور بأن يبحث في نظره عما تاق البشر، وأجداده منهم، إلى معرفته من أسرار غامضة. لكن نظر الإله تجاوزه في علوّه فلم يلتقِه. ففكر نبوخذنصر بأن مردوك يشبه، في ظل هذا الهيكل، ذاك « الأبوالهول » الذي سمع الناس يتحدثون عنه في مصر، حيث ينتصب كلغز مثير فوق الرمال الذهبية التي يتلاعب عليها النور ويحفها بالسحر والفتنة. كما فكر أن الإله، ربما لا يخفي وراء شفتيه المبتسمتين على إطباقة، سوى بطلان المطامح البشرية القلقة لمعرفة مصائرها. ولكن لا، فليس هناك مجد، إن لم يكن في قلوب الرجال إيمان. لذا، رفع نبوخذنصر يديه متوسلاً أمام التمثال، وبسط راحتيه على مداهما، وطلب من مردوك أن يمنحه كل شيء. ثم ثنى ركبتيه وخرَّ ساجداً على البلاط، ووجهه إلى الأرض... وأخذ الملك يزحف باتجاه التمثال في وضع ذليل، حتى وصله وقبّل قدميه وتمتم قائلاً:

« لقد أوكلت أمري إلى الإله مردوك. لامست طرف ثوبه، ليتفحص رغبات قلبي السرية ».

ثم انتصب على طول قامته التي بقيت، مع ذلك، قصيرة جداً بالنسبة للتمثال الضخم. ورفع يده اليمنى على طول ثوب الإله، فأثارت برودة المعدن

---

(١) فيما يتعلق بضخامة تمثال الإله مردوك، لا يمكننا بالطبع الاعتماد على ما جاء في سفر النبي دانيال، بل على ما أنبأنا به أبو التاريخ «هيرودوتس»، الذي زار معبد بورسيبا في عهد الملك أحشويروش (أو بعده بقليل) فوجد فيه تمثالاً من الذهب الخالص يبلغ علوه ١٢ ذراعاً، وهذا ما جعلنا نقدر علوه على النحو المذكور ـ المؤلفة.

في جسمه قشعريرة غير عابرة. وأخذت أصابعه ترتقي، ثم ترتقي متشنجة بعض المرات فوق ترصعات الجواهر، إلى أن لامست يد الإله اليمنى المتدلية جامدة من العلو كي تصبح في متناول البشر مبسوطة على « الهاربي »[1]، التي بفضلها أُنقذ العالم من البلبلة والفوضى!

وبأنفة وكبرياء، انتفض نبوخذنصر واقفاً على رؤوس أصابع رجليه باتجاه تلك اليد الإلهية، التي بلمسها فقط يتكرس تسنّمه للعرش، وضغط عليها بعنف كأنه شاء أن يسِمها بخاتَم إرادته.

ولكن قبل أن تستولي الدهشة على الكهنة، خرَّ الملك من جديد ساجداً عند قدمي الإله، وتمتم بصوت أصمّ: « أرفع يدي، وأمام سيد الأسياد أسجد، حتى يبلغ صوتي الإله الأسمى مردوك ».

ثم اتخذ صوته طابع المذلة تقريباً، فقال ملتمساً إماتة نفسه: « إيه مردوك، أيها السيد القدير على أن يخضعني، إجعلني مفضلاً، وأطل حياتي حتى الأيام الأكثر بعداً، وامنحني ذرية مضاعفة ست مرات، واجعل عرشي مستقراً إلى الأبد، والنصر حليف سيفي إلى الأبد! ».

بعد ذلك، خرج نبوخذنصر إلى الباحة حيث كان الكهنة بانتظاره، وقد غابت الشمس وبدأت الظلمة تلفهم، وأخذ كل شيء يشحب في تلك الباحة الإلهية المسوّرة. وها هي الآن الشرفات في أعالي الأسوار ذات اللون الأصهب، ترسم جانبياً تقاطيعها الناعمة بالحجارة التي تسبّح السماء، وصوت الكهنة النابض بالحرارة يرتفع رصيناً في صلاة تضرعية موزونة الإيقاع، توقظ الأحلام وتحيي الآمال.

وكان خدم الإله قد جاؤوا بالثيران، والغزلان، والجديان، والعجول، وصفوها حول المذبح القرميدي. فقدم نيرغالوروصر السكين المقدسة إلى

---

(١) آلة حربية سومرية شبيهة باليطقان.

الملك الجديد، إذ كان على نبوخذنصر، نائب الإله على الأرض، أن يُسيل بنفسه دم الأضحية المقدمة كشهادة على الشكران وعرفان الجميل لهذا الإله الذي جاءه ليستمد منه كل القدرة والجبروت. وبحركة سريعة، قطع الملك من الوريد إلى الوريد رقبة رشأ لدنة، فاستسلم هذا الغزال الصغير إلى الموت استسلاماً وديعاً، وانطرح على البلاط وسال دمه القرمزيّ الفاتر حتى بلغ رجلي الملك. عند ذاك، رفع نبوخذنصر يديه نحو السماء، وقد سكرت نظراته بالحب والكبرياء، وأطلق مختالاً صلاته الحارة التالية:

« كن عطوفاً يا مردوك على الملك الذي عظّمته ومجّدت اسمه، وإليه أوكلت العدالة. إني أشكرك يا سيدي، أنا صنيعة يديك، الذي خلقتني وولّيتني الملك على جحافل البشر، وذلك بمقتضى مشيئتك يا سيدي التي أخضعت قبائلهم. حرِّك في قلبي وفق رغبتك، قوتك الخارقة « ريهوس » التي تنشر عبادة ألوهيتك، فتصبح حياتي هكذا مكرسة لك ».

وأمام بوابة حاضرة مردوك، كان الحشد ينتظر في ظل السور الأحمر بصبر وصمت، وقد بدا عليه التأثر بفعل السر الإلهي الذي شعر به وأحسّه. فلما ظهر الملك بكل بهائه وعظمة مجده، هزت الرعشة بشكل خفيٍ الصف الطويل الداكن من العمامات المبرقشة، التي كانت تموج في محاذاة الجدران المحرقة. ولم تصدر من هذا الشعب المحتشد أية صيحة ولا أي تعييش، لأن الهتافات لم يحن أوانها بعد. فإذا كان الإله مردوك، قد مهر بمصافحته الإلهية العقد الذي يربط هذا الشعب بالملك الشاب، مضيفاً التنصيب الأسمى إلى التنصيب الوراثي والاختيار الشعبي، فهناك، في بورسيبا، ستسلم إلى نبوخذنصر مقاليد السلطة وشعائر الملك، وذلك بنعمة الإله نابو « المنظم لكل شيء، وربان الكون ».

وعلى الطريق المقدسة، حيث كان الحراس يجهدون أنفسهم لشق طريق للملك عبر الجموع الصامتة، امتدَّ الموكب غير المنتظم والمتعذر وصفه، بالأثواب الفضفاضة والعمامات المتعددة الألوان. فاخترقه الملك وهو جالس في عربته غير مبالٍ بكل هذه الجموع المعجّة، لأنه كان يفكر في مستقبله. فبابل التي

أعطته السلطة، عليه أن يجعلها مركز القوة والجبروت. إذ أية أهمية لحكمه في بابل، إن لم تكن هي السيدة الآمرة على كل العواصم الأخرى، وإذا ثرواتها، وعظمتها، وبهاؤها، لم تثبّت مجده هو، نبوخذنصر، حتى تخوم العالم القديم، وإلى نهاية الدهور؟ فبالسيف والنار، ولكن أيضاً بالمعول والقرميد المكدس، سوف يجمّل مدينته كي يطير صيتها، وتصبح قادرة على مقاومة هجمات الأعداء وعوامل الزمن.

لقد كان نبوخذنصر يحلم بمسيرات ظافرة مجنونة، وبتكديس هائل للحجارة يرتفع نحو السماء!

وفجأة، عند محور باب إيراش الذي اجتازه الموكب وسدَّ الطريق المقدسة، مدَّ نهر الفرات بين الأسوار خطاً متحركاً وصافياً تخطى جسراً حجرياً محمياً بباب أثري، هو من أعمال نبوبولاصَّر.

ووراء الجسر المذكور، وبين أسوارٍ أكثر تفسخاً وتفتتاً بقليل، امتدت الطريق المقدسة وقد ازدادت كمية الحصى فيها، حتى بلغت باباً مزدوجاً يحجب الأفق. ووراء هذا الباب تراكبت المصاطب مجدداً، دافعة نحو السماء قبة هيكل نابو والطبقات السبع لزاكورته. وكان برج بورسيبا ينتصب فوق قواعده الثابتة المتينة، ويرتفع بطبقاته المتساوية والتي تبدو متراكبة فوق بعضها البعض إلى ما لا نهاية. أما عرض هذا البرج، فكان يتناقص تدريجياً من الأسفل إلى الأعلى، حتى إذا ما بلغ الذروة بدا كأنه ضمة كبيرة من الورود قد اندمجت في السماء الوردية. وكانت الشمس في ذلك الوقت قد انحدرت نحو الأفق لتغيب وراءه، فكبرت دائرتها نصف المنطفئة. والبرج، في الهالة الفائقة الوصف للنور الذي خفَّ وهجه، لم يعد يبدو كأنه شيء حقيقي، بل كأنه انعكاس للنور تضاعف حجمه فغدا حقيقة من عالم آخر! والألوان الغامقة والحادة للطبقات السبع: الأسود، والأبيض، والأرجواني، والأزرق، والقرمزي، والفضي، والذهبي، قد تلاشت رويداً رويداً. وفي روعة السماء، بدت هذه الطبقات لأول نظرة كأنها

مزخرفة بألوان متناسقة، ثم شيئاً فشيئاً برز حتى من زنجارها مزيج رائع من الألوان المتجانسة!!

إن برج بورسيبا العظيم الذي يشع من عمق الأزمنة والرغام، كان منذ بداية العالم منتصباً هناك، ومشرفاً على بابل كلها، وليس سوى الأحلام باستطاعتها أن تشمخ به نحو السماء بهذا المقدار من العلوّ الخيالي، ليبقى ثابتاً لا يتزعزع كرمز جبار لاجتذاب البشر نحو السر الغامض وراءه، في انعكاس النور اللامحدود للسماء المرئية، وفي النصف الأعلى المضيء للكرة الأرضية، وكهمزة وصل هائلة بين الأرض والسماء.

ألم تأتِ شعوب الأرض كلها، بعد أن تناست منازعاتها لفترة من الوقت، واندفعت في حماس واحد منقطع النظير لتعرب عن تقديرها ومحبتها للألوهية بهذا العمل العملاق، وكانت الصلاة هي لغتهم الوحيدة، إلى أن فرّقتهم الغطرسة من جديد وبلبلت ألسنتهم؟

إمّحت الانعكاسات الأخيرة للذهب في أعلى الشرفات التي تعلو الأبراج الأكثر علواً. وبقي رأس الزاكورة وحده مضيئاً في السماء التي كان الليل قد صيرّها زرقاء. وفجأة، غدا الجو بارداً، فارتعش نبوخذنصر إذ تراءت له أطياف كبار أجداده وهم يجولون في ظلمة المصطبات الفسيحة، وقد تلقوا قبله شعائر مملكة لم تعمِّر طويلاً. إن الماضي كله قد بُعث مجدداً من لجة العصور، منذ الأزمنة الأسطورية للملك آلالغار الذي لا يروون عنه سوى أنه اختير من قبل الإله المكتنف بالأسرار الذي خلق كل شيء، كي يكون راعياً للشعب البابلي. وقد حكم هذا الملك عشرة « سارات »، أو ٣٦ ألف سنة، لأن السار يساوي ٣٦٠٠ سنة. وكم من ملوك آخرين بعده، عرفوا كيف يخدمون أنفسهم من أجل مجدهم العظيم، فتلقوا بحضور نابو، وفي هذا الهيكل: الصولجان، والهاربي، والتاج. لكن نبوخذنصر يحلم بأن يتفوق عليهم كلهم.

دخل الملك يتقدمه نيرغالوروصر، الهيكل الذي ينسحق المرء أمام ضخامة بنائه، فإذا بثورين من النحاس على العتبة، واحد إلى الشمال وآخر إلى

اليمين، يقومان بحراسة مصراعين ثقيلين من خشب الأرز المرصع بالذهب، وقد علت رأسيهما قرون كبيرة. وكان هذان الثوران جامدين وفي وضع كهنوتي غامض، كأنهما كامنان لسدّ الطريق على المؤمنين. وقد وُشِّي جسداهما بالزمرد، واليشب الأسمر، والياقوت، ودُرِّعا بالصفائح الفضية ذات الخيوط البراقة التي تُبرز عضلاتهما المشدودة، كما ينبغي أن تكون في حالة الدفاع القصوى. فجذب نبوخذنصر ظلُّ المعبد، حيث يعيش ماضٍ بكامله من المجد، وكأن هذا الظل لجة يحتوي قعرها مستقبله منذ بداية العصور!

وفي هذا الظل المنار فقط بالضوء الأزرق المتسرب من الباب المفتوح، كان تمثال نابو يعكس آخر ما تبقى من نور النهار، وقد انتصب وحده، مستنداً إلى الجدار الأخير، على الأرض المكسوة بالفضة المطروقة. وكان هذا التمثال الكبير جداً، قاسي الملامح برأسه الضخم ولحيته الطويلة المتموجة فوق صدره. وعند كل جهة من كتفيه، ضُمّت موجات الأشرطة المتدلية من تاجه الضخم أيضاً، الذي فضلاً عن عظمته الخفية، التفّ حوله قرنان من الذهب. وعلى طول ثوبه المهدَّب، تشابكت ذراعاه. إنه هنا منذ الأزمنة المرعبة، محافظاً على مظهره، كأنه يفكر في عوالم مجهولة، أبعد من الرجلين الواقفين عند قدميه، وقد تهيَّبا التطلع إلى وجهه الميت!

وبعد الاستنطاق الصامت لعيني نبوخذنصر، تراجع الملك إلى الوراء بحركة لاشعورية، وتساءل: هل هنا، يكمن كل ما ترقبه في نهاية ذلك اليوم، الذي كان يعتقد بأنه سيتاح له فيه أن يمهر الآمال والأحلام التي تغلي في قلبه المتلهف إلى الثروة والمجد، بموافقة إلهية؟ لا، ليس إلهه، إله الثروات والانتصارات، هذا التمثال الذهبي المرعب، الذي تبدو ابتسامته الغريبة الغامضة، كأنها تقابل بلامبالاة ساخرة، الحماسة الملتهبة لتوسلاته الحارة!

وشاء أن يهرب. فكبرياؤه لم تستطع أن تتحمل هذا الجو المفعم باليأس والهلع... لكنه كما العاشق انهارت مقاومته، إذ شعر وهو واقف على المقعد الخشبي أمام تمثال الإله، بأن الصولجان، والهاربي، والتاج، وعصا الإمرة، قد

أمسكت به وجرته. . . فتقدم بخطى بطيئة إلى أمام رسول الإله، « الأوريغالُّو » الذي خرج من الظل. وبحركة واثقة، مدَّ الملك يده كأنه يطلب الشعائر المتوجبة له. لكن الأوريغالُّو صفعه بقفا يده، وجذبه بأذنيه الاثنتين، وأرغمه على الركوع أمام الإله!

ففكر نبوخذنصر بأن كرامات كثيرة غير كرامته، قد أُهينت وأُذلت في هذا الحرم خلال قرون وقرون، وأن لا مجال لأية امبراطورية بأن تعيش، إذا ما أنكرت تقاليدها، أو تنكرت لماضيها المجيد. فقال بكبرياء ذليلة: « ما اقترفت ذنباً يا سيد الأقطار، ولا نسيت الطقوس ».

عندئذ، مدَّ إليه الأوريغالُّو الشعائر الملكية، وأرضى قلب الملك بهذا الجواب: « أبعد الخوف عنك، فإن نابو سيباركك على الدوام، وسيبيد أعداءك ويقضي على منافسيك ».

بعد هذا، لم يعد نبوخذنصر يشعر بصفعة الأوريغالُّو، مع أنها قد استدرت دموعه. . . كما أنه بفضل العرَّاف الطيب المنتصب أمام التمثال الذهبي الثابت العينين منذ بدء الدهور، قد انتفى خوفه من هذا التمثال، عندما أخذ العرَّاف المذكور ينشد بصوت قوي سليم الوزن، نشيد الشكر الحماسي. وعلى العتبة، بسط الكهنة أيديهم المضمومة القبضات بحركة ابتهالية، وأخذوا يرنمون بفرح التسبيحة الملكية التالية:

« ليعظِّم مملكتك، نابو السيد، أول مولود في آشور. . .

« ليعظِّم اسمك على مدى الدهور، نابو الجليل، محبوب الإلهة آرو. . .

« ليكتب لك على لوحة، نابو العظيم، الكاتب الملمُّ بجميع المعارف، بأنه سيحفظ حياتك كقاضٍ سديد الرأي، وسيجعل كل الملوك خاضعة لك ».

وفي الخارج، وكان الوقت قد أصبح ليلاً، تصاعد نشيد المجد باتجاه القبة الزرقاء المضاءة بملايين النجوم. وبدا نبوخذنصر كأنه حقَّق نصراً جديداً، هو نصر الإيمان على الشك، والنور على الظلمة.

ولما اجتاز منطقة الهيكل واتجه نحو الزاكورة وهو غارق في أحلامه، إذا بتضاليع الأعمدة فوق الأسوار تبدو معالمها أكثر بروزاً ودقة. وبدت النفس البشرية لهذه الحاضرة الإلهية كأنها ذهبت مع الشمس الغاربة، إذ كان كل ما في المكان صامتاً كأن الأشباح هي السائدة! فأناشيد النصر، والصخب المرعب، وصيحات الانتصار أو الغم التي أطلقتها هنا أجيال متعددة منذ قرون، لم يعد لها أي أثر. وفي هدأة الليل التي لم تعد تعكرها أية ضجة، وتحت زرقة السماء الصافية، أحسَّ نبوخذنصر كمن يحلم، باللهاث الصامت لألوف السجناء الذين سيستقدمهم في اليوم التالي إلى هذا المكان، ليقوموا بأعمال السخرة في ترميم هذه الهياكل، ووضع حجارة جديدة فوق الحجارة القديمة، كي ترتفع المداميك أكثر نحو السماء، كما سيرتفع مجده هو، أكثر من أمجاد أسلافه!

لقد بلغ الآن أسفل الزاكورة، ولم يعد يبدو ارتفاعها إلا من ثقلها ذاته. فرفع نبوخذنصر عينيه، وإذا به يحسُّ بأن هذا التكديس للمصطبات نحو السماء، قد ألقاه في هوة بعيدة جداً عن النجوم المتألقة في العلو اللامتناهي، كلغز من الألغاز الغامضة.

لكن، ألم تكن هنا، في الظل الجبار لأساسات هذه الزاكورة، مدرسة طفوليته، حيث علَّموه بأن تلك المكتبة لهيكل بورسيبا، قد أنقذت العالم من البربرية؟ إن آشوربنيبال وسنحريب، كانا يفتخران بأنهما قد اقترضا من هذه المكتبة، لمكتبتيهما في نينوى ودورشاكين، أفضل ما تضمنته من نفائس المؤلفات. وكم كانت تبدو له الرفوف الطويلة الغافية عليها لوحات الخزف التي لا تحصى، وكأن لا نهاية لها. فهذه الرفوف، كانت تضمُّ موجزات في العلوم العامة، وفي علم الفلك، والرياضيات، والمعادن، والنبات، والحيوان. كذلك كانت تضمّ مستندات قانونية والعديد من الكتب التاريخية المدونة عليها كل حوليات المملكة. ورغم أن الألوف من هذه اللوحات التي تكدست، يرجع تاريخ بعضها إلى عدة آلاف من السنين، فإنها لم تفقد قيمتها، فضلاً عن أن المكتبة قد تلقت الكثير من المعارف الجديدة.

ولكم كان نبوخذنصر تلميذاً سيئاً، يرفض قراءة الحروف المسمارية، كما يرفض رسمها بقلمه! أليس من الأفضل له أن يقيم الآثارات، ويشيّد المدن والأمبراطوريات، من أن ينفض الغبار عن العصور الغابرة؟

حاول أن يضحك، عندما عاد بالذاكرة إلى عصيانه الغاضب على معلميه القساة، لكنه تذكر ذلك المعلم، الذي قاده بعد يوم من التمرد إلى قاعة صغيرة مغلقة، ودلّه على مكان فارغ في القسم الأعلى من الرفوف، يقع قرب السقف المصنوع من خشب الأرز، وإلى جانب الحوليات التي كانت تتغنى بأمجاد والده نبوبولاصر، وقال له: « إن هذا المكان محفوظ لحوليات عهدك ». وقد بدا له هذا المكان صغيراً بالنسبة لطموحاته!

وتسلق نبوخذنصر من جديد، وبرفقة نيرغالوروصر وحده، المصطبات التي تتصاعد نحو الزاكورة، فيما كان الليل صافياً، وذا زرفة عجيبة تلفها الألغاز والأسرار، قدر ما كانت السماء تبدو عميقة في شفافيتها. وتحت الضوء الجلي البارد، بدا نبوخذنصر شاحباً ممتقع اللون، وقد امتلأ قلبه بإحساس غريب جعله يبطىء في خطواته. فالأسوار العالية للزاكورة تنتصب أمامه متحدة كأنها من صنع الخيال، والأظلال تمدُّ على طولها رسوماً مميزة. والضوء الباهت يبرز الزوايا الناتئة الحادة للطبقات التي تتعاقب فوق بعضها البعض إلى ما لا نهاية، مقللاً من عرضها بالتتابع حتى المصطبة الأخيرة الضائعة في السماء، كأنها مظلة للإله الذي حاول البشر أن يرتقوا بواسطتها نحو عرشه السماوي.

وكأن نوراً أشرق فجأة في قلب نبوخذنصر، فجعله يتأثر بالنظام الدقيق الذي يتحكم بحركات الكواكب على الطريق السماوية، ويتساءل: « أليس أفضل للإلوهية، عوضاً عن أن تتجسد في التمثال الذهبي الذي أذلّ نفسه أمامه، أن تكون في السماء، المصدر الوحيد للسيادة والخلق، والماهية الإلهية للحياة، التي ليست الكواكب إلا مظهراً من مظاهرها المرئية، كما أن المظاهر الأخرى للألوهية ليست إلا صفاتها الخاصة؟

وفق المألوف والدارج، من دون شك، قد تلقى منذ قليل في الهيكل، وعند أقدام التماثيل المصنوعة من الحجارة أو الذهب أو الفضة، القرار الإلهي، وتكريس مملكته، والشعائر والمراتب. لكنه يعلم في قرارة نفسه، أنه في هذا المساء فقط، سيتلقى من السماء البشائر والفؤول التي ستقرر مستقبل مملكته ومصيرها.

ومن قلب الملك، تصاعد إلى شفتيه نشيد حماسيّ، كشهادة على التوفيقية والتوحيدية في الإيمان:

« وجهك يا سيدي، هو السماء، وشكلك هو الإله، وعيناك، هما أنليل ونينليل. نباهتا عينيك، هما غيلا وباليتيليت. سوسن عينيك يا سيدي، هو أشعة سِن. جفون عينيك، هي سطوع الشمس. ذقنك، هي عشتار النجوم. آنو وأنتو، هما شفتاك. كلامك وقصرك يا سيدي، هما قبة السماوات. قمة رأسك، هي حدد. جبهتك، هي سالا. عنقك، هو مردوك. حنجرتك، هي زاربانيت. صدرك، هو نابو المستبصر. ورِكاك، هما لوغال ».

وفي ظل الباب، انتصبت أمام الملك أشباح ترتدي الثياب البيضاء، ثم ما لبثت أن توارت بسرعة، فارضة على نبوخذنصر احترامها، كأنها الحلم الذي تسلط عليه، والنداء الصامت الذي اجتذبه لمعرفة الأسرار الدفينة.

وكانت هذه الأشباح رجالاً عرفوا، من جرّاء مراقبتهم للسماء، أو رصدهم لتحركات الكواكب والظواهر الفلكية، أن يضعوا للأرض شرائعها، وأن يحددوا الفصول، ويقسموا الوقت، وأن يرتقوا إلى مصادر العالم. وإذا كان باستطاعتهم أن يتنبأوا بدقة متناهية عن الكسوفات، والمذنبات، ودوران الأجرام الفلكية ضمن النظام العام للسماء، الذي هو تعبير عن الإرادة الإلهية، فكيف لا يستطيعون أن يكتشفوا، وبيقين أكثر دقة، مستقبل الرجال والشعوب والأمبراطوريات على هذه البسيطة؟

وإذا كان التحرك الغامض والمنظَّم للكواكب، جعل من هذه الكواكب بحسب وضعها في القبة السماوية، هي السائدة على الطبيعة، وعلى سير الفصول ومصائر البشر، فلا يمكن لحياة وصحة الملك أن تنجوا من نفوذها، فالكواكب هي المنظّم العظيم للأحداث البشرية وتحركات الكون. لذا ارتعش نبوخذنصر عندما حان الوقت لمعرفة قرارها.

ثم سار وراء الأشباح البيضاء متبوعاً بنيرغالوروصر، وتسلق الدرابزونات المدرَّجة والمنتصبة على طول الجدران السميكة المقلقة، التي بالكاد كانت تستبان في دجنَّة ذلك الليل. ووحده الدوس البطيء والمنتظم للنعال على القرميد، كان يعكر الصمت المخيّم. والنور المتذبذب والمدخن للمشاعل التي يحملها بعض الكهنة، كان يسمح بعض المرات لنبوخذنصر ورفيقه، بأن يريا وراء الأشباح المنحنية الزالقة، مصاريع خشبية عريضة منغلقة على المجهول، ومطارق نحاسية ثقيلة تلتمع مستعدة للنداءات اللغزية، كي تنفتح الأبواب في كل طبقة على قاعات طويلة مقبَّبة.

وعندما وصل الموكب إلى الطابق الذي يليه الطابق الأخير، دخل قاعة تلفها العتمة، فلمح نبوخذنصر في هذه القاعة « اللوحات التنجيمية » الشهيرة مصفوفة حول الجدران، وعلى رفوف تبدو وكأن لا نهاية لها!

إنها لوحات صغيرة رهيبة، سبق لها أن طوَّعت الكثير من الإرادات الملكية! فأمام الفأل غير الملائم الذي سمحت لنفسها أن تفسّره، اضطر سنحريب العاتي ذاته الذي كان يتهيأ لشن حرب على السوسيين، إلى التراجع! وكم من الصراعات والمنازعات قد توقفت، نزولاً عند إرادتها وتنفيذاً لسيطرتها.

فانحنى نبوخذنصر على الرفوف السفلى، حيث كانت تتتابع سبعون لوحة مماثلة. وعلى صمته التساؤلي، أجاب نيرغالوروصر بأنه هنا، تكمن « لوحات سرجون » الشهيرة، التي هي القسم الجوهري والأساسي لكل العلوم التنجيمية،

والتي استخلصها وأمر بتنسيقها هذا الملك الكلداني العظيم، بعد أن جمع حوالى العام ٢٧٥٠، كل بلاد الكلدانيين تحت صولجانه.

وأخذ نيرغالوروصر يسمّي هذه اللوحات لنبوخذنصر، وكأنها صلوات دينية:

- فؤول الشمس والقمر عندما يكونان مرئيين في وقت واحد.
- فؤول القمر.
- فؤول القمر عندما يكون مرئياً في الثلاثين من شهر كيسلاف.
- فؤول القمر، عندما يكون مظهره في الثامن والعشرين من الشهر، شبيهاً بما كان عليه في أول الشهر.

وتتلاحق على رفٍ آخر، اللوحات التالية:

- الفؤول السماوية المتنوعة.
- تأثير النجوم الثابتة.
- تأثير النجوم الثابتة والنجوم السيَّارة.
- حركة وتأثير كوكب الزُّهرة السيَّار.
- تأثيرات أخرى لكوكب الزُّهرة.

وتمثّل اللوحات التي تعلوها:

- فؤول كل شهر.
- تأثيرات الحالة العامة للسماء.

وأخيراً، على الرفين الأخيرين:

- فؤول كسوفات الشمس.
- فؤول الشمس والقمر المرئيين في آنٍ واحد.
- فؤول القمر وحده.
- التوقعات المستوحاة من الهالة التي تحيط بالقمر.
- فؤول الكوكب السيَّار نابو.

ـ فؤول الكوكب السيَّار مردوك.

لم تكن هناك أية قرنة في جدار، إلا وهي مثقلة بلوحات وكتابات ملزوزة إلى بعضها البعض. ومن كل هذه المجموعة التي تحتوي على ألوف الملاحظات، عرف الكهنة كيف ينسجون حول اللوحات الأخيرة التي دلّ نيرغالوروصر نبوخذنصر عليها، «بشائر الشؤم وعكسها، ودلائل الفرح أو التعاسة بالنسبة لقلوب البشر».

منذ الملك سرجون، أدخل العلماء الكلدانيون تحسينات على العلوم الفلكية، وذلك بفضل اكتشافاتهم الرائعة، كالمزولة، وميناء الساعة الشمسية، والساعات المائية. لكن إذا كانت اللوحات الأثرية قد بدت لهم باطلة بعض الشيء في أصولهم العلمية، فإن القواعد التي ارتكزوا إليها في تفسيراتهم للظواهر السماوية، التي كانت بدون شك مقبولة من الآلهة في تلك العصور السحيقة، أي قبل الطوفان، قد حافظت على كامل قيمتها. فكي يجيبوا على التساؤلات، كان لابدَّ للكهنة من اللجوء إلى اللوحات القديمة التي كانت لم تزل تمثّل حقيقة مبادىء علم الفلك، ولو أن النظريات الفلكية كانت قد توارت بفضل تقدم العلم.

ففي القاعات المكشوفة حيث انبسطت على رفوف متتالية اللوحات الصغيرة التي تمثل مفاتيح السماوات الرهيبة، وأيضاً الرؤى والأحلام، تخالطت أصوات الكهنة بأصوات السحرة الذين لا حصر لهم، وقد جاؤوا من كل أطراف الأرض متأثرين بالعلم الكلداني، كي يتدربوا على فن التنجيم، وعلى القراءة بسهولة في كتاب السماء والمصائر البشرية.

وفي الأعماق الغامضة لهذه القاعات نصف المظلمة، وتحت السقوف العتيقة المصنوعة من خشب الأرز، كانوا يدونون بدون ملل ولا تعب على اللوحات الخزفية، كل العلامات التي تظهر في السماء متعدية الظواهر الثابتة والمنتظمة. فإذا الشمس والقمر اختفيا فجأة وراء الغيوم، وإذا لفّتهما هالة

حمراء كالدم، وإذا أمطرت النجوم على الأرض في بعض ليالي الصيف، وإذا مجموعات جديدة من الكواكب ظهر نورها، توجَّب على العقلاء والمجدِّين من البشر، وعلى كل ذي عين بصيرة وذهن حادّ، أن يدركوا، وأن يدونوا، وأن يعوا تنبيهات الآلهة هذه. وعليهم من ملاحظاتهم المجمَّعة، والمفسَّرة، والمصنَّفة جيلاً بعد جيل، أن يستخلصوا القواعد التي يتوجب على الملوك والعقلاء أن يسلكوها في معالجة الأمور الدنيوية.

طرح نبوخذنصر سؤالاً على أحد كتبته، وقد كان رجلاً في جلال العمر، فأعلم هذا الكاتب الملك بأنه منذ دخوله الهيكل، لم ينقطع عن مراقبة الصواعق التي تلتمع وتدوِّي في عمق السماء. واختصر ملاحظاته بأسلوب منطقي، فأثبت بإسهاب الأشياءَ المريبة، واستبعد الأشياء التي تكشفت بأنها باطلة. وخلص إلى القول بأنه الآن يقوم بإعداد مؤلف يسرد فيه بإسهاب الفؤول التي يوافق على استخلاصها لمعرفة مصائر البشر من « الصواعق الطارئة، والصواعق الأرضية، وصواعق بعل ». وأكَّد بوقار على ما يلي:

« إذا الإله حدد، أثار حوله اللغط في شهر نيزان، فينبغي الخوف من اضطرابات في البلد. وإذا حدث ذلك في أيار، فإن أحقاداً ستتفجر. وإذا حدث في شهر سيفان، فالأغلال ستكون حسنة. وإذا حدث في شهر تموز، فهذه الأغلال ستكون عظيمة. وإذا حدث في شهر كيسلاف، فإن مدناً ستدمر وتقوَّض. وإذا حدث في شهر سابات، فإن أرجالاً من الجراد ستجتاح البلد. وإذا حدث في شهر آذار، فالبلد سيثور ضدَّ ملكه ».

وفيما كان المنجم الشيخ يتباهى بدقة ملاحظاته وحكمة استنتاجاته، وذلك بفيض من الكلام والأفكار المحصورة ضمن إطار حلم واحد في مأمن من أعاصير الحياة، استغرق نبوخذنصر في التأمل. فنفسه لم تشفِ غلَّها النتائج المادية المحسوسة التي استخلصها هؤلاء السحرة وهؤلاء الكهنة من ملاحظاتهم. ففي المفهوم العامي، لا بأس إن توقف عند هذه الحلولية الكوكبية التي تقضي بأن يكون هناك إله يبرر هذه الظواهر الطبيعية التي تتعدى مداركه

المحدودة، لأن في ذلك إمكانيات عظيمة لتكييف ذهنية الجماهير، وإثارة الأهواء الشعبية بإرادة تلقائية أقوى، وبذهن أكثر صفاء وبصيرة. ولربط مصير هذه الجماهير بمصير ذاك الذي « يعيش أوهامها »، ويحقق أحلامها، ويسددها، إذا ما خابت آمالها، آمالاً جديدة يلتمسها من السماء!

لكن هذا التشابك الغامض للآلهة، كما هي الحال في القبة السماوية، والذي تتقبله بسهولة عقول عامة الناس التي تتلاعب بها الكهنة، يجعل هذه الآلهة خالية من أي بهاء أو نظام، إذا لم يكن هناك عقل سام ينظم من عليائه أعمالها. أفلا تدل الوثائق المكدسة هنا منذ قرون، على أن الكوّاكب كالبشر، لا تطيع بمحض إرادتها، وإنما بحتمية القدر الذي لا مفرَّ منه، المحدد والمقرر سلفاً وبحزم، من قبل قوة فائقة فريدة؟

ثمَّ إن هذا التعاطف ذاته، الذي يوحد الأشياء الأرضية بالأشياء العلوية، والسماء بالعالم السفلي، أليس هو الشهادة على وحدانية الألوهية، المنبعثة منها الأحياء كلها، والتي لها بمقدار، صفات إلهية مستمدة من جوهرها الخاص؟

إن الكواكب هي الظواهر الخارجية الحقيقية لهذه الوحدانية الإلهية. وبواسطة العلم والمهارة أيضاً، عرف الكهنة البابليون أن يستخلصوا منها الطوالع الخاصة التي تفرّج الضيق البشري إزاء مشكلة المصير!

هذا المبدأ الإلهي الأول، الواحد الأحد في طبيعته، المتعدد في تعابيره، هو « إيلو »، أي الإله الفائق السموِّ، الذي جوهره من الرحابة بقدر لا يمكن تصوّره ولا تحديده، كي يقدم له البشر فروض العبادة.

لكن نبوخذنصر يعرفه جيداً، ويعرف بأنه اختار بابل كي تكون عاصمة مملكته على هذه الأرض، أي عاصمة « باب ـ إيلو »، باب الإله الذي اسمه ذاته، يبرهن عن اختياره الإلهي.

احترم الكهنة تأمل الملك. وحول المبدأ التركيبي الذي اكتشفه عقله بوحي مفاجيء، تجمعت الأساطير التي أغنت أحلام السنوات التي عاشها وهو في ريّق

العمر، ولم تبدُ له مفاجأة الاستشباحية المتنوعة لهذه الأحلام، إلا نظير مفاجأة التعاقب المنطقي للظواهر التي أشرفت على خلق العالم. ومن السديم الذي منه تكونت السماء والأرض، وعُرفت المآثر العظيمة للزوجين الأولين أنشار وكيشار اللذين ولدا، بعد تعاقب طويل للأيام، الثلاثيَّ الأسمى: آنو، وبعل، وآيا، الثالوث الأقدس للآلهة الثلاثة في إله واحد. وكان بعل هو الخالق الأساسي للعالم، الذي ترأس أكثر الكواكب السيارة سطوعاً، هو الكوكب بعل الذي يحمل اسمه.

ومن هذا الثالوث الأقدس، تفرعت مجموعة الانبعاثات الإلهية التي، كي تكون سهلة البلوغ إلى البشر، تلبست هيئة كوكبية، وقُدمت لعبادة الناس كأجرام سماوية. كالإله شمش: الشمس، وابن سِن، العقل الذي يلج كل شيء، ويدبر الكون ويحييه. وسِن: القمر، وابن إنليل. وبِن: الجَلَد، وابن آنو. وتحت هؤلاء، وبعد الكواكب السيارة الخمسة الرئيسة: حدد، ونيرغال، وعشتار، ومردوك، ونابو، يأتي الجحفل الذي لا نهاية له من الآلهة السفلية المتناسلة جيلاً بعد جيل، والتي احتفظت سلالتها بالطابع الكهنوتي، وبهذه الصفة، غدت الطبقة الوحيدة التي باستطاعتها فك الألغاز وكشف الأسرار.

هذه الاستنتاجات ليست حكيمة كتلك المبنية على ذات الملاحظات، والتي سمحت ليس فقط بتحديد أسس أكيدة وعامة للأوزان والمقاييس والمعطيات العلمية المتعلقة بتجزئة الوقت، فانحنى أمامها احتراماً كل العالم القديم، بل أيضاً سمحت بإعادة مجرى العهود إلى زمن الطوفان وبدء الخليقة، دون أن يتغير شيء في نظام الأيام منذ العصر السحيق. فأي مقدار من الملاحظات والمعارف والحكمة أيضاً، كانت تمثل تلك التجزئة لدائرة البروج، إذ جعلتها إثني عشر قسماً متساوياً تؤلف فلك البروج الذي أمكن تحديد الأمور التالية:

مبادرة اعتدال الربيع أو الخريف، تجزئة الدائرة إلى ٣٦٠ درجة متساوية،

والدرجة إلى ٦٠ دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية. ألم يكن نجاح علم هؤلاء البشر مؤكَّداً بتجريبيته ذاتها؟ إن معارفهم الفلكية أتاحت لهم بأن يدركوا أن سنتهم المؤلفة من ٣٦٠ يوماً، تجعل الأشهر القمرية غير متوافقة مع السنة الشمسية، لذلك قرروا كل ست سنوات، زيادة شهر على نهاية السنة كي تصبح ثلاثة عشر شهراً بدلاً من إثني عشر، وسمُّوا هذا الشهر، الشهر « المتفرع » من آذار.

اجتذب نيرغالوروضر الملك من حلم أفكاره الشاردة فيما كان يتسلق الذروة العليا من الزاكورة، أي السلَّم الأخيرة التي تعلو السور على امتداد طوله. وقد كانت الإضاءة بواسطة المشاعل التي يحملها الكهنة سيئة على هذه السلَّم، إذ أن النسيم الليلي قد جعل أضواءها تتذبذب وتتراقص...

وتحت ضوء القمر على المصطبة الأخيرة، كانت المفاجأة الباهرة!.. فقد بدت بابل المجمدة في دائرة من الضوء البارد والقاسي، مدينة طيفية هائلة، يرسم شجر النخيل فيها، جانبياً، ظلاله النحيلة على المصطبات. والأسوار الضخمة، والأبراج السميكة، تبرز من خلال الضباب الليلي الأبيض والمشبع بالبخار، أكثر التزازاً فوق الفرات والقنوات. وعلى هذا العمق الذي لا يدرك، بدا الفرات مع القنوات المتشعبة منه كأنه من تصور الوهم والخيال! ومن تحت قبة هيكل نابو التي تراءت مسحوقة بأشعة القمر المائلة إلى الزرقة، كانت ضوضاء المدينة تصل خافتة من البعيد، ومختلطة بالنداء اليائس والكئيب للطيور الليلية.

كان الطقس بارداً، والضباب يتصاعد ببطء كمدٍّ صامت، ليلفَّ الزاكورة ويفصلها عن الأرض فيجعلها معزولة في السماء... فأخذ نبوخذنصر، في نشوة ما بعدها نشوة، يتأمل هذه القبة السماوية، وهذا الجَلَد الأثيريّ الواسع الذي عليه، وسط ملايين الكواكب الراعشة، كُتب مصيره بواسطة الآلهة!

وعلى المصطبة، نصبت مزولة شمسية ضخمة إصبعها المرمرية البيضاء

فوق صفيحة عريضة مستديرة، سجّل عليها ظلها، ذلك الخادم المطيع للشمس، انقضاء الساعات في ذلك اليوم. وإلى جانبها، في ساعة مائية، كانت قطرات الماء تتساقط بطيئة، مدونة بطرقاتها الدقائق الستين لكل ساعة، ومكررة العملية ذاتها إثنتي عشرة مرة، ممثلة لساعات النهار، بعد أن تكون العملية ذاتها أيضاً قد جرت أثناء الليل، ممثلة لساعاته الإثنتي عشرة.

فقدم نيرغالوروصر إلى نبوخذنصر منظاراً طويلاً، ما أن وضع الملك عدسته الزجاجية على عينه حتى رأى الجَلَد قد ازداد اتساعاً وعظمة، مما أتاح له أن يرى بصورة جلية ومنيرة، شبكة « الكانغا » لكوكبات النجوم المكتنفة بالأسرار والمعلقة في القبة المظلمة. عند ذاك، أخذ نيرغالوروصر يعدِّد له بمجاملة أسماء الكواكب التي أصبحت معروفة فيما بعد، كما يلي: هذه كوكبة التنين. إلى الشمال، الدب الأصغر. إلى الشمال الغربي، الدب الأكبر، والأسد مع نجمة راغيليس. في الشرق، كوكبة الراقص. إلى الجنوب الشرقي، كوكبة العقرب، مع نجمة آنتاريس التي بريقها يتجمل بأضواء حمراء كالدم شبيهة بأضواء نجمة بوفييه التي تتلألأ بالقرب من زينيت. إلى الشمال الشرقي، الحية وأفيوشوس، وكوكبة النسر مع نجمة فاغا ونجمة الإوزة.

ودلّ نيرغالوروصر الملك أيضاً على الكواكب السيَّارة المرئية، قائلاً له: هذا هو آداران (زحل) في كوكبة العقرب. وهذا هو مردوك (جوبيتير) بين كلاليب العقرب. أما عشتار (الزُّهرة)، ونيرغال (إله الحرب)، فهما غير مرئيين.

فطلب نبوخذنصر النافد الصبر، بأن يكشف له نيرغالوروصر حالاً وبدون تأخير، ما سجلته كل هذه النقاط المضيئة في صفحة السماء، عن قدره ومصيره. وبصوت خفيض ومتمهِّل، ترجم نيرغالوروصر قرار الآلهة التالي:

« إذا مردوك، الذي يقيس مسيرة الشمس، التمع هذا المساء ببريق شبيه بالبريق الذي كان عليه في النهار، وإذا ظهر على جرمه المتلألىء ما أعطاه شكل السيف ذي الحدين، فهذا يعني أنه في ظل العهد الذي سيبدأ ملكه اليوم مغموراً

بالسعادة، لن يستطيع أي سيد أجنبي أن يبسط سلطانه على بلاد الكنعانيين، وأن الطغيان انقسم على نفسه، والعدالة انتصرت، والحاكم سيد قويّ، والملك تسلَّم سلطاته بحزم، فأطاعه الكل وعمَّت الطمأنينة كل البلد».

«هذا فضلاً عن أن واحدة من أربعة نجوم ملكية، حي سارًا (راغيليس) التي توجِّه برج الأسد، تعطي الدليل على صحة هذه القوة وهذه العدالة.

«وإذا برشاقة فوق مردوك، وفي برج العقرب الذي يحكم اليهودية، التمع زُحَل على مهل بين وسط السماء والأفق الشرقي، فهذا يعني أن خطراً يهدد الملك في هذه الجهة، وأن وراثته ستسبّب منازعات شديدة».

لكن ماذا هناك وراء الأفق، حيث شمش، الإله الشمس، ورمز الثروة والمجد؟ إن شمَش يحتجب في برج الجوزاء. فسأل نبوخذنصر: «ما هذا الفأل؟»

فدمدم نيرغالوروصر بتواضع:

«هذا دليل النفوذ الذي سيمارس على الملك من قبل حاشيته».

واستطرد قائلاً بسرعة:

«لكن شمش هذا المساء، كان متألقاً ومشعاً، مما يجعل نتائج نفوذ حاشية الملك، نتائج سعيدة، تضاف إلى مجد ملكه الذي لا يضاهى... والذهب يجري تداوله بوفرة في كل المملكة».

ذاك المساء، لم يكن نابو (عطارد)، شفيع نبوخذنصر، منظوراً. إنه الآن في النصف الثاني من الكرة الأرضية، على مسافة متساوية من المجد المعبَّر عنه بواسطة شمش، والهزيمة المتجسدة في نيرغال (إله الحرب)، الموجود في برج الثور. فصرَّح نيرغالوروصر قائلاً:

«من هذا التوازن، يمكننا الاستنتاج أن الآلهة قد صدَّقت على الاستشارة، أي الاستشارة التي هو، نيرغالوروصر ابن نيرغال بالمعمودية، قدمها هذا المساء

إلى ملكه نبوخذنصر المحميّ من نيرغال. وقد بشّره أيضاً، بأنه بعد موت الملك، كل الفتوحات التي سمح له بها مردوك، ستكون مصانة، وأن الهدوء في المملكة سيستمرُّ بواسطة خلفه.

« إن نيرغال هو فعلاً هناك، في برج الثور، يعلن للملك أن صحته ستتعرض لتجارب قاسية في نهاية حياته، وأن احتقاناً دموياً سيصاب به ويشكل خطراً على دماغه ».

عندئذ أخذ نبوخذنصر يبحث في السماء عن عشتار، إلهة الحب، التي كانت مرئية منذ بعض الوقت، وهي الآن تحتجب وراء الأفق، فجاءه هذا التفسير:

« إنها في قرانها مع شمش، الشمس، تعده بالأمانة في الحب، وبالرضى عن أولاده ».

فابتهج قلب نبوخذنصر، إذ إن هذا يعني أن شهوة الصبا التي تعصف في قلبه، ستشده إلى فتنة نيتوكريس، زوجته الجديدة، التي يأمل بأن تلد له وريثاً.

ولكن ما الذي يبشره به سِن، القمر، الإله الشاحب المتبدل بغموض، الذي تعبده عشيقته ساميا دامغا؟

فأجابه نيرغالوروصر على تساؤله:

« إنها في برج القوس، حيث تستجيب لحب شعبك، التواق إلى المغامرات الكبيرة، والتدابير السياسية البارعة، والأبهات الدينية. غير أنه في نهاية عهدك، ستنشأ معارضة بين الشعب ومليكه، تخلق له هموماً خلال طموحاته الأساسية ».

هذه الفكرة الدائمة للهزيمة في آخر المطاف، وللانهيار والاستسلام إلى الموت، جعلت نبوخذنصر يرتعش. فدوام الفتح الذي يحلم به كي يتمجد اسمه

وتتجمل مملكته على مدى القرون المقبلة، سيكون مرفوضاً إذن؟ مع ذلك، إن إرادته التي تنشد الكثير من الأمجاد، لم تخضع ولم تستسلم.

لكن المياه في الساعة المائية إلى جانبه، التي كانت تتساقط قطرة قطرة، فيسمع لها طرق بالكاد يُدرك بالحواس، حمله جريانها الرتيب المعبر عن الدقائق، على الارتعاش مجدداً تحت السماء المظلمة الهائلة. ثم تساءل: إذن، سيأتي يوم... فأي يوم هو هذا اليوم الذي سيأتي؟

ـ إنه اليوم الذي ستدفن معه قطرات الماء للمرة الأخيرة، في ذمة الماضي والنسيان، ذكرى الثروات، والفتوحات، والانتصارات والامبراطوريات... وكل الأعمال العظيمة التي قمت بها. وستتوقف هذه القطرات عن بعث أغنيتها اللامبالية. والمستقبل غير الشفوق، سيشهد خراب كل ما أكون قد شيَّدته!

وبوجهه الشاحب المنقبض وعينيه الشاخصتين إلى هذه الكواكب التي تخدعه، طالما أنها لا تشاء أن تضمن له كل ما باستطاعته أن يفعله، رجع إلى الوراء بتمهل وبحركة غرائزية دفاعية، كأنه أمام قاتل يهدده باغتيال أحلامه. ثم ثار وعصف به الغضب!

لا، لن يُرفض له شيء! لقد أيقظته سلطته من حلمه المزعج، وبقبضة آمرة سحق بيديه كتفي نيرغالوروصر. وبصوت أصمّ متوازن مع دقات قلبه المتسارعة، طرح على الكاهن هذا السؤال: «أي مصير تخبئه الكواكب لمملكته وللممالك المجاورة؟ وهل عليه أن يُخضع هذه الممالك كي يقيم على أنقاضها مجد بابل؟».

تراجع نيرغالوروصر عدة خطوات أمام وجه الملك الممتقع، الذي يطالب بالحقيقة وبكل المستقبل مع كل الحاضر، ونظر إلى السماء ملياً. ورغماً عنه، نقَّل نظره من كوكبة إلى أخرى، ثم قال بعد أن انتظمت الفؤول في دماغه المضطرب قليلاً:

« إن بلد الكلدانيين الجميل، الذي ولد فيه الملك، هو تحت تأثير برج العذراء. أما عدوتاه: صور وصيدون، فهما تحت تأثير برج الأسد. وهذا يعني بأنهما ستخضعان إلى بابل، وتكونان تحت سيادتها ».

فسأل نبوخذنصر: ومصر؟

فأجابه نيرغالوروصر:

ـ « إنها تحت تأثير برج الجوزاء. لذا ستتعرض للهزيمة والاجتياح، لكنها لن تكون مدمَّرة، ولا مستعبدة! »

ـ وشبه الجزيرة العربية ؟

فحدَّق نيرغالوروصر بعينيه، ثم شرد بنظره، وصمت فجأة. لقد اختنقت الكلمات في حنجرته المنقبضة من الخوف! فمشى نبوخذنصر نحوه يريد منه جواباً عن سؤاله، ويريد أن يكون الجواب وفق رغبته. فالشدة التي انتابت الكاهن الشيخ لم تثر شفقته، وكل المصائر يجب أن يدلي بها دفعة واحدة. لذا أطبق كالكماشة بيديه الإثنتين على كتفيه، مما جعل إرادة الكاهن تأخذ بالانهيار تحت الضغط المتزايد والقوي لقبضتيه العاتيتين، ثم تمتمت شفتاه الصفراوان في ذلك الليل الندي:

« هناك، تحت تأثير برج الثور، رمز الفلاح والقوة التي لا تُقهر، يأخذ مكانه شعب صغير غامض. الفارسي خاضع اليوم للميديين، لكن يبدو أن الساعة الملائمة قد قربت، وسيرى مجده يتألق ببريق يزداد سطوعاً بلا انقطاع. . . ».

وهنا ضعف صوت نيرغالوروصر، ولم يعد سوى تمتمات غير منتظمة وبالكاد تُدرك. فتلقفت نظرة نبوخذنصر من أطراف شفتيه المدمدمتين: « بما أن برج الثور هو في مجابهة مع برج العقرب، رمز اليهودية، فإن مجد بابل سيحدد بين هاتين السطوتين: أحدهما سيبني عظمته، والآخر سيحمل هزيمته ».

مشى نبوخذنصر مترنحاً، حاملاً طالعه الذي أكّدته كلياً أقوال نيرغالوروصر، وأخذت أذناه تطنان. . . ووسط كل الهدوء الليلي على تلك المصطبة المعزولة في السماء، تراءى له أنه يسمع أشياء تتفكك ببطء، وتتقوض وتنهار. فعرف أن السر النهائي للآلهة، يستخلص بما يلي: رغم الاسترحام، ورغم التقدمات، ورغم التضحيات والصلوات، باطلة هي السلطة التي منحوها، وباطل الأباطيل هو المجد، والأمبراطوريات. فكل الأشياء تتساوى في التداعي والعجز النهائي الواحد، المتنكر للذكاء، والإرادة، والرغبة، والطموح!

وهبط السلّم المظلمة، هارباً ومضطرباً. . .

وعندما وصل إلى المصطبة الأولى، وكانت خيوط الفجر الأولى قد ارتسمت من جهة الشرق، شعر بمثل السوط يلفع وجهه. . . إنها الضجة الصماء العميقة للجماهير المنتظرة كي تهتف بحياة مليكها! ملك. . . وما جدوى ذلك؟ وشاء أن يبتسم، لكن النشيد الحماسيّ انطلق من أفواه الشعب، يحمل إليه فرحته، وإيمانه، وأمانيه، بهذه الكلمات: «بيلت أعطاك القوة والفطنة. شمش أعطاك العدالة. الإله سِن منحك التفوق، فماذا تنتظر بعد؟ الإله نيروتا منحك السلاح العظيم، فماذا تنتظر بعد؟ الإلهة عشتار منحتك القتال والتلاحم، فماذا تنتظر بعد؟ الإلهان شمش وحدد، هما حارساك، فماذا تنتظر بعد ؟ »

وعلى طول الطريق المقدس انتصبت الأسود على الجدران التي بدأت الشمس توشحها باللون الوردي، فبدت كأنها تريد أن تطلق زئيرها هي الأخرى، تحية للملك الجديد.

فما قيمة المستقبل؟ عليه أن ينظر إليه وكأنه أمامه، وأن يثور ضدَّ مصيره، فهو إن استسلم لهذا التوقع العلوي بالفناء، ألا يعني ذلك خضوعاً للعيشة الخاملة والانحطاط؟ يجب عليه أول ما يجب، أن يأخذ من الحاضر كل ما يمكنه أن يعطيه. وهو هنا في حقيقته المجيدة، غنيّ بهذا الحماس الواثق به. فهذا

الشعب الذي يهتف له بنشيد المجد، وسوف يعطيه منه ما يملأه نشوة، إن هو خدم مجده. علاوة على أن آلهة بابل سيكون لها حصتها من هذه النشوة!

بعد هذا التصميم، انطلقت عربته فوق البلاطات المتباعدة، فيما كانت الكتل البشرية تتدافع نحو الجدران، وقد تكاثفت حماستها وأصبح الصياح والهتاف أكثر شدة.

فهل بعد أن سكر نبوخذنصر من هذا المشهد، ما زال يبالي بالقرص المشتعل لشمش، إن هو عارض ديمومة مجده ووجوده؟ ثمَّ أليس هو ابناً للإله الأعظم مردوك، كما نودي به منذ قليل، تأكيداً للمثل الكلداني القديم الذي يقول:

« العبد هو ظل الرجل، والرجل هو ظل الإله. أما الملك، فهو محاكٍ للإله ».

وانفتحت على المدينة الملكية البوابة الضخمة المصنوعة ألواحها وأُطرها من خشب الأرز، والمتألقة تحت أشعة الشمس، فإذا بهذه المدينة تموج بالبشر، وبالهتاف المتصاعد من الحناجر يشق عنان السماء! فكل الممالقين، وكل بطانة القصر، كانوا هناك، أوفياء لهذا التقليد الذي حفره نابونيد فيما بعد على الحجر:

« إلى صدر القصر ذهبوا بي، وكلهم خرّوا على قدميَّ ساجدين، وقبّلوا قدميَّ، وأعلنوا الولاء لمملكتي. نزولاً عند أوامر مردوك، سيدي، رُفعت إلى سدة الملك في البلد الذي هتف الكل فيه: والد البلد، الذي لا يساويه أحد. مثل نبوخذنصر وناريغلاصر، الملكين اللذين سبقاني، أنا مندوبهما الكبير. وجنود وحداتهم فوضوا إلي أمرهم ووضعوا أنفسهم تحت تصرفي، فأفرحت قلوبهم ».

سيف يهوه

ها هي بابل تغفو، وقد كست التكدس الهائل للقصور والمعابد والأكواخ، طبقة من الغبار الدقيق الثابت والدائم، بدا في شفافية الليل المائلة إلى الزرقة، كأنه نسيج ناعم حاكته العصور المنصرمة قُدَّام المستقبل. لقد كان كل شيء صامتاً في خشوع غير محدود، والنغم الغامض لليالي الصامتة يتصاعد من سهل أكَّاد القديم، نحو الأسوار العالية للقصر المشرف على العاصمة، حيث كان نبوخذنصر يسهر في غرفته الصغيرة.

وبما أن آسبيناز المتوجب عليه أن يأتيه في سرية تامة بنيرغالوروصر، المنجم الأكبر والمترجم الأمين للإرادات الإلهية، قد تأخر في الدخول عليه، فقد نهض نبوخذنصر وجلس عشرين مرة، وكان في كل مرة يدعك بيده، وبإرادة غير صبورة، رؤوس الأكباش المحفورة في مقعده العالي. وكان الغضب الصامت يغلي في أعماق قلبه، لأن الاستشارات التي ترجمها له المنجم العجوز في أعلى الزاكورة مساء تتويجه، جاءت كاذبة. فهو يحكم منذ ثلاث سنوات، ومع هذا لم تُتح له أية فرصة كي يظهر ما باستطاعته أن يحققه من طموحات وأمجاد، كما سبق له أن فعل في قرقميش.

إنه منذ ثلاث سنوات، يجمّل بابل ويعدُّها لخطبة المجد. فالأسوار الجديدة ارتفعت أكثر من سابقاتها، والمعابد التي شيدت حديثاً فاقت المعابد السابقة ثروة وعظمة... ومع هذا، ففي بابل المزدحمة الآن بالآلهة، وبكل ما هو بهيّ ورائع، يشعر نبوخذنصر بالضجر والملل، لأن الحنين إلى المسيرات المجنونة والفتوحات التي تقود إلى الخلود، يعذب قلبه ويفعمه بالحزن!

وفجأة، ظهر في ظل الباب شبحان. وقبل أن يتمكنا من تأدية فروض الطاعة والاحترام، جذب نبوخذنصر إلى قربه نيرغالوروصر، فيما كان آسبيناز يغلق ببطء مصراعي الباب الثقيلين المصنوعين من خشب الأرز. وفي جو السرية الذي أضفاه على الغرفة الصغيرة المقفلة، النور الضئيل المتسرب من كوة مستديرة، انحنى الملك على المنجم الشيخ وسأله: « ألم تحن الساعة بعد ؟».

فلم يكترث الكاهن للقوة الكلدانية التي أظهرها نبوخذنصر جلية واضحة منذ أربع سنوات في قرقميش، لأن مصر إن لم تتجرأ على اجتياز السيل الجارف في العريش، فهي تحبك المؤمرات ضدّ بابل في أورشليم. فملك يهوذا، كما قال: « ذلك اليواكيم الذي أقامه الفرعون نخو على العرش بعد أن خلع الملك يوآحاز في العام ٦٠٩، لم يخش، بتحريض من مصر، التملص من الجزية التي كان نبوخذنصر قد فرضها عليه. ثمّ، ألم يعلن عليه العصيان بصورة علنية، أمام القادة الذين بعثهم كي يذكرّوه بأن سيده هو، نبوخذنصر ملك بابل ؟».

فسأل نبوخذنصر الكاهن محاولاً إحراجه:

ـ « ولكن، هل سيسمح بعل مردوك بانتصار إله اليهود، ذلك اليهوه الذي تجرأ الكهنة وأكّدوا بأنه الإله الكليّ الأوحد ؟».

فتأثر نيرغالوروصر من هذا الطموح غير الآبه للأخطار التي قد يتعرض لها العرش، إذا ما بارحه نبوخذنصر كي يحارب سنوات طويلة في الخارج. فهو يعرف جيداً، بأنه رغم مضيّ ثلاث سنوات، لم تخمد بعد في داخل المملكة، الدسائس والمطامع التي وقى العرش منها عند موت نبوبولاصر.

فأخذ يكلمه بلغة التسويف والتأجيل والتعقل. وكي يُصغي مليكه الشاب إلى ما يقوله، توجه بكلامه إلى زهوه وكبريائه، فقال له:

ـ « لماذا تعطي كل هذه الأهمية لهذا الشعب اليهودي البائس والقليل العدد؟ فملكهم يواكيم ليس خصماً جديراً بملك بابل. ومنذ عدة أشهر، اندهش الشعب البابلي عندما رأى أكثر القادة الكلدانيين نباهة، مع أرهب معدات

الحصار، قد أخفقوا أمام هذا الشعب المكون من فلاحين، والذي أبطاله ذاتهم، عملهم محصور في دفع المحراث أو جزّ النعاج! وعندما ظهر الملاك على جذعون وأمره بتخليص شعبه من نير المديانيين، كان هذا القاضي مشغولاً في درس سنابل القمح وتذريتها. وقائدهم الكبير شاوول، كان يقوم بحراسة حمير والده، عندما أنبأه قاضي الشعب صموئيل، بأنه سيصبح ملكاً. وداود، أكثر ملوكهم عظمة ومجداً، تمرّس على الشجاعة التي أبداها أثناء الحرب وحققت له الانتصارات، بمطاردته الحيوانات المفترسة التي كانت تهاجم قطيعه عندما كان مجرد راعٍ بسيط!

« إن الفاتحين الكبار قد احتقروا بصورة دائمة هؤلاء الملوك اليهود، الجاهلين لآداب المعاشرة، والذين كما الشعب، يستسلمون للقيادة والتعنيف من قبل أنبياء فوضويين، لا يتورعون عن إثارة إلههم ضدَّ ملكهم !»

فأجاب نبوخذنصر:

« هؤلاء الأنبياء المجانين، سيكونون الحلفاء الأكثر فائدة لجيوش بابل !».

وأضاف يقول:

ـ « في هيكله القائم في أورشليم، ألم يكدس يهوه منذ قرون، منذ عصر سليمان وملكة سبأ، الثروات التي يجب أن تستفيد منها خزينة مردوك ؟» .

فقال له نيرغالوروصر:

ـ « إن هذه الثروات مغالى في تقديرها، كما هي الحال بالنسبة لمجد إسرائيل. فأي ثروات تنتظر من أولئك الذين لا ينتجون شيئاً، وليس لديهم شيء من ابتكارهم أو صنعهم؟ فعندما شاء الملك سليمان أن يحيط نفسه ببعض الترف والبذخ، اضطر أن يتجه إلى الشعب الفينيقي، وأن يستجير به كي يقيم لإلهه يهوه، ذلك الهيكل الوحيد في أورشليم، الذي يفخر به اليهود ويتباهون » .

فاعترف نبوخذنصر قائلاً:

ـ « بدون شك. لكن وراء هذا الشعب الكسول المعدم، يوجد إلهه الذي يدعي السيطرة الكلية، والذي يتباهى بإقامة الممالك وتقويضها، وكل ذلك من أجل التسبيح بمجده.

« ففي مواجهته، سأكون سيف بعل مردوك. حتى إذا ما سبيت شعبه إلى ظل مجدي، ودمرت هيكله لمصلحة كنوزي، أنبأت العالم بجنون هذا الطموح الصوفي الذي يطمح إلى فتح العالم، باحتقاره الثروة والغنى المادي، وتجاهله لامتيازات الولادة والطبقية، والتبشير بواسطة أنبيائه بأمية روحية نابعة من المساواة بين الأمم، وبين الطبقات الاجتماعية والنفوس البشرية ».

هذه المهمة جديرة بملك بابل، واكتساب المجد بتحقيقها سهل جداً. فهؤلاء الإسرائيليون لا يعرفون فنون الحرب. وأنبياؤهم لا ينقطعون عن تعليمهم الزهد والتفاخر بالعطاء الإنساني. ففي حولياتهم، كتبوا بدون خجل: « كل الإسرائيليين، ما أن رأوا جوليات، حتى فروا من أمامه راجفين من الخوف ». وعندما قال لهم قائدهم جذعون قبل مهاجمة المديانيين: « من كان منكم خائفاً وتنقصه الشجاعة، ليعد من حيث أتى »، تخلّى عنه اثنان وعشرون ألفاً، من أصل اثنين وثلاثين ألفاً !

فقال نيرغالوروصر قلقاً:

ـ « ولكن النصر قد يشكل خطراً على نبوخذنصر. فأنا أخشى أن يُصاب الشعب البابلي بالعدوى، إن هو احتك بهذا العرق الذي يبشر بدين هدَّام يقوم على تقويض المؤسسات الاجتماعية، وإنكار مزية القوة والثروة، باسم ألوهية أخلاقية لا أدركها. فالنبي الكبير إرميا، لم يخش أن يدوّن هذه الأخلاقية التي تطالب بتحرير العبيد:

« إذا باع منك أحد أخوتك نفسه، فيخدمك ست سنين، وفي السنة السابعة أطلقه من عندك حراً ».

وفيما يخص الدفاع عن الأجير، قال:

« لا تهضم أجرة مسكين أو فقير، بل ادفع إليه أجرته في يومه ولا تُغِب عليها الشمس، لأنه فقير وبها يعول نفسه، لئلا يصرخ عليك إلى الرب فتكون عليك خطيئة ».

وفيما يتعلق بالهرب من الحرب، قال:

« من كان قد غرس كرماً ولم يبتكره بعد، ومن كان قد خطب امرأة ولم يتزوجها بعد، ليمض ويرجع إلى بيته، لأن الحرب لم تخلق لمثل هؤلاء ».

وهذه الشريعة العجيبة الغريبة، توحي حتى بالرأفة بالمهزومين: « إذا رأيت في السبي امرأة حسنة الصورة فعلقت بها واتخذتها لك زوجة، فحين تدخلها بيتك تحلق رأسها وتقلم أظفارها. ثم إن لم تردها، فأطْلِقها حرة وبفضة لا تبعها ولا تسترقَّها لكونك قد أذللتها ».

لقد كان الشعب في بابل يشك بأية قوة تستسلم إلى الشفقة والرحمة، وتحسب حساب الضعفاء، وتعترف بعدالة غير العدالة النابعة من إرادة السلطة الشرسة، لذا فكر نبوخذنصر برهة، ثم تساءل: لماذا هذه الديماغوجية لدى عبَّاد يهوه؟ إن هذه الديماغوجية مجرمة ولا شك بحق الشعب الإسرائيلي، وستكون خطرة بالنسبة إليه، هو، نبوخذنصر، بما أنها إرضاءً ليهوه، تعلن أن القوة التي يستمدها من بعل مردوك، على ألسنة منجميه، هو يهوه ذاته من يعطيه إياها، ويستدعيه كي يسقط إلى العدم المليك كنيا، ويكرس سيادته المطلقة على الشعب الإسرائيلي.

فهؤلاء الأنبياء ينظرون بعدل وإلى البعيد. وأحاسيسهم السياسية كعلمهم الإلهي، لم تكن على خطأ عندما أعلنوا بعد معركة قرقميش، بأن فرعون مصر سيكون تحت رحمة نبوخذنصر، ملك بابل. أما شعورهم الآن، فهو أن قوة الكلدانيين مستمدة من الحق الإلهي، وأن كل الشعوب عليها أن تنحني أمامها. وكبرياء نبوخذنصر، لم تكن تتمنى أكثر مما وعده به اليوم صوت النبي إرميا.

وهذا النبي الذي لعن ملكه يوياقيم وخوّنه، وعظّم نبوخذنصر ومجّده، وبشّر إسرائيل بالاستسلام والخضوع له، وبأنه من فوق أنقاض أورشليم سيحيي بحبور وجذل مجد بابل، كيف لا يستجيب نبوخذنصر لندائه الذي يقول فيه على لسان يهوه:

« إنهض وسر ضدَّ هذا الشعب المسالم الذي يعيش بأمان. ولتصبح إبله نهباً لك. سوف أشتت شعبي في الرياح الأربعة، وأحلّ عليه الخراب والدمار ».

ووسط المنازعات الداخلية التي كانت تتقاسمه، لم يكن الشعب ليدرك، بأن صوت إرميا الراعد، سيعقبه مجيء السيد الذي سيسترقه ويستعبده.

صمت نبوخذنصر فجأة. ثم أخذ يحدِّق في الأفق متفحصاً، وقد تجمدت قسمات وجهه. فدمدم نيرغالوروصر قائلاً: « يهوه! لكن يهوه... هل سيقضى عليه حالما تهدم هيكله؟ إذا كان موجوداً، فهو موجود في كل مكان. وشعبه ذاته، رغم وعده له بالبؤس والنفي والموت، ما زال يؤمن به إيماناً مقروناً بالأمل العميق الفائق الوصف، الذي يعرف أن يصبر ويدوم في الأنفس ».

فتساءل نبوخذنصر:

« لماذا إذن أورشليم ؟».

وتابع يقول:

ـ « إن وراء أورشليم مصر، مصر التي تحاول دائماً أن تنشىء على الحدود السورية مركزاً للدسائس والتآمر، يكون على الدوام باباً مفتوحاً لمطامحها، أو متنفساً لحقدها وضغينتها ».

هذا ما كان يفكر به نبوخذنصر وهو يحدق في الأفق، وما صارح به نيرغالوروصر. فإذا ما جعل من بابل سيدة على أورشليم، تصبح بابل هي المسيطرة على سوريا، ويصبح بإمكانها أن تهدد صور... ثم مصر ذاتها؟ لذا اتخذ قراره، وقرر أن يقود وحداته هو بنفسه، فانحنى على نيرغالوروصر وقال له:

ـ « إني أفضل أن أعهد بعاصمتي إليك، وأنت الحكيم العاقل، من أن أعهد بجيشي إلى قائد ينوب منابي. فالملك شلمنصر الخامس، عندما أولى قيادة جيشه إلى سرجون في حربه على صور، دفع سرجون المذكور هذا الجيش إلى التمرد، بعد أن احتلَّ السامرة، مما أدّى إلى استيلائه على العرش.

فشعر نيرغالوروصر أنه من العبث قتل حماسته وتحطيم هذه الكبرياء الواثقة فيه، وأنه لا بدَّ من مباركة الآلهة لمشروعه. فمشى أمام مليكه دون أن ينبس ببنت شفة، فتبعه نبوخذنصر إلى برج بورسيبا العالي لاستشارة الآلهة.

وهناك، تقدم نبوخذنصر كاهنٌ وصعد به إلى أعلى البرج حيث أدخله المحراب. وبحسب الطقس الذي كان سائداً، والذي أفصحت عنه الأسطوانات التي لا تحصى، كانت قد أُدخلت امرأة عند زوال النهار إلى مضجع الإله.

ووسط النور الضئيل، شُوهدت طاولة ذهبية أمام سرير كبير، فاستدعى الصوت الأسطوري للعرافة الكلدانية الملك الشاب إلى قربها، وأكدت له بأن أحلامه سيحالفها النجاح.

*

أشرقت الشمس على أورشليم فبدت رمادية اللون تحت سماء مكفهرة. وكانت المدينة الرابضة فوق ثلاث ربوات صخرية وحزينة من جبال اليهودية، تتكدس فيها الأبنية المتنافرة في المنعطفات المتعرجة بين الأسوار الرهيبة المتوجة بدرابزين مسنَّن ذي فتحات.

وكانت جماهير الشعب المقرقرة تزدحم عند مداخل البوابات العديدة المفتوحة في السور الداكن اللون، بعضها من أهل الريف الممتطين الحمير أو السائرين على الأقدام لاهثين ومدفوعين بالهلع والرعب، وقد جاؤوا إلى المدينة من ميديا هرباً من العمونيين والمؤابيين الذين كانوا يمارسون السلب والنهب لصالح الكلدانيين، وبعضهم من سكان المدن الخانعين والمتسربلين بالخزي، وقد تركوا أورشليم فيما بعد وساروا نحو الغرب باتجاه مصر، حيث كانوا يأملون أن يكونوا في مأمن هم وممتلكاتهم قبل بدء الحصار.

وفي جنوب المدينة، حيث الوادي الصغير لشجر القابوق لم يكن قد فقد شيئاً من سرِّه ولا من جاذبيته، إذ كان اخضراره الوارف يمتدّ بين ربوتين مغبرتين وموحشتين باتجاه بركة سلوان ووادي القدرون. وكانت النباتات الكثيرة والمتنوعة التي تنساب إلى هذا الوادي مع أقذار المدينة، تشكل سماداً للأرض. وفي أماكن عدة، وفي ظلال كروم الزيتون، ارتفعت أنصاب ضخمة غرزت في الأرض تخليداً لمجد أشيرا، أي عشتروت الفينيقية. وكانت هياكل هذه الإلهة حتى الأمس ما تزال ترتفع بحرية وبدون احتشام في إسرائيل، مقدمة إلى عبّادها الأوفياء في الأودية الصغيرة التي تقف سداً منيعاً في وجه الجفاف المنبعث من سهول الجليل المحرقة، الملجأ الوارف الظل والنسيم العليل الذي كان يتلاعب بالأغصان الخضراء ويحركها، ويحمل مع حفيف أشجار الزيتون وسواها صدى التنهدات والقبلات المختلط بهديل الحمام البري.

هذه الأودية الصغيرة هي الآن صامتة، وقد صمت معها هديل الحمام البري، ولم يعد يجيب على نداءاتها سوى قرقعة السلاح وصوت قاس يصبُّ اللعنة على معاصي إسرائيل. وهياكل عشتروت مع المؤمنين بها، قد التجأوا إلى ما وراء أسوار المدينة، في ذلك الوادي الصغير النتن والمنعزل.

ومنذ الخيوط الأولى للفجر، بدأت غابات الزيتون تستقبل الذاهبين والوافدين إليها باستمرار من الرجال والنساء، وقد استبدل هديل الحمام الذي كان يستقبل لهوهم البريء عند مدخل الوادي، قرب بوابة مصنع الخزف، بالصرخات الحادة للأطفال، المتصاعدة نحو السماء مع ألسنة الدخان المتموجة، والدالة على المحرقات التي تلتهم نيرانها المواليد الجدد تضحية للإله بعل!

وفجأة، ساد المكان صوت الحب وصوت الموت، صوت عاصف قوي تردد صداه في أعلى الوادي الصغير:

« أنا أيضاً رفعت ذيولك على وجهك فظهرت فضيحتَك. فسقك وصهيلك

وفحش زناك على التلال في الصحراء. قد رأيت أرجاسك. ويل لك يا أوروشليم، أفلا تطهرين! إلى متى بعد ؟».

ومن الظل، أخذ الصوت المنتقم يطرد البغيات والدواعر، فلم يبق إلا الفتيان الساخرون والصفيقون من سكان المدن، الذين انبروا ينشدون وهم ذاهبون بعض أمثال النبي سليمان القائلة: «ليس أفضل للإنسان من الأكل والشرب والانشراح، فهذا ما يجنيه من عمله الدائم طوال حياته التي منحه إياها الله تحت الشمس».

وكانت الصرخات الحادة للأطفال على محارق الإله بعل في ذلك الفجر الحزين، الصدى المشؤوم لتلك اللذائذ غير المكترثة!

وهناك، المحرومون من لذة الحياة، والذين محبتهم ليهوه لم تحقق لهم الملذات ولا الامتيازات، هم أيضاً سمعوا صوت النبي الكبير يدعوهم، فهرعوا إليه يستمعون إلى كلامه:

«منذ السنة الثالثة عشرة لمُلك الملك يوشيًّا بن آمون ملك يهوذا، حتى هذا اليوم، تصرمت سبع وعشرون سنة على كلمة الرب إليَّ: وها أنا أكرر عليكم كلمة الرب هذه دون انقطاع وأنتم لا تصغون إلي. هذا ما قاله رب الصباؤوت (أي رب المجد)».

هذه المجموعات البشرية المرتعبة من رجال ونساء، والمؤلفة من عامة الشعب، جلست القرفصاء بانتظام حول إرميا الذي كان يتبعه كظله تلميذه الأمين باروك بن نيريًّا، حفيد معسيا، فكلمهم على لسان الرب قائلاً:

«ها أنذا أرسل وآخذ جميع عشائر الشمال ونبوخذنصر ملك بابل عبدي، وآتي بهم على هذه الأرض وعلى جميع سكانها، وعلى هذه الأمم من حولها، وأُبسلهم وأجعلهم دهشاً وصفيراً وأخربة أبدية».

عندئذ، الدخان الذي ارتفع من المحارق الحزينة وكأنه دخان بركان، تساقط رماده كالمطر على الجمع الذي أخذ من شدة ضيقه يمزق أسماله، فيما

كان الصوت القاسي يتابع قائلاً: « إليكم ما قاله لي يهوه: خذ كأس خمر غضبي هذه من يدي واسقها جميع الأمم الذين أرسلك إليهم، فيشربون ويترنمون ويتعتّهون من السيف الذي سأرسله بينهم ».

إن خادم يهوه الكبير كان يمتلك القوة. لكن هذه القوة ليست مستمدة من ذاته، ولا هي دائمة. فهي إن تجلت ضد شعب الله، فإن يهوه سيمارسها لمصلحة الحقيقة الإلهية.

نبوخذنصر وحده صاحب الكفاءة والمقدرة لأن يقتصَّ من شعب الله المضلل من ملوكه السيئين، وأن يعيده إلى سلطة كهنته. نبوخذنصر سيكون سيف يهوه ضدَّ شعب يهوه، ذلك الشعب المهيأ لإنكار عبادته القاسية والعادلة كي يعبد آلهة أكثر تسامحاً أمام الثروات والضعف البشري.

في أزقة أورشليم الهزيلة والحقيرة والملزوزة إلى بعضها البعض، كان الناس يفترشون الأرض ويزاحمون الغربان والكلاب الشاردة على أقذار المدينة! أليس المهم أن يكون الواحد منهم وراء أسوار المدينة؟

وعند أسفل سور أكثر علواً من سواه، غدا جمعهم أكثر حشداً. فوراء القرميد المرتفع على الجدار، يقع الحي الارستوقراطي والعسكري، بقصوره المبنية على الطراز المصري ذي الطبقات المدرجة، التي تقابل بلونها الداكن وتناسقها الجليّ الألواح المصنوعة من الأكواخ الخشبية، ومن القصب والطين في الأحياء الأخرى، حيث الناس يجلسون القرفصاء.

في هذا الحي، احتفظت حاشية الملك في حُرُمها العابقة بالطيب، بأجمل البنات الإسرائيليات. وضدّ البذخ الوقح الذي كان يبدو على أجساد هؤلاء الإسرائيليات البدنيات، اللواتي كن يلبسن الكتان الأبيض والشالات الناعمة ويتجملن بالحجارة الكريمة، كانت لعنات النبي الشيخ عند أسفل الجدار، تدعو يهوه للانتقام، يهوه عدو البذخ والترف وكل مظاهر التزين والتبرج. وكانت لعنات النبي تُترجم بهذه الكلمات:

«لأن فتيات صهيون متعجرفات،
ولأنهن يمشين شامخات الرؤوس،
فسيجعل الرب أقذلة بنات صهيون صلعاء،
ويهوه سيجرد أردافهن من كل ما هو فخيم،
وسيقلن ذلك اليوم: وداعاً أيها التجمل!
فالعطورات ستستبدل بالنتانة،
والزنار سيستبدل بالحبل،
والشعر المجعَّد سيصبح رأساً حليقاً،
والجمال سيستحيل ندوباً وبثوراً !».

ومن أسفل الربوة، تصاعد الصوت المنتقم إلى السور كأنه منبعث من قعر هوة سحيقة، فأسهب في ضجيج الجماهير. فالشعب في هذا الحي البائس، هو الحليف الأمين لإرميا ضدَّ الحرب التي ستقضي على القسم الأكبر منه، وضدَّ امتيازات الغنى التي ستخضعه للاضطهاد والظلم.

وفي منزل النبي، وقرب طاولة صغيرة واطئة وُضع عليها المأكل اليومي المكون من التين المعجون بالزيت والطحين، كانت النسوة تحلمن بمملكة الرب، تلك المملكة التي حملهنَّ النبي على استشفاف بهائها. والتي على أطلال مدينتهم التي سيقوضها سيف بابل، ستقام مدينة الفرح والسلام، وفيها ستكون حصص الجميع متساوية في أحضان يهوه.

استيقظت أورشليم الآن بأجمعها من نعاسها الصباحي القلق، والكوابيس الضاغطة عليها كثيرة. فهي تتوقع مصيرها المشؤوم والمغمَّ وتراه مرسوماً في التصرفات الهائجة والمحمومة في كل مكان. فأزقتها الضيقة تهتزّ بالصراخ الحاد، والحياكون والحدادون والخزافون في شارع الخبازين، أصحاب المهن الثلاثة الوحيدة في أورشليم، يمارسون أعمالهم في حوانيتهم الصغيرة المفتوحة، كي لا ينقص شيء من الضجيج القائم على قدم وساق. ومع الصراخ الأبحّ والمخنوق، أخذ الجنود يسرعون في فتح الممرات، حاملين على أكتافهم

من القرميد ما يجعلها تنوء تحت ثقل ما يحملون، ذلك لأنهم كانوا يعملون ليلاً نهاراً في ترميم الأسوار.

وعلى مساحة يبلغ طولها تسعة وعشرين متراً وعرضها عشرة أمتار. وتنبسط فوق أعلى ربوة في أورشليم، على جبل صهيون، يبرز بيت الرب المميز بالطابع الفينيقي، والذي هو روح المدينة. وعلى الرغم من ضخامة هذا المعبد، فقد بدا صغيراً جداً لما يمكن أن يتصوره المرء ويحلم به. وكانت هناك ثلاثة صفوف متراكبة من الكتل الضخمة المربعة تعزل بيت الرب من ثلاث جهات، وراء ساحة خالية من الاخضرار، بحيث أن الظل الوحيد في تلك الساحة، كان ظل إفريز صغير من خشب الأرز يغطي جدار السور على طوله.

في ظل هذا الإفريز وقفت جموع اللاجئين الواحد بلصق الآخر. وفي وضعية الحيوانات المنهكة جلسوا القرفصاء فوق بعضم البعض، وتصاعدت منهم رائحة نتنة عبَّرت خير تعبير عن تعاستهم وحالة الشؤم التي يعيشونها.

وفي الأزوقة التي تمتد على طول الجدران فوق الإفريز، كان الأنبياء، بظهورهم المقوسة وأنوفهم الطويلة ونظراتهم المفترسة، يتمشون جماعات جماعات كأشباح سوداء نحيلة، حول قصر سليمان ومدارسهم، وهم يتناقشون بشغف وحماسة ومن دون عياء ولا تعب!

وكانت المجادلة فظة بوجه خاص في أروقة مدرسة إرميا وحنانيا، حيث كان الأنبياء حبقوق وحنانيا وحزقيال، يسيرون بأقدام حافية متسربلين بمسوح فضفاضة سمراء مشدودة إلى خصورهم بأحزمة من النحاس، وهم يعلقون على الأحداث بحرارة وحمية.

فالملك يوياقيم الذي أقامه الفرعون نخو على العرش قد مات مرذولاً من الرب، لأنه لم يشأ أن يصغي إلى صوت الأنبياء الذي كان صوتاً معصوماً من الضلال والخطأ، وقد سدَّد بصورة دائمة خطى الملوك الكبار، أمثال داوود وسليمان. وابنه كنيا الصغير الذي خلفه على العرش تحت اسم يوياقين، لم يبدُ

أكثر استعداداً للعمل بإرادة لهؤلاء الأنبياء، وتسليم شعبه المنهار معنوياً ومادياً إلى أيدي نبوخذنصر. فالمعتقدات الوهمية لهؤلاء الملوك تضاربت وطغت على بعضها البعض، فأخذوا يقارنون بين مصالح مدينة الأنفس التي فتح عليها يهوه أبواب الرجاء العظيم، وبين مصالح المدينة الملكية.

وفجأة، دوّى خارج الأروقة صوت سيدهم إرميا، فكان قاصفاً كالرعد من شدة الغضب، وقد رددته مئات الأصوات فكانت صدى له، بعضها فيه القليل من الأمل، وبعضها الآخر فيه الكثير من العاطفة!

وارتسم جانبياً الشبح الهائل المقوس الظهر في قوس الباب، وكان ذلك الشبح قد دخل الحياة النبوية في العام ٦٢٧، فيكون قد مضى عليه حتى الآن تسع وعشرون سنة وهو يرتسم جانبياً هكذا في كل نواحي الجليل. واليوم، ها هو النير يثقل كتفيه فينوء تحته، إنه رمز السبي المقبل. . .

وانفجرت ثورة غضبه في هذا القول:

« عندما يأتي عليكِ الشر يا أورشليم، ستكون آلامك شبيهة بالآلام التي تعانيها المرأة وهي في المخاض ».

بهذا الكلام فقد النبي إرميا أمله بأورشليم ورسالتها الإلهية بين الأمم، بعد أن تكاتف عليه وعلى الشعب المؤمن به: الملك وضباطه، والملكة الأم، والطبقة الأرستقراطية. والشعب المؤمن به أخذت تتجاذبه آماله وأحقاده.

وهكذا يكون قد انقضى جيلان من الملوك لا يصغون إلى كلامه، تراكم خلالها غضب الرب على إسرائيل! . .

مع ذلك، وبعد وقت ليس بطويل، بالكاد بلغ العشرين سنة، استطاع مستشار حميم للملك يوشيًّا، رغماً عن عائلته، ورغماً عن إرادة الملكة الأم حاموثال التي كانت تكن كرهاً شديداً للأتقياء، أن يحمله على اعتناق سياسته القائلة: « ويل للأمم التي تهوى القتال ».

لكن يوشيًا الخاضع للملك نبوخذنصر، والذي كان يدفع الجزية له، ما استطاع إطلاقاً أن يجمع تحت سلطته أرض إسرائيل كلها. فهو ما استعمل سلطته وسيفه إلا من أجل طاعة الأنبياء والتمسك بعبادة يهوه وجعل إسرائيل كلها تخضع لهذه الشريعة. وبفضل هذه السياسة، دُمِّرت كل الأصنام والهياكل ورموز العبادة العائدة لبعل وعشتروت وسواهما من آلهة ذلك الزمان، وطهرت المملكة من كل دنس ورجس، ولم يعد باستطاعة أي ملك آخر أن يحاول ترميم الأصنام، أو أن يعيد للأرستقراطية العسكرية امتيازاتها السابقة، وأودع بيت الرب التوارة المقدسة التي غدت أسفارها شريعة جديدة للملوك والشعب، للأقوياء والضعفاء. وانتفى الواجب الأساسي الذي كان يقيد الفرد بالالتزامات التي تشده إلى وطنه، وإلى مولده، وإلى ثروته، وساد الواجب الوحيد الذي يفرض عليه بأن يكون قلبه مع الرب، وأن يحبه، وأن يلتزم بأوامر أنبيائه.

وفي احتفال مهيب، وقف الملك يوشيًا إلى جانب إرميا النبي، وقرأ على الشعب المحتشد، الوصية العظيمة للتوراة الجديدة:

« أحبب الرب إلهك بكل قلبك وكل نفسك وكل قدرتك ».

لكن خلفاء يوشيًا أخذوا يتمردون على هذه السياسة التقوية المفروضة من السلطة الروحية المتفوقة على القوة المادية. فمملكة يهوذا غير المبالية بآراء أنبيائها، كانت تهدف إلى النضال بالقوة لا بالروح، وإلى التحرر من هذه الوصاية المفروضة عليها بواسطة السيف لا بواسطة الأنفس المقربة من الرب. فهؤلاء الخلفاء، كانوا يتصورون أن باستطاعتهم التصدي للجيوش البابلية من دون عقاب.

وفجأة، تدفق إلى مدخل بيت الرب، وكمدٌ جارف مع رائحة عرق بشري لا تطاق، سيل من البشر المتألمين... وانفصل عن هذا السيل رجل، وطلب التكلم إلى إرميا، وكان هذا الرجل إيازانياخ، ابن إرميا ورئيس قبيلة الركابيين،

وهم متقشفون من أصل كنعاني، ارتبطوا بنذر إلى الحياة البطريركية، وقد جاؤوا يطلبون الأذن باللجوء إلى ظلال الهيكل.

فاستقبلهم إرميا واستمطر بركات السماء على هؤلاء المؤمنين المجلِّين لوصايا الرب، والذين سيزيدون من عدد جماعاته ومريديه.

في هذه الأثناء، انتصبت آليات الحصار البابلية فوق الأسوار بشكلها المهدِّد. وكان كلام الرب على لسان النبي قد بلغ ذروته من الحماسة والتمجيد، فبسط ذراعيه وقال:

« إن صهيون ستُحرث كحقل، وتصير أورشليم أطلالاً، وجبل البيت مشارفَ غاب ».

وارتفع صوته أقوى نبرة وأكثر خشونة. لقد تدفق بالكلام الزاخر ضدَّ الهيكل. فبدا على العتبة كبير الكهنة فشحور، شاحباً أمام هذا الجمع المتدفق الثائر!

فمدَّ إرميا قبضته نحوه، وصفع بصوته القوي هذا الكاهن ليهوه الذي خان إلهه كي يخدم مليكه. فصمت الجمع المتحير وتراجع إلى الوراء، تاركاً وحدهما، ووجهاً لوجه في مجابهة مأساوية، الرجل الذي يزعم بأنه يوفق بين رسالته الإلهية واحترام السلطة الزمنية، وذاك الذي يزعم بأنه لا يستمدُّ رسالته إلا من لدن الرب، ودون الاكتراث للامتيازات ولا للمؤسسات القائمة، انحنى أمام إرادته الأقوياء والضعفاء على السواء.

وشعر إرميا بأن هذا الصراع هو صراع غير متكافىء. لكنه بالإضافة إلى جيوش نبوخذنصر، تحالفت معه الجموع التي غدت جائعة بسبب انعدام العمل، وبسبب المتعصبين وفقراء النفوس.

فقبل الصراع بكل نتائجه. وجابه الخوف بالخوف، فمدَّ قبضته نحو فشحور، وقال مهدداً وراءه القصر الملكي، والمدينة الأرستقراطية التي احتشد فيها الممالقون والعاهرات:

« حفروا حفرة ليأخذوني وأخفوا لرجليَّ فخاخاً. وأنت يا رب قد علمت مشورتهم علي للموت، فلا تغفر إثمهم ولا تمحُ خطيئتهم من أمامك، وعاملهم في أوان غضبك.

« سلّم بنيهم إلى الجوع وادفعهم إلى يد السيف، ولتكن نساؤهم ثكالى وأرامل، وليكن رجالهم قتلى الموت وشبانهم مضروبي السيف في القتال.

« ليُسمع صراخٌ في بيوتهم عندما تأتيهم فجأة بوحدات نبوخذنصر المسلحة.

« وأنت يا فشحور وجميع سكان بيتك، تمضون إلى السبي. إلى بابل تذهبون، وهناك تموتون ».

قال النبي هذا القول وهو يتدثر بأسماله. وبخطوات واسعة، شقَّ بقامته النحيلة الطويلة والبارزة التقاطيع، طريقه بين الجموع، وجرَّ هذه الجموع وراءه باتجاه القصر الملكي!

*

أمام سور مثلّث تتكدس فيه الحجارة الضخمة المنحوتة التي لا تحصى ولا تعدّ، والتي تعلوها عوارض من خشب الأرز، ووسط البخار الشفاف المتصاعد الذي يكسو الجو بثوب رمادي ناعم ولؤلؤي، تحلو القساوة العاتية للأمكنة المندثرة بفعل الأحداث التي وقعت في الماضي السحيق. ففي منتصف الباحة الخالية تبرز خطوط القصر القديم لداود النبي وسليمان الحكيم ذي الطراز المصري ـ الفينيقي، والسطوح الواسعة المستقيمة والبسيطة التي وحده الضباب ذاك الصباح جعل لونها وحدودها غامضة.

في إحدى غرف هذا القصر، وقبل أن ينبلج الصباح، كان كنيا، الملك الصغير وابن الثامنة عشرة، يغطُّ في نومه، وقد بدا المستقبل مغلقاً أمام طموحاته ومجده، بعد أن أقبلت جيوش نبوخذنصر. . .

إضافة إلى ذلك، كان البارحة، وعلى ضوء المشاعل في ليلة ظلماء، يسير في عمق الوادي المقدس، وراء جسد والده المحمول إلى مقبرة أجداد عُزِّيًا، حيث سيرقد إلى جانب منسّى، وعمون، ويوشيًّا.

وفي المكان المسمّى « أولام هاَموديم » الذي يمتد مستقيماً، بين أعمدة ضخمة، حتى عمق الباحة، كان هناك جيش من الخدم والعبيد يتجهون نحو درجات سلم المدخل الذي هو عبارة عن واجهة معمَّدة لقاعة العرش التي كانت تسمى « أولام هاكيسًا ».

في هذه القاعة، كان على مجلس الوزراء أن يعقد اجتماعه في تلك الساعة، ولذا كان الكل يسرعون في العمل لتهيئة قاعات القصر. ومع أن المكان كان على شيء من الظلمة، فقد برز من خلالها بوضوح عرش الملك سليمان قائماً على منصة لها ست درجات، وعلى هذه الدرجات إثنا عشر أسداً من الذهب الخالص تشكل حرس الشرف. وكان هذا العرش يضيء بالبريق المتألق من عاجه المرصَّع بالذهب الأصفر، المشكاة المستديرة التي تحتويه.

وفي البناء الكبير المتاخم له، كانت هناك أربعة أعمدة من الأرز تفصل بواسطة أربعة أجنحة متوازية قاعة كبيرة مستطيلة، علقت على جدرانها مئتا درع كبيرة وثلاث مئة درع صغيرة، تشكل أسلحة الاستعراضات للحرس الملكي. وكانت هذه الدروع تعكس بمراياها المحدبة الأشعة الشاحبة للفجر الحزين، فيما يتكدس على الأرض في صحن القاعة خليط من الجنود، أثقل النعاس أجفانهم وعطَّل تفكيرهم، إذ لم يساور يوماً أدمغتهم المغلقة أي قلق على مصير هذه الأسلحة التي يحرسونها، ولم يدر في خلدهم أي تفكير بأن نبوخذنصر سيُخرج غداً من « بيت غابة لبنان »، تلك الترسانة من الأسلحة التي صنعها سليمان في سالف الزمان.

وإلى الخلف، في عمق باحة ثانية، كانت مساكن الملك تعرض الترف التمصنَّع لحجراتها الملبسة بخشب الأرز، والمطلية سقوفها بالذهب على سبيل

الزخرف كشهادة مؤثرة على الحب الذي حرص معه سليمان الحكيم أن يجمّل المسكن المتواضع لأجداده، كي يستقبل فيه منذ خمسماية سنة، زوجته، ابنة فرعون مصر. مظهراً بذلك الزخرف التفوق في الألق والفن، على الفن المصري الذي تذوقه وهو في شرخ شبابه ومتَّع نظره بأرقى ما توصل إليه.

وتحت السقوف المصنوعة من خشب الأرز، استيقظت الملكة الأم ناحوستا، ابنة ألناثان بنت عكبور، وزير الملك يوياقيم المشهور في معاداته للأكليروس. وكانت ناحوستا قد استفاقت قلقة على ابنها وعلى أورشليم، في ذلك اليوم الذي انبلج صبحه شاحباً والكل في حيرة وغموض. وشاءت أن تتفلت من أفكارها، وأن تعيش لحظات الماضي الأقل ألماً وعذاباً. وما هي إلا لحظة، حتى توقفت نظراتها على الخط الطويل للقاعات الفاتنة التي أوت فيما مضى حاشية الملكة سبأ، وتلك الجميلة أبيزاغ السونامية، وعرضت ألوانها المتنوعة الأخاذة على العذارى اللواتي حرصت على اختيارهن بذاتها كي تغني بجمالهن المتباين حرم ابنها.

وقد كانت تزور باستمرار هؤلاء الأميرات المؤابيات، والعمونيات، والأدوميات، والصيدونيات، والصوريات، وتنصحهنَّ بلطف قائلة لكل منهنّ:

« إنسي شعبك وبيت والدك،
فالملك سيغدو هائماً بجمالك،
ولأنه سيدك هو، خرّي ساجدة أمامه ».

وكم كان يبدو ولدها سعيداً، عندما كنّ يدخلن عليه بأثوابهن المطرزة، متبوعات بالعذارى، رفيقاتهن، اللواتي كانت صرخات الفرح والرقص حليتهن الوحيدة! وبكل كبريائها الأموي، أجابت على النداء المضطرب في نظرات ولدها:

« إنهن من أجلك قد جاؤوا بهنَّ،
فمكان أجدادك سيحل أبناؤك،

وسوف تنصّبهم أمراء على كل البلدان ».

ولكن عند باب غرفة الملك، الذي كانت شعارات الملك سليمان الذهبية ما زالت تلتمع على مصراعيه، سمعت قيّم القصر الملكي، بعد أن ركل برجليه بقوة الخصيان المنطرحين أرضاً، أمام باب سيدهم، يصيح بالملك كنيا متعمداً إيقاظه كي يقدم له أجزل النصائح.

وكانت الكوة المستديرة الصغيرة فوق سرير كنيا الصغير تنشر نوراً باهتاً، يضفي على وجه الملك الشاب طابعاً حزيناً، ويلبسه قناعاً من العذاب والألم.

وفي العرض الذي قدّمه إلى الملك « مزكيره »[1] كما اعتاد كل صباح، قدّمه هذه المرة وهو عابس الوجه مقطب الجبين، لأنه لم يكن يحمل إليه سوى خيبات الأمل والهموم، فيما كان الملك يأمل بأن يستمع إلى كلام فيه الكثير من الأمل، والحياة، والحب!

وانتصب كنيا واقفاً، فأسرع إليه الخدم يهتمون بلباسه وزينته، وهو غارق في الأوهام والأحلام الخادعة التي كانت تدغدغه. . . فسوّى عبيده، فوق غلالته الطويلة ذات الشراريب، قفطانه القصير الأكمام والمفتوح من الأمام، وأنعلوا رجليه خِفّاً من النحاس اللدن، وانبرى الخصيان يجعدُّون لحيته وشعر رأسه، ويخضّبون عينيه وخديه!

تكلم « المزكير » على الهجوم الأخير الذي شنّه البابليون، كما تكلم على المجاعة التي عمت المدينة، بسبب تأخر المصريين في إمداد أورشليم بالعون الذي وعدوا به. ورغم قساوة الحقيقة، بقي الملك يحلم ويعلل الآمال!

وإذا بالمزكير، وبصوته الرتيب، يروي ما شاهده في تلك اللحظة بالذات أمام باب بيت الرب، إذ كانوا مرة أخرى يحرضون إرميا ضدّ فشحور، أي النبي

---

(١) ربما كان المزكير هنا، كبير مستشاري الملك ـ المعرب.

الغوغائي ضدّ كاهن السلطة الجليل القدر والمكان. فارتعش الملك وخاف. . . إنه دائماً هو، ذلك النبي الشيطاني الذي سبق له أن ملأ ليالي طفولته بالكوابيس المزعجة، فتمخضت هذه الكوابيس عن لعنات حاقدة جعلت سن المراهقة لديه مكتنفة بالظلمة. وهذا النبي لم يكن فقط مسؤولاً عن موت والده، بل أيضاً عن حالة النزع التي آلت إليها المملكة. فهو في اعتقاده، ليس نبياً من لدن الله، بل هو عميل لنبوخذنصر. وأكثر من ذلك، إنه إسرائيلي خائن يود أن يخضع مدينة الرب أورشليم إلى بابل، بتقديم النصح إلى الشعب كي يهرب في كل الاتجاهات وعلى كل الطرقات!!

هذه النصائح أثارت شباب الملك وكبرياءه. لكن « السارسابا »، رئيس « الكراتي بلاتي »، أي فرقة الحراس الأجانب، كان في ذلك الوقت ينتظره ليخفره إلى قاعة العرش، حيث الوصية على هذا العرش بانتظاره، ووزراء والده مجتمعون، وقد أصبحوا وزراءه هو الآن.

فبدءاً من عتبة غرفته، أخذت جوقة الهيكل تنشد محيية مليكها الجديد مع نسمات الصباح الندية. وكان النشيد الذي انطلق من حناجر أفرادها، موزون الإيقاع عاطفياً وهادئاً. ورغم محتواه الشهواني، غزا المكان وأكسبه طابع الوقار والاحترام بهذا الكلام:

« إن مصيري هو في يدك أيها الرب،
فوجهك قد ملأ قلبي سروراً،
وإلى يمينك سأتذوق ملذات لا نهاية لها ».

وشعر كِنْيا، بالرغم منه، أنه أُخذ بواسطة هذه الكلمات السحرية الرنانة التي أضفت، بتنوع نغماتها، مسحة من الحزن على صلاة كل القرون، إذ كانت ترنيمة حياة وحب، ثم أخذ يفكر بهذا الإرميا متعجباً. . .

لقد كان دائماً يهرب من هذا الطويل النحيل الجسد، الخافقة عليه بعض الأسمال، ومن وجهه الذي رسمت عليه علامات الحزن الدائم، الأخاديد

القاسية العميقة. فهو مذ كان طفلاً صغيراً في هذا القصر بالذات، كان الرعب يلاحقه ويسيطر عليه. وكان هذا الرعب مجسماً في رجل، وكان هذا الرجل إرميا. . . وحتى عندما كان يبتعد عن القصر، كانت ذكرياته تلاحقه. إنه إرميا، دائماً إرميا الذي كان كالكابوس الملازم والمؤنب والمنغِّص لحياته وحياة أقاربه، وقبله لحياة عمه الملك يوآحاز.

لماذا يهوه يتكلم بصوت هذا النبي الملعون. . هذا النبي الذي لا يرضى بأن يخدم ربه إلا بتحقير الملك وشعبه، وبتشتيت هذا الشعب! فهل من الضروري إذن إلغاء الأمم والأمراء كي يسود على العالم حكم القانون والعدالة، ويعفى هؤلاء الأمراء من مهماتهم؟ إن والده المسكين لم يقبل بهكذا أعمال جنونية. . . فلماذا نبوخذنصر سيكون المختار من يهوه، وهو الذي يغدر كل يوم بمملكة إسرائيل ويعمل على تدميرها، وفي نفس الوقت تدفع له الجزية بواسطة المؤابيين والعمونيين؟! إن والده كان على حق عندما ثار دفاعاً عن عرش يهوذا. . . بينما إرميا، منذ ذلك اليوم، وهو يخطب في الشعب ويعظه على مفارق الطرق، كذلك يعظ اللاويين في الهيكل، كي لا يقوموا بأي عمل يؤدي إلى التحرر الوطني! . . إنه هو إرميا، في أعماق نفسه، الذي فقد ثقته بالرب، وبشعبه، وبالدور السماوي لعرش يهوذا، طالما أنه يفضّل أن يرى هذا العرش خاضعاً للأجنبي! . .

كان القصر قبلاً يدوي بالشتائم وبكل ما هو بذيء، ذلك لأن إرميا وقف على عتبته وأخذ يتقيأ بصوته الفظ، خالطاً بين اللعنات والتشجيع التهكمي. أما الآن، وبعد أن أصبح العدو على الأبواب وبات الشعب يعاني الأمرين، فقد تحول الصوت الرهيب إلى صوت شامت، وأنبأ الشعب بأشياء أكثر رهبة مما سبق وأنبأه به.

حدث ذلك فيما كان الوزراء ينتظرون في قاعة العرش. لقد كان هناك أليزاما، ودلياح بن سمياح، وألناتان بن عكبور، وجمرياح بن سافان، وصدقيا بن حنانيا، كانوا كلهم عند أسفل العرش يتحدثون بحزن وكآبة.

فهؤلاء السادة الذين كانوا وزراء في عهد الملك السابق يوآحاز، يقدرون الوضع حقَّ قدره، ولا يجهلون بأن كل يوم يمرّ سيجعل الخطر أشدَّ عليهم، وبأنه لم يعد بوسعهم الاتكال على النجدات التي وعدهم بها فرعون مصر، لأن آلات الحرب الكلدانية أخذت تدك الأسوار، وجيش نبوخذنصر الهائل يتجمع أمامها، والنسيم ينقل النداء الأجش للمقتحمين، هذا النداء المتوافق في نغمه مع طلقات المجانق التي، بإيقاع منتظم وأصم، كانت تنهال كالمطارق على الأبواب!

وهناك أمام بيت الرب وفي قلب المدينة ذاتها، يتردد صدى صوت إرميا الصارخ والمزمجر، وقد ازداد انفعالاً وحدَّة، داعياً إلى الاستسلام! أليس هذا الخائن والعدو الملعون لأورشليم، هو المسؤول عن موت يواقيم؟ ألا يطرب وتبتهج نفسه لدمار مملكة يهوذا، أملاً منه بأنه على انقاضها سيقيم صرح ثروته ويوطد سلطته الروحية؟

فهل سيبرهن الملك الشاب على أنه شجاع كوالده ؟

لقد أكَّد الوزير أليزاما، بأن المقاومة ممكنة بدون هذا المجنون إرميا، لذا يجب الحصول من الملك على أمر بإلقاء القبض عليه. وقد دعمه في هذا الرأي صدقيًا، رئيس الجناح العسكري بقوله:

« إن المثالية التي يحلم فيها النبي، هذا السلام المذل، يعني زوال الأرستقراطية العسكرية التي بنت قوة أورشليم، ومجد سليمان، والتي كانت درع يهوه، إله الجيوش. إن الأنبياء هم خونة الوطن، فالإصلاحات الاجتماعية التي يحلمون بها، ليست سوى توهمات تودي بالممالك إلى الخراب والدمار! فحتى الأنفس الضعيفة والمغضوب عليها، لا يجوز سوسها بواسطة الأحلام والآمال التي يبقى تحقيقها مؤجل بصورة دائمة. وإنه لمن الكفر الوعظ والتبشير باسم يهوه، لإظهار الخداع والتضليل على أنه عذوبة وحلاوة ».

وقال دلياج بلباقة:

« ومع ذلك، علينا ألا ننسى الماضي. فملوك يهوذا أو إسرائيل العظماء، ما استطاعوا إطلاقاً أن يتحرروا من وصاية الأنبياء الذين كانت نبوءاتهم تتحقق دائماً، لأنهم وحدهم كانوا يعرفون مشيئة الرب وإرادته ».

وتدخل جمرياح قائلاً بكآبة:

« لقد أعطانا أليزاما حججاً دامغة. فنبوءات الأنبياء ليست سوى تعبير حماسي لإثارة النفس لدى الشعب اليهودي القلق دائماً على مصيره. والشعب يستمع إلى الأنبياء، بإصغاء، لأنه يعيش ذكريات الماضي، حيث لم يكن هناك فقراء ولا أغنياء، بل أنبياء ليهوه لا غير. يستمع إليهم بإصغاء لأنهم أنَّبوا ووبخوا ضدَّ البذخ والترف ومهازل الحياة، وضدَّ كل ما يصنع القوة والعظمة للدولة، أي الأرستقراطية، تلك النخبة من المواطنين وأصحاب الامتيازات. فعندما فرضت آشور نفسها على العالم بقوة السلاح، وعندما أصبح العنف سيد العالم، ابتهج الأنبياء، خونة المملكة الإسرائيلية، وأقنعوا الشعب بأن الرب بحاجة إلى سيف لا يعرف الشفقة ولا الرحمة، تمسكه أيدٍ أقل وهناً من أيدي ملوك يهوذا، الذين استرسلوا إلى الملذات وشهوات الجسد والفسق والفجور، وذلك كي يعاقب الكافرين، ويؤكد كلِّيته، ويقيم على أنقاض الأمبراطوريات الزائلة، مملكة الرب. وبهذه الطريقة وحدها، يحتفظ يهوه بمكانة مميزة لشعبه!».

وجواباً على قلق أفكارهم، ارتفع الصوت الرهيب الذي لا يتعب... فبعد أن كان الوزراء الخمسة قد نهضوا واقفين، ظهر لأعينهم إرميا على أعلى درجة في فناء بيت الرب، ورفع ذراعيه نحو السماء وصاح بصوت راعش ومخيف، فيما كانت ثيابه الرثة تخفق من شدة غضبه كأنها أجنحة كبيرة:

« هكذا قال الرب: إن لم تسمعوا لي سالكين في شريعتي التي جعلتها أمامكم، سامعين لكلام عبيدي الأنبياء الذين أرسلتهم إليكم، فإني أجعل هذا البيت نظير شيلُوَ، وأجعل هذه المدينة لعنة لجميع أمم الأرض ».

ثم صمت الصوت. . . إلا أن العين المحدِّقة والوجه الشاحب، بقيا باتجاه القصر الملكي، وكي يتحاشى الوزراء الخمسة اللعنة التي كانوا يتوقعونها، بسطوا أيديهم بحركة غرائزية وجماعية كأنهم يدافعون عن أنفسهم، وتراجعوا ببطء نحو العرش، في عمق القاعة المظلمة.

فلو شاء مليكهم أن يتَّبع طريق النضال ضدّ نبوخذنصر، لتوجب عليه أن يفعل كملكهم السابق، أي أن يزج بإرميا في السجن. ولكن من سيجرؤ على القبض عليه، إذا ما الملك قرَّر ذلك؟

ففي شهر كانون الأول من العام ٦٠٥، شاء الملك يواقيم وهو في ثورة غضبه، أن يحرق رسالة الهجاء الممقوتة التي كان إرميا قد تلاها بواسطة تلميذه باروك على الشعب الجالس في مدخل باب الرب الجديد، داعياً فيها أورشليم كي تخضع لسيف ملك بابل، فانتفض الشعب في وثبة مصممة، معترضاً على أن تلتهم النار كلام الرب، وأن يطرح نبيُّه في السجن. فاضطر الملك عندئذ أن يستسلم لهذه الانتفاضة الشعبية. كما اضطر ألناثان ودلياح وجمرياح أنفسهم، أن يقنعوا الملك بضرورة التراجع عما صمَّم عليه، وإخماد نار الضغينة في نفسه.

وباتجاه ألناثان، مدَّ الوزراء الأربعة الآخرون سحنهم المقلوبة من شدة الرعب. أما ألناثان، فقد كان على عكسهم شجاعاً ثابت الجنان. فعندما كلفه والد الملك الصغير الحالي بأن يقبض على النبي أوريًّا، المزايد الرهيب على إرميا في حقده على السلطة الملكية والجناح العسكري، لم يتورع عن اللحاق بهذا النبي الوقح إلى مصر ومطاردته إلى أن تمَّ له القبض عليه، فجاء به إلى أورشليم وقتله أمام الملك.

فهل ستكون له نفس الشجاعة اليوم؟

تحت الشمس المحرقة التي ارتفعت فوق الأفق، كان كل شيء صامتاً. . .
فالوزراء جلسوا لا ينبسون ببنت شفة في الظل الخفيف للقاعة الكبرى الباردة،

كأنهم يخشون أن يتسرب إلى آذانهم صدى الصوت الرهيب. . . خاصة بعدما لاح لهم تحت قوس الباب المضيء، ظل، فارتعشوا من قمم رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم، إذ ظنوه شبح النبي. . . لكن ذلك كان مجرد وهم وتصور. فالشكل كان نحيلاً قلقاً، إنه قوام ناحيستا، الملكة الأم الوصية على العرش، التي كان الأنبياء يدعونها عدوة الرب.

تقدمت ناحيستا نحو الوزراء بخطوات وئيدة، يعلو رأسها أكليل مذهب. وكانت ثنايا ثوبها الفضفاض العريضة تتموج على إيقاع مشيتها المتوازنة، فيُسمع معها رنين لطيف للخلاخل والأساور التي تطوق معصميها ورجليها، وللأقراط التي تتدلى من أذنيها. وعلى مجمل ثيابها البيضاء والصفراء والزرقاء، كانت تتألق وتسطع شموس ذهبية، وأهلَّة وسجف ومشابك.

وكان كِنْيَا يتبعها كالظل الباهت، وهو في حيرة وتردد. فما أن وصل إلى أمام العرش، حتى ارتدَّ إلى الوراء بحركة نزقة، لأن والده كان حتى الأسبوع الماضي يجلس هنا. عندئذ دفعته أمه دفعاً، فارتقى بعناء وبخطوات مرتجة درجات العرش الست، وارتمى عليه منهاراً ومستسلماً إلى مصيره.

وجلست بالقرب منه أمه، فيما جلس الوزراء متحلقين وصامتين حوالي أقدامهما، بينما كان الدويّ الخافت للمجانيق البابلية يتواصل متقطعاً بلحنه المحزن المأسوي، فيطرق مسامع الجمع الجائع والمذعور.

في تلك الساعة، كان كِنْيَا يفكر بالتجارب القاسية، وبالنزع البطيء لمملكة يهوذا، والمجد الذي كانت عليه يوم اعتلى عرشها هنا الملك سليمان وهو في أوج عزِّه، محاطاً بذات الدزينة من الأسود المصنوعة من الذهب الخالص، وبحراسة المتدرعين بالدروع الذهبية. فهذا المجد لم يبق منه سوى ذكرى دنستها فظاعة القتلة، والصراعات الداخلية التي كان هذا القصر بالذات مسرحاً لها. فهل مع زوال المجد، ما زال واثقاً أن باستطاعته المحافظة على السلطة

التي ورثها وهو يافع طري العود، ويبدو أن يهوه ذاته ينازعه عليها بصوت إرميا؟

استدار الملك الصغير بوجهه القلق والشاحب نحو وزرائه، فلم يرَ إلا وجوهاً كالحة وشفاهاً مطبقة! ونزولاً عند إصراره ولجاجته، شرح ألناثان الوضع بصوت منخفض قائلاً: « يمكننا أن نقاتل أيضاً وربما ننتصر. . . ».

لكن النظر اعترض على ما فاهت به الشفاه. فمع تأكيده على الأمل، غدا صوته الذي كان خفيضاً، مبهماً وغير واضح، مما ارتدَّ عليه برؤى مخيفة التمعت في فكره.

وهنا تصاعدت ضجة عند مدخل القصر: رعاع في أسمال بالية جاؤوا يلتصقون في جدار السور، وقد انتشرت منهم رائحة العفونة. ومن مئة فم ملويٍّ بسبب الحقد والجوع والإيمان، ارتفعت صرخة غاضبة ثاقبة كأنها عواء وحش مفترس.

وانفصل من بين هذا الجمع الصائح إرميا، وتقدم بخطى بطيئة نحو القصر محدقاً بثبات. ومن جديد، عاد الصمت فخيَّم عميقاً، مما جعل الدويّ البعيد للآلات الحربية البابلية يُسمع جلياً واضحاً.

وعلى قلق الملك كِنْيَا، ها هو الآن الصوت الأجش للنبي، يردُّ بأسلوب مهين.

« إجلسا أيها الملك والملكة على الأرض، فقد سقط عرشكما، ونزل عن رؤوسكما أكليل فخركما ».

فمدَّ الوزراء الخمسة أيديهم نحو الباب كي يبعدوا اللعنة عنهم، ونهضوا كلهم واقفين أمام عاهلهم، مصممين على المطالبة باعتقال هذا الخائن. لكن إرميا الغاضب والموحى إليه من الرب، وقف على عتبة القاعة مرتعشاً رهيباً، ومن بين أصابع يديه المرفوعتين نحو السماء استدراراً للعنة، تسللت خيوط الشمس الذهبية، كأنها سهام ساقطة لتخترق قلب الملك، وقال:

« هكذا قال الرب: أنت يا كنيا بن يوياقيم، ملك يهوذا، سوف أسلمك إلى أيدي الذين يريدون قتلك، إلى يدي نبوخذنصر. في أرض الكلدانيين سأرميك أنت وأمك التي ولدتك، في أرض غريبة لم تولدا فيها، وفي هذه الأرض ستموتان ».

وبدا إرميا المقوص الظهر قليلاً، بعينيه المشتعلتين وأسنانه المكزوزة، كأنه يريد أن يتحدَّى الملك الجالس على عرشه الذهبي دون حراك، وحوله الوزراء الذين كانوا ينظرون إلى بعضهم البعض خائفين، والعرق البارد يتصبب من جباههم على وجوههم الداكنة. لكن إرميا تراجع بتمهل جاراً الجمع وراءه، وما عتَّم الأمر حتى أخذ صوته يلعلع بعيداً بهذه الكلمات:

« يا أرض يا أرض يا أرض، اسمعي كلمة الرب. هكذا قال الرب: اكتبوا هذا الإنسان عقيماً لا يفلح في أيامه ولا يفلح من ذريته أحدٌ يجلس على عرش داود ويتسلط في يهوذا من بعد. ويل للرعاة الذين يبيدون ويشتتون غنم رعيتي ».

والملكة الأم، والوزراء، والحراس الذين استدعوا إلى القصر، استمروا منهوكين لا يرتفع لهم صوت كأنهم عائدون من معركة قاسية. لقد كانوا يزفرون كل ما في رواياهم من هواء يكاد يحرق صدورهم، وهم جالسون متكتفين ومطأطئي الرؤوس. ومن على عرشه وقف الملك الصغير ليتنفس الصعداء هو الآخر، وبرفق مسح بيديه جبهته التي كان ما يزال يسمع وراءها غمغة اللعنات المخيفة للنبي، وكأنه شاء بذلك طرد الأفكار المزعجة. ثم شعر بتعب فظيع!.. فوراء العائلة المالكة في يهوذا، الحزب العسكري المحب للوطن. لكن هذا الحزب قد قُتل عشره وأصبح معزولاً عن الأمة. وبدورها الأمة غدت مهانة ومزدراة من قبل الأنبياء بسبب نزعتها القومية، وعدائها للتقوية الدينية الداعية إلى المساواة والطوباوية. ولم يبق للبلاط إلا أرستقراطية لا صلة لها بما يذكي الروح ويستهويها لدى الشعب المجتذب من قبل اللاويين. إذن ما جدوى الاستمرار في محاربة نبوخذنصر؟

بعد هذا التساؤل، قرر كنيا الاستسلام...

ومشياً على الأقدام، سار الملك الصغير، وخصيانه، وضباطه، وأمه، ونساؤه، وكل أفراد حاشيته، فاجتازوا المدينة وبصعوبة شقوا طريقهم عبر الخراب والدمار والأقذار التي كانت تسدّ الشوارع. وعند كل مفرق طرق، كان الجنود الإسرائيليون المختبئون وراء الأنقاض المنسقة للدفاع عن المدينة، يقابلونهم بالصياح الساخر وكانهم يصفعونهم على وجوههم.

وعندما فتح من أجلهم الباب الشمالي، تقدموا عبر السهل المكتظ بالجثث المنكَّل بها والمشوهة بواسطة آلات الحرب، صوب ذاك الذي قال عنه إرميا إنه « سيف الله ! ».

وكان الليل قد أرخى سدوله، والمخيم البابلي المنبسط على رقعة من الأرض واسعة، تلتمع وسط خيامه الأضواء الخفيفة، ويملأه الضجيج والصخب الممزوجان بأصوات الأبواق، وصهيل الخيول وحمحمتها، وتصادم الدروع والخوذ وغيرها من الأسلحة المعدنية الواقية.

وأمام أعلى خيمة منصوبة، كان نبوخذنصر يقف منتظراً في ظُليل المساء، وقد فتحت وراءه في الستارة الذهبية للخيمة، تقويرة تطل على أعماق قليلة الضوء، رأى كِنْيَا من خلالها سيوفاً، ودروعاً، وخوذات تلتمع... وكلها مطروحة على الأرض بإذلال ومهانة...

وحفرت الكبرياء فجأة في نفس نبوخذنصر هوة ظهر فيها كل شيء محصوراً في فكرة واحدة: إن أجوبة الآلهة على عرافيه لم تكن كاذبة، وإن امبراطوريته ستشع غلى العالم أكثر من مملكة يهوه الوهمية، وأنه لمن السخرية بمكان أن يتكلم المرء دائماً على وعود إله يخونه، في تحقيق الثروات والرغبات البشرية. فالقوة المنبعثة من إرادة مهيمنة، ومن قدرة جيش لا يقهر، هي أفضل من المثالية، بل إنها الأساس في بناء الأمبراطوريات!

صدقيًا وموكبه

كانت بابل ترقد ساكنة، وظلمة الليل الحالكة تلفها وتغمر الأسوار « والزاكورات »[1] العالية التي تشرف عليها، فتبدو العاصمة كتلة متراصة ومحشورة في نطاق عريض كثيف السكان، تشكل الأبواب فيه المغالق الكثيرة والضخمة. وكانت تشرف على هذه الكتلة القاتمة من العاصمة التي يلفها الغموض والحيرة، كتلة أكثر كثافة وأشد غموضاً، تنصب فوق الأسوار أسواراً أخرى أكثر سماكة، وفوق الأبراج المسننة وذات الشرفات، أبراجاً أخرى أشدّ مناعة، إنها أبراج القصر الملكي، ذاك العالم المغلق على نفسه في المدينة المسوَّرة.

ورويداً رويداً، أخذت ظلمة الليل تتلاشى أمام خيوط القمر. وما أن عمَّ الضياء حتى برزت الظلال الخفيفة للاخضرار، فتوجت بما تعكسه من أنوار متحركة، الجدران القرميدية الرابضة بثقل على الأرض.

وإلى جانب القصر، تحررت القلعة من الظلمة بدورها، فبرزت عظمتها، إذا كانت تغطي بجدرانها المسننة وذات الفتحات، وبأبراجها الضخمة، مربعاً فسيحاً بين الطريق المقدسة ونهر الفرات، وتشكل مدينة ثانية في قلب المدينة لا تقل رهبة عنها.

استفاق آسبيناز في القصر وأخذ يفكر في اليوم الذي يتهيأ له. فقد كان لديه إحساس داخلي بأن المقابلة التي التمسها صدقيًا من نبوخذنصر، سيكون لها انعكاسات خطيرة بالنسبة لمستقبل بابل. ففي تقديره، أنه إذا جاء صدقيا ملك

(١) الزاكورة برج ضخم مؤلف من عدة طبقات متفاوتة المساحة يمثل نموذجاً للهياكل البابلية والكلدانية.

إسرائيل بذاته هذا الصباح، وللمرة الأولى، يحمل الجزية على إسرائيل إلى سيده نبوخذنصر، فهذا يعني أنه بينه وبين نفسه يضمر غير ما يعلن.

مما لا شك فيه أن صدقيا مديون بكل شيء، إلى بابل. مديون بحياته وبعرش يهوذا. لكن عرفان الجميل صعب على الرؤوس المتوجة، فهو يحد من سلطته التي عليه أن يدفع ثمنها غالياً من كيس الشعب المدمر والمغلوب على أمره. وكان آسبيناز قد أرهف السمع إلى رغبات الثأر المنسوبة إلى صدقيا، وحذَّر سيده منها. وبصورة دائمة كان يحتج على الرفق الذي يظهره الملك تجاه أورشليم. ففي رأيه ليس كافياً تدمير قوة إسرائيل العسكرية، ولا نقل النخبة من مواطنيها إلى بابل، أي الطبقة الأرستقراطية المدنية والعسكرية، كذلك ليس كافياً إفراغ معابدها وقصورها من الكنوز، ولا تلفُ وتخريب حقولها.

فبالنسبة للكلدانيين، قد يكون هذا الخراب المادي الشامل كافياً لأن يفتت الأمة ويفككها، ويقوض أسسها، ويقضي على الرفاهية والازدهار فيها، وعلى مبرر وجودها كأمة ذات قومية. أما بالنسبة للإسرائيليين، فالأمر يختلف. فوراء الهزيمة، والشقاء، والنفي، تبقى لديهم فكرة التفوق التي لا يمكن لأية قوة بشرية أن تجابهها، لأن هذه الفكرة يستمدونها من الرب، الإله الأوحد. وقوميتهم هي في الواقع إمبريالية روحية حقيقية، وليست من صنع ارستقراطية مهتمة بمجدها وامتيازاتها ومنافعها، أكثر من اهتمامها بمجد يهوه وفرض سلطانه على الأرض. فيهوه له مكانته في قلوب الشعب، وأفراد الجيش، وخاصة في قلوب الكهنة اللاويين وسواهم من المتدينين.

لذا ينبغي على نبوخذنصر ـ ودائماً حسب رأي آسبيناز ـ أن يقضي على الشعب اليهودي برمته، أو أن ينفيه برمته، بعد أن يكون قد اقتلع مجد أورشليم وسحق كبرياءَها.

لكن ما يجري الآن هو العكس. فالأهواء في المدينة تكمن وبشكل أعنف مما كانت عليه. إذ بادر أصحاب العقيدة الإلهية إلى بناء أحلام دينية تسلطية على

الأنقاض المادية، وعززوا فكرة الانتصار الروحي. فالمثالية لا تستطيع واقعية الانتصار عمل شيء معها، إذا لم تذهب إلى النهاية في منطقها القاسي، وإذا لم تدمر كلياً الأفكار والقلوب التي تنمي هذه المثالية وتعمل على إحيائها. فحرمان المؤمن من ممتلكاته المادية، هو حافز لتقويته وإحيائه مجدداً، وخلق حمية جديدة فيه تعوض عما فاته وتقضي على الانتهازية التي سببتها الثروة والرفاهية.

وعلى الرغم من اضطرار آسبيناز أن يكون في خدمة الملك ليلاً نهاراً، فذلك لم يمنعه من الذهاب إلى ضواحي المدينة يستقصي الحقائق ويستمع إلى ما يقوله الناس. ومن الأحاديث التي سمعها من هؤلاء الإسرائيليين المنفيين إلى بابل، والذين كي يعيشوا هناك بأمان وسلام، عليهم أن يكونوا رعايا صادقين وأوفياء لسيدهم الجديد وأن يقطعوا كل صلة لهم بوطنهم القديم، ثبتت له شكوكه وظنونه.

وعبر الباب القديم للقصر، باب الإلهة بيلتي الذي يقوم على حراسته عدد من الجنود، رأى آسبيناز خليطاً من الجمع المتنافر يدخل القصر الملكي. وكان رواق الباب يفتح على فسحة واسعة من الرمل المحاط ببيوت واطئة وبيضاء، فظهرت من مسافة بعيدة جدران القصر التي كانت تارة تنتهي بمصاطب، وتارة يكسوها القرميد المبرنق فتلتمع تحت أشعة الشمس المحرقة، إذ كانت الحرارة على أشدها في ذلك اليوم، ولو قُدِّر لموازين الحرارة العصرية أن تقيسها، لجاءت النتيجة سبعين درجة في الشمس، وتسعاً وأربعين درجة في الظل. فبعد الفجر البارد، بزغت الشمس كتلة لاهبة وبسرعة ارتفعت نحو السماء، وبقيت حتى المساء تسلط على المدينة أشعتها المحرقة.

وفي ظل السور الأحمر، لمح آسبيناز حشداً من الناس المسحوقين تحت التكدس الهائل للقرميد والقار. وقد تجمهروا حول رئيسهم نبوسرسكيم. ونبوسرسكيم المذكور، هو رئيس خصيان الملك نبوخذنصر، وقد كان رجلاً ربع القامة سميناً، وزاده سمنة الجلباب الطويل الذي كان يرتديه، وهو جلباب ذو أكمام قصيرة وثنايا عريضة تمتد من أعلاه حتى عرقوبي رجليه. وتؤكد عظمة

وجلال ما هو عليه من مكانة، المطرزات اللامعة التي تتألق بشكل كشاكش، وباقات زهر، أو سجف سميكة مزخرفة بشراريب. وعلى هذا الجلباب، شال يرسم قوس قزح باهت تتمازج ألوانه مع روعة الثنايا التي تتصالب بليونة على الظهر والصدر، ثم تتهدل حتى الركبتين بسجف عريضة مزينة بحبات من اللؤلؤ البراق. وقد اعتنى نبوسرسكيم عناية خاصة بشعره، إذ كان يملّسه في أعلى الرأس لينجدل عند العنق بشكل يسترسل على الكتفين، وتتدلى منه عدة ضفائر طويلة ومجعدة بعناية فائقة.

وفيما كان نبوسرسكيم يعطي أوامره بصوت مصمّ ومزماريّ النغم، كان آسبيناز يسمع رنين الأساور البراقة التي لا تقدر في ذراعيه، والتي كانت مغالقها المصنوعة بشكل خُطُم أسود، تتلاطم بدءاً من قبضة يده حتى كتفه! وكان خصيان القصر حوله، وعددهم يربو على المئة، يشكلون وحدة منسجمة في أناقتهم الداكنة وإيقاع جلابيبهم المجرورة على الأرض، ويمدون نحو رئيسهم وجوههم المترهلة والمنتفخة والمرعبة، بعيونهم الكبيرة البيضاء التي كانوا يجولون بها مع تلك الحركة الدائمة التي يسببها التيقظ القلق.

وقد نقل أحدهم، المدعو ملسار، أوامر نبوسرسكيم إلى رفاقه كافة، وذلك بتنقله من واحد إلى آخر، وبالتكلم إليهم بصوت خفيض وغامض غموض حياتهم المجهولة، فتفرقوا بصمت وأخذوا يتوزعون ظلالاً صامتة ويقظة في عمق الأروقة المظلمة، وعلى المصاطب المغمورة بالنور، وفي السراديب المتعرجة وغرف القصر الصغيرة.

وخيَّم في كل مكان جوّ من الحزن والرعب، سببته أشباح هؤلاء الخصيان المبهمة الذين تكاثر عددهم بسرعة في بابل. فالإرسالية الأخيرة من أورشليم قد زودت الحرم وقصور العاصمة بأكثر من ألفِ منهم. وقد بدا التشويه على سحنهم الممتقعة والماكرة والمتشابهة بصورة دائمة، رغم تنوع أصولهم. وكانت أرجلهم المبلطحة والعادية تنزلق بصمت على القرميد، ونظراتهم وحدها تتبين في الظلام، حيث كان يطيب لهم مراقبة الأحاديث ليقدموا المعلومات الواجبة

عنها إلى سيدهم في المساء. ورغم كونهم بعيدين عن كل السلطات وكل المناصب التي لا يمكنهم الطموح إليها. فإن هؤلاء الخصيان، كانوا بسبب ضعفهم بالذات، الخدم الأوفياء والمحصورة بهم وحدهم الوظائف الرئيسية في البلاط.

وحول حاكم القصر الملكي، تجمع عدد من الجنود كي يتلقوا التعليمات ويستلموا عدداً من الخدم والخادمات أسرعوا للتحلق حول المدير الذي أنيط به تنظيم الحفلة التي ستقام بعد الظهر.

وكان عمال المصنع الملكي الذي يشغل القسمين الرئيسيين من البناء، قد دخلوا إلى العمل واندسوا بين الحشد. فبمناسبة المقابلة الملكية التي أضفى عليها مجيء صدقيا بريقاً خاصاً، تجمهر عدد من الناس ذوي الوجوه والألبسة الغريبة جداً. وكان هؤلاء الفضوليون يرتدون الجلابيب البسيطة المصنوعة من الصوف الصافي، وهي قصيرة بحيث لا تلامس الركبتين، مما يجعلها نافرة وسط البزات الساطعة والخاصة بالاحتفالات، التي كان بعض الموظفين الكبار يرتدونها، وقد تناثرت عليها حبات اللؤلؤ من محاذاة القدمين حتى الرأس!

والكتّاب الذين بدا عليهم وكأنهم من الفاتحين وحماة الديار، شقوا طريقهم وهم يدفعون المتسكعين دون حشمة ولا حياء. وعكس أسلوب الإثارة هذا، اجتاز فريق صغير من الرجال الفناء بخطى بطيئة واحتفالية، دون أن يختلط بعامة الناس. وكان هذا الفريق يرتدي جلابيب طويلة، وفوقها شالات كبيرة يمتزج فيها اللون الأحمر الفاقع باللون الأزرق البراق، وتتدلى شعورهم خصلات مجعدة على البشرة اللامعة الداكنة من وجوههم الهادئة. وباسم سيده، جاء آسبيناز واستقبل على عتبة هذا الباب الثاني جماعة كبار موظفي المملكة.

فعملاً بتقاليد الإمبراطورية الأشورية، وكي يدير نبوخذنصر أعمال وشؤون المملكة الداخلية، وكي يجابه حكومة الأقاليم المبعثرة والمتنافرة، وكي يؤمن العلاقات الدبلوماسية مع إمارات الإقطاعات والمماليك المجاورة، لم يستطع

الاكتفاء بالملاكات القومية، بل جمعت بابل تحت سلطتها كثيراً من الأقوام والشعوب المختلفة، كي تتمكن من أن يكون لها إدارة موحدة ترضي أهدافها. ولهذه الغاية، أنشأت ثلاثة دواوين استشارية مميزة، تستعمل كل واحدة لغة رسمية وتقاليد خاصة بها، كُلفت بإدارة ثلاث مقاطعات عرقية كبيرة في بلاد بابل، تابعة للبلاد التالية: بلاد الكلدانيين، بلاد الآراميين، عيلام وبلدان الجنوب.

ومعظم موظفي هذه الدواوين اتخذوا أماكن لهم في البناء الكبير الواقع جنوبي القاعة التي استقر بها مكتب ديوان المستشارية الكلدانية التي حُصر فيها تصريف الأعمال الداخلية، ومسؤولية الاتفاقات والمفاوضات الدقيقة التي تؤمن لبابل حرية العمل إزاء الممالك المجاورة. أما مكتب مستشارية الشعوب العيلامية، فقد كان شمالي القاعة المذكورة ولم يكن يشتمل سوى على عدد محدود من الموظفين.

وفي المقابل، ارتفعت الواجهة الحمراء لبناء المستشارية الآرامية وقد غاب وراء بابها ما بقي من موظفين، ووقف آسبيناز على عتبة هذا البناء يلاحق هؤلاء الموظفين بنظراته التي امتزجت فيها مشاعر الثقة بمشاعر الأمل. فبالنسبة إليه، إن مستقبل المملكة يتعلق بعمل هذه المستشارية التي عُهد إليها الاهتمام بإدارة وراثة نينوى، وإقطاعيات الممالك الغربية، وفينيقيا، ومملكة إسرائيل، وشبه الجزيرة العربية التي ليست الجزية عليها أبدية وهي تحلم بالتخلص من الوصاية البابلية. فعلى بابل أن تدمر هذه الممالك وتلحقها بدون قيد ولا شرط بإمبراطوريتها. والقوة ستبرر حق هذا الغزو، وسيكون من السهل بمكان، إذا اقتضت الحاجة، إيجاد مبررات سياسية واقتصادية لهذا العمل.

استفاق آسبيناز من حلمه عندما دخل رجل الفناء بخطوات مسرعة. وكان هذا الرجل ينتعل خفاً ليناً مما أضفى عليه هيئة أنيقة، ويلبس قفطاناً طويلاً وقلنسوة مقرنة دلاً على أصله الإسرائيلي. وكان الكل أمامه في الفناء يجلسون

القرفصاء، راسمين على القار شكلاً لافتاً للأنظار من الصوف المتعدد الألوان والأرجل الحافية. فتفلتت من كل الشفاه كلمة « سنغران »، ذلك الرجل الذي أقامه نبوخذنصر في أورشليم رئيساً على طائفة الكلدانيين، فبرهن عن ذكاء حادٍ في خدمة مطامح الملك، وسرعة خاطر في تجميل القوة الوحشية لمظهر الحق والعدالة المخادع !

وأما باب المستشارية، ها هو الآن واحد يذهب وآخر يجيء باستمرار. إنهم جماعة الكيبو، أو المقيمون البلديون، من سوريين، وعرب، وإسرائيليين، ومصريين، وكلهم مكلفون بمراقبة مواطنيهم لحساب سيدهم الأجنبي. وقد جاؤوا يؤدون الحساب عن مهماتهم ويكملون، بالشروحات الشفهية، التقارير الكتابية التي كانوا يبعثون بها بصورة منتظمة إلى بابل، وفي الوقت ذاته يسرِّعون استصدار القانون المتعلق بخدماتهم، ويطالبون بإلغاء السخرة العسكرية المنصوص عليها في المعاهدات.

وفي داخل قاعات المستشارية الكلدانية، تلاقى الجميع مع كبار الحكام البابليين لبلدان الجنوب وبلدان البحر الذين، بحجة أنَّ هم أيضاً عليهم أن يقدموا شخصياً تقاريرهم، كانوا سعداء بأن يتمكنوا من حضور الحفلات التي تهيأ لاستقبال ملك يهوذا.

وفيما هم يرضون فضولهم بوجودهم إلى جانب مستخدمي المستشارية، كان الشيخ نيرغالوروصر، حاكم البلد الكبير، يصغي في غرفته إلى قراءة أهمّ الرسائل التي حملها إليه سعاة البريد. ومن الرسائل التي لفتت نظره، رسالة من « بيل زيكير - إيسيس »، قائد الجبهة في الجزيرة العربية، وقد جاء فيها ما يلي:

« إلى ملك الأمم سيدي. خادمك يتمنى أن يمنحك الإلهان بعل ومردوك أياماً عديدة، وسنوات أبدية، وصولجاناً عادلاً، وعرشاً دائماً. فيما يتعلق بالمهمة التي كلفني بها الملك، سيدي، إني أكلمه عليها هكذا: كي تعلم أخبار

بلاد العرب، ها إني أبعث إليك بهذه القصة عنها: أمياتا من بلد فاز، سار ضدّ الأنباط وتمكن من سلبهم ونهبهم. ولكن ما أن أصبح بينهم، حتى أعفى عنهم. ثم دخل مدينة الملك، وها أنا الآن أرسله إلى الملك، سيدي، إذ إن الملك يريد ولا شك أن يستمع إلى القصة من فمه».

وقد عزم نيرغالوروصر بعد استقبال صدقيا، أن يقدم أمياتا إلى الملك في مقابلة خاصة.

في القاعة الكبرى، كان الكتّاب يفرزون دون توقف الطرود الضخمة للوحات التي نُقلت إليهم، لأنه كان يردهم كل يوم، ومن سائر جهات المملكة، من الأقاليم القريبة جداً حتى الأكثر بعداً، من الجبل ومن السهل، وبواسطة رسل يصلون إلى بابل، هذه المراسلات الدبلوماسية التي كانوا ينقلونها على ظهور حميرهم، وبغالهم، أو جمالهم.

وفي الباحة الكبيرة، كان الفضوليون يتحلقون تارة، وطوراً يتفرقون، حسب ما يدفعهم حب الإطلاع، ووفق حركية الغيوم والدخان. وكان هناك كاتب قديم يقود بسرعة ثلاثة من الشبان اليهود الجميلين، ولا يتخلى عنهم إطلاقاً، إذ كان نبوخذنصر، على طريقة آشوربنيبال وسنحريب، قد جاء بهؤلاء الأولاد من عائلات نبيلة في أورشليم كي يتربوا في مدرسة القصر الملكي في بابل، وفيها يتلقون ذات التربية التي يتلقاها أبناء كبار الضباط البلديين.

ومع الصراخ المنبه، كان بعض العبيد يرشون الأرض بواسطة قِرَب من جلد الماعز أو الأكباش، لأن الحرارة المرتفعة جداً، جعلت من طبقة القار المفلوش على القرميد المسطح والمصنوع من الخزف لحفظ الرطوبة، طبقة سائلة يتصاعد منها البخار الخفيف ليتماسك ويتمدد كأنه أوشحة بخارية. وكان هؤلاء العبيد يتناوبون على عملهم هذا ليلاً نهاراً، فلا يتوقفون إلا سبعة أو ثمانية أيام في السنة، تهبط خلالها الأمطار بغزارة فتعفيهم من مهمتهم اليومية.

اجتاز آسبيناز من جديد الممرّ الطويل للمستشارية الآرامية دون أن يتوقف

فيه، بل تابع سيره إلى البوابة الأثرية في عمق الفناء حيث انتصب على جدرانها الأسود المهيبة المطلية بالميناء الصفراء والزرقاء كحرس دائم وأبدي. وإلى ظليل القبة الهائلة، التجأ جمهور غفير من الناس على تباين أشكالهم وأجناسهم. فكان بينهم الفلاحون بجلابيبهم القصيرة، السميكة والمبرقشة بشكل يمجّه الذوق، كما كان بينهم السادة الأنيقون الملتفون بأوشحتهم الطويلة التي أُضيف إلى ألوانها الزاهية توشيات لامعة، كذلك نساء ينتمون إلى شعب ما، التفوا فيما يلبسون من ثياب حمراء وزرقاء حتى رقابهم، إلا أنهم تركوا أحد أكتافهم عارية. هؤلاء هم المدّعون وأصحاب الشكاوى، مع شهود ومحامين، وقد جاؤوا ليمثلوا أمام محكمة الملك نبوخذنصر، صاحبة السلطة العليا التي تشمل صلاحياتها مملكة بابل بأسرها. فمنذ عهد حمورابي، استمرّ التقليد يقضي بأن تعالج في القصر الملكي كل الشؤون الرئيسية، القضائية والسياسية.

في ذلك اليوم الشديد الحرارة، دخل آسبيناز الفناء الثالث من قصر سيده. وكان الجناح الشمالي يشغله كله بناء فسيح تعلوه قبة نحاسية عظيمة الحجم، وتبرز على واجهته أعمدة صفراء عالية تقوم على قاعدة لازوردية لها لمعية الميناء وتدعم حزاماً عريضاً مزخرفاً بالورود البيضاء المتعاقبة مع معيَّنات هندسية زرقاء وذات أُطر صفراء.

وقد جُعل لهذه الواجهة ثلاث قباب عريضة تتيح، من الفناء المذكور، رؤية قاعة العرش. في هذا المستطيل الفسيح الذي يبلغ عرضه سبعة عشر متراً وطوله اثنين وخمسين متراً، والخالي من أي زخرف سوى الفسحات الكبيرة البيضاء التي كانوا يكسونها بصورة منتظمة بطبقة جديدة من الجبس أو الكلس، لو جرت، في الوقت الحاضر، أحداث فضولية ذات بهاء ورونق، كتلك التي نتحدث عنها، لما كان بالإمكان تقبّلها بين هذه الجدران الأربعة المغفلة. مع ذلك، ولأجل تنوير أجيال المستقبل، باستطاعتنا استحضار الأحداث الأكثر جدارة بالذكر، التي عرفتها العهود الماضية.

ترك آسبيناز عن يمينه المنزلين اللذين شاء نبوخذنصر أن يحتفظ بهما في قربه إلى قائديه الأكثر شهرة، وهما: نابوردان، القائد العام للجيوش البابلية، وناريغلاصر الذي يستحق على نجاحاته، فضلاً عن مكانته، أن يصبح صهر الملك، واجتاز الفناء حتى الباب المزدوج المصنوع من البرونز الصافي. وبعد أن قطع الممر الطويل الذي يربط القصر الجميل الجديد بالمقر القديم الكالح والمتواضع لملوك بابل القدماء، دخل غرفة استقبال مظلمة استند إلى جدرانها خصيان مسنُّون وبدينون بدوا كأنهم نيام، إلا أنهم في الواقع كانوا يقظين لأن أيديهم كانت على خناجرهم.

وكان هناك ثلاثة كهنة ينتظرون في عتمة تلك الغرفة. فما أن دخل آسبيناز حتى نهضوا واقفين أمامه وتبعوه صامتين في المنزل الملكي الذي تضفي عليه سماكة الجدران مظاهر القوة والغموض. لقد رغب نبوخذنصر أن يسكن هنا حيث عاش والده، وحيث أمضى سنوات شبابه السعيدة، وحيث كان قد عاد ليمضي ساعات قصيرة من الاستراحة القلقة خلال حملة تحرير بابل.

وغرفة نبوخذنصر التي استطعنا التحقق منها، تقع في جزء من القصر كان والده نبوبولاصر قد اختاره كي يُحفظ فيه تابوته، وهو جزء مدهش مع ما هو عليه من ضيق مجال. فرغم احتجاب بريق الشمس، تسرب نور النهار بوقار من الكوة المستديرة القائمة في القبة، فجعل الاصفرار الفضي للجدران المطلية بمعجون المرمر تبرق وتلتمع. وفي زاوية أحد الجدران، حملت السبل الشهيرة للماء المحلَّى والماء المرّ والماء العذب، طاسات من الذهب الخالص.

وفي سريره الصغير الضيق والمرفوع على أرجل أسد، كان نبوخذنصر ما زال يغط في نوم عميق، فأيقظه آسبيناز بحركة لبقة وحذرة، ثم ابتعد فوراً هو والكاهنان اللذان كانا برفقته، مع أن أحد هذين الكاهنين كان «آشيبو»، أي كاهن مردوك الخاص الذي باستطاعة تعزيماته ورقياته أن تطهر المريض وتجعله سليم الجسم. والثاني كان ساحراً.

ثم دخل على الملك خصيّ بهيّ الطلعة في قلنسوته العالية وثوبه الطويل المثنّى، وقد كان هذا الخصي طبيب الملك، والكاهن الذي لم يلهم التاريخ آشوربنيبال أن يحتفظ باسمه. فمع أنه كان شخصية معتبرة، وحدهم أفراد العائلة المالكة وموظفو القصر الملكي، قبلوا بنصائحه ومعاينته التي كان يتقاضى عنها أجراً مرموقاً قدره عشرة مثاقيل عن كل معالجة تتكلل بالنجاح، وعن كل عملية جراحية سعيدة النتائج. فيما كانت التعرفة السائدة لزملائه البابليين، محددة بخمسة مثاقيل، وحتى بمثقالين اثنين فقط إذا كان المريض عبداً.

ارتدى الكهنة الثلاثة ثيابهم الطويلة البيضاء المتموجة مراعاة للجلالة الملكية، لأنهم في الغالب كانوا يحتفلون بالقداديس مجردين من كل ألبسة! وكان «هؤلاء الثلاثة رجالاً أجلاء، كاملي الوقار ذوي أهمية وسعة اطّلاع»، وفق ما يتطلبه التقليد لممارسة الأعمال الكهنوتية. وكانوا يقتسمون فيما بينهم كل الإيرادات التي يجنونها من أساليب الطب البابلي: كالصلاة، والتعزيمات، والأعمال السحرية التي كانت تعطي قيمة لعلم الصيدلة وعلم التشريح البدائي. فالديانة هي أساس الطب، وليس المرضى بالنسبة للبابليين إلا شهادة على غضب الآلهة. لذا كانوا يبعثون لمن عصى هذه الآلهة في رأيهم، هذا أو ذاك من الشياطين كي يستولي على بعض أجزاء جسد الخاطىء ويمعن في تعذيبه. وما الشياطين، بعد كل حساب، سوى الجدود الأقدمين الأسطوريين المكونين من ميكروبات، والمنفذين لانتقامات الآلهة.

كان الملك نبوخذنصر، رغم معالجة الطبيب له، ما زال يشكو من آلام حادة في مفاصله، وفي الجهة اليمنى، لكنها آلام متقطعة يرافقها قليل من الحمّى. وبما أنه لم يرتكب ذنباً، فالألم لا يمكنه أن يكون خطيراً. مع هذا، أخذ المعزِّم والساحر ينظران بقلق إلى الطبيب. ألم يؤكد البارحة بأن الملك يتألم بالتأكيد من وجع سببه التهاب المفاصل؟ ألم يرتكب خطأ في التشخيص؟

أما الطبيب، فكان يرتعش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه... وارتدى وجهه قناعاً أدكن ارتسمت عليه قسمات تعبر عن القلق الذي لا يوصف! فهو إن

كان قد أخطأ، سيسلخ جلده غداً وهو حيّ، وكل عائلته ستقطع إرباً إرباً. . . لذا خرَّ ساجداً بخضوع كلي على رجل سرير الملك، ودمدم التعيس بهذه الكلمات:

« الملك سيدي، يستمر بالتصريح بأنه دائماً في حالة مرضية، ألا تعرف هذه الحالة؟ لأني أعترف وأقرّ بأني لم أكتشف سرَّ هذا الألم ».

وبسرعة شديدة، أخرج من ردائه الواسع لوحات صغيرة، تضمنت اللوحة الأولى كتابة على ثلاثة أعمدة بصدد الظواهر المتعلقة بتشخيص الأمراض. وتضمنت اللوحة الثانية الأدوية الواجب وصفها لمجابهة المرض. أما الثالثة فقد تضمنت طريقة الاستعمال. وبصوت أجهد نفسه كي يكون حازماً. وصف الطبيب للملك علاج « النينيب » قائلاً له:

« إذا استعمل الملك هذا العلاج، فمنذ الأيام الأولى لاستعماله ستبارح الحمى الملك سيدي. مع هذا، يجب أن يعاود سيدي الملك استعمال العلاج مرة ثانية وثالثة، إلى أن يعطي كامل النتيجة المرجوة. وأنا سأعود لأستعلم عندما يصبح ترشح العرق من الملك سيدي غزيراً. وعندئذ سأرسل إلى سيدي شيئاً يلصقه على عنقه ».

لكن نبوخذنصر الذي فقد صبره من هذه الوصفات المتتابعة دون أن تشفيه، نهض واقفاً ولم يصغِ حتى للمعزّم الذي، دون كبيريقين، أنشد مرتلاً:

« إيه إيا، ملك الأبسو. انظر، فأنا الأشيبو خادمك. أنا بشير مردوك، المعزِّم الحكيم، الابن البكر لإيا. ليصبح الرجل الذي ألمسه، سالماً معافى ».

وحمل إليه الخصيان الثياب الفاخرة للحفلة التي ستقام داخل القصر. وكانت هذه الثياب مؤلفة من جلباب أبيض طويل، على سجفه أربعة صفوف من اللؤلؤ. ومن حذاء مقطع بالرسوم الحمراء والزرقاء، وزنار عريض ثُبّت فيه السيف، وبقيثار الأجداد الأقدمين المغلف بالفرو المرصع بالحجارة الثمينة. فنزعوا ثياب الملك وألبسوه معطف البلاط، وهو حلة بلا كمين طُرزت عليها زهرات لؤلؤية.

وعلى الباب، وقف اثنان من هؤلاء الخصيان مقطورين إلى عربة ذهبية صغيرة، يعلو مقدمة مِجرّها العاجي رأس أسد جامد لا يتحرك. فصعد نبوخذنصر إلى العربة ممسكاً بيده الصولجان العاجي التقليدي. ووراءه، أمسك آسبيناز بالمظلة الكبيرة الواقية من الشمس، رمز القدرة الكلية التي كان يديرها بهدوء ولطف فوق رأس الملك كأنها زهرة كبيرة، فيما كان ميلتزار يحرك المذبة، وهي قنزعة مصنوعة من ريش العصافير الطويل. وبسرعة، توجه الملك إلى قاعة العرش حيث كان مجلس وزرائه بانتظاره.

*

في هذه الأثناء، وتحت أشعة الشمس اللاهبة، كانت قافلة الجمال الطويلة التي تقل صدقيا والوفد الرسمي المرافق له، وقبائله وهداياهم، تقترب من بابل.

وقد بدا صدقيا سعيداً وهو يتحدث ممازحاً كبير حجابه سرايا، إذ كان يأمل من وراء هذه الزيارة التي سيجدد خلالها بنفسه لسيده ومولاه ولاءه وأمانته، أن يزيل الشكوك به من قلب نبوخذنصر. وإذ ذاك، تكفيه سنتان أيضاً من الاطمئنان كي ينجز عمله السياسي، ويوطد ضدَّ بابل التحالفات التي تسمح لأورشليم باسترداد ذلك الاستقلال الذي يقوي سلطة ملك يهوذا إزاء شعبه.

فالواقع أن مهمة الملك أصبحت مستحيلة في أورشليم. فالشعب الذي دأب الأنبياء الذين يزدادون يوماً بعد يوم على إثارة غرائزه الديماغوجية بشكل عنيف، أصبح ينظر إلى ملكه وكأنه عدو ليهوه، ويهوه بالنسبة لهؤلاء الرعناء هو الصديق الوحيد للشعب، وهو لا يريد مملكة تشاد على الثروات والقوة المادية التي لا يستفيد منها سوى الكبار في هذا العالم. وإمعان الأنبياء في تقويض وهدم السلطة الملكية بواسطة نبوءاتهم المغرضة ولعناتهم الافترائية، جعل هذه السلطة تضعف يوماً إثر يوم.

وحول بيت الرب، اتخذت عملية التحريض شكلاً جنونياً، فالشعب ابتهج بعذابات إسرائيل، أملاً منه بأن الملك سيكون هدف القصاص من جراء ذلك،

كما أن هذا القصاص سيطال الحزب القومي غير الشفوق، الذي هو مصدر عذابٍ للشعب، بما اتسم من كبرياء ودناءة وتكالب على الثروات.

لم يكن الشعب إذن ينتظر تحريراً من صدقيا. فالتحرير يجعل وزر السلطة الملكية ونزوات الطبقة التي تحيط بها وتقدم لها النصح، أشدَّ قساوة على الفقراء المحرومين. وحده الرب سيهبهم التحرير الحقيقي الذي يؤكده لهم الأنبياء، وهذا التحرير سيغمر نفوسهم بفرح الحياة الذي باستطاعتهم التمتع به دون امتلاك الثروات والانغماس في الملذات.

ولكن ماذا سيبقى من النبوءات، ومن هؤلاء الرعناء وإراداتهم، إذا ما تمكَّن صدقيا من تحرير مملكة يهوذا ورفع النير الأجنبي عنها، وتمكن، رغم أنف الأنبياء، من أن يعيد ليهوه كامل اعتباره وقوته الدنيوية، كما كانت الحال في عهدي سليمان وداود؟ ففي السنة المنصرمة، أي في العام ٥٩٥، استجاب بسرعة لندائه ملوك أدوم وموآب وعمون وصور وصيدون، وفي أورشليم ذاتها وقَّعوا على ميثاق سري يقضي بتوحيد جهودهم لخلع النير البابلي. أما فرعون مصر، فتوقيعه على هذا الميثاق بقي موضع شك. ولكن رغم هدنة بيلوز، ألم يكن من مصلحته أن ينضمَّ إليهم؟

وفي وجه إرميا، وضدَّ سياسته البغيضة القائمة على مماشاة السياسة البابلية، وبناء لنداء أطلقه حننيا بن عزور الذي من جعبون، نشأ حزب وطني التفَّ حوله عدد كبير من تلامذة الأنبياء. وعندما ترك صدقيا أورشليم ليقدم بذلٌ خادع الجزية إلى بابل، أدرك في الجمهور ذاته شعوره القومي الذي هزَّ كيانه وجعله يفوه بألفاظ هي بمثابة إهانة موجهة إليه، وقد عبرت عنها نبوءة حننيا إذ قال: « هكذا قال رب الجنود، إني قد كسرت نير بابل ».

كان سارايا، كبير حجاب صدقيا، أقلَّ اطمئناناً من مولاه. فالنبوءات الديماغوجية التي تقيم الشعب وتقعده، كانت تؤلمه وتحزنه. لأن في هدمها لكل مؤسسات مملكة إسرائيل، خاصة الملكية والجيش، أكثر من هزيمة

وخيانة. إنها تجعل حدود يهوذا دون دفاع ضدَّ مطامع الأجنبي، وقد عوَّدت الشعب على فكرة العبودية التامة هذه، وفقاً لمشيئة يهوه! ففي شوارع أورشليم، كان النبي الرهيب إرميا يطوف دون انقطاع، ورأسه محنيٌّ تحت نير من الخشب السميك، صنعه هو بنفسه كشهادة على السبي الذي ينتظر أورشليم، إذا ما حاولت استعادة استقلالها. وكان غضب الرب يدوي على لسانه بقوله:

« أنا صنعت الأرض والبشر والبهائم، والآن قد جعلتها كلها في يد نبوخذنصر عبدي. وأعطيته أيضاً وحوش الصحراء لتتعبد له. والأمة التي لا تجعل عنقها تحت نيره، فإني أفتقد تلك الأمة بالسيف، والجوع والوباء ».

بقي صدقيا برهة صامتاً لا يتكلم. هو يعلم جيداً بأن الخوف يسحق الإرادات ويليِّن القلوب. مع ذلك، لفت نظر كبير حجابه إلى بلاغة حننيا التي تعارض فكرة الاستسلام، وتعرف أيضاً أن تشق الطريق إلى قلوب الإسرائيليين. فهذا النبي « الأفضل » قد اقتلع عن كتفي إرميا « الأسوأ »، مع التصفيق الحاد من الجميع، النير الخشبي الكاذب وسحقه قائلاً: « هكذا قال الرب: سأكسر نير نبوخذنصر ملك بابل بعد سنتين من الزمان عن أعناق جميع الأمم ».

عندئذ ذكَّر سارايا الملك بجواب إرميا الوقح رداً على عمل حننيا: « لقد سحقت نيراً من خشب، لكنك هيأت نيراً من جديد ليحلَّ مكانه ».

فضلاً عن ذلك، أي استقبال سيرتبه المنفيون لصدقيا، خصوصاً وإن بينهم النبي حزقيال، « مؤاسي المنفيين الكبير »، عندما يرون ملكهم وقد جاء يؤدي فروض الذل والطاعة إلى بابل؟ فهل أنصار العصيان والتمرد على الظلم والطغيان، لن يفسروا هذا المسعى الدبلوماسي على أنه تنازل واستسلام مطلق؟ إن الدعاية الفعَّالة لأحآب بن قولايا ولصدقيّا بن مَعَسْيا لصالح العصيان، ربما أدت إلى إحراج الملك صدقيا. وفي كل الأحوال، إن النبيين حزقيال وسمياح لن يدعا الفرصة تفوتهما دون الانتفاع من هذه الدعاية. فكل شيء مواتٍ لهما كي يعارضا مشاريع صدقيا. وفي صباح ذلك اليوم بالذات، أُنبىء سرايا بواسطة

إسرائيلي منشق في بابل، بأن حزقيال ليس خائفاً، وأنه كي يكشف القناع عن وجه مليكه، لم يتوانَ عن نشر رسالة هجائية بشعة في الأحياء الحقيرة من بابل، تفضح ما تقوم به يهوذا، سراً، من مفاوضات وتسلح. وقد جاء في هذه الرسالة:

« إن نبوخذنصر قد لعب دوراً سماوياً، فهو معتمد يهوه ومن الواجب احترامه. أما صدقيا، فهو مذنب، لقد أقسم إلى نبوخذنصر بأنه لن يتسلح، وبأنه سيبقى وضيعاً ضعيفاً، لكنه في الواقع لم ينفكَّ عن طلب عربات الحرب والجنود من مصر. وفي عمله هذا، إهانة ليهوه الذي أعطى السلطة لنبوخذنصر. لذا سيعاقب على حنثه بيمينه، ويساق إلى بابل حيث ينال جزاء جريمته. وبالتالي فإن جيشه سيدمر وفلول الأمة ستتشتت ».

وخيَّم الصمت على صدقيا وسرايا، فيما كانت بابل عند الأفق تبدو بأسوارها وأبراجها كأنها مدرجات منضودة. ثم أخذا يتأملان كم هي مكتنفة بالأسرار هذه المدينة وكم هي رهيبة وراء سورها الثلاثي المصنوع من القرميد الأحمر. وبقدر ما كانت الأسوار والسلالم والمصطبات والحدائق تبرز واضحة جلية، بقدر ما كان اليأس يتعمق في قلبيهما.

*

كانت قاعة العرش في القصر الملكي تتصل بالأجنحة الملكية بواسطة غرف صغيرة تقع وراءها. ولم يكن النور ليتسرب إلى هذه القاعة إلا بشحٍّ وتقتير، وعبر كوات مفتوحة على الفناء الرئيسي. وكانت هناك ستائر مطرزة بالذهب والفضة ينخل النور منها إلى الممر ضئيلاً خفيف الوهج. وعلى الملاط الجبسي الذي يغطي الجدران، امتزجت انعكاسات النور الوردية مع بياض عروق اللؤلؤ التي بالكاد كانت تُميز.

وتحت قبة نحاسية غُطيت أرضها كلها حديثاً بالياقوت الأزرق، انتصب عرش ملوك بابل، شبيهاً ولا شك بعرش الغزاة الآشوريين الذي كثيراً ما شُوهد

على النقوش الأثرية البارزة قليلاً. وهذا العرش كناية عن كرسي ذي مسند ظهري، مصنوع من الذهب والفضة الخالصين، وترتكز أرجله على كروز صنوبرية من الذهب أيضاً، وعلى جنباته ومسندي اليدين تبدو رسوم المحاربين، أربعة أربعة، وقد رفعوا أذرعهم كي يسندوا عوارض العرش.

على هذا العرش جلس نبوخذنصر هادىء الأعصاب، يثقل رأسه التاج البابلي الضخم، ولا شيء يدل على اضطراب أفكاره إلا الموجات العصبية التي كانت تنتابه بين لحظة ولحظة، فتجعل رجليه المنتعلتين خفين أحمرين ترتجفان دون إدراك، كذلك يده الممسكة بالصولجان العاجي، عصا القيادة المسند إلى الأرض.

وعند أسفل العرش، كان هناك مقعد واحد بسيط جداً، أرجله بشكل أسد ولا مساند له، جلس عليه وريث العرش إيفيل ماروداخ، ابن السادسة عشرة. ووراء العرش، وقف ميلتزار وآسبيناز يهوِّيان للملك بحركة بطيئة ورتيبة.

ثم أخذ رئيس الخصيان نبوسرسكيم يُدخل الوزراء على الملك واحداً فواحداً. فكان نبوزردان، حاكم البلد وكبير الوزراء الذي عُهدت إليه قيادة الجيوش البابلية، أول الداخلين. لقد تقدم بخطى بطيئة دون أن يكون لخفيه الأزرقين أي صدى على البلاط المكون من القار والقرميد. لكن أقراط أذنيه وعقوده وأساوره التي لا تحصى، كانت تبعث رنيناً معدنياً إيقاعياً يتوافق مع مشيته الرشيقة. وقد مثل أمام الملك وعلى رأسه أكليل من الحجارة الكريمة بشكل زهرة الربيع، مما جعل رأسه يشع بألوان لا عدَّ لها. لكن هذا الإكليل يبقى، من حيث الفخامة والروعة، دون التاج المحصور لبسه بالملك والكاهن الأكبر. وبالإضافة إلى هذا الإكليل، كان نبوزردان يلبس جلباباً ذا كمين قصيرين، وشراريب عريضة، وزنار مطرز بصفوف ثلاثة من النجميات البراقة. وكما فعل الكل بعده، منذ أن اجتاز الستارة الأرجوانية، خرَّ ساجداً أمام الملك، ثم نهض ليقوم بحركة العبادة الطقسية، التي تقضي بوضع اليد اليسرى على

مقبض السيف المثبت في زناره العريض، وبرفع اليد اليمنى إلى مستوى وجهه، ثم بسطها باتجاه الملك مشدودة القبضة لا تسمح إلا ببروز الإبهام بين السبابة والإصبع الوسطى.

وما أن انتهى حاكم البلد الكبير، رئيس السحرة نيرغالوروصر، من مهمته البريدية في المستشارية الكلدانية، حتى لحق بنبوخذنصر، وقد بدا في ثوبه الطويل الأبيض والمتموج كأنه شبح عظمي. ثم جاء بعده نيرغال ساروصَّر، وزير المالية الكبير وحارس الخزينة الملكية في كوتا. فأصغر وزراء الدولة، ميليك ـ بعل ـ شوميسكوم ابن نيرغالوروصر، الذي سيخلف والده قريباً كرئيس للسحرة. فناريغلاصر الذي لم يكن أبداً أكبر سناً من ميليك ـ بعل ـ شوميسكوم، لكنه كان الرجل المرموق أكثر من أي شخص آخر، والأكثر غنىً في بابل بعد الملك، وعليه يعتمد الجناح العسكري. ثم جاء أخيراً حاكم بابل الشاب نابونيد، ذاك الذي كان نبوخذنصر يحبه كثيراً، لأنه ابن ساميا دنغا، كاهنة الإله القمر في حران، التي كانت حبه الأول للملك، وغرامه الكبير في مطلع شبابه. وكي يؤمن نبوخذنصر مستقبل ابن هذه المرأة العزيزة على قلبه، وهب والده « بالاتسو ـ إيكبي »، لقب « روبو »، أي أمير رسمي. وبموجب هذا اللقب، جاز للولد أن يتربى في البلاط. واليوم، وبالكاد بلغ العشرين من عمره، استدعاه الملك وأسند إليه وظيفة حاكم العاصمة، التي يحق له بموجبها أن يسمَّى من قبل الهيئات الرسمية: « صا ـ إيلي ـ آلي »، (الذي هو فوق المدينة)، كما يحق له أيضاً أن يسمَّى: « آبيل ـ آميل ـ صارِّيتي »، (ابن رجل المملكة).

وفكَّر نبوخذنصر أن يزوج نابونيد ابنته المفضلة نيتوكريس، ثمرة زواجه من ابنة فرعون مصر نخو، التي جعلها ذكاؤها المبكِّر موضع إعجاب الجميع في البلاط. وكي يقوم الملك بزواج مماثل يفرح قلبه ويجعله مطمئناً، فكَّر بأنه من المستحسن، ضمانة لعرشه وكي يتجنب مطامع ناريغليصار البادية على وجهه، أن يزوج هذا الأخير أيضاً واحدة من بناته الأخريات، فيبطل بهذا الزواج مطامع وجشع ذلك المتآمر.

كان أول المتهمين في هذا الاجتماع وزير المالية نيرغال ـ ساروصَّر، الذي تكلم باحترام، فأنبأ سيده بأن جباية الأتاوات المتوجبة على الولايات والمدن الخاضعة لسلطان بابل بواسطة الفاتحين أو الحلفاء، تتلاحق بشروط مرضية، وأنه قد تمَّ حتى الآن جباية الثلاثين « تالان » المتوجبة على آرباد، والمئة « تالان » المتوجبة على قرقميش، والثلاثين المتوجبة على مدينة كيوخا، والخمسين المتوجبة على ماجيدو، والخمسة عشر المتوجبة على مانوتسوات، والخمسة عشر المتوجبة على مدينة كلش، والأربعة المتوجبة على الضواحي القريبة من المدينة ذاتها، والثلاثين المتوجبة على الضواحي البعيدة عنها. وأخيراً العشرة « تالان » المتوجبة على مدينة أنيل. وفي داخل المملكة، تستوفى الغرامات أيضاً من دون صعوبات. فالبلد مدين إلى انتصارات الملك التي حققت الرخاء والازدهار، فسمحت للجميع بأن يقدروا حصيلة المجهود الضريبي المحدد رَصْدَهُ بدقة وعناية، عكس مفهومنا العصري للضرائب. ففي كل ولاية، وفي كل مقاطعة وحاضرة، هناك أسس للتنظيم الإداري للمملكة، وهذه الأسس تحدد الضرائب اتفاقياً بواسطة الإدارة المركزية للمالية، ويتمّ التصرف بها بصورة مرضية.

فحاكم القصر الملكي، « ميل هيكال »، يرى من المفيد أن تتحمل مدينة « أليحلو » ثلثي المصاريف الضرورية لتأمين « سلامة الأبواب ». بالإضافة إلى ذلك، عليها أن تدفع عدة « تالانات » من أجل الخدمات التنجيمية، وثلاثة « تالانات » من أجل ملابس الملك ذات السجف، و « تالانين » من أجل الملابس الملكية الأرجوانية، و « تالانين » من أجل صيانة العرش. ولم يسقط من حساب وزير المالية أيضاً واجب دفع العشر من قبل خدم القصر الملكي مقابل امتيازاتهم، وعلى أساس: تالانان اثنان من القائد العام. خمسة من خدم السرّيات. اثنان من النجارين، ذكوراً وأناثاً. وواحد من مدير الموسيقى. وهكذا تتلاحق الجباية، من خدم المطابخ إلى خدم مخزن الغلال وسائر زملائهم، حتى تبلغ في النهاية مئة وتسعين « تالان » وعشرة قبضات، أي أقل سبعة « تالانات »

وعشرة قبضات مما هو مطلوب كتقديرات للخزينة.

توقف وزير المالية عن الكلام واتجهت كل الأنظار إلى الملك. وساد الصمت عميقاً لدرجة أن كل واحد قد أمسك أنفاسه خوفاً من أن يعكر مزاجه. ورأى الكل على وجه نبوخذنصر الهادىء غضباً أصمَّ يرتسم ويلون خديه الشاحبين بموجات عريضة من الأحمر الأرجواني. فإذا كان هناك عجز في الميزانية، فهذا يعني بأن الضرائب، رغم التصاريح المطمئنة لحكام المقاطعات التي نقل وزير المالية أصداءها المرضية، لا ترد بصورة منتظمة.

وهنا زعم البعض بأن هذه الضرائب تختلس، وأن المختلسين يتذرعون بالامتيازات التي على الملك أن لا يتساهل بأمرها. فالضرائب الواجبة على المعابد، ولم يقدم عنها أي تقرير، يجب أن تدفع بانتظام. فالكهنة ميَّالون كثيراً إلى التخلص من الوصاية الملكية، وإلى توسيع امتيازاتهم وتكثيف كنوزهم.

وهناك مكلفون مهملون ببساطة، أو بدو رحَّل يأملون الهرب من الجباة. كالمزارعين، ومربيي الحيوانات، وصيادي الأسماك، والنوتيين في الأنهر والقنوات.

وكان نبوخذنصر قبل أن يعقد مجلسه، قد استشار اللوحات التي تكشف ما يتوجب على كل طبقة اجتماعية، فعرف جيداً بأنهم يحجبون الحقيقة عنه، فقرر وضع حدٍّ للكذب. إنه يريد معرفة كل شيء يتعلق بخزينته، وبما حُرمت منه وضاع عليها، حتى آخر مثقال، وآخر عربة حنطور. لذا أمر بأن يستدعوا إليه على جناح السرعة، ضباط المعابد ومحصِّلي الضرائب في الولايات، كي يؤدوا له الحساب. والويل لرؤوسهم، إن كانت ضمائرهم مضطربة!

وبدا وجه الملك مرعباً مخيفاً... فتراجع الكل إلى الوراء! وبرق غضبه كأنه إضاءة مفاجئة، فرأى على وجوه وزرائه الممتقعة، كل التواطؤات الاحتيالية. وبصوت ساخط، استدعى إليه كاتباً. وما هي لحظات، حتى انحنى

رأس حليق على قدميه، وكتب على الطين الطري الأمر الملحّ الذي أملاه الفم الملكي:

« عندما ترى هذه اللوحة، على كل رؤساء بيوت الآلهة أن يقدموا إليك حساباتهم. ليحملوها إليك كلهم! أرسلها إلى بابل. ليسلموا حساباتهم، وليسافروا ليلاً نهاراً ».

فعلت الصفرة الشديدة وجه نيرغالوروصر، وغمره الخوف، واقترح استدعاء رعاة قطعان الملك وكهان الهياكل إلى بابل كي يقدموا حساباتهم، لأن القطعان المنتشرة في كل الولايات، والتي فُوِّض إليهم أمر حراستها، هي المصدر الرئيسي لإيرادات الخزينة الملكية. وقد لا يكون لدى الحكام الهمة الكافية لمراقبتهم، كما هي الحال بالنسبة لحمايتهم. لذا من المستحسن أن يدركوا تيقُّظ الملك وتنبُّهه.

وانفجر من جديد الغضب الذي كان يشد الخناق على نبوخذنصر، فدوَّن الكاتب على الطين إرادته هذه:

« هكذا يقول نبوخذنصر إلى الحكام: عندما تصلك هذه اللوحة، إبعث للمثول أمامي الرعاة السبعة والأربعين لمقاطعة النهر، كي يؤدوا ما عليهم من حساب ».

في هذه الأثناء، كان الوزراء كلهم وقوفاً، وقد كتَّفوا أيديهم وحنوا رؤوسهم. وفيما كانا نيرغالوروصر ينتصب متعجرفاً بقامته النحيلة، استدار نبوخذنصر نحو نابونيد، وسأله بدوره عن امتيازات الأراضي التي تخص الملك، مبدياً رغبته، وفقاً للتقليد السنوي، بأن يوزع بعضها على خدمه وجنوده تقديراً لوفائهم واعترافاً بجميلهم.

وبناء لاقتراح نابونيد، وافق الملك على ما يلي: منح قطعة أرض لسين موستال، وقطعة لإيلي إيديَّمان، وقطعة لإيلي إيسمان». وعلى قرميدة من

الخزف قدمها له الكاتب، وضع نبوخذنصر ختمه تصديقاً لإرادته الملكية، وكي تصبح هذه القرميدة بمثابة عقد وصك تملُّك للمنتفع السعيد.

وشاء الملك بعد ذلك، أن يطمئن من نبوزردان عن سيد عملية التطويع في الجيش، ذلك الجيش الضروري لسلامة المملكة، والذي بدونه ستتبخر كل أحلام نبوخذنصر في الغزو والفتوحات. فأخذ نابونيد يطلعه على الإحصاءات المتعلقة بكل ولاية، وعلى أهمية كل وحدة عسكرية، ونسبة المعفيين من الخدمة، ونسبة الجنود المرتزقة. وبعد أن وافق الملك على المكافآت والعقوبات، وعلى التنويهات والتأنيبات، ألحَّ على التشدد أكثر في منح الإعفاءات من الخدمة، وفي قبول الفديات، لأن هذه الفديات أسهمت إلى حد كبير في انهيار الجيش الآشوري المزدحم بالمرتزقة. وأخيراً طلب من قائد جيشه بأن يطبق، بكل قساوة، المادة السادسة والعشرين من قانون حمورابي، التي تنصُّ على ما يلي:

« إذا تلقى أحد الضباط أو أحد رجال الجيش، أمراً للسير في غزوة ملكية ولم يسر، فهذا الضابط يستحق الموت، حتى وإن استناب عنه مرتزقاً. ويحق لبديله أن يأخذ منزله ».

علاوة على ذلك، وكي يصبح الجيش البابلي مجهزاً على نطاق واسع بالأعتدة الحربية وبكل ما يلزمه، قرر نبوخذنصر توظيف الثروات لتحقيق هدفه. فكل واحد من الذين يعيشون في بحبوحة، ولا تسمح أعمارهم أو عاهاتهم بالخدمة العسكرية في حالة الحرب، عليه أن يدفع ضريبة تساعد على تجهيز وتطويع مرتزق يحل مكانه، عندما يقتضي الأمر مواجهة العدو.

وبعد أن اتخذ نبوخذنصر هذا القرار، مثل بين يديه حاكم القصر الذي خلف عن جدارة « بعل - حران - بيلوزور » الشهير، وقدَّم له رسالة مستعجلة نقلها إليه ساعي البريد لتوه. فقرأ أحد الكتبة تلك اللوحة الموجهة من « بيليبني »، وفيها يعتذر للمرة الثانية، عن عدم تمكنه من المجيء لمقابلة

الملك. وفي الوقت ذاته، يطلب منح الحظوة لهكذا مقابلة إلى صديقه موشازيب ـ مردوك. فأملى للحال نبوخذنصر على الكاتب الجواب الذي كان ساعي البريد بانتظاره:

« رسالة من الملك إلى بيليبني الذي يتمتع بالحظوة الملكية: سأعمل كي يكون قلبك راضياً. بخصوص موشازيب ـ مردوك الذي أعلمتني عنه، في الوقت المناسب سيكون مثوله أمامي مقبولاً، وسأحدد طريق قدميه ».

عندئذ، أخذ الجمع المحتشد في الخارج يتكاثف حول القصر. ففي الشوراع، وفي الساحات، وحتى في قاعة العرش، انتشرت هذه الإشاعة التي مصدرها بوابات المدينة والضواحي: إن صدقيًّا وموكبه يصعدان نحو القصر!

واحتشدت الجموع بنوع خاص في الطريق المقدس، حيث أخذت تتماوج صفوفاً طويلة وتتعرش الجدران الحمراء الملطخة بالقار، فتبدو هذه الأشكال البشرية عليها كأنها عناقيد متحركة.

وبين هذا الحشد الذي خيَّم عليه فجأة الصمت الذي تفرضه لحظة الانتظار الخاطفة للأبصار، شقَّ طريقه بصعوبة موكب طويل من الجمال المتنوعة، التي كانت الأحمال الثقيلة على ظهورها تتمايل بإيقاع مرن وفق مشيتها الرتيبة المتهادية. إنها الإتاوات والهدايا المنقولة من أورشليم إلى بابل. وأمام هذه الثروات المدهشة، عبَّرت نظرات الشعب عمَّا لم تستطع أن تعبِّر عنه الشفاه. عبرت عن زهوها وطمعها، فأخذ بعض الأولاد العراة تقريباً، الذين كانت جلودهم تلتمع كالذهب تحت الأساور النحاسية التي وحدها كستها، ينزلقون إلى الصف الأول ويلهون برقص وشقلبة بعض السعادين الصغيرة، وهي تقفز كيفياً من جمل عادي إلى جمل وحيد السَّنام. وفجأة توقفت القهقهات في حناجر الأطفال، إذ كمت الدهشة والإعجاب الشديدان أفواههم، عندما خطف أبصارهم مشهد الإسرائيليين النحيلين والطوال القامات، وقد ساروا أرتالاً

يحملون الكؤوس والقارورات والآنية الذهبية، ليقدموها إلى نبوخذنصر. وكان وراءهم صدقياً، يسير وحده متبوعاً بسرايا، الكاهن الأول.

الجماهير كلها كانت تنتظر هذا الملك البائس، وقد بدا لها شيئاً غريباً! إذ كيف يستطيع شعب قبول مملكة تحرمه مثل هذه الثروات؟! وتطاولت الأعناق كلها لترى صدقيا، فيما كان ملك اليهود يسير ولا ينظر إلا أمامه، ودائماً تلاصقه الضجة المبهمة المنطلقة من تلك الجماهير. وما أن وصل إلى نهاية الطريق المقدس، حتى التفت إلى شماله وأخذ يتأمل مرتعشاً، وبعينين اتسعت حدقتاهما، المصطبات العالية لقصر نبوخذنصر، الملك الذي يضمر له الغدر والخيانة.

وبرز على عتبة البوابة العريضة، الهيكل الدقيق لنبوسرسكيم، المولج بإدخال البعثات الأجنبية، فبدا في وهج الشمس الساطعة على واجهة القصر كشبح أسود. وما أن أصبح صدقيا على بعد خطوات منه، حتى سار ببطء، خافض العينين، مكتوف اليدين، وتقدم ملك يهوذا إلى داخل قاعة العرش، حيث اصطفّ كل رجالات البلاط وكبار الموظفين. ففوجىء صدقيا بالظل المخيم على القاعة، ووقف برهة جامداً لا يتحرك.

ومن على عرشه نبوخذنصر، انحنى قليلاً... لقد شاء اكتشاف السر الدفين وراء اصفرار الوجه الدقيق وذي الأنف المعقوف لصدقيا. لكن أمام التساؤل الملحّ لعينيه، استترت النظرة الثاقبة لملك يهوذا وراء الجفون المسدلة في الظل المخادع للأهداب الطويلة السوداء. ثم تقدم متبوعاً بسرايا وحاملي الإتاوات نحو العرش، وسجدوا جميعهم ليقبلوا الأرض أمام السيد المجيد، الذي يستمد منه صدقيا كل سلطته الملكية على أورشليم.

وعلى أصلابهم المنحية، انفجر غضب نبوخذنصر بهذا الكلام العنيف:

« إن السلم قائم الآن بين يهوذا وبابل. ولكن، هل إن يهوذا جادة حقيقة في التمسك بهذا السلم بكل الوسائل الممكنة؟ إن نبوخذنصر يعلم بأن صدقيا،

بالرغم من حقوق السيادة البابلية، وبالرغم من المعاهدات، قد استقبل بحفاوة سفراء فرعون، وسفراء موآب، وسفراء آخرين أيضاً. . . وأنهم كلهم قد تآمروا ضدَّ بابل. فعلى صدقيا من الآن فصاعداً، أن يصمَّ أذنيه عن النصائح الغادرة لكل هؤلاء الملوك المشاغبين، وإلا، فالحرب بيننا. . . ».

فاه نبوخذنصر بهذا الكلام، وانتصب مخيفاً مرعباً ليضع حداً لهذه المقابلة. وفيما الوزراء صامتون، نهض صدقيا مرتجفاً، والعرق ينساب على وجهه القاتم، وقلبه يخفق خفقاناً شديداً جعله يشعر بأن هذه الخفقات المضطربة والمعبرة عن تأثره، قد أفشت مكنونات صدره. فألقى على سرايا نظرة بائسة، انهارت معها كل الآمال الجنونية بالتحرر والانعتاق.

إذن، هناك من خان، والخيانة تلاحقه! فمن هم الخائنون يا ترى؟ إن جماعة يهوه وحدهم، باستطاعتهم الخيانة. فهم يتصلون ببعضهم البعض يومياً عبر البادية الكبيرة، ولنبوءاتهم المجرمة أصداؤها. وأكاذيبهم المتجنية ونشراتهم الهجائية الكاذبة، خير مروِّج للأخبار الملفقة. وذلك الانهزامي حزقيال في بابل، ليس سوى نسخة مطابقة للعنات إرميا في أورشليم. إن الخيانة قد أعطت ثمارها، وبفضلها يأمل أنبياء الشر هؤلاء استبدال سلطة ملك يهوذا، بسلطة روحية يكونون هم المستفيدون منها. فبينما كان صدقيا يقدم بخضوع إلى نبوخذنصر الإتاوات والهدايا من إسرائيل، كانت ترن في أذنيه اللهجة اللاذعة والعنيفة لهذه الكلمات التي ودعه بها إرميا قبل سفره.

« كي يسلم رأسك يا صدقيا، عليك أن تحني عنقك. فيهوه قد لفظ حكم الموت على كل من لا يخضع لملك بابل ».

*

إن اليأس الذي أصاب صدقيا كان يأساً موجعاً وأليماً. فكل الجهود التي بذلها لإيقاظ روح المواطنية لدى الأمة اليهودية، وكل النشاط الدبلوماسي الذي قام به ليؤمن لأورشليم حلفاء مستعدين لمقاومة بابل، وذلك الذل ذاته الذي لم

يقبل به إلا لترقيد الشكوك والشبهات لدى نبوخذنصر، كلها قد ذهبت أدراج الرياح. لقد انهار كل شيء نتيجة لتوافق مطامح نبوخذنصر مع أحقاد إرميا. ففيما كان صدقيا منذ قليل يسمع زمجرة نبوخذنصر تدوي غضباً في أذنيه وتتساقط كلماته كالصواعق على رأسه، شعر جيداً بأن هذه الغضبة ليست سوى صدى للعنات إرميا.

لكن في قلوب أولئك الذين هم من أصله ونسبه، والذين أُبعدوا إلى هنا بعد الطاعة والخضوع منذ أربع سنوات، ألا توجد مشاعر أخرى؟ فأين حنينهم لمملكة إسرائيل وهيكلها، وللمصائر والأقدار الباهرة التي وعدهم بها يهوه؟ ألا يشعرون بقساوة نير بابل المتغطرسة، وبماديتها الطاغية؟ إنه يريد أن يرى هؤلاء المنفيين، وأن يشعرهم بانحطاطهم، ويحضّرهم للثورة والانتفاضة التحررية عندما سيأتي برفقة جيشه وجيش الفرعون. لذا طلب إلى سرايا بأن يسير به على طول القنوات، باتجاه قرى تل ميلاح، وتل هرسا، وكاروب، وآدان. هذه القرى المأهولة باليهود دون سواهم، حيث يتعاطون الأعمال الزراعية.

بقي سرايا جامداً لا يتحرك، وقد ساورته الشكوك. فهؤلاء الإسرائيليون لا يجوز الاعتماد عليهم، لأنهم لا يريدون أن تثور أورشليم ضد بابل. ربما كانت قلوبهم ما زالت وفيّة ليهوه، إلا أنهم أصبحوا مواطنين بابليين. فعدا أن نبوخذنصر لم يجردهم من كل ما يملكون، سهَّل لهم شراء الأراضي، فغدت أكثريتهم الآن راضية عن مصيرها، بعد أن أمَّن لهم ازدهار بابل السريع والتوسع المتواصل والمتزايد لنشاطها الاقتصادي، الكسب والفائدة. لقد باتوا بجسدهم مع بابل، وبقوا بروحهم مع الوطن الروحي الذي هم مستعدون لبسطه على العالم أجمع. أما وطنهم المادي، فقد كان ذاك الذي يؤمن لهم المال، تلك القوة التي بواسطتها كانوا ينوون فتح العالم باسم يهوه.

مع كل هذا، لم يشأ صدقيا أن ييأس. فواجبه كملك يقضي عليه بأن يقوم بمسعى أخير، وقد أجبر سرايا على أن يشاركه في هذا المسعى. فعند هبوط الليل، سار على طول نهر الفرات حتى بلغ مدينة الحلة. وكان كلما اقترب من

المدينة المذكورة، يرى نوراً أحمر يزداد سطوعاً في السماء المظلمة، وحزماً من الشرارات النارية تبثق من الأُتن الهائلة التي تؤمن شيَّ القرميد الذي كان نبوخذنصر، بواسطته، يشيد قصوره ومعابده البهية.

ومن بين أسرى الحرب في الحلة الذين كان التشويه ظاهراً على لحومهم، إذ كانوا نصف عراة ومقوسي الظهور لتأمين هذا العمل الشاق ليلاً نهاراً، عرف صدقيا أبناء إسرائيل الذين بقوا حتى اللحظة الأخيرة يقاتلون نبوخذنصر دفاعاً عن الاستقلال والحرية. لقد عرف أحآب بن قوليا، وصدقيَّا بن معسيا، اللذين خلقا ليفهمـاه، وما زالا محافظين على شعلة الأمل. ولكن في خدمة هذا الأمل، أية قوة يمكنهما أن يوفراها؟

إن قلب صدقيا قد انعصر ألماً على أبناء وطنه عندما رآهم في هذه الحالة من الشقاء والبؤس، مشدودين دون أية فكرة إلى مهمتهم الفظيعة، بينما الذين أنكروا إلههم وأنكروا وطنهم في تل ميلاح وتل هرسا، وهم العدد الأكبر من اليهود المنفيين، قد انضموا بكليتهم إلى المنتصر وباتوا مسرورين بالمضاربات التجارية في النهار، وبالتنعم في المساء بالنداوة اللطيفة على مصطبات المنازل الفخمة التي يقطنونها، حيث كان العبيد يتسابقون إلى خدمتهم.

وإلى الشمال من نهر كيبار، تلك القناة العظيمة التي حفرها نبوخذنصر كي يربط نهر الفرات بنهر دجلة ويعزز القوة الاقتصادية لبابل، لمح صدقيَّا الأضواء تلتمع في تل أبيب. فهناك، حول المنزل الصغير لحزقيال بن بوزي، تجمعت العشائر الإسرائيلية الوفية لعادات وتقاليد أورشليم. ولكن ما جدوى الذهاب إليهم؟ فحزقيال يكرز بهم دون انقطاع، حاثاً إياهم على الطاعة والخضوع لبابل، فضلاً عن أعمالهم الناجحة فيها.

وصدقيا يعلم، بأن أخبار عناده في المقاومة ودسائسه ودسائس حزبه من أجل التحرير، التي ينقلها إلى حزقيال كل يوم أحد التجار أو عبد منشق وفارٌ من

أورشليم، جعلت حزقيال ينعته بالراعي السيء المسؤول عن غضب الرب وإذلال شعبه.

وإذا كانت هذه العشائر لم تزل وفيَّة ليهوه، فحتماً ستكون ضدَّ صدقيا الذي لعنه الرب، والذي سيثبت له هلاكه باستخدامه سيف نبوخذنصر. فحزقيال مثله مثل إرميا، يؤكد لهذه العشائر بأن العودة التي تحلم بها إلى أورشليم، لن تتحقق إلا بعد إتمام العقاب، كما جاء في قول الرب على لسان إرميا:

« من الآن فصاعداً سأكون الراعي الوحيد لإسرائيل، فإسرائيل قد عرفت رعاة سيئين، مما جعل القطيع يتشتت. ولكن سيأتي يوم انصف فيه النعاج ضدّ الأكباش والتيوس، وأقيم عليها راعياً واحداً. فابقوا الآن خاضعين لبابل، لأن الرب هكذا يريدكم ».

فأقلع صدقيا عن النضال المستحيل. إذ أية حقائق يمكنه أن يقدمها، أكثر سطوعاً من تلك التي قدمتها لأبناء وطنه بابل، ملكة التجارة العالمية، بالإضافة إلى الأمل الذي كان حزقيال في عظيم تقواه يسكِّن به حنينهم إلى الوطن. وهو الأمل المتجدد دائماً، والذي لن يبقى خائباً في المستقبل القريب، حيث سيسود يهوه على الكرة الأرضية كلها؟

ثم جاء سرايا إلى أمام الملك برجل كان يتتبع طريقهما، وقد عرف فيه واحداً من أولئك الرسل الذين دأبوا على نقل أخبار وطنهم إلى المنفيين في بابل. إنه رجل مسكين هزيل البنية، سلَّم إلى صدقيا لوحة الطين التي كان يحملها وهو يرتجف. ففك صدقيا رموزها الآرامية التي بالكاد استطاع تمييزها تحت ضوء القمر، وقد جاء فيها ما يلي:

« هكذا قال رب الجنود إله إسرائيل لكل المنفيين الذين أجلاهم نبوخذنصر إلى بابل: أبنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا من ثمرها. اتخذوا نساء ولِدُوا بنين وبنات واتخذوا لبنيكم نساء واجعلوا بناتكم لرجال وليلدن بنين وبنات وأكثروا هناك ولا تقلوا. اطلبوا سلام المدينة التي أجليتكم

إليها وصلوا من أجلها فإنه بسلامها يكون لكم سلام. وعند إتمام سبعين سنة في بابل أفتقدكم وأقيم لكم كلمتي الصالحة بإعادتكم إلى هذا الموضع».

فسأل صدقيا الرجل، من أين جاء بهذه اللوحة؟ فعرف أنها قد سلمت إليه من قبل ألعاسة بن شافان وجمريا بن حِلْقِيَّا، اللذين تسلماها بدورهما من إرميا مع أمر بأن تقرأ في الساحات العامة. فصاح قائلاً:

- إنه إرميا! دائماً إرميا!

وأخذه العجب كيف انقلب بهذه السرعة ألعاسة وجمريا اللذين كان يثق بهما، واللذين بعث بهما إلى نبوخذنصر في بابل كي يرتبا قضية الإتاوات والهدايا التي هي موضوع رحلته مع صحبه اليوم.

فرجع القهقرى إلى بابل حيث حرسه بانتظاره كي يعود إلى أورشليم. وكانت مئة فكرة تدوّم في رأسه وهو في الطريق، وتلاحقه الأشباح في العتمة فيرتعش، ويتوضح في ذهنه الشعور بخيانة الأنبياء فيسبب له حزناً ساحقاً. وبسرعة بلغ أبواب تلك المدينة التي لم تجعلها الثروة إطلاقاً متغطرسة وفظة بهذا المقدار. وعندما خرج من العتمة الكثيفة للأسوار، ووجد نفسه وسط سهل ساكن يغمره نور القمر البارد، توقف ذاهلاً مرتبكاً! فبابل كانت تغفو وراءه جبارة وغامضة في جمودها الطيفي، فيما القمر يبرز كل البنايات الضخمة التي ارتفعت في فراغ الزرقة القاتمة المضاءة بالنجوم. وتحت سحر السماء المتلألئة كأنها في عيد، لم تبدُ بابل إطلاقاً في قوتها وعظمتها الهائلة، أكثر جدارة لأن تكون عاصمة المطامح الوحشية والأنانيات الفظة.

قفل صدقيا عائداً إلى أورشليم التي كانت هناك، في البعيد البعيد وراء الأفق... لكن الحزن مقيم في عمق قلبه. أليست عاصمته، عاصمة مملكة يهوذا التي سلمها الأنبياء إلى العدو، بل سلّمها الخونة بكل تأكيد، هي كبابل بالنسبة إليه، غريبة ومبهمة؟!

عشتار

بعد أن غابت الشمس وراء الأسوار الحمراء، وغمرت العتمة الكثيفة الدافئة الأزقة في بابل، بدت في الجَلَد الملطف بالنداوة الوردية، قباب المعابد، تلك الرؤوس الحادة للزاكورات الحمراء كالجمر، كأنها تحترق. وبسرعة كبيرة، تلاصقت الألوان في السماء، من الأرجواني إلى الذهبي، ومن الذهبي إلى الأخضر المائل للزرقة. وفي الظلمة التي لفَّت المدينة كلها، أُنيرت بعض الأضواء الغامضة. ثم ما لبثت هذه الأضواء أن تكاثرت بسرعة وأصبحت واضحة وجلية، وعادت معها لتلد من جديد، الحياة التي لم تعد مديونة أبداً للشغف بالأعمال التجارية التي تشغل الناس والأشياء طوال النهار. فمساء ذلك اليوم الذي بدت تباشيره، ستجتاح المدينة موجة عارمة من البهجة والسرور والنشوة والترنح!

فبابل ستحتفل في ذلك اليوم الواقع فيه السادس من شهر آب، بعيد عشتار، الإلهة التي ترعى الولادة، والحرب، وتفتّح الطبيعة، وخصوصاً ممارسات الحب المقدسة!!

ويُعرف هذا العيد في التاريخ باسم «ساسي»، وهو رمز شامل لشهوات البشر القصوى، فيه تدعو الإلهة عشتار كل البشر إلى هياكلها، فيسرع إليها الشعب الوضيع تضج في نفسه الشهوات والملذات المسعورة، كذلك يأتي الملك بحماس كبير ليشترك في هذا الاحتفال مدفوعاً بالوحي الإلهي، ومتمنياً أن يكون جواب الآلهة على تساؤله متوافقاً مع أهوائه وشهواته. إذن، من الشعب حتى الملك، مروراً بأصحاب المقامات الرفيعة، فالجنود، والقضاة،

والبرجوازيون، كلهم يشاركون في لعبة الحب هذه من أجل الإلهة. وفي القصر الملكي كما في الأكواخ الحقيرة، كل فتيات بابل البالغات يحلمن أيضاً بعشتار، لأن الليلة المشتهاة والرهيبة قد جاءت أخيراً... وعليهن خلالها أن يضحين ببكاراتهن في سبيل الإلهة! لذا تكون فترة الانتظار بالنسبة إليهن، فترة قلق مثيرة...

وفي ضواحي المدينة تتألف المواكب، وتضيء المشاعل المدخنة أشباحاً مثيرة للضحك، بأقنعتها البشعة وبهارجها الكرنفالية، عندما يتخلون ببساطة عن ألبسة «السكيت». وفي هالة من النور المتحرك والمتذبذب، المترافق مع الصرخات والأغاني الحادة، تجتاز المواكب المدينة عبر أزقتها المعتمة، ثم تتباعد عن بعضها وتقترب، لتتجمع أخيراً على الأسوار العالية مشيعة البهجة بصراخها الفرح وألوانها الفاقعة. وتختلط الأناشيد الداعرة بالصلوات الرتيبة التي تتوسل حماية الإلهة!! وأخيراً تنفجر الضجة كأنها سهم ناري انطلق عالياً، وتتجه كل المواكب نحو القصر الملكي حيث يكون نبوخذنصر بانتظارها.

والهدف من توجه الشعب إلى القصر الملكي، هو البحث عن العبد الذي يودون تنصيبه ملكاً على بابل، وتمجيده لمدة خمسة أيام وسط سكر الشعب وعربدته...

وفي القصور الأخرى، كانت مواكب أخرى تختار من بين العبيد أحطَّهم، سيداً عليها! ثم تُرفع الستارة عن أعمال الفسق والفجور التي تدوم خمسة أيام يعصف خلالها في بابل جنون العيد، فلا يبقى واحد إلا ويتخذ له مظهراً استشباحياً يثير الضحك والسخرية. ويصبح عالم بابل عالماً مقلوباً، فتغدو المدينة تخصُّ الرعاع وملوكهم الكرنفاليين، بينما كبار القوم فيها يبقون من دون خدمة. وينتفي كل امتياز إلا امتياز العيش بفرح، وكل شعور إلا الشعور بالغبطة التي تملأ قلوب أكثر الناس وضاعة وحقارة. وهكذا تمضي الأيام الخمسة في نشوة أسطورية تبدو معها لأصحاب هذه القلوب الساذجة بأنها لا تخضع لأي معيار عام للوقت، وأنها تعويضاً لأيام الشقاء الطويلة التي عاشوها.

وشاء نبوخذنصر أن يعزز سلطته ويزيدها وقاراً بواسطة هذه التقاليد الشعبية المفرحة. عدا أن اشتراك السلطة الملكية بهذه التقاليد يؤمّن لها عدم ارتدادها عليها. فسميراميس التي كانت أمة في قصر نينوى، تمكنت باستغلالها الاحتفالات بعيد الإلهة عشتار، من أن تجلس بواسطة الشعب المنتشي على العرش الملكي، وأن تعرف كيف تحافظ على هذه السلطة العابرة!

هذا العيد لعشتار الذي لم تُحتمل تقاليده بصورة دائمة، هو حقيقة راهنة. فالفسق والمجون كانا من أقدم وأكثر الممارسات احتراماً لدى الشعب. والجدود الأقدمون في العصور السحيقة قبل الطوفان، كانوا يحتفلون بعيد عشتار في الخامس من شهر آب، وكانت الإلهة المذكورة تحدد في هذا اليوم مصائرهم بواسطة الكهنة الوسطاء، وأشهر المصائر التي حددتها لم تتعدَّ تعاقب الأحداث المدونة في تاريخ الشعب البابلي. وقد حدث ذلك في سيبار، عندما الملك عنمادورنكي المؤتمن على الأسرار الإلهية ومبتكر التنبؤ والتنجيم، طلب من الإلهة أن تحدد مصائر ملك بلاد الكلدانيين.

تابعت المواكب الشعبية مسيرة الغبطة والفرح العارم وراء ملوكها المزيفين والمتنكّرين في المدينة، وذلك وسط رياح عاصفة ولذة صوفية طاغية، فاختلط الكل في دردور من الجنون.

وعبر بوابة القصر، خرج نبوخذنصر مستقلاً عربته ومتجهاً إلى حيّ ماركاس الأرستوقراطي، حيث كان الكل يصخبون نتيجة العربدة والفسق والفجور، ويتجهون بغرائزهم المنفلتة على مداها نحو معبد عشتار. لقد كشف الشعب عن حقيقة وجهه. فالنشوة قد قضت على الجبن والمكر والرياء التي كانت تمسك عليه قابلية اللذة، مما جعل هذه اللذة شديدة الشراسة عندما أُتيح للشعب أن يفرج عن كربته ويعيشها. ففي هذا العيد الديني، تنتفي الصوفية، وواقعية الملذات المادية وحدها تعرف كيف تبرز تكشيرات الرغبة والشهوة، وتشعل ذلك الشبق في عمق حدقات العيون. كذلك ينتفي كل إحساس وجداني،

ويصبح بإمكان اللذة الجنسية وحدها أن تنتزع من الشعب التماسات مشبوبة العاطفة كأنها نداءات الوحوش !

في هذا العيد، يحمل نبوخذنصر أفكاراً أخرى وأحلاماً أخرى. ففي نينوى، عندما كان الطغاة الذين من سلالته يتجهون إلى معبد أربيل كي يقدموا احترامهم لعشتار، كانوا يتوجهون إلى إلهة الملذات، ولكن بالأخص إلى إلهة الحرب « الأولى بين الآلهة وإلهة التلاحم التي تجتذب المعارك »، كما كان يدعوها تغلاتفلاسّار.

وشاء نبوخذنصر أن يتأكد من عشتار الحامية لطموحاته والمؤيدة لجيوشه، مؤزارتها له، فأعلن نفسه: « المتعهد بالعناية في معابد عشتار »، وذلك كي يجد إثباتاً لأول معبد ارتفع لمجد عشتار المحاربة في بابل، هذا المعبد الذي نقَّب عنه في أكاديا. كما شاء في أوروك، أن يعيد عبادة الإلهة القديمة إلى مجدها الأول، حبث كانت « سيدة أوروك المتألقة ».

وتابع الملك جولته غير آبهٍ بالتشنجات الدينية الفائقة الحد، والتي أثارت الشهوات الحسية في بابل كلها. ومع أنه حول عربته اختلطت الأغاني بالأهازيج والحازوقات، وارتفعت من صخب النشوة أصوات جشعة تطالب بالذهب، والخمور، والنساء، أكمل الملك طريقه مركزاً بصره على الشرفات التي كانت هناك في شمالي حي « ماركاس »، وقد برزت بوضوح أكثر دقة وأكثر علواً من غيرها. لقد كانت هذه الشرفات تتوج البرجين العاليين اللذين كانا إلى الجنوب، يجانبان باب معبد عشتار في أكينداري « البيت الذي تقيم فيه الشريعة الإلهية ». والذي جاء نبوخذنصر ليعيد بناءه على شرف الإلهة، إلى جانب الطريق المقدس.

في فوضى الضجيج وراء الحشد، هذا الضجيج المشترك كله في المناداة بألوهيتها، وكأنها تريد أن تستجيب لرغبة المحتشدين فقط، رأى نبوخذنصر طيفها الحربي يرتسم في الغبار قاتماً رشيقاً. فعلى عربتها المكدونة إلى سبعة

أسود، كانت تجلس بعظمة، كنانتها على كتفها، والقوس في يدها اليسرى، بينما يدها اليمنى تستل سيفاً ذرباً.

فكم هي محبوبة في قلبه إلهة اللذة تلك، التي تريد أن تكون أيضاً « سيدة المعارك !» أليس الحب والحرب هما كل الحياة لدى الرجال؟

وحول المعبد، أخذ الجمع يهذي في انتظار أعجوبة ما، وبالكاد استطاع حاملو المشاعل من الجنود أن يدفعوا به قليلاً إلى الوراء ليفسحوا في المجال لنبوخذنصر، الذي صعد عدة درجات من الباب التقليدي، واجتاز بسرعة البهو والساحة المركزية الكبيرة والمكشوفة، حيث كان بانتظاره شبحان مجللان بالبياض، هما: كبير الكهنة « إينو عشتار »، وكبيرة الكاهنات « آنتوم عشتار ». ووراءهما، إلى الشمال، صف أبيض طويل يبدو في الظل متموجاً مع أضواء المشاعل المتذبذبة. وكان خدم الهيكل كلهم قد تجمعوا وأحاطوا مدخل المحراب. وفي عمق حجرتين ثلَّمت بياضهما خطوط عريضة سوداء على طول الرسم المنظور، بدت الإلهة في تمثالها الذهبي الخالص كأنها تخبىء بذراعيها الحاضنين لنهديها المنتفخين، عرياً بهياً رائعاً. . .

فتقدم نبوخذنصر من الطاولة الذهبية الموضوعة تحت قدمي التمثال، وتمتم بخشوع الابتهال المألوف الذي كان في الغالب ينعش جنون رغباته:

« أتوسل إليك يا ملكة الملكات، وإلهة الآلهات،
أيتها السيدة التي تعيد الحيوية إلى شهوتي،
يا عشتار المثيرة التي تجمع الأفواج،
إلهة الرجال، وإلهة النساء، التي لا يعرف قرارها أحد !».

وإلى يمين الطاولة المقدسة، وقفن يرتدين البياض وبشكل باقة زهر عطرة منسجمة، تابعات عشتار: الإيستاريتوم، أو الكاديستو، اللواتي يعشن في الهيكل ولا يبرحنه. وكانت على رأسهن « سلمى »، الزوجة المحبوبة جداً من الإلهة والتي تحتفظ إلى جانبها بالعذراء « زير ـ مازيتو ». هذا الصف الطويل من

العذراوات المجنونات، ذكَّر نبوخذنصر بالأمثال التي طالما رُدِّدت على مسامع شبان بابل منذ أزمنة سحيقة، وذلك لوقاية مرحلة المراهقة القلقة والمعذبة لديهم، من أخطار الغريزة الجنسية:

« إن الإيستاريتو المنذورة للإلهة،
والزير ـ مازيتو التي شرورها كثيرة،
لن تعبأ بك وأنت في شقائك،
بل ترهق البيت، والذي يتزوجها لن يعرف الرخاء ».

وفي ظليل المحراب، كانت هذه الحسناوات تنصبن بوقاحة صدورهن الضيقة التي يعرض عريها، زهرات حية من لحم ودم تتفتح خارج تنانيرهم البيضاء ذات الثنايا والدوائر العريضة، كأنها تويجات على أجذاع برونزية مرنة، متمثلة في سيقانهن الناعمة.

ولمقاومة سحرهنَّ وإغرائهن، ابتكر الشعب تعزيمات ورقيات واقية. وبينهن، عرف نبوخذنصر بأنه سيجد الحريمتو، « العاشقة » التي في الملحمة القومية لجلجميش، علَّمت الحب واللذة لأنكيدو. وسمحاتو، « فتاة الملذات » التي احتقرها الإله شمش، فكساها بجلد كلب وحكم عليها بأن تهيم على وجهها في القفر. والكيزريتو، أو « سيدة الحرم »، التي تبيح جسدها لمنح الملذات والمتع إلى النساء والرجال على السواء.

ووراء الكاهن الأكبر، « سنجو عشتار »، والذين تحت إمرته من الموظفين العاديين، استندت إلى جدار المحراب مجموعتان من الرجال. الأولى مؤلفة من رجال ضخام وسمينين سبق لهم أن ضحُّوا برجولتهم في سبيل الإلهة، وهم الأسينو. والثانية مؤلفة من رجال يطلق عليهم اسم الكورغارو، وقد جاؤوا في تلك الساعة، وفقاً لطقوس ثابتة ولا تتغير، يقدمون ذات التضحية لعشتار التي ستفرض عليهم، من الآن فصاعداً، أن يعيشوا من أجلها كفتيات الملذات.

تقدم نبوخذنصر من مذبح عشتار وخاطب التمثال الذهبي قائلاً. « ما الذي ترغبينه مني؟ ما علي أن أهبك؟ أعجول سمينة؟ أخراف سمينة ؟».

فأجابته عشتار بصوت « السنجو »:

« أنا لا آكل العجول السمينة، ولا الخراف السمينة. ليعطوني جمال النساء، ونضارة الرجال ».

ساعتذاك قدَّم الملك إلى الإلهة أقراص الحلوى بشكل نجمات ذات شعب ثمانٍ، إنها خبز عشتار. وأمام التمثال الذهبي الذي تنعكس منه الأنوار البراقة، وضع المحتفلون بهذه الطقوس الدينية مجمرة من أجل الأضاحي. عندئذ استولى على جماعة الكورغارو هذيان مقدس، فاندفعوا في اهتياج شديد حتى غدت ترانيمهم صياحاً لا يُفهم منه شيء!

واستمروا هكذا إلى أن بدا عليهم التأثر والانفعال، فأخذوا يقومون بحركات بطيئة ولاشعورية، ثم عنفت هذه الحركات وتسارعت، وانبروا يتمايلون بجذوعهم ويخبطون الأرض بأرجلهم في اهتياج مسعور... وبعد أن انتظموا كتفاً إلى كتف في صف طويل متماوج كأنه سلسلة، انتفضوا انتفاضة عنيفة، وبحركة سريعة نزعوا ثيابهم فبدوا كأنهم دمى متحركة وقد جُنَّ جنونها... وأخذ الواحد بعد الآخر ينطرح أرضاً وقد انتابته تلك التشنجات والاختلاجات التي تُسرّ الإلهة وتفرحها، فتولد لديهم من هذا الهيجان الديني المسعور نوبات هستيرية حادة!

ثم وقف واحد من الكورغارو مترنحاً، شاحب اللون قبيح المنظر من شدة ما اعتراه من ذلك الشبق الداعر، وتقدم من المجمرة، وبحركة فظة ضحَّى بقواه الجنسية إكراماً للإلهة، وغاص في مستنقع من الدم... وللتوّ اقتدى به آخر وقام بنفس التضحية. وهكذا تكرر المشهد واحداً تلو الآخر، حتى انبسط ذلك المستنقع الصغير الأحمر على الأرض وازداد طولاً وعرضاً...

وتـراءى لنبـوخـذنصـر بـأن جـدران المعبـد ستنهـار مـن هـول الصيـاح والعويل. . . فتراجع ببطء نحو الباب. لكن هذه الأجساد المختلجة حول المجمرة الطقسية بقيت تحاصره وترهقه، وقد ولَّدت في نفسه أقصى الأحاسيس المكدرة. وشعر بدوار ودوخة في رأسه في تلك الاحتفالات التي تمارس بوحشية، تمجيداً لألوهية قائمة على الاهتمام بالحب وممارسته الغرائزية!

وتحت إشراف واحدة من « الأوكورتوم » التي اشتهر دورها قديماً في عهد آمستارت، ملكة صيدون ووالدة آسمونازار الثاني، خرجت من المحراب أيضاً المجموعات الثلاث لفتيات لذة الإلهة، وذلك كي يذهبن ويمارسن خدمتهن الكهنوتية المقدسة. وكانت نفحات من العطر المثمل والقوي الرائحة تنبعث من تحت ثيابهن الناعمة، وقد تقدمتهن المشاعل لتضيء طريقهن إلى ممارسة البغاء المقدس العظيم، داخل الحجرات الصغيرة المغلقة في الغاغوم.

في مثل هذا اليوم، تكون الفتيات المنذورات للإلهة ما زلن عذراوات، فيقدم الكاهن « آنوعشتار » إلى كل منهن فتى يافعاً، ويقول لها:

« ها هو، يا فتاة اللذة. فاكشفي عن صدرك، وارفعي سترك، ولا تدعي الخجل يعتريك. تنشقي أنفاسه كي يتدفق حبه عليك!».

وهذا ما جرى في ذلك اليوم، وما استمرّ يجري. فالصغيرة « سمحاتو » التي وقع الاختيار على شاب وسيد جميل كي ينتأثر بها، استسلمت إلى عشيقها لمدة ساعة في ظليل الحجرة الصغيرة المغلقة في الغاغوم. وبعد أن « أشبع نهمه منها، أشاح بوجهه وجلس عند قدمي البغيّ ».

لكن الكاهن الأكبر « سنجو عشتار »، ظهر فجأة وذكَّر الشابة سمحاتو، بأن هناك وفيّات أخريات للإلهة، يرغبن في ممارسة خدمتهن الكهنوتية اللذيذة والمحببة.

فنهضت سمحاتو الصغيرة تلبية لأوامر الإلهة. وفجأة عصف الغضب بفتاها العاشق وظهر جلياً على شفتيه. لقد أغاظه هذا الفراق السريع جداً، فوجّه

إليها التأنيب العنيف الذي وجهه فيما مضى جلجميش إلى عشتار، المحبوبة الكبيرة، والذي سجله التاريخ التقليدي لبلده بهذا النص:

« من هو عشيقك الذي تحبينه بصورة دائمة!
من هو بطلك الذي سيكون مستحباً في المستقبل؟
هيًّا، سوف اكشف دعاراتك!
فقد أحببت الكاهن والراعي،
وأحببت إيزولاّنو، بستانيّ أبيك. . . ».

وبصوت جعلت التضحية من أجل الإلهة نبراته طفولية، ذكَّر سنجو عشتار السيد النزق بلهجة قوية، بأن الإله شمش، كان قد أجاب الشاب أنكيدو في ظروف مماثلة:

« لماذا يا أنكيدو تلعن البغيّ، فتاة اللذة، التي أطعمتك غذاء الألوهية ؟».

وفيما كانت سمحاتو الطيِّعة في خدمة إلهتها، تنتقل من ذراعي واحد إلى ذراعي آخر، أضاف الكاهن الشيخ يقول مخاطباً نفسه بصوت منخفض جداً.

« وأنا، سوف أعيِّن مصيرك يا فتاة اللذة، في البلد الذي لا ينتهي، وأجعل إقامتك فيه دائمة. وعندئذ، سألعنك اللعنة الكبرى ».

ثمَّ انخفضت الأصوات في الغرف المغلقة، وتحولت صيحات الشهوات الحيوانية إلى أصوات متعبدة ترتل التراتيل وتتلو الصلوات. . .

وسُمع من بين هذه الأصوات صوت نبوخذنصر. لقد شارك في هذه الطقوس وأمامه على طاولة ذهبية أخرى، رأس ضخم لعشتار مصنوع من الذهب الخالص! فشخصت الأبصار كلها إلى الملك، وأخذت تحدق في وجهه الجامد المستخف، ولسانه الذي كان يمطُّه ليباعد به ما بين شفتيه، مع ابتسامة غامضة يستحيل وصفها!

كان نبوخذنصر يمسك بيده اليسرى إناء مملوءاً بالنباتات العطرية، فأخذ

يمسح بها الوجه الكبير الصامت لعشتار، الذي يريد أن يعرف أفكاره السرية. وفيما هو يفعل، ارتفع صوت في الظل يقول:

« كما أن هذا الإناء متألق، لتنعم عليك عشتار بالتألق والصحة. إنك تعمل لاستخراج مشيئة عشتار من شفتيها. ليكن فمك يا عشتار، كذلك لسانك، رؤوفين ورحيمين ».

وعلى الطاولة الذهبية، وأمام الوجه الجامد للإلهة، وضع نبوخذنصر الجداء الدامية والمسلوخة، ثم سكب خمراً في إناء صغير، وطرح نباتات عطرية في مجمرة للعطور. كذلك وضع أمام هذا الوجه اللغزمي المحاط بحلزونيات زرقاء، شكلاً ثقيلاً من الرصاص، كنذر يشهد على ثقته بالإلهة.

وفي الليل، ارتفع صوت السنجو من جديد، وبنبرة أقوى هذه المرة، كأنه يريد أن يفجر من الوجه الجامد الأمل المنتظر، وذلك جواباً على القلق غير المحتمل فيما يتعلق بالحياة والموت: « سوف تتذكر عشتار الأعمال الطيبة التي قام بها الإنسان في الماضي، كذلك القرابين التي قدَّمها ».

وفي غمرة السكون الذي لم يعد هناك ما يعكره، كانت نفثات البخور الملتفة بشكل حلزوني حول التمثال الإلهي، هي الأشياء الوحيدة المتحركة. وكان نبوخذنصر الخافق القلب من التأثر، يرقب بدقة لسان التمثال الجامد في ذلك الوجه المتصلب العنيد، الذي تتجلى في ملامحه سخرية الابتسامة القاسية. فهل تأبى عشتار أن تتحدث إلى ابنها الحبيب؟ وغدا صوت السنجو مناشداً عندما قال:

« إذا لم تُخرج مشيئة عشتار من شفتيها، سوف لن تعيش... وإذا لم تلتزم بقرار عشتار، لن تكون في وضع حسن. ليكن لسانك وفمك يا عشتار، رؤوفين ورحيمين ».

وعندما تراقصت الظلال بفعل أضواء المشاعل المتذبذبة، رسمت هذه الظلال وهم الحياة على الوجه الذهبي. فصوَّر هذا الوهم بأن اللسان المرصّع

بالحجارة الكريمة قد تحرك أخيراً... تحرك بشكل خفيٍّ أولاً، ثم بشكل مصمم! فتوترت الأعصاب، وأخذ نبوخذنصر يحملق مخلوب اللب... وكما جرى في الماضي، من أجل أسرحدون، ومن أجل سنحريب، ومن أجل آشوربنيبال، ارتفع صوت السنجو، وببطء ووقار، ترجم المشيئة الإلهية قائلاً:

« سر إلى الأمام كي تحظى بالغنائم، فالمجال مفتوح أمامك، وأنا أيضاً سأرافق مسيرتك ».

وتنفس نبوخذنصر الصعداء، ونهض نهوض المنتصر، بعد أن جاء جواب الإلهة ملائماً لما هو مصمم عليه. فأورشليم تخونه، وصدقيا وصحبه، ما جاؤوا إليه اليوم بالذات، إلا بقصد خداعه. لذا عزم على هزم هذا المُليك اليهودي، والسيطرة على العالم. وسيتحقق له ذلك، حالما يدمر أورشليم ولا يبقي فيها حجراً على حجر، ويمحي اسم يهوه من ذاكرة البشر!

واستعدَّ نبوخذنصر المنتشي سعادة، لممارسة التقليد الذي يرضي رغباته ويبرر طموحاته. وتلاحق الاحتفال وفقاً للطقس الثابت والمكرس بالنص المقدس التالي:

« عندما تتألقين في ثوبك وتخرجين، يا بيليت، سيدة البلد والملكة التي تقيم فيه، يرتدي الملك ثيابه الفاخرة. ويدخل أقوى أقوياء الملوك مع نبيذ العسل، اللذة الإلهية، وإلى جانبه أنت يا سيدة الملوك. وفي المساء، تتوجهين إلى هيكل لذة النساء ».

استقل نبوخذنصر عربته بكبرياء الفخور بمصيرة والواثق منه، وانطلق بها نحو جنوب المدينة متقدماً التطواف الطقسي. وعلى الطريق المقدس، وعند مفترق شارع يهبط من حي « ماركيز » باتجاه القناة، أوقفته لحظة أشكال سوداء تخرج من بيت ذي طبقات ثلاث، مستنيرة بالمشاعل. إنها عروس العصر تترك المنزل الوالدي إلى الأبد، وتقبل والدتها باكية، فيما ترافقها أصوات فرحة وفتية لزمرة وقحة. وهذه الأصوات لا تمتُّ بصلة إلى الأناشيد الحارة والكئيبة التي

ترافق تقديم الأضاحي للإلهة، بل هي حركة طرب وشباب تجرُّ وراءها موكباً هزلياً من الموسيقيين المهرجين، وموكباً آخر من العبيد الحاملين جهاز المرأة الشابة، المؤلف من أثاث وصناديق.

وبعد أن ابتعدت الضجة وغاب الموكب في دهليز مطلية أرضه بالقير، تابع نبوخذنصر طريقه باتجاه هيكل « الكولياخ » الذي لم يبق منه في الظل الخفيف لبساتين النخل سوى بقايا مبعثرة ومبهمة لمساكن متداعية، بعد أن كانت العربات الأنيقة والمغلقة بالنسيج المقصَّب أو المميز عن غيره من الأنسجة الخشنة، تقف في هذا المكان مصطفة بحراسة شبان ورشين ومتهكمين، كانوا يرهقون جيادها ويوسعونها ضرباً وفق أمزجتهم الداعرة.

في الكولياخ، كانت فتيات بابل البالغات، النبيلات منهن والعاميات، الغنيات والفقيرات، يخضعن للشريعة العامة والشائنة التي تأمرهن، مرة في الحياة، بأن يمنحن أنفسهن في هيكل « زاربانيت » إلى أول مجهول يدنو منهن ويرميهن بسبيكة فضية يتبعها بهذه العبارة: « إني أبتهل إلى الإلهة ميليتًا !».

فتمتزج في أعماق نفوسهن المظلمة الأحاسيس الشهوانية بالأحاسيس المقدسة، بشكل لا يدرك في حضارتنا العصرية.

ويقوم حاملو المشاعل من جنود الحرس بدور الشرطة، فيبعدون بضربات سيوفهم المنبسطة الرعاع من أمام عربة الملك التي تتوقف عند مدخل هيكل « ميليتًا زاربانيت ». ولم يكن هذا الهيكل زاكورة شاهقة العلو، بل بالكاد كان يرتفع نحو السماء بقباب ملحقاته المتماسكة والواطئة. وكان العبيد ما زالوا، على وميض من النور، يعملون في تجميله وزخرفة واجهته المستقيمة والقاتمة، وذلك بإكمال تلبيسها بالقرميد المتعدد الألوان.

فأخذ نبوخذنصر يتأمل ذلك المربع الفسيح، ثم أملى على الكاتب الذي كان يتبعه صلاته التالية، التي فيها الكثير من الكبرياء والعجرفة:

« أنا نبوخذنصر، ملك بابل، ابن نبوبولاصَّر، ملك بابل!

« لقد أسست، وارتقيت بهذا الهيكل المهيب، على شرف زاربانيت، السيدة الجليلة. لقد شيدت بالقار والقرميد محراباً مربعاً، وحفرت قباب مشكياته في طبقة الأرض. فأيتها الأم الجليلة وملكة الآلهة، تعطفي علي، وكوني عوناً لي كي تكتمل أعمالي. إجعلي الخصب في العائلات، واسهري على الأمهات حتى انتهاء ولادتهن ».

وكان جمع من الرجال قد تجمع في صفوف منتظمة عند الأبواب إلى جهة الهيكل، فأخذ كل واحد بدوره يدخل إلى مصطبة كبيرة مسقوفة، حيث كانت الفتيات الشابات قد تجمعن.

ثم اجتاز نبوخذنصر الباحة الداخلية، فالرواق غير المزخرف الذي ينفتح على القاعات المقدسة، ومنه وصل إلى قلب الهيكل، إلى المعبد الصغير في دهليز مستطيل يخلو من أي زخرف يضفي البهجة على البياض المنبعث من الطلاء بالجبس.

على المذبح الذهبي لهذا المعبد، يلفت الأنظار تمثال الإلهة المنتصب وحده عنيداً متصلباً، وقد بدت الإلهة فيه شهية بجسدها الأهيف الفتي، وصدرها العاري، ونهديها المشرئبين كنهدي فتاة عذراء. أما التاج الذي كان يعتلي رأسها الصغير، فيخاله المرء بشعاً يكاد يسحق هذا الرأس نظراً لضخامته. ومن أذنيها كانت الأقراط تتدلى حتى جيدها المزين بعقد معدني تشكل أكبر حباته مغلقاً له. وتحيط معصمها وكاهليها الأساور والحلقات، وتنتعل في رجليها خفين يتركان أصابعهما مكشوفة. وبصفتها رمزاً للألوهية، كانت زاربانيت، « مومس الآلهة »، تستقبل دون حنان ولا لذة، شغف الرجال وشهواتهم، ودائماً بابتسامتها الساحرة القاسية التي لا تعرف الشبع إطلاقاً!

ونبوخذنصر الذي يتمنى من أعماق قلبه ذرية وافرة العدد من امرأتيه، وجّه إلى الإلهة أمام مذبحها، هذا النشيد الطقسي الذي تُليَ بمناسبة عيد رأس السنة:

« زاربانيت، هي النجمة الأكثر تألقاً،

زاربانيت، هي المهيبة العالية جداً.

سيدة السماء والأرض. . . هذا هو اسمها سيدتي.

النجمة ديلبات (فينوس)، الأكثر تألقاً بين النجوم. . . هذا هو اسمها سيدتي.

النجمة هيغالا، نجمة الخصب، هذا هو اسمها سيدتي.

النجمة بال ـ تيزا، نجمة اللذة، هذا هو اسمها سيدتي ».

وزاربانيت هي أيضاً عشتار، ولكن ليست عشتار التي تُسرّها المعارك. زاربانيت، هي عشتار التي تترأس حفلات التضحيات الغرامية، وحتى الوصال الجنسي، كما يفيدنا علم الاشتقاق!

وفي ملحقات الهيكل التي تقيها مسالك من الحبال، جلست فتيات الطبقة الأرستقراطية، وقد كللن رؤوسهن بأكاليل من المرس، ووقف عبيدهنَّ وراءهنَّ. لقد ارتضين مصيرهن دون تمرد، وأيضاً دون قحة. فقد لبس خجلهنَّ لبوس الحشمة الفاتنة والرزانة الطقسية، عندما مرَّ أمامهن بين الحبال، الرجال المشتعلة عيونهم المحملقة، بالشهوة التي لم يسبق لهن أن عرفنها. ومن بين هؤلاء الأغراب الذين يتفرسون في وجوههنَّ، لا يستطعن أن يخترن واحداً، ولا أن يرفضن آخرَ! بل على كل واحدة منهنَّ، أن ترضى بمن سيرمي منهم على رجليها سبيكة الفضة، ثمناً ورمزاً لرغبته. فبما أنهنَّ لا يستطعن العودة إلى ذويهن ما لم ينجزن التضحية من أجل ميليتّا، عليهنَّ، عملاً بنذوراتهن ورغم أن هذه التضحية تخيفهنَّ، الاستجابة للخيار الذي يجعل منهنَّ نساء!

إن الفتيات النبيلات، سواء كنَّ جميلات أم بشعات، ما اضطررن إطلاقاً إلى البقاء في الهيكل أكثر من بضع ساعات. لأنه بالنسبة إليهنَّ، إن لم يكن هناك شبان من طبقتهنَّ، فشبان عامة الشعب يتسابقون على التملق إليهن، واختيارهنَّ لتقديم التضحية اللذيدة إلى ميليتّا. وهذا ما لا يُتاح إلى التعيسات الجالسات تجاههنَّ، أولئك الفتيات الفقيرات من عامة الشعب، اللواتي مسخت الأعمال اليومية أشكالهنَّ، وجعلتهنَّ الفاقة حمقاوات غبيات. فبعضهنَّ في

المعبد منذ ثلاثة أو أربعة أعياد سنوية للإلهة، ينظرن في كل عيد بائسات حزينات إلى كل شبان المملكة، وهم يمرون أمامهن دون أن يكترث أحد منهم بهنَّ. وهكذا يبقين أسيرات الإلهة في هيكلها، يحدوهنَّ الأمل الدائم بمجيء فتى الأحلام الذي سيحمل إليهنَّ الحرية والحب!

وها هو الفجر انبلج، فتفرقت الصفوف وراء الحبال، وعادت آخر قافلة للعربات إلى بابل، حاملة الفتيات اللواتي وقع الاختيار عليهنَّ ليصبحن زوجات، وتشتت جمهور الفضوليين.

ولما عاد نبوخذنصر إلى قصره، كانت خيوط الفجر قد اتسع ضياؤها من جهة الشرق، فبدت بابل تحت شحوب الرؤية غير الواضحة، هاجعة في نداوة الصباح، وقد رسمت الأبراج المربعة، والمصطبات والقباب الخضراء، أشكالاً هندسية غريبة. ففوق الأسوار المبنية من القرميد المشوي، والمعاد شيُّه بواسطة أشعة الشمس الذهبية، برزت الزاكورات الشاهقة والمتعددة الألوان، التي تنتصب عزلتها الجوية المتغطرسة منذ قرون فوق المدينة، رمزاً لطموحات وأمنيات البشر. فتأمل نبوخذنصر هذا المشهد الساحر مأخوذاً به، ثم استدار ودخل القصر، وأُغلقت وراءه البوابة ذات المصاريع الثقيلة المصنوعة من خشب الأرز، واكتنفتها الظلمات.

عند غياب الشمس في اليوم التالي، وبعد آخر مقابلة، ترك نبوخذنصر قاعة العرش وذهب عبر الممرّ السري الصغير الذي يوصل، في منأى عن نظرات الفضوليين، إلى عمق الباحة الرئيسية حيث شيَّد حرمه الجديد. وكان « لاباشي »، المهندس الوفيّ للملك، الذي أشرف على بناء هذا الحرم من أجل الملكتين آميتيس ونيتوكريس وحاشيتيهما من النساء العديدات، قد جعل واجهته العريضة باتجاه الغرب، مما يتيح لهذه الواجهة أن تنعكس على خطوطها الصقيلة والمسطحة، وعلى مدى أربعين متراً، الأشعة الوردية والخبازية الأخّاذة للشمس المنحرفة نحو المغيب.

برز لنبوخذنصر أول ما برز، البرج العالي لهذا الحرم الذي حرقت حرارة الشمس قرميده، والذي يشرف بكتلته الشامخة على باب عريض محاطٍ ببابين أصغر منه. وقبل أن يدخل في ظل قبته، ارتدَّ إلى الوراء وألقى نظرة فاحصة، فطابت نفسه إذ ثبت لديه أن « لاباشي » قد نفَّذ أوامره بدقة. فلقد نقل بأمانة التنسيق العام لأجمل حرم وقعت عليه الأبصار، ألا وهو حرم الملك سرجون في خورساباد. لكنه من حيث طوله وعرضه، تقيَّد بفن رائع بالحجم الذي حدده له القصر الملكي، أي بأن يكون أصغر من حرم سرجون، فجاء مقياس التوازن الجمالي في الحرم الجديد، أفضل من طرازه.

وعلى الجدار القرميدي فوق الباب، المتلألىء بالخيوط الذهبية الأخيرة لأشعة الشمس، قرأ نبوخذنصر الكتابة التي، بناء لأوامره، نسخها « لاباشي » بأمانة عن الكتابة التي حفرها سرجون عند مدخل حرمه: « نينورتا ـ سنندان، سيد الأعمال العظيمة التي تفرحه، ارتقِ بجلالة نبوخذنصر، ملك العالم، ممثل بابل، الذي شيَّد هذا الصرح . . . ».

اجتاز نبوخذنصر باحة داخلية، فوصل إلى حيث الخصيان ينامون بعين واحدة لتبقى العين الثانية يقظى في وجوههم المنتفخة، وحيث روعة القصر تتجلى بأبهى القرميد المتنوع والمطليّ بالميناء، الذي يرسم بلا كلل على الجدران العالية، الاخضرار المتنافر لشجر النخل، رمز الخصب. وفي موضع آخر، ترتسم على الجص زخارف بالفضة والذهب، تمثل ورديات ونجميات وسعف نخل أثارت إعجاب آبولّونيوس الطياني(١)، خلال رحلته الشهيرة إلى بابل، في عهد نيرون.

وعملاً بالتقاليد الآشورية التي أخضع سنحريب وأصوربانيبال أولادهما إليها، ففي الغرف الصغيرة اللامعة بالقرميد المطليّ بالميناء في هذا الحرم، قرر

---

(١) فيلسوف فيثاغوري ينسب إليه كتاب «سرالخلق»، ورسالة في التنجيم ترجمها حنين بن إسحق، ومؤلف عن الأجرام السبعة.

نبوخذنصر أن يتربى ابنه ووريث عرشه أيفيل ماروداخ، وذلك بحراسة الخصيان، وحتى بلوغه الحادية عشرة من عمره.

وفي الغرف المبرقشة بالفسيفساء المتعددة الألوان، يعلم نبوخذنصر بأن هناك عدداً من النساء، كل واحدة منهن تعلل النفس بأن يكون لها في ذلك اليوم، ويقتلن ضجر الانتظار بالدسائس وتبادل الشتائم باهتياج وغضب. لكن نبوخذنصر في ذلك اليوم، لم يكن يشتهي الوصال إلا بآميتيس.

وفجأة تكفلت صرخات بغيضة بأن تذكِّر المَلك بالمآسي التي تجري فصولها في ذلك العالم النسائي الصغير، الصاخب والمشبوب العاطفة. فقد أعلمه خصيّ، ووجهه يعفر الأرض تذللاً، بأن الأمر يتعلق بمرضعة حكم عليها هذا الصباح بقطع ثدييها، تطبيقاً للعقاب الذي تنصّ عليه المادة ١٩٤ من قانون حمورابي. فهذه المرأة كانت ترضع سراً ولدين في آن واحد، وقد هزلت صحة هذين الولدين بالتساوي. وما أن قال الخصي هذا القول، حتى مرَّ « الراب دايبكي »، جلاد نبوخذنصر، وهو يمسح على ثوبه الأبيض، نصل خنجره الطويل المخضب بالدم. . .

وفي زاوية ظليلة، تصاعد نحيب وبكاء. إنه نحيب وبكاء امرأة مات ولدها بسبب إهمالها، فحكم عليها بمقتضى نفس المادة من قانون حمورابي، بعقوبة المثل. وعند فجر الغد، ستلقى في المياه لتموت غرقاً.

ولما تسلق نبوخذنصر بنشاط ومرح السلَّم الواقعة أمامه والمؤلفة من إحدى عشرة درجة، ووصل إلى الظل الخفيف المشبع برائحة العطر، حيث الصمت عميق، وطلاء القرميد يلتمع، وأكاليل الزهر مثبّتة بمشابك من ذهب، تحقق بأن تخلصُّه من الواجبات المرهقة التي يفرضها عليه مركزه وطموحه، ليلجأ إلى هذا الحرم وينعم بجوه السعيد، كان من الضرورة بمكان.

وكانت إلى يمينه أجنحة زوجته الثانية، نيتوكريس التي لم يأت التاريخ على ذكرها إلا لأنها ولدت تلك التي ستكون نيتوكريس الكبيرة، زوجة نابونيد،

ووالدة بالتازار، فلم يعرج نبوخذنصر عليها، بل ذهب تواً إلى أجنحة زوجته الأولى، آميتيس.

في القاعة الزوجية، أبرز الإطار الأسود في أسفل الجدران البياض الناصع للزخرف الجصِّي، مشرقاً جلياً. وعلى القرميد الذي كسا أرضها، انبسطت السجادات الفسيحة لتعرض العمق الخفي لسماكة صوفها وغنى ألوانها التي يتخالط فيها الأزرق الفاقع بالقرمزي اللامع. وفي آخر هذا المضجع، ارتفع السرير الملكي عالياً على رجليه، بهيكله الخشبي البسيط الذي بدا عليه الفراش واللحاف المحشيين بالقطن، كأنهما بقعة كبيرة حمراء.

وكانت آميتيس قد لبست بانتظار زوجها، ثوباً طويلاً من البرفير المعلق بالكتف اليسرى بشكل ترك أسفل العنق الناعم مكشوفاً، كذلك المنحدر المتناسق لكتفها اليمنى. ومن صدرها الضيق والمشدود تدلى النسيج المخملي بشراريبه التي لامست عرقوبيها، فبسط بثقله النسيج الناعم على جسدها وأبرز تكاوينها الرشيقة، مجملاً بتموجاته المتحركة مشيتها المرنة. أما شعرها الأسود والمضفور جدائل مسترسلة إلى ما وراء ظهرها، فقد كانت تشده بشبكة وتربطه بشريطة حمراء.

فما أن وقع بصر نبوخذنصر عليها حتى سطع بريق غريب في عينيه، واستسلمت كبرياؤه إلى عاطفته. فأسرع إلى الملكة يبثها أشواقه ويغمرها بحنانه، وهذا شعور قلما نجده عند الأزواج البابليين. فحب الملك لآميتش قد أخضع طموحه وأنانيته، ولم يعد يهمه إلا الاستجابة لنداء جسده.

مع ذلك، لم تجرؤ آميتيس أن تعترف له بالغيرة التي تعذبها. فقد كانت تتساءل في نفسها قائلة: هل إن نيتوكريس يا ترى، جزية النصر في بيلوز ورهينة السلام المصري، التي أنزلها نبوخذنصر في الحرم، لن تحتل مكانها في قلب ملكها وسيدها؟ إذا كان الأمر مرهوناً بالجمال وحده، فهي تقبل هذه المنازلة. لكن السياسة لها مبرراتها التي لا يدركها العقل! فهل ستكون ضحية هذه السياسة

في يوم من الأيام؟ لقد طافت على شفتيها الكلمات الحقودة التي كتبتها بدافع غيرتها فيما مضى، ابنة أشوربنيبال إلى مزاحمتها، الأميرة سيرو ـ آ ـ أتيرات:

« إن الرسالة التي وجهتها إلي لم تكن لائقة، ولا استعملت فيها لقبك وفق وضعك. وباستطاعة الناس أن يتساءلوا: هل إن هذه، هي شقيقة شيرما ـ أتيرات، الإبنة البكر لأشور رايتلافي، الملك الكبير، سيد بيت ـ ريدوتي (حرم) آشور، الملك الكبير، السيد القوي، ملك هذه الأماكن، ملك آشور؟ إنك لست سوى ابنة الشقيقة الجميلة لامرأة أشور راتيلاني، الإبن الأكبر لأسرحدون، ملك آشور وبيت ـ ريدوتي ».

سحب نبوخذنصر آميتيس واجتازا معاً الباحة الرئيسية متجنبين الباب الكبير القاتم الذي كان جنود الإمبراطورية يقومون أمامه بواجب الحراسة، ثم دخلا إلى الشمال في ممرّ ضيق يصعد بين بيوت الباحثين، ويلف إلى اليمين وراء الدواوين القنصلية لينتهي عند ربوة مدهشة! فهذه الربوة التي يرتفع علوها فوق القصر نحواً من ثلاث طبقات، هي غابة حقيقية تستحم بالضياء الحار، وتكسوها أشجار الصنوبر، والشربين، والمصطكا، والأرز.

رفعت آميتيس نظراتها بخوف وإعجاب نحو هذه التلة الاصطناعية التي تشرف على كل الجهة الشرقية من البلاط، والتي تبدو فيها عظمة الفن الهندسي متجلية بالأناقة المتناسقة والابتكار الجنوني، ثم استدارت نحو نبوخذنصر وابتسمت له ابتسامة تعبر عن حنوها وتقديرها. ألم يشأ من هذا العمل، أن يعيدها بالذاكرة إلى بابل ذاتها، إلى البساتين الجبلية الجميلة في بلدها الفارسي، كي يخلو قلبها من أي حسرة، وكي، بين هذه الروضات المدهشة التي يتلاعب فيها الهواء، يربط حلمها الغرامي حاضرها بماضيها ؟

لقد عرف « لاباشي » الأمين، بواسطة هذه الحدائق التي تعلو فوق القلعة، بأن يحقق معجزة الانسجام والتناسق. وهذه المعجزة المخضوضرة دائماً، والتي يفوح منها العطر باستمرار، ستدهش بعد قرون من الزمن ديودور الصقلي. كما

أن هذه الحدائق، ستذكر آميتيس بتأثر، بكل عطور الأشجار التي سحرت شبابها، والتي ستجني في ظلها، مع خرير المياه الجارية، الأزهار والثمار المحببة إلى قلبها منذ طفولتها.

وتخفي النباتات البرية تحتها، الأربع عشرة غرفة المبنية تحت الأرض، والتي تتقابل فيها القناطر مواجهة، ويدعمها جدار عريض له من كل جهة أربع ضواغط. وتتراكب أقواس القباب الواحدة فوق الأخرى، وأكثرها علواً يزيد ارتفاعها على الخمسين ذراعاً. وأشجار الأرز والصنوبر التي غرست في ذلك المكان، تغوص أصولها في أعماق الأرض إلى ما تحت حفرات الركائز التي تدعم هذه القباب القرميدية.

من على هذه السطيحة التي تشكل قمة مدهشة لزاكورة من الاخضرار، يشرف المرء فجأة على المساحة الفسيحة الوردية اللون للقلعة ذات الأسوار المسنَّنة، والأبراج والمصاطب. وإلى الوراء، تقع العين على القصور والهياكل والبيوت المتلاصقة التي تشكل على مدى النظر، ركاماً مبهماً من المكعبات، والقباب والأبراج المربعة والمصطبات. إنها بابل، ذلك المعسكر المدهش المبنيّ من القرميد والطين فوق السهل الفسيح الأرجاء.

وفي الجوار فوق المدينة، يسرح الخيال والتصور نحو تلك الحدائق المعلقة بين الأرض والسماء!

فانغلَّ نبوخذنصر وآميتيس في الظل الندي والمعطر برائحة الأكاسيا، والطرفاء، وغيرهما من الأشجار الميدية، دون أن يعكر انفرادهما والصمت المخيم، سوى زقزقة العصافير والطنين السعيد للنحل.

مشى نبوخذنصر صامتا قرب آميتيس الولهى بحبه. فهذه الغابة الاصطناعية التي تضفي على قلعة بابل الرهيبة المنظر، جواً من العذوبة الشعرية، تشهد على أكثر من حبه وكبريائه التي يحاول التفلت منها، إنها تشهد أيضاً على إخضاعه الطبيعة لإرادته المطلقة، التي تجعل كل شيء ينحني أمامه. وفيما هو يرتقي

الطريق الضيق الذي يتعرج عبر الركام الضاجّ بحفيف أوراق أشجار المصطكا والطرفاء والأكاسيا، كان يتباهى بأنه نجح إلى أقصى درجات الكمال في تحقيق ما ينسيه هموم طموحاته وأحلامه. وهذا ما عجز عنه الطغاة الآشوريون، إذ لم تستطع أية إرادة أن تجمع في حيّز ضيق من الأرض ومحصور من كل جوانبه: الشاعرية، والفوضى، وما هو طبيعي واصطناعي، كي تضفي على لوحة المياه الجارية، منظر الخضار والضياء.

إن قصور سنحريب في كويونجيك ونينوى، التي جعلها نبوخذنصر طعمة للنار أثناء الحروب التحررية في مطلع شبابه، كانت الحدائق تزين مصطباتها القائمة فوق صفوف من الأعمدة المتراكبة. لكن انعدام العناية بها وحاجتها إلى التربة اللازمة، جعل الأشجار فيها تتلف على نحوٍ يرثى له، والشجيرات غير النامية تذبل وتذوي تحت أشعة شمس وادي دجلة المحرقة.

شعرت آميتيس بالسعادة والنشوة لأنها استطاعت بلوغ قمة الحدائق المعلقة، فوقفت مندهشة في ظل أشجار الأرز المهيبة والمنقولة من لبنان، التي تزين هذه الحدائق بشكلها الهندسي العملاق واخضرارها وشموخها منفردة نحو السماء، بينما المياه في كل مكان تنساب في الجداول وكأنها تبتسم للطبيعة مع خريرها الموسيقي. وفي ظلمة الغرف السردابية التي تحمل فوقها ثلاثين متراً من الأتربة، كان العبيد من الأسرى المصريين والإسرائيليين يبرمون ليل نهار الدواليب الضخمة، وشفاههم تفوه من حلاوة الروح بأغنيات رتيبة. وفيما كانت سلاسل الحديد تصلُّ في أرجل هؤلاء العبيد. وصدورهم اللاهثة تطلق نفثات متتابعة، كانت مياه الفرات تصعد ببطء حاملة الحياة إلى الحدائق المعلقة.

وبينما الهواء يتلاعب بقمم أشجار الأرز، فكّر نبوخذنصر مزدهياً أن باستطاعته أن يأقلم في قصره هذه الأشجار التي استظلها سليمان الحكيم وبلقيس ملكة سبأ، وكانت خير شاهد على حبهما الشهير. أما آميتيس، فلم يتوقف بصرها عند حدود الغابة المضيئة والمشبعة بالهواء، بل تعداها وتعدّى الشرفات

التي تحتبس حياتها منذ ستة عشر عاماً، فأخذت نظراتها تبحث في الزرقة البعيدة، هناك في عمق الأفق، وتتساءل قائلة: أليست هذه التموجات الخبازية التي ينتهي عندها السهل الرهيب، هي قمم دامافان التي كانت تلجأ إليها وهي في ربيع عمرها ومطلع صباها ؟

في هذه الأثناء، أسمع نبوخذنصر أمراً مقتضباً، فحضر للحال كاتب مكتبة بورسيبا، ووقف باحترام على مسافة منه، حاملاً بعض اللوحات الصغيرة. وتحت الأبسطة الخضراء في نهاية ذلك اليوم السعيد، لم تعد السحابات التي غشيت الأرض تبيح سوى رؤية الأشكال الغامضة، فالتصقت آميتيس بالملك وهي ترتعش، فيما أخذ الكاتب يتلو بصوت رتيب متزن، أجمل قصة حب عرفتها بلاد بابل، تلك التي تذكّر بألم عشتار وحزنها على موت حبيبها، تموز:

« أنت مليكي، أنت الذي كنت قد اختُطفت بقسوة، وانتزع من يدك الصولجان البارق، ارفع يديك الخائرة العزم، فالأرض بدون تموز لا وجود لها ».

وتتأوه عشتار وتتابع تقول:

« واحسرتاه! إن شبابه يرقد بين أزهار الحديقة، يرقد مهملاً متروكاً. إن البطل، « دامو » الذي يخصني. يغفو بين أزهار الحديقة. إنه يغفو مهملاً بين أزهار الحديقة. وبين أشجار التوت يغفو، ونحن قد برَّحنا الألم عليه ».

وبعد أن توقف الكاتب ليبقى صوته متموجاً في الهواء المعطر، وخيَّم الصمت على كل شيء، شدَّ نبوخذنصر نفسه إلى آميتيس وهمس في أذنها مقاطع القصيدة التي عاد الكاتب ينغمها: « إيه ملكة بابل، ملكة السماء، سأجدد من أجلك الاخضرار. سأجدد من أجلك كل ما ذهب وولّى ».

كفَّت آميتيس النشوى عن الإصغاء للكاتب، وكتكملة لغرام عشتار وتموز، أخذت تروي على زوجها قصة السنوات الأولى من طفولتها التي قضتها في قصر « أكباتان » الجميل، ضمن أسوار المدينة السبعة. لقد روتها وهي فخورة

بأن تكون، رغم أنوثتها الرهينة الضعيفة، الرباط اللطيف القوي الذي وحَّد المملكتين الكبيرتين اللتين تقتسمان العالم. أليس ذلك بفضل انتصار الحب؟

وعلى المصطبة العالية، حيث من الصمت ذاته انبثق سحر غريب، التصق الزوجان إلى بعضهما البعض، وأخذ كل واحد منهما يشدُّ الآخر إلى جسده، وقد شعرا بأن هناك سراً لا يُدرك يدفعهما إلى البقاء هكذا في ذلك المكان، صامتين جامدين، بينما القمر في السماء الشاحبة، يطلُّ عليهما من فوق أشجار الأرز.

وما أن غمر نور القمر السهل بأجمعه، حتى أخذ نبوخذنصر يتطلع ملياً إلى جماعة صغيرة من البشر يتضاءل حجمها في عمق الأفق المنبسط، إنها قافلة هزيلة تعبر الصحراء الكبيرة عائدة بصدقيا إلى أورشليم. ثم طوَّف بصره في السهل المتموج اللامحدود، باحثاً عن المكان الذي كانت تشغله نينوى، والذي لم يعد حتى كومة من الحجارة! وانتقل بمخيلته إلى عدوته الأخرى أورشليم، التي لم تزل قائمة، وأخذ يفكر . . . ويحلم . . . فأورشليم، ستكون النصر الذي يتوج به مستقبله المجيد.

ولما ثقل الليل بصمته، شاء الكاتب أن يطرد الشعور بالرهبة التي يولدها الليل بصورة دائمة. فارتفع صوته يقطِّع من جديد القصيدة القديمة، الصدى الإلهي لقلب العاشقين المتَّحد.

وبفضل عشتار، انتصر الحب على الموت في هذا المقطع من القصيدة المذكورة:

« في مقرّ نفوس الأموات، حيث هبطت الإلهة للبحث عن حبيبها، بُعث تموز حياً إلى الأبد بفضل عشتار. ونهض الأموات ليتنشقوا رائحة البخور !».

وعندما وصل الكاتب إلى القوة السحرية التي تعيد الحياة إلى الميت، ردد كلماتها عدة مرات وأعطاها نغماً خاصاً، مما جعل آميتيس تحني رأسها بغنج ودلال على صدر نبوخذنصر العريض، وتقول له:

« كي تكون زوجي، وأكون زوجتك، امنحني فرح قلبك ».

ومرت رعشة في الهواء. . . فالنجوم في أبعادها التي لا يدركها العقل، قد التمع ضياؤها في الفضاء الذي لا نهاية له، وحان وقت العودة.

فهبط نبوخذنصر وآميتيس بتمهل نحو الحرم، في الوقت الذي كان فيه قرص القمر قد ازداد ارتفاعاً، وبلغ إشراقه الشاحب الفاتن عمق الأروقة المظلمة. وفجأة، أضاء القمر بوضوح هذه الكتابة التي نقلت عن كتابة خورسباد وحفرت فوق الباب الثاني من الحرم المذكور:

« ليكثر نيسروك، سيد الأسرار الغامضة، الذي يثقب غشاء المهبل، عائلة نبوخذنصر ملك العالم، الذي شيَّد هذا البناء الزوجي ليجعل الخطيبة مطواعة، ليخصب المعانقات. ليفتن عيون الملك. ليدهش أذنه. أيها الإله الذي يثير الحواس، أصغ إلى صوت الزوجة. أعضد أعمالها كي يرزق الملك الأولاد. . . ».

استيقظ الزوجان الملكيان من نومهما، بعد أن رسمت أشعة الشمس المرتفعة خيوطها الذهبية على القرميد المطليّ بالميناء في غرفة آميتيس، وفيما كان البخور ما يزال يحترق وسطها. وكانت الحجارة السحرية تتدلى من عنق الملكة، وبينها حجر الحبل، « آبان - إيري »، وحجر الولادة، « إي - تاني »، وحجر الحب، « آبان - رام ». فقال لها الملك:

« لقد جعلت هذا البيت مزدهراً، وطهَّرته، وربطت جدرانه بالرخام. أيتها الزوجة سيدة البيت، والامرأة الشابة، وابنة البيت التي تشرح الصدر، أنت استقرار المدينة! ».

ونهض الإثنان يداً بيد، ليذهبا ويطهرا جسديهما بالينبوع الخرار، الذي هدهدهما بموسيقاه طوال تلك الليلة القصيرة المفعمة بالحب. . .

سقوط أورشليم ونهبها

تهوى الآلهة في بابل أن تتعاطى مع الرجال الأتقياء، وأن تكشف لهم المستقبل بواسطة الأحلام. وعندما يكون الأمر متعلقاً بالشؤون الهامة للمملكة، باستطاعة الملك أن يحصل على هذه النعمة برقاده في السرير المقدس.

وهناك كتابات كثيرة رسمية، تنبئنا بأن مفتاح الأحلام كان مفتاح السياسة. ونبوخذنصر، رغم كل واقعيته، كان مغفلاً هو أيضاً بالنسبة لهذا الاعتقاد، ولكل علوم السحر والتنجيم التي استحوذت على العالم القديم منذ قرنين من عصره. فالأحلام وتفسيراتها، احتلت مكانتها في محفوظات جناح وزارة الخارجية لديه، حاملة عناوين الأحداث التي تتنبأ عنها. وقد دون نبوخذنصر فيما دوّن بين هذه المحفوظات، الحلم الذي حرَّضه على تدمير أورشليم، ذات ليلة من العام ٥٩٠، بعد أن حفره على موشور مصنوع من الطين المشوي. وكي يفسر هذا الحلم الذي ارتبطت به كل السياسة البابلية، لم يشأ نبوخذنصر اللجوء إلى كاهنة الوحي الإلهي في بورسيبا، ولا حتى إلى « السابرو »، أولئك العرافين الذين يمتازون بموهبة جعلت الآلهة تفضلهم على غيرهم وتخصهم بالأحلام التنبؤية. لا، لم يقبل نبوخذنصر أي وسيط بينه وبين مردوك، بل توجّه رأساً إلى ضريح إلهه القائم تحت زاكورة بابل الهائلة الحجم والمتعددة الألوان.

وبعد أن أضاءت المشاعل باب حرم الهيكل، تقدم الكهنةُ نبوخذنصر بأشكالهم البيضاء عبر متاهات المصليات التي تبرز نخاريبها متقاطعة في أساسات البناء الهرمي، ثم تجمعوا صامتين في الظل الحار. وكان العرافون قد استنفروا كلهم، فانحنى « الأبكالو » على إناء مملوء بالماء وقطر فيه قطرة من

الزيت كي يحدد الشكل الذي سيحدد مصير الملك! وفي الاتجاه المقابل له، كان « البارو » يراقب مبتسماً أمعاء حمار مزرقّة ومفتولة إلى الشمال، دون تشقق ولا انفلاق، وهذا ما يدل على فأل ممتاز!

لكن نبوخذنصر مرّ دون أن يبصر شيئاً، وحتى دون أن يرى هذين العرافين، لأنه كان يتوق إلى شيء واحد لا غير، هو أن يتلقى من إلهه، قرب ناووسه الذهبي، العلامة الملائمة للحلم المتوافق مع مشاريعه في الغزو والفتوحات. أليس نتيجة لحلم فيما مضى، أصدر آشور، إله نينوى، أمره إلى جيجاس ملك ليديا، بأن يستسلم إلى آشوربنيبال؟ ثمَّ أليس نتيجة لحلم أيضاً، أنبأ الإله سِن شماشهوموكين، حاكم بابل، بالنهاية التعيسة التي تنتظر تمرده؟ وأخيراً، أليس نتيجة لحلم حددت عشتار أربل لأشوربنيبال الوقت الملائم لمهاجمة تيومان، ملك عيلام، فحقق الجيش الآشوري نصراً ساحقاً ؟

وفيما كان نبوخذنصر، المستلقي على سريره الضيق والمنتصب أمام الناووس الذهبي، وهو بين اليقظة والرقاد، التمعت في ذهنه فكرة غزو أورشليم، فاستحوذت هذه الفكرة عليه وحولها تبلورت كل رغباته، إلى أن تولَّد منها في ظل المحراب هذا الحلم: لقد رأى نبوخذنصر مردوك منتصباً على تنينه المقدس، وقد جاء، كما فعلت عشتار فيما مضى لدى أشوربنيبال، ليشجعه بهذا القول:

« سر إلى الأمام كي تحظى بالغنائم. فالمجال مفتوح أمامك، وأنا أيضاً سأرافق مسيرتك ».

فاستيقظ نبوخذنصر بعد هذا الحلم وقفز من سريره قفزاً. ثم قصد السطيحة التي كان الفجر قد غمرها بضيائه الشاحب. وما هي إلا دقائق، حتى برزت الشمس وبدت بابل تحت أشعتها الأولى كأنها مغطاة ببساط ذهبي اللون! وعلى عتبة المحراب، ظهر كالشبح الأسود بالنسبة للجدار الجصي، الكاهن « شا ـ إيلو »، عراف الملك، ممسكاً بين يديه لوحات البحث المؤلفة من

أربعة عشر فصلاً، حول الفؤول الأرضية التي تتيح له شرح وتفسير الحلم الملكي . . .

فاصطحبه نبوخذنصر معه إلى القصر، حيث كان بانتظاره إسرائيلي، هو النبي حزقيال، الذي كان هو الآخر قد حلَّت عليه في منزله الصغير على شاطىء « كوبار »، هذه الرؤية التي أبلغها إلى مواطنيه بقوله:

« وكانت إلي كلمة الرب قائلاً: يا ابن البشر، تنبأ وقل هكذا قال السيد الرب: السيف السيف قد حُدِّد وصُقل، قد حُدِّد ليذبح ذبحاً وصُقل ليكون له بريق. اصرخ وولول يا ابن البشر، فإنه يكون على شعبي وعلى جميع رؤساء إسرائيل ».

فارتعش نبوخذنصر وقال في نفسه: إن الساعة قد حانت، فمردوك ويهوه، كلاهما معي!

وفي اليوم التالي، وعلى طريق القوافل الممتد على طول نهر الفرات، زحف عالم بأسره وراء الغازي . . .

وعندما وصل نبوخذنصر إلى مدينة تدمر، توقف متردداً ! . . هناك ثلاثة أعداء يزدرون به، فمن عليه أن يهاجم أولاً ؟ صور أم المصريين، أم يهوذا ؟ وأمام هذه التساؤلات، وجد أيضاً أنه لا بدَّ من استطلاع الفؤول. « فهزهز السهام، وسأل « الترافيم[١] »، وفحص كبد الحيوانات ». ثم تساءل: ألم يخدعه يهوه عندما نصحه بلسان حزقيال بأن يعاقب شعبه الخاص؟ لكن السهام، « والترافيم »، وأكباد الحيوانات، أكدت له نبوءة حزقيال والوحي الإلهي لمعبد بورسيبا.

لذلك، وبعد أن كان قد أمر بعضاً من جيشه بالزحف على صور، وجّه

---

(١) نوع من التماثيل كان اليهود يعبدونها كلما ارتدوا عن عبادة الرب.

معظم وحداته إلى أورشليم، وأقام هو على نهر العاصي في مدينة ربلة، مع قوات احتياطية. وكانت نبوءات النبي حزقيال قد سبقت الحشود البابلية الفوضوية، فعصفت في أورشليم ريح الخيانة والهزيمة:

« وأنت أيها النجس المنافق، رئيس إسرائيل، الذي أتى يومه عند بلوغ الإثم غايته. إني أنزع العمامة وأرفع التاج. هذه الحال لا تبقى. بل أُعلي السافل وأُسفّل العالي وأجعل انقلاباً على انقلاب على انقلاب، إلى أن يأتي الذي له الحكم فأجعله له ».

تطاول الظل الكبير لأسوار أورشليم في وادي يوشافاط، إذ كان ينبسط بقدر ما كانت الشمس تتوارى، مع التقلبات اليومية لأشعتها بعد المغيب، من اللون الأزرق، إلى الخبازي، فالبنفسجي. وعند الأفق، ارتسمت مغلفة بتموجات من الدخان، أسوار وقصور بأشكال متنافرة. وعلى المدينة كما على السهل اللذين غدا صامتين، عمت الظلمة، فنشرت الكآبة والخوف بشكل لا يمكن وصفه، وذلك بعد أن هبط الليل بجحافله من السماء الواطئة المغطاة بالغيوم. وكانت هناك نقطة واحدة تجاه السور الشمالي، قابلة للاختراق. فنصب الكلدانيون عندها، على شكل مدرجات، خيامهم المبرقشة والمسورة بجدار من الحجارة محصَّن بالأبراج.

وتصعَّد نحو المدينة والسماء تناغم مخيف من النواح والأنين والعويل، مصدره عدد كبير من الأسرى الإسرائيليين المخوزقين على أوتاد في الصف الأمامي، تجاه الأسوار، وكأنهم تماثيل نصفية حمراء تلفظ أنفاسها... فمنذ يومين أو ثلاثة، وهؤلاء التعساء، نتيجة لمحاولات ميؤوسة قاموا بها للتفلت من الحصار المضروب عليهم، وهم يحشرجون وتحوم حولهم أسراب من الغربان حاجبة أنينهم بنعيقها الأجش، بعد أن انهارت قواهم وأخذت أجسادهم تهبط وتتخذ أوضاعاً استرخائية. ولو لم يكونوا بعيدين جداً عن رفاقهم المحاصرين، لكان هؤلاء قد اختصروا عذاباتهم بسهامهم، لأن البابلي يرمي من وراء هذه

العذابات أن يثبط العزائم ويكثر الخيانات بين المحاصرين.

ومع أن الإسرائيليين قد ضاعفوا الحراس على أبواب أورشليم الستة، فإن عدد الفارين منهم كان يزداد كل يوم، مما جعل الغضب في النفوس يبلغ ذروته، وتشتد المناقشة والجدال بين الجماهير المحتشدة في زوايا الشوارع، فيما هي تسمع طرقات قذائف المجانيق على الأسوار.

ورغم الوضع القتالي السيء بالنسبة للإسرائيليين، أبى صدقيا وضباطه إلا متابعة الحرب حتى النهاية، بينما إرميا وأنبياؤه نصحوا بالاستسلام والتوقف عن قتال لا فائدة منه لمملكة يهوذا التي تغيظ الرب وتتمرد عليه! ولكن، أليس من الجنون التفكير بأن الرب سيقبل بهزيمة شعبه، ودمار هيكله، وبانتصار نبوخذنصر، خادم بعل مردوك ؟! لا، إن يهوه سينقذ شعبه...

ومضت الأيام، وصدقيا وضباطه ينتظرون حدوث الأعجوبة، حتى انقضى على الهجوم البابلي الذي ابتدأ في العاشر من الشهر العاشر من السنة التاسعة لولاية صدقيا، ثمانية عشر شهراً تقريباً، فعمت الفوضى، وانتشرت المجاعة، وتكاثرت أعداد الفارين من الجندية، مما أوصل أورشليم إلى حافة الانهيار التام والمحتوم!

هذا الوضع الميؤوس والضيق الشديد، حملا صدقيا على أن يبعث إلى إرميا بيوكل بن شلميا وصفنيا بن معْسيًا متوسلاً. لكن النبي الذي كان يطلق لعناته أمام الأسوار، محاطاً برعاع القوم المدفوعين بالعوز والفاقة إلى التمرد، وبالجنود الذين أفقدتهم الهزائم شجاعتهم، ساعده منظر الجثث المختلجة وهي في حالة النزع، والبيوت المنهارة تحت ضربات المجانيق الكلدانية، والحرائق المنتشرة في كل مكان، وانسياب الزيت الغالي، على أن يبرر غضب الرب على الملك المجرم صدقيا، الذي ركب رأسه وضرب عرض الحائط بإرادته، هذه الإرادة التي هو، إرميا، لسان حالها الأمين.

مع هذا، توسل إليه المبعوثان كي يتدخل لدى يهوه ليرفع العار والشنار عن أورشليم، ويقي هيكلها الرجس والتدنيس. ومما قالاه له: « خاطبه من أجلنا، علّه يقوم بأعجوبة! » فأجابهما إرميا العنيد: « إن الكلدانيين سيستولون على هذه المدينة ويحرقونها !».

وفي بابل ذاتها، انتقلت عبر الخطوط الكلدانية بواسطة أحد الجنود المنشقين، هذه النبوءة لحزقيال، التي كانت صدى لنبوءات إرميا: « هكذا قال السيد الرب: قل لآل إسرائيل هآنذا أدنس مقدسي، فخر عزتكم ومشتهى عيونكم ومنية نفوسكم. وبنوكم وبناتكم يسقطون بالسيف ».

في تلك الأثناء، كان نبوخذنصر في معسكر ربلة ينتظر، وقد عيل صبره من مقاومة أورشليم وصور المستمرين! فهل عليه أن يشك بنجاح حملته، وقد سمح بها الوحي الإلهي لمردوك، إلهه، كما سمحت بها نبوءات أنبياء يهوه، إله أعدائه؟ وهل إن مقدرته وجدارته، لا تسوغان له بأن يحقق طموحه ؟

وكي يقنع الآلهة ويقنع ذاته بواجب انتصاره في هذه الحرب، حفر تحت رسم له على صف من الصخور لا تبعد إلا قليلاً عن العاصي، وتقع على الطريق الطويلة الممتدة من بلاد ما بين النهرين حتى بلدان الشمال في آسيا، كتابة بلغ طولها خمسة أمتار وستين سنتيمتراً، تذكر في ستة أعمدة ملزوزة بكل ما يمتاز به من تفوق وحسن قيادة وسلوك.

ورغم النبوءات الكثيرة المشجعة، وكان آخرها نبوءة حزقيال التي نقلت إليه في بابل، وجاء فيها قول الرب: « ها أنذا أعطي نبوخذنصر، ملك بابل، أرض مصر، فيأخذ جمهورها، ويسلب سلبها، وينهب نهبها، فيكون ذلك أجرة لجيشه. وها أنذا أجلب على صور من الشمال نبوخذنصر، ملك بابل، ملك الملوك. . . »، فقد تصرمت أشهر طويلة ولم يتحقق شيء من هذه النبوءات، مما جعل نبوخذنصر يغتاظ ويحنق. وتفاقم حنقه وغيظه عندما ثبت له أن نصف

قدرات جيشه قد دُمِّر أمام أورشليم ! فصمَّم في قرارة نفسه أن يتكل على ذاته، وأن يتغلب على القدر !

وكانت الحالة في أورشليم قد أصبحت ميؤوسة. فكل مدن يهوذا، باستثناء لاكيش وعزيقة، قد سقطت في أيدي العدو، ولم يعد بلد بنيامين سوى كوم من الأطلال بين أنهر من الدم. وفي أورشليم ذاتها، مجموعة من المنازل اكتسحها المدّ البابلي ودمرها، وحدث نقص مخيف في المواد الغذائية، وتوالت المعارك والإنذارات دقيقة فدقيقة، فحرقت الأبراج وانهارت الجدران، ومات حتى الأمل في قلوب الإسرائيليين. وباتت الحالة لا تطاق، حتى بالنسبة للمعتادين على الحرب، إلا مع التصور بأنه من الممكن أن تزداد سوءاً.

ومع ذلك، استمرَّ صدقيا في عناده! وكان الناس يلجون حدائق قصره كل مساء دون أن يجرؤ العبيد على مقاومتهم. وذلك ليقفوا عند أسفل المصطبات منتظرين أن يلمحوا شبح الملك، ليقذفوه بأقبح الشتائم وكأنهم كلاب تنبح حتى الموت...

وعلى درجات الهيكل في النهار، كانت الجماهير تحتشد وتهزها بعض المرات موجات من الرعب والغضب، فيختلط عويل النساء الحاد بصراخ الرجال، لتكوّن هذه الأصوات المتكاثرة جلبة واحدة هائلة تبلغ أصداؤها أكثر الأزقة ضيقاً وبعداً. وكي يقوّي من عزيمة شعبه المنهارة ويعيد إليه بصيص الأمل ويخفف من نقمته، لم يعد بإمكان صدقيا، إلا أن يعتمد على رجال يهوه، أولئك الاتقياء الذين يمقتونه ويلعنونه!

فصمم، بالاتفاق مع النبلاء الإسرائيليين الذين وقعوا في ضيق شديد، بأن يقدم تنازلات إلى أولئك الرجال المتدثرين بأسمالهم، والذين في زوايا الشوارع ومفارقها، كانوا يهاجمون الملك والحزب العسكري بقارع كلامهم وفصاحة ألسنتهم، متمنين دمار أورشليم! فطبّق نصوص التوراة الجديدة التي كان إرميا

قد أعلنها في عهد الملك يوشيا[1]. وأصدر بنوع خاص قراراً بعتق العبيد. فطابت لهذا التدبير نفس إرميا ومريديه وسائر كهنة بيت الرب الذين لا عدَّ لهم ولا حصر، وأخذ هؤلاء الكهنة ينفخون في الأبواق محثين الشعب والجنود على المقاومة، بانتظار الحدث الحاسم الذي لم يعد هناك شخص يجرؤ على تصديقه. إلا أنه قد يتولد من ميول القلب والإيمان المستعاد.

وهكذا هبط صدقيا منخفض الجبين ذات صباح، السلَّم الخاص الذي يفضي من قصره إلى بيت الرب، متبوعاً بوزرائه وضباطه والمحظيين لديه، فشكلوا صفاً طويلاً من الأثواب البيضاء المصحوبة بالقرع الصاخب للصنوج والدويّ المصمِّ للطبول. وكانت ساحة الهيكل وأروقته والشوارع المجاورة، كذلك سطوح البيوت القريبة، قد غصت بالناس المحتشدين والصامتين، بوجوههم الضامرة المرتسم عليها الحرمان والفاقة، وقد مطُّوا رقابهم نحو الهيكل وكأنهم يمطونها نحو الروح الأبدية للمدينة! فما دام هذا الهيكل مستمراً، ألا يمكن للأمل أن يستمرَّ هو أيضاً ؟

وبدون هذا الهيكل، هل سيتحقق وعد يهوه الذي يسمح للشعب اليهودي بأن يستولي على العالم؟ فضلاً عن ذلك، إن الأمل لا يمكنه أن يولد إلا هنا، أمام قدس الأقداس، وبواسطة الصلوات التي عرفت، منذ قرون، أن تجد في هذا المكان الوهم المستحب للغنى غير المبالي بشقاء الجسد، وللحياة غير المكترثة بالموت.

وفجأة، تعالى صوت «الأنافيم» بالترنيم المفعم بالإيمان المؤثر والمهيب، بعد الكثير من الشقاء، والتبعثر والتشرد: « إمنح الملك عدالتك أيها الرب، كي يحكم شعبك بعدل، وفقراءَك بإنصاف. واجعله مهاباً طالما أن الشمس تسطع، وطالما أن القمر مستمرّ في دورانه ».

---

(١) سفر تثنية الاشتراع.

وإلى جانب المذبح البرونزي في الفناء المقدس، وبمواجهة حفرة كبيرة، أُعدّ ثور أبيض للذبح والتضحية. ومن بين العمودين البرونزيين الضخمين اللذين يدعمان الباب الكبير ذا المصاريع المصنوعة من خشب السرو واللامعة تحت أشعة الشمس، دخل صدقيا إلى المحراب متبوعاً بكبير الكهنة المرتدي ثوباً من الكتان الأبيض.

*

كان الجو معتماً في «الهيكال»[1]، إذ إن الكوات الصغيرة المشبكة، لم تكن لتسمح بأن يتسرب منها إلا النور الشحيح الباهت الذي يبرز تلف التلبيس الخشبي. فقد أصبح هذا الخشب بالياً حتى علوّ قامة الإنسان، بفعل لمس الأتقياء له... أما الشمعدانات الذهبية ذات الشعب السبعة التي كانت تتلألأ بلطف وهدوء، فإن نورها الوامض قد نشر أشعته الذهبية الضئيلة على كل الجدران الملبسة بخشب الأرز والزيتون.

في هذه الهالة المهيبة، رفع الملك الستارة التي تحجب الحجرة المقدسة ببطانتها المخملية السميكة، ووقف أمام المذبح المصنوع من خشب الأرز الملبس بالذهب. وللحال تصاعدت بشكل لولبي موجة من البخور، وانتشرت في النور الراعش المنبعث من المشاعل، وبان على الطاولة الذهبية خبز التقدمة وقد انعكس عليه بريق المعدن الثمين. فأسرع كبير الكهنة، وبحركة كهنوتية، أزاح ستارة مثقلة بالمطرزات الذهبية والأحجار الكريمة، فكشفت عن مدخل يعرض على ألواح أُطره المصنوعة من خشب الزيتون، التشابك المنسجم لسعف النخل وتويجات زهرة اللوتس، وبينها طيور «الكاروب» تبسط أجنحتها الذهبية. إنه مدخل قدس الأقداس: «الديبير».

---

(١) مقصورة الرب.

هناك، في الظل الغامض، يقيم يهوه! فارتعش الملك والتبس عليه نوع الضيق الذي شعر به أمام هذه المظلة الفارغة من كل محتوى إنساني! فملاذ الملاذات الوهمي، الغريب العجيب، كيف يلتمس منه مطلباً وهو في هذا التابوت المقدس الرمزي الذي بالكاد يرتسم تحت «الكاروبين» الضخمين من الخشب المذهب، اللذين يبلغ علوهما الخمسة أمتار، وتنبسط أجنحتهما الخارجية نحو السقف لتشكل قوساً متصلبة، بينما أجنحتهما الداخلية تلتوي باسترخاء على الصندوق القديم الذي منذ عهد موسى، درج ملوك وملكات القرون الماضية على قصده والركوع أمامه، إما بدافع عرفان الجميل، وإما بدافع تبكيت الضمير!

وبين هذه الأجنحة الخالية من الروح لأنها بدون جسد، يتمثل في يهوه غير المنظور الأمل العميق والفائق الوصف، الذي بدون مساعدته سينعدم غداً وجود إسرائيل. فحنى صدقيا رأسه، وشاء أن يصلي... وصلاته في تلك الساعة التي عمَّ فيها الدمار والخراب كل أرجاء المملكة، تعني تعلقه بشيء دائم ومستمر، وقد يكون أبدياً! لكن كيف يمكنه أن يعهد بمصائره ومصائر وطنه إلى هذا الإله المتعذر تعليله! إلى هذا الإله غير العادل الذي يتخلى عن ملوك شعبه، وقد كانوا أيضاً أتقياء مثل عمه الكبير يوشِيًّا، وأيضاً شباناً مثل ابن أخيه كِنْيَا، وأيضاً شجعاناً مثله هو، صدقيا! مع ذلك، ركع وصلّى من أجل أن ينقذ الرب مملكة يهوذا التي هي مملكته، وشعبه الذي عانى الكثير من الآلام والعذاب على أيدي عباد مردوك.

قد يكون هناك الكثير من الكبرياء في الصفقة التي عرضها صدقيا على يهوه، والتي تقضي بأن يستجيب لصلاته ويجري معجزة تحقق رغباته، مقابل اندماجه معه بقلبه وروحه.

إن الأنبياء قد علّموا بأن ذلّ الإنسان مستحب لدى الرب. لكن عندما يكون هذا الإنسان ملكاً، هل عليه، والحالة هذه، أن يخضع لأوامر الأنبياء، وأن يُذَلّ

كل شعبه؟ لا، إن يهوه يرفض عبادة تقوم على الخضوع لغير الحق، وعل أُسس لا يقرها العقل. فأي مملكة ستكون هذه المملكة، التي تتخلى عن كل سلطة زمنية، والتي تشاد على حساب كل المباهج الأرضية؟! مع ذلك، عليه الآن أن يتعبد ليهوه، وأن يختلط بهؤلاء العبيد وهؤلاء المتصفين من عامة الناس.

في أثناء ذلك، أخذ رجل شيخ يدفع الحراس أمام الهيكل، حتى تمكن من الانفصال عن الجمهور المحتشد. وكان هذا الرجل يرتدي أسمالاً بالية تبرز دمامته وهزال جسمه. فتقدم وركع على البلاط البارد، ورفع يديه مبتهلاً، وحدَّق في السماء بعينيه الواسعتين. وامحت عن وجهه الحزين دلائل الموت التي رسمتها سنوات الحرمان والعذاب، لتحل مكانها دلائل الفرح والثقة بالنفس! ورأى صدقيا الدموع التي كان يتمناها لنفسه، تكرج على خديه الهزيلين. فشاء باندفاع من الضيق الذي لا يوصف، أن يشعر هو، في أعماق قلبه، بالوهم العذب للثقة، كي يتوسل يهوه لأن يغفر له، بصفته ملكاً لشعب إسرائيل، آثامه البغيضة التي يهدده بها إرميا. فقدَّم بيد مرتعشة، الثور إلى أمام الهيكل، ووضع يديه على رأسه مباركاً قبل التقدمة. ثم نحره الكهنة على الطاولة المقدسة، فانبجس الدم غزيراً من الجرح الفاغر، فتلقفه اللاويون في آنية برونزية واسعة، وأراقوه في كل أنحاء المعبد، كي تشمل الفائدة من التضحية الكل، وكل المدينة.

وارتفعت من جديد مع البخور المتصاعد فوق الذبيحة، بوقار وتمهل، هذه الترنيمة من سفر المزامير: «ليستجب لك الرب في يوم الضيق. ليرفعك اسم إله يعقوب. ليذكر جميع تقادمك ويستسمن محرقاتك...».

ثم شقَّ الكهنة الضحية المتصاعد منها البخار وشطروها نصفين، ورسموا بين رأس العجل وقوائمه خطاً من الدم، فأخذ الأسياد الأثرياء من حاشية صدقيا يمرون الواحد تلو الآخر عبر الخط الأرجواني، متعهدين بعتق عبيدهم، عملاً بما جاء في التوراة الجديدة.

والغار الطيب الرائحة، وهو خالٍ من أي سلاح، إلا سلاح تواضعه ورجائه الإلهي، متجاهلاً كل الفلسفات، شائحاً بوجهه عن كل الثروات، غير مكترث بتلك القوى الدنيوية التي تسوس العالم، وتلك القوى المادية التي تجرفه، فتهتدي بهديه وتتبعه شعوب بكاملها؟. .

ثم في ذلك الوقت، ألم تكن تتموج مع النسمات هذه الكلمات التي سيتلفظ بها الناصري بعد خمسة قرون، وبها سيفتتح العالم، فلا يبقى بعدها مجد بابل سوى رماد لا حياة فيه: « أحبوا بعضكم بعضاً. إن مملكتي ليست من هذا العالم ؟».

كانت أورشليم تنتظر مصيرها، ونبوخذنصر يتابع زحفه مدفوعاً بحلم لم يسمح له أن يمتّع النظر بتلك المناظر الطبيعية الهادئة والباسمة، لأنه حلم الخلود الذي ما زال يسعى وراءه أمام القمة الشامخة لجبل الطُّور، هذا الجبل الذي، كي يفخِّم إرميا عظمة نبوخذنصر، كان يقول للمحاصرين في أورشليم: « سيظهر نبوخذنصر كالطُّور بين الجبال ».

وعند منحدرات جبل الطُّور، انبسطت الخيام بشكل مدرَّج مؤلف من ثلاثة أو أربعة صفوف، انبرت الماشية ترعى حولها. فأسرع منشقٌّ إسرائيلي وأعلم نبوخذنصر بأن في هذا المكان قبيلة من تلك القبائل الغنية بالقطعان، والتي ما زالت تعيش عيشة العصور الخوالي! فالأخلاق التي يبشر بها إرميا يعيشها أفرادها ويتمسكون بها في هذه الحياة الرعوية التي هي في ذات الوقت، وبالنسبة إليهم، قاعدة كل الأخلاق، والقوة الوحيدة لإسرائيل: «في القسمة الإلهية التي شاءها يهوه لخيرات الأرض، لم يهدف من ورائها أن يكون هناك أغنياء وفقراء ». فالمدن وفخامتها، والحروب والغزاة، هي أشياء عابرة، ولا شيء يبقى إن لم يكن مصدره القلب، ومحبة يهوه الذي يحب الحياة البسيطة والمتواضعة. فمملكته ليست على هذه الأرض، ولذلك ستكون مملكة أبدية!

وفي المساء، ودون مبالاة بالوحدات الكلدانية التي غزت السهل وملأت

الخيام، قدَّم مجوسيّ على مذبح صغير أحد الحملان كتضحية من أجل يهوه! وحول هذه الضحية، وقف رجال ونساء منتصبين، ثم ارتفعت ألسنة النار فأضاءت وجوهاً قاتمة ذات أسنان بيضاء، وأشباحاً في أوضاع مهيبة وثياب وبرية طويلة. وعندما تصاعد الدخان نحو السماء ملتفاً على بعضه البعض بشكل حلزوني، كان حلم هؤلاء البشر البسطاء يتمثل في هذه الترنيمة البطيئة والوقورة: « ارتعدي يا ابنة صهيون، فها هو ملك يأتي إليك، عادلاً ومنتصراً، سوف ينشر السلام بين الأمم، ومملكته ستمتد من بحر لآخر » !».

وعلى انفراد، كان هناك بعض الشيوخ المتدلية من شعورهم البيضاء خصلات جميلة، يجلسون برصانة على حافة بئر، وأمامهم صبية أرملة تشتكي سلفها لأنه لم يتزوجها حسب منطوق الشريعة، وتبصق في وجهه تعبيراً عن احتقارها له! فارتسمت الابتسامات على اللحى البيضاء تبريراً لنزق الشباب في هذه المرأة الشابة وحقها بأن تعيش عاطفتها الأنثوية كما تشتهي، ووفق التقاليد التي درج عليها الأسلاف والأجداد.

كما كانت هناك عائلات تأخذ قسطها من الراحة، ونساء يجلسن القرفصاء ويرضعن أطفالهن، وأب يعاقب ابنه بضربات من مقرعته: « عاقب ابنك فيجلب لك الراحة، ويبهج نفسك ».

وعلى منحدرات الجبل فوق الخيام، كانت دوالي العنب في الكروم تستند إلى دعائم أرضية يابسة، والحدائق والرياض تتدرج مصطبات تلو مصطبات. وفي عمق صفاء الشفق برز بوضوح شبان وصبايا يجلسون اثنين اثنين على الحيطان الحجرية الرمادية اللون والمتماسكة بالطين، وهم غارقون في تأملاتهم أمام الأبعاد المشبعة بالبخار، وقد بدأت تمَّحي في النور المتضائل شيئاً فشيئاً. إنهم فتيان وسماء ذوو عضلات قوية وسواعد مفتولة يلهون بجسارة تحت جلود الماعز التي تكسوهم، وفتيات سمراوات فاتنات يتدثرن بالأنسجة الحمراء وتلتمع عيونهن السوداء وسط خدودهن الوردية، وفيهن كان الشبان يتغزلون مرددين ما جاء في سفر نشيد الأناشيد:

« ما أجملك أيتها الحبيبة وما أشهاك في اللذات. قامتك مثل النخلة وثدياك مثل العناقيد !».

ثم يهمهمون وقد أسكرهم هذا الجواب من السفر ذاته:

« أنا لحبيبي وأشواقه إليَّ، هلمَّ يا حبيبي لنخرج إلى الصحراء، ولْنَبت في الضياع فنبكّر إلى الكروم وننظر هل أفرخ الكرم وهل تفتحت زهوره وهل نوَّر الرمان. وهناك أبذل لك حبي...».

وعندما هبط الليل، عصفت الشهوة في قلوبهن، وترجمتها هذه الكلمات: « اجعلني كخاتم على قلبك، كخاتم على ذراعك، فإن المحبة قوية كالموت والغيرة قاسية كالجحيم، ولهيبها لهيب نار !».

وفي سحر الليل امَّحى كل شيء، وصمت كل شيء، بما فيه الأصوات الحنونة وخواء القطعان. وفي خشوع لا يُحدّ، تصاعدت من المعسكر الهاجع، العبادة الصامتة نحو النجوم المتلألئة.

ومع انبلاج الفجر، لم يبق من المعسكر الجميل إلا كومة من الرماد الأسود على الجبل الوردي. فنسيج الخيام الكتاني قد تطاير وتمزق إرباً إرباً. والشعير، والتين، وعناقيد العنب، تبعثرت كلها بين جثث الرجال والحيوانات المذبوحة، التي كان الجنود الكلدانيون السكارى يتهادون وسطها كالأشباح، فيما أخذت النسوة المشعثة الشعور يقبّلن هذه الجثث وهنّ نائحات باكيات، فيمتزج نحيبهنَّ بصراخ الأولاد المشوهين، ويرد كلاب القبيلة على هذه المناحة الصاخبة بنباح متواصل وحزين أيضاً...

وفي البعيد من السهل، كانت تسمع الأناشيد الرتيبة التي تقطع نياط القلوب من فرط ما تتسم به من حزن، تصدر كالزفرات من قلوب بنات إسرائيل العاشقات والجميلات، اللواتي قادهن الكلداني معه إرضاء لشهواته منهن، وكي يستخدمهن فيما يعود بالنفع عليه.

ولم يكن الجيش قد توقف بعد، عندما افترشت الجموع الغفيرة السهل الرهيب. فأخذ نبوخذنصر يدفع بعربته على طول صفوفه الملزوزة. فإذا به تارة في المقدمة، وطوراً في المؤخرة. مرة إلى يمينه، وأخرى إلى شماله، وذلك ليحثه على متابعة السير كما يفعل الكلب مع القطيع.

وهكذا انتشر الجيش في سهل عزرائيل المغمور بسنابل القمح الناضج كأنها جدائل من ذهب! وفي البعيد إلى الشمال، انتصبت قمة جبل الجلبوع فوق الكروم المليئة بالعناقيد المحمرّة، والتي منها كرم نابوت المشتهى من إيزابَلُ، زوجة آحاب ملك السامرة، لأنه يقع إلى جانب قصر زوجها. وفي هذه القمة الحرجية الخضراء التي «لم يتساقط عليها المطر ولا الندى إطلاقاً، لأن فيها قد طرح مجنّ الجبابرة «مجنّ شاول»»، ألقى نبوخذنصر نظرة كبرياء على جيشه، وكله ثقة بأن مملكة إسرائيل لن تقاومه، لأنها هنا انهزمت أمام الشعب الفلسطيني القليل العدد. وفي ظل الجبل المذكور، تصور بأنه يرى شبح الملك شاول الذي في هذا المكان، أنفذ رمحه في جسده كي يتخلص من ذلّ هزيمته. ولكنه في الواقع، لم ير سوى ممالك صغيرة، ومعارك لا تذكر وشعوب قليلة!

وأخذ الجيش يتقدم ببطء بعد أن أصبح البلد خراباً، ونهب كل ما فيه والتهمته الحرائق. فالسامرة، أول عاصمة لإسرائيل، لم يبق منها على القمة الصخرية المتكلسة سوى أنقاض تثير الشفقة. فماذا بقي من القصر العاجي الرائع للملك آحاب؟ وتابع نبوخذنصر طريقه، فإذا الخراب في كل مكان، وإذا ببيت إيل وسيشام الخربتين أيضاً، تشرفان على قمم لا حدَّ لمساحتها ولا أثر فيها للحياة!

وفجأة، لاحت في الأفق أشكال غريبة ضخمة تتحرك باهتزاز وارتجاج، إنها آلات الحصار التي نصبها المهندسون الكلدانيون. فأوقف نبوخذنصر عربته وأخذ يحدق، فوقع بصره على هيكل صغير تحيق بساحته الأسوار البارزة، فأشرقت أسارير وجهه. . . إنه الآن أمام أورشليم!

ومن أعالي الأسوار رأى الإسرائيليون جيش نبوخذنصر الجبار. كما رأوا موجات من البشر تتدفق وتنصب آلات الحرب الهائلة استعداداً للانقضاض على المدينة وضرب الضربة القاضية. وقد كانت آلات الحرب هذه مؤلفة من مجانيق ضخمة، البعض منها مركب على هياكل معقدة ومشبكة بالحبال، والبعض الآخر أصغر حجماً وأرشق حركة، وكلها تتقدم وتتراجع بحركة منتظمة ووفق ما تقتضيه مستلزمات المعركة، فتدك بقذائفها الأبواب وتهدم الأسوار تمهيداً لاختراقها والقضاء على المدافعين عنها.

فبلغ الخوف والقلق أوجه في أورشليم، وازدحمت الشوارع بالجثث والأنقاض، وأخذت جموع الناس التي عضها الجوع بنابه تتراكض صائحة ولا تعلم إلى أين تتجه! وبعد أن بسطت الحرائق على الهيكل معطفاً أرجوانيَّ اللون، تضاعف غضب إرميا، فأخذ يتجه من مفرق طرق إلى آخر، حيث الجرحى والجائعون يئنون وينازعون بين القمامة والجثث وقد اختلط حابلهم بنابلهم، ويصيح بفرح وحشي: « إن الكلدانيين سيرجعون ويحاربون هذه المدينة ويأخذونها ويحرقونها بالنار ». فتحولت عند ذاك النقمة الشعبية ضدَّه، واعتقد الشعب بأن كل الكوارث التي حلت به هي فدية لنبوءاته المتعجرفة.

وفي المساء، خرج إرميا من أورشليم وانطلق إلى أرض بنيامين. فلما صار إلى باب بنيامين القريب من المعسكر الكلداني، كان هناك رئيس الحراسة واسمه برئيا بن شلميا بن حننيا، فقبض عليه وصاح به: « أنت هارب إلى الكلدانيين. وأتى به إلى الرؤساء في القصر فسخطوا عليه وضربوه وألقوه في بيت القيود، في بيت يوناثان الكاتب لأنهم جعلوا ذلك بيت حبس ».

ولما بلغ صدقيا ما يعانيه إرميا من عذاب في سجنه، أرسل من جاء به إلى قصره وسأله سراً وهو جالس على عرشه: « هل من كلمة من لدن الرب ؟ ». فأجابه إرميا نعم. « إنك ستُجعل في يد ملك بابل ». وتابع يقول: « بماذا أخطأت إليك وإلى عبيدك وإلى هذا الشعب حتى ألقيتموني في بيت الحبس؟

وأين هم أنبياؤكم الذين تنبأوا لكم بأن ملك بابل لا يأتي عليكم ولا على هذه الأرض ؟ ».

فلما سمع هذا الكلام شفطيا بن متّان، وجدليا بن فشحور، ويوكل بن شلميا، أسرعوا وسيوفهم مسلولة ليقضوا على هذا الملعون الذي يجدف... فأوقفهم صدقيا بحركة من يده، وأردف إرميا يقول بنبرة أقوى، وبعنف أشد، وبلهجة مهددة: « هكذا قال الرب: إن الذي يقيم في هذه المدينة يموت بالسيف والجوع والوباء، والذي يخرج إلى الكلدانيين يحيا وتكون له نفسه مغنماً فيحيا ». فصمت جميع الرؤساء واستداروا نحو الملك وقالوا له: « ليُقتل هذا الرجل !» فأجابهم صدقيا: « إنه في أيديكم، لأن الملك لا يستطيع معكم شيئاً ».

فتعالى صياح الشعب، « وأخذوا إرميا وألقوه في جبّ ملكيّا بن همّلك الذي في دار السجن. ولم يكن في الجب ماء ولكن حمأة، فغاص إرميا في الحمأة حتى وسطه ». وبعد أن صبوا عليه جام غضبهم شتائم ولعنات وبصقات، رفع إرميا رأسه نحو السماء وهو يرتعد في ذلك الجب البارد، فرأى نوراً هائلاً يشع ويتسع رويداً رويداً، حتى أحال الليل نهاراً ! فأيقن أن الحرائق تلتهم أبواب المدينة إيذاناً بولوجها والانقاض عليها... فارتفع صوته من عمق الجب أكثر رقة وهدوءاً هذه المرة، بعد أن استنفد كل قواه:

« هذه المدينة التي تهدمت بيوتها وبيوت ملوك يهوذا في مواجهة آلات حرب الكلدانيين... ها أنذا أضع لها عَصابة ودواءً فأشفيها، وتكون لي اسم سرور وتسبحةً وافتخاراً لدى جميع الأمم ».

في هذه الأثناء، سمع إرميا قرقعة مرعبة تلتها صيحات انتصار... فالمجانيق قد فتحت ثغرة في الأسوار، وأخذت النسوة تفرُّ في كل اتجاه وهي تولول وتصرخ... وحمل الهواء حتى الجب الذي يتخبط فيه إرميا رائحة الدم، والقار الغالي، والضجة الصماء للمذبحة، كذلك صدى تساقط القذائف الحجرية

الضخمة على القصر الملكي. فتهلل وجه النبي وصاح بجذل وحبور: « ها إنها ستأتي أيام يقول الرب، أُقيم فيها الكلام الصالح الذي تكلمت به لأجل آل إسرائيل وآل يهوذا. في تلك الأيام وذلك الزمان أُنبت لداود نبتاً صديقاً، فيجري الحكم والعدل في الأرض ».

وبدا فرحه النبوي كأنه ردّ على قلق اللاويين، والكهنة، والأنافيم[1]، واللاجئين الذين كانوا، ليلاً نهاراً يبتهلون إلى الرب في هيكله قائلين:

« إلى متى يا رب تستمرُّ على نسياني، وحتى متى يترفَّع عدوي عليَّ؟ أنظر واستجب لي أيها الرب إلهي، وأنِرْ عينيَّ لئلا أنام نومة الموت، فيقول عدوي: قد قويت عليه ».

وجاء الملك صدقيا وقد اتسمت على وجهه دلائل الغم والخوف الشديدين، وانحنى على حافة الجب ليستشير رجل الرب فيما يجب عليه أن يفعل. ولكنه قبل أن يجرؤ على الكلام، ارتفع صوت إرميا نحوه قائلاً:

« إن خرجت إلى رؤساء ملك بابل تحيا نفسك وهذه المدينة لا تُحرق بالنار، وأنت وأهل بيتك تحيون. ولكن إن لم تخرج إلى رؤساء ملك بابل، فهذه المدينة تُجعل في أيدي الكلدانيين فيحرقونها بالنار وأنت لا تفلت من أيديهم ».

فارتعش صدقيا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، واعتراه خوف عظيم! فأحنى هامته زيادة كي يتاح له أن يتفحص في الظل، بصورة أفضل، وجه النبي المتحمس. لقد شاء أن يشكو له كل ما يعانيه من شقاء وغمّ، وأن يلقي بحمله الثقيل عليه فيتخلص من المسؤوليات التي أرهقته. أليس باستطاعة الرب، أن يحمل إلى شعبه الذي يعاني الآن أشد أنواع العذاب، الأمل الذي يعزّي القلوب ويقوّي النفوس؟ أيتوجب عليه هو أن يتجرع الكأس حتى الثمالة؟ وبصوت

---

(١) جماعة من المتدينين كانت تقوم بخدمة الهيكل ويطلق عليها لقب «فقراء الرب».

خفيض، اعترف الملك بمكنونات صدره، وقال للنبي: « إني أخاف من اليهود الذين هربوا إلى الكلدانيين أن أُجعل في أيديهم فيسخروا مني ». فكرر إرميا عليه قوله: « إسمع لصوت الرب الذي أكلمك به فيكون لك خير وتحيا نفسك. ولكن إن أبيت، فجميع نسائك وبنوك يُخرجون إلى الكلدانيين، وأنت لا تفلت من أيديهم ».

فهرب صدقيا مضعضع الحواس كالمجنون، والصوت العنيد يلاحقه! ولما دخل مجدداً إلى قاعة العرش حيث كان مجلس الرؤساء منعقداً بصورة دائمة، أصدر أمره مرتعشاً بأن تصان حياة إرميا في البئر التي هو فيها، أن « يُعطى له رغيف خبز كل يوم من سوق الخبازين إلى أن ينفد الخبز كله من المدينة ».

وفي اليوم التاسع من الشهر الرابع من العام ٥٨٧، أي في السنة الحادية عشرة لصدقيا ملك اليهود، وفي ليلة غاب قمرها وأظلم ليلها، تحركت آلات الحرب الكلدانية تحت جنح الظلام نحو الأسوار، وأخذت تدكها محاولة خلخلتها وزعزعتها. فكانت المحاولة الأولى صعبة وقاسية، لكن حركة المهاجمين تسارعت في قذف الكرات الحديدية بواسطة المجانيق الضخمة، وامتدت الجسور البشرية فوق بعضها البعض تتسابق في الهجوم وضرب القنا، إلى أن تصدعت الأسوار وتخلخلت، وأخذت حجارتها تتهاوى وتتساقط من دون رنين على الجثث في الخنادق، ثم انهارت الجدران مرة واحدة، وزعق الغبار مع انعكاسات اللون الأرجواني للدم المهراق...

في تلك الساعة، كان صدقيا يعقد مجلساً استشارياً رفيع المستوى في قاعة العرش، وقد أجمع الجميع على القول: ما جدوى القتال وقد انتهى كل شيء؟ إن يهوه يواصل انتقامه، ويريد هذا الانتقام عاماً وشاملاً، طالما أن هلاك شعبه يبهجه ويسرّه!

وثبت لصدقيا في هذا الاجتماع بأن نبوءات إرميا ستتحقق، فصاح يائساً: « أين عدلك يا رب؟» لكن إرادة الرب ونواياه تبقى عصية على الفهم

وسط السر المغلق للأسباب والنهايات، وفي اللامحدود من الكون والزمن!

وفيما كانت صيحات الهلع والرعب تتصاعد من أحياء أورشليم كافة، التي تحولت بيوتها إلى دكات من الخراب والدمار، حدثت زلزلة فاقت كل ما عداها من زلزلات. لقد فُتحت ثغرة كبيرة في السور الشمالي، انطلقت على أثرها صيحة مدوية من أفواه الكلدانيين كلهم، وتدفقوا كالسيل العارم إلى المدينة التي غدت جرحاً كبيراً فاغراً من الحجارة المصبوغة بالدم، والمزروعة بالرماح والخناجر والسيوف. . .

وعند مدخل قدس الأقداس، انحنى كبير الكهنة الساهد يعفر الأرض بجبينه متضرعاً. وكان الهيكل قد غصَّ بالمتدفقين إليه. ففي الخارج غطت الجموع البشرية جدران «الليسكو»، وفي الداخل التصق اللاويون وفقراء الرب (الأنافيم) ببعضهم البعض رافعين أيديهم وأبصارهم نحو السماء، متوسلين إلى الرب أن يمنع هذه المذبحة الرهيبة عن أولادهم، بقولهم: «أنت يا رب مجنِّي، إليك أصرخ وأرفع صوتي. أنقذني يا ربي، أنقذني يا إلهي».

لكن النغم الشديد حاصر هذه الجموع المحتشدة، وزعزع كيانها صياح المنتصرين، فشتتها الرعب الذي لا يقاوم! وأخذ النبالون الكلدانيون ينحدرون من أعالي الأسوار إلى الأحياء الواطئة، ثمَّ دخلوا المنازل وفقروا بطون الأطفال والشيوخ، واغتصبوا النساء والغلمان، فاجتاحت أورشليم عاصفة من الألم والغضب كان لها دويّ كقصف الرعد. . .

وفيما كان بعض الكلدانيين يتلذذ بممارسة الدعارة والفسق وإقامة المذابح، وجد البعض الآخر لذته في سلخ جلود الجرحى وهم أحياء، بعد قطع أرجلهم وأيديهم. . . وغدت المدينة في قليل من الوقت محرقة هائلة وقودها الجثث الملقاة فوق الأنقاض. وقد تصاعدت في سمائها سحب من الدخان الأسود، ما أن تبدد قليلاً حتى أخذت أسراب الغربان تنقضُّ على هذه الجثث، ثمَّ تحوم فوقها زاعقة بمناقيرها المخضبة بالدم. . .

وشهدت المقاعد المقلوبة في قاعة العرش في القصر الملكي، والمشاعل المطروحة على الأرض وما زالت تدخن، على الهرب المضطرب للملك ومستشاريه. واختلط بأصوات المنتصرين البابليين المبحوحة، صوت يهودي واحد... كان مصدره سجن إرميا في عمق الساحة!

لقد هرب صدقيا في ظلمة الليل مع مستشاريه المخلصين من الباب الذي بين السورين، تجاه البستان الملكي. فيما كان حوض شيلُوَ، إلى جانب البستان المذكور، يبسط سماط مياهه الراكدة الزرقاء، وبعض النبالين الكلدانيين يغطون في نومهم بعد أن أنهكهم القتال وتعتعهم السكر. ولحقت بالملك المهزوم فرقة صغيرة من الخيالة. فلما بلغت الريف وثباً فوق الأنقاض والركام، أخذت تهرول مع الملك ومستشاريه باتجاه بلاد العمونيين، علَّهم يجدون فيها من يهبُّ لنجدتهم.

وبعد أن أصبحوا بعيدين عن ضوضاء المدينة وصراخ أبنائها، عادت إليهم السكينة، لكن الرعب لم يفارق قلب صدقيا إطلاقاً! فقد أرته عيناه ظلاً كبيراً يمتد أمامه على الرمل الأصفر، فصاح في أعماق نفسه قائلاً: أإرميا أيضاً؟! ألم تزل نبوءات هذا النبي تلاحقني؟!

وصفر الهواء في أذنيه، فتصور أن الصوت الأجش ما زال يلاحقه فعلاً... وينذره بالعقاب والموت! فلكز خاصرتي جواده واجتاز نهر الأردن، فبدت له وراءه الروابي العالية في بلاد العمونيين كأنها سراب وأوهام خادعة، كذلك صحراء أريحا! وكان الفرسان الكلدانيون اللاحقون بصدقيا ورفاقه قد اقتربوا منهم... فجرت بين الإثنين معركة قصيرة، لكنها معركة شرسة وفظيعة، أصبح بعدها عدد الفرقة الصغيرة التي لحقت بالملك خمسيناً، ثمَّ عشرة... ثمَّ رأى صدقيا نفسه مغلول اليدين والرجلين... فانقلب على ظهره وشخص إلى السماء حيث الرب في عليائه...

وما هي إلا لحظات، حتى كان مربوطاً إلى جواد انطلق به عدواً نحو

أورشليم. ومن البعيد، رأى صدقيا عاصمة مملكته ما زالت تحترق، وعاد الصراخ يطنُّ في أذنيه، فأغمض عينيه... وهكذا عاد إلى أورشليم المهزومة، آخر ملوك يهوذا!

*

وفي معسكر ربلة بأرض حماة، كان نبوخذنصر ينتظر جيشه الظافر ووراءه المهزومين، بدءاً بصدقيا، فالعائلة الملكية، فجميع أشراف أورشليم، فالضباط والأثرياء، الذين عليهم أن يقطعوا المسافة سيراً، وبعناء ومشقة، بين أورشليم ونهر العاصي، هذه المسافة التي يبلغ طولها حوالى المئتي كيلومترا!

هذا الانتظار الذي طال فأخر عليه ساعة التمتع بالنصر، قد أغاظ نبوخذنصر وأثار حفيظته. فأخذ يطوف المعسكر بخطوات سريعة ويصعد في غابات السنديان التي تشرف عليه، ويشير بيده إلى المدى البعيد، ويسأل بدون انقطاع الأبعاد التي تخفق بالحرارة، متى ستبرز منها الرؤى الجميلة والمحببة إلى قلبه. وكان نحات الملك في تلك الساعة، يحفر بلا تعب ولا ملل على العمود التاسع من مجموعة الأعمدة الضخمة التي سجلت مجده وفخره، هذه الكتابة:

«بقوة نبوخذنصر ومردوك، زحفت بجيشي نحو لبنان، فهزمت الخبثاء الذين يقطنون الأعالي والمنخفضات، كما هزمت شعب إسرائيل في بلاد يهوذا، وجعلت تحصيناتها كومة من الأنقاض، مما لم يسبق لملك أن فعله».

كانت الخيام الكلدانية تنبسط على مساحة واسعة من الأرض، وراء ثلاثة صفوف من الخنادق والجدران الحجرية والمنحدرات المخضوضرة، فيبدو معها المعسكر شبيهاً بمدينة كبيرة تضج فيها الحركة وتعمّها الفوضى. وفي مَراقب الأبراج التابعة لها، بدا الحراس برماحهم وقسيّهم وشعورهم المزبئرة كأنهم أشباح قاتمة! وانتصبت في نهاية المعسكر الخيمة الملكية بشكلٍ إهليلجي، وقد رفعت ستائر النسيج الذهبية عن نوافذها الرحبة، والتمعت في آخرها الأسلحة قرب السرير الواطىء والمكسو بجلود الأسود، فكان بريق هذه الأسلحة يتلاشى

أحياناً بسبب دردور الغبار المدفوع من الخارج بفعل الهواء. وفي المقدمة، جلس نبوخذنصر على عرشه الذي انبسطت على ظهره سجادة ثمينة ذات خملات عريضة تتوزع عليها باقات الزهور، واصطف إلى جانبيه المحاربون المثقلون بالذهب، أربعة أربعة وفي ثلاثة صفوف، داعمين بأذرعهم المرفوعة عوارض العرش المركزة أرجله على صنوبرات ضخمة!

وكان الملك يرتدي أفخر ملابسه، فيبدو بزهو وعظمة في جلبابه ومعطفه المفصل كحلة القداس، الذي يختلف بخملاته والأزهار الملتمعة عليه عن خملات وأزهار سجادة العرش. أما رأسه، فقد اعتلاه التاج الذهبي ذو الهدبين الطويلين، فوق شعره الطويل والمجعد بعناية مع لحيته المسترسلة. وتدلت من أذنيه الأقراط الصليبية الشكل فعكست على وجهه الجامد ألواناً شبيهة بألوان قوس قزح، وتألق في يديه نصف العاريتين بريق الأساور البهية التي طوقتهما. لقد كان نبوخذنصر في مجده هذا، رافعاً يده اليمنى المسلحة بنبلة، وممسكاً باليسرى القوس التي سندها على متكأ العرش، ومتصلباً في وضع كهنوتي يوحي بالتأليه المستقبلي! وقد التفَّ حوله القادة والمقربون المولجون بشؤون البلاط، وذلك بجلابيبهم التي حوَّلتها أشعة الشمس الحادة إلى بقع كبيرة خضراء، وأرجوانية، وذهبية. وباتجاههم وعلى بعض البعد منهم، تجمَّع الخصيان الذين يتقنون التنكيل على الطريقة الأشورية، بجذوعهم العارية وحول آلاتهم التعذيبية.

وفجأة، خيَّم الصمت على المعسكر، وكان صمتاً مأساوياً وعفوياً. ففي الإغبرار الذهبي للرغام غير المحسوس، تقدم ببطء موكب، كان يتقدمه صدقيا زاحفاً على ركبتيه، وقد ضرَّجه الدم وحطَّمه البؤس فلم يُبقِ منه أي مظهر بشري... فلسانه المربوط بسلسلة ذهبية، بدا بين شفتيه كأنه قطعة من اللحم متورمة بشكل مرعب ومخيف، وبدا صدره الضامر كالمنفخ يرتفع ويهبط باهتزاز وسرعة. وكان بعض المرات يخور وينهار في الغبار، لكنه لا يلبث أن يعود وينتصب ليتابع مسيرته الأليمة بلا وعي تقريباً، إثر هزة عنيفة بالسلسلة الذهبية

يقوم بها رئيس الخصيان، وتبقى شكوى الملك الأسير صماء ومخنوقة وسط صياح الهزء والسخرية ينطلق من حناجر الكلدانيين، وبسبب لسانه الدامي والمتورم لدرجة سدت عليه حنجرته! . .

ولم يتمكن أن يلمح بنظره الزائغ في الخيمة الفخمة أمامه، سوى العرش العظيم، هدف هذه الرحلة المأساوية التي ذاق خلالها من ألوان العذاب والألم ما فاق العذاب والألم اللذين سببتهما له السلسلة الذهبية المعقودة حول لسانه، وأيضاً الشتائم واللعنات التي كانت تنصبُّ عليه وتدفعه إلى الأمام!

وفي رحلة الألم والعذاب هذه، سار وراء صدقيا ولداه، ثم سرايا، الكاهن الأول في هيكل أورشليم، فصفنيا الكاهن الثاني، فثلاثة من حراس عتبة يهوه، فالخصيُّ المولى على رجال الحرب، فخمسة رجال ممن يشاهدون وجه الملك، فكاتب رئيس الجيش الذي كان يجمع الشعب، وآخرون غيرهم. ويمكننا القول، إن هذا الموكب البائس والمعذب الذي سار ذليلاً مهاناً من أورشليم إلى معسكر نبوخذنصر في ربلة، قد ضمَّ كل النخبة المدنية والعسكرية والدينية، في مملكة يهوذا. . .

وكان الموكب يتقدم ببطء وخطوات متعثرة، مما حمل بعض المرات الجنود المولجين بمواكبته، على إلهاب الظهور المنحنية لهؤلاء الأسرى بسياط من جلد فرس النهر، لحثّهم على الإسراع في التقدم نحو العرش.

اجتُذب نبوخذنصر بهذا المشهد الذي يتمثل فيه الانتصار والرعب، فنهض عن عرشه بتمهل، وأخذ يحدق في ذلك الرتل الطويل المقبل نحوه مكبلاً بالسلاسل، فدية لقدره المجيد. وأمامه، كانت هناك مجمرة هائلة ارتفع لهيبها نحو السماء المتلبدة بالغيوم الداكنة، والمتدثرة بأغطية متحركة ذات ألوان دافئة، إنه تآلف النار والدم! فأورشليم وهيكلها يحترقان كما احترقت نينوى من قبل، ورئيس الشرط نبوزرادان قد نظم كل شيء. . . فكي ينتقم مردوك من يهوه، لا بدّ من هذه التضحية الكبرى، المتمثلة بحريق الهيكل والقصر الملكي والمدينة.

وعلى الأنقاض المدخنة والمهجورة، باستطاعة يهوه أن يحاول دائماً بأن يسود من جديد، وأن يفتتح العالم!

وحول نبوخذنصر، التفَّ الجيش الكلداني وأخذ يهتف له ويصيح مطالباً بذبائحه. فأمر الملك الهادىء الأعصاب، رغم نشوة النصر والكبرياء التي عصفت به، بأن تُنجز الطقوس المقدسة وفق التقاليد. وبحركة واحدة، غرز الخصيان خناجرهم في عنقي ولدي صدقيا الفتيين، فسقطا دون أية صرخة أمام رجلي والدهما الذي كان راكعاً على ركبتيه العاريتين، ينتظر عقابه والحلقة الذهبية في لسانه. وبعد ذلك، وقفَ نبوخذنصر أمامه، وبحركة سريعة قلب خصيّ رأس ملك أورشليم، فرأى صدقيا بعينيه الجاحظتين هازمه، يجرده من سيفه الذهبي القصير. . . ثم يفقأ عينيه!

وكانت الشمس قد مالت نحو الأفق، فرشقت بأشعتها البراقة عيني صدقيا، فانسابت منهما الدموع على وجهه الأليم، راسمة خطين أحمرين. . .

وفوق أورشليم، كانت ألسنة اللهب ما زالت تتصاعد، قاذفة نحو الشمس شرارات شبيهة بالنجوم، في سماء زرقاء شاحبة ومندهشة من رؤيتها وسط النهار!

وفي المعسكر، كان الجنود قد انقضوا على الأسرى، فعمَّ الزعيق والصياح والصراخ. . . وتبع ذلك صمت طويل رهيب، فرضته زجرات الألم من البؤساء الذين بتر الجنود ألسنتهم، أو سلخوا جلودهم وهم أحياء، أو سحلوهم وصلبوهم بمنتهى القساوة كي يطيلوا أمدَ عذاباتهم، ويتمتعوا بالنصر تمتعاً أفضل !

*

غداة اليوم التالي، هبّت الريح عاصفة على المعسكر، فطوى جيش نبوخذنصر الخيام التي تمزق نسيجها، وترك معسكر ربلة مخلفاً وراءه أورشليم كومة من الأنقاض المتكلسة والمجبولة بالتراب المصبوغ بالدم. ووسط الحزن

والكآبة اللذين غمرا المدينة، شوهد البعض بين الحجارة والجثث غير الباردة، يفرُّ هارباً كالأشباح، ولا ندري بأية أعجوبة عفت الكارثة عن هذا البعض! وبالقرب من أنقاض الهيكل، ركع إرميا وقد ابيضَّ شعره، وأخذ يقرع الأرض بجبهته. ثم رفع رأسه وضمَّ يديه، وبصوت ما زال واثقاً بعدالة إلهه، رفع إليه هذه المرثاة، فيما كانت الدموع تكرج على خديه المقعرين:

« كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب! صارت كأرملةٍ العظيمة في الأمم. تبكي بكاءً في الليل ودموعها على خديها. كل أخلاَّئها غدروا بها وصاروا لها أعداء. أعنتها الرب لكثرة معاصيها. ألم يبلغكم يا جميع عابري الطريق؟ تأملوا وانظروا، هل من وجع كوجعي الذي أعنتني به الرب في يوم اضطراب غضبه ؟».

فالنبي الشيخ الذي رأى البرابرة يجتاحون بلده لينفذوا ضدَّه تهديد الأنبياء، ويحاولوا قتل حمية نفسه في سكون الخراب والدمار، لم تنطفىء في قلبه شعلة الإيمان ولا تسرب اليأس إليه، بل كان دائماً يشعر بفرح يعجز عنه الوصف، لمجرد أنه ما زال باستطاعته المجيء إلى المكان الذي هو فيه، والبكاء على هذه الأطلال التي لم يساوره الشك بأنها ستعود وترتفع من جديد. وأمام المجد البشري الباطل، شعر إرميا فجأة في قرارة نفسه، بنشوة الرجاء الإلهي الفائق الوصف!

ورغم حالة الوهن والشقاء التي كان عليها صدقيا، استمر يسير في عتمة الليل وراء عربة المنتصر عليه، وفي رجليه وعلى معصميه حلقة مزدوجة، ترسم عليها بصمات الألم الذي كان يزداد تبريحاً مع كل خطوة. وكان رأسه الأليم لم يزل يسمع فرقعة النار، والانهيار الأصمّ للأسوار، والضجة المبهمة للجماهير المعذبة حتى الموت، وللأشياء التي كانت تُقوض وتتهدم.

وفيما كان الليل والنهار يتعاقبان، وهو يسير ويسير... ويفكر بقصره الذي لم يبق فيه شيء على الإطلاق، ولا في الهيكل، ولا في المدينة، لفحته

نسمة باردة، فتساءل: أليس وادي قدرون هذا الذي يحمل إليه النسيم الندي؟ وتنفس ملء رئيته، وسعى للفصل بين تلك الأصوات والضوضاء المرتسمة في مخيلته، وبين ما هو عليه من واقع الحياة. لكن أنَّى له ذلك، ورنين الذهب والفضة وسواهما، يطن في أذنيه بإيقاع موزون مع خطوات المحملين بها، أو على ظهور الجمال، وهذه المعادن الثمينة هي ثروات أورشليم التي ترافقه الدرب إلى بابل؟! وهل يجرؤ على التفكير بأن أعمدة هيكل سليمان، هي الآن مقطعة شقفاً شقفاً، ومكدسة في الأكياس فوق بعضها البعض وكيفما كان، مع شمعدانات الذهب ذات الشعب السبع، والأواني المقدسة، وأدوات الهيكل، ودروع « غابة لبنان »؟ لقد فقد صدقيا كل شيء: الكنوز المجمعة منذ قرون، ومملكته، وعاصمته، وقصره، وجيوشه، وثرواته، وأولاده، وحتى نور النهار الذي انطفأ في عينيه! وكان الرب قد تكهن له بذلك على لسان أنبيائه، لكنه لم يشأ أن يصدق.

أما الرب ذاته، فلم يفقد شيئاً. لأن هيكله ليس بحاجة إلى الثروات ليصبح لائقاً بعبَّاده. وإذا كان قد سمح بتدمير بيته المصنوع من الذهب، وشجر الأرز، والبرونز، فلأنه روح مجرد هو، عكس كل الآلهة. ولم يقبل إطلاقاً بأن يتمثل في هيكل بشري، أو حيواني، كي يصبح في مقدور الناس فهم ذاته الإلهية والتأكد من جوهرها الروحي. فهيكله في قلوب المؤمنين، ومعهم سيكون في بابل، كما سيبقى في أورشليم بين الأنقاض. إن الرب في كل مكان، وحيثما وُجد عبَّاده، فهو موجود.

وتوقف الموكب فجأة، عندما هبَّت الرياح باردة. فعرف صدقيا بأنها برودة الليل، وأحسَّ في أعماق عينيه المطبقتين إلى الأبد بأن ساعة الغسق قد أقبلت. فتمدد على الأرض التي كانت لم تزل فاترة، ورويداً رويداً، خيَّمت السكينة على المعسكر، واستسلم الجنود للرقاد. لكن صدقيا لم يغمض له جفن، لأنه ظل دائم التفكير في المعيبة التي حلت به، وفي مصيره المأسوي. وكانت الرعشة تنتابه بين الفينة والفينة، كلما طرقت مسمعه إلى جانبه ضجة صادرة من أعماق

مظلمة، ضجة مكبوتة صماء شبيهة بالضجة التي تحدثها مسيرة جمهور من الناس. إنها ضجة شعبه السائر في طريق النفي، وهو يتمتم بثقة وبصوت منخفض، هذه الصلاة التي كانت تعزيته الوحيدة: « أنا اضطجعت ونمت، ثم استيقظت لأن الرب يسندني ».

فتساءل صدقيا قائلاً: هل من المعقول أن يبقى هذا الشعب المعذب القلق، غائصاً في العدم إلى الأبد، مضطهداً ومتعطشاً إلى الخلود، وقد استيقظت في أعماق نفسه الآمال القديمة المائتة، كي يعبد إلهه بثقة أقوى، ثقة مشرقة بالفخر والمجد؟

ثمَّ انقطع حسُّ هذه الصلاة الهامسة في عتمة الليل، وانقضت الساعة تلو الأخرى، وصدقيا يفكر بنبوءات الأنبياء التي أثبت الماضي والحاضر حقيقتها، فهل ستكون أيضاً حقيقية فيما يتعلق بالمستقبل؟

كجواب على تساؤله، سمع مجدداً من أعماق الجب صوت إرميا يرتفع ليؤكد: « ها إنها ستأتي أيام يقول الرب، أُقيم فيها الكلام الصالح الذي تكلمت به لأجل آل إسرائيل وآل يهوذا. في تلك الأيام وذلك الزمان، أُنبت لداود نبتاً صدِّيقاً، فيجري الحكم والعدل في الأرض ».

إن القوة، والسلطان، والثروات، إلى زوال، كذلك مردوك الذي أحبوه لأنه ثريّ ومنتصر. أما الرب، فسيدوم إلى الأبد، لأن عبَّاده استمروا في عبادته حتى بعد أن فقدوا كل شيء! ألم يقل النبي هوشع منذ ثلاثة قرون تقريباً: « هلُمّوا نرجع إلى الرب فيحيينا بعد يومين، وفي اليوم الثالث يقيمنا فنحيا أمامه ؟». وإلى هذا القول أضاف أشعيا النبي: « استيقظوا ورنموا يا سكان التراب. نداك ندى النور، والأرض تسقط الجبابرة ».

وانقضى الليل، ثم تسابقت الأيام والليالي، ولم يعد باستطاعة صدقيا حتى أن يعدَّها! مع ذلك، ففي صباح يوم اختلط فيه وطء الأقدام بصورة رتيبة ومتواصلة لمسيرة الوحدات العسكرية، ولفت انتباه صدقيا ازدياد ملحوظ في

نباح الكلاب وصهيل الخيول، وفي الضجة الصامتة لقطعان الماشية التي ترعى وتجترّ، وأصوات الرعاة المبحوحة، وغناء ربابنة الزوارق المتناغم مع خرير المياه. لقد استيقظت الحياة في كل مكان وطرق دبيبها أذنيه، فأحاطه وحاصره كأنه يريد اقتلاعه من غمّ العزلة التي تعيش فيها نفسه القلقة. إن الضوضاء التي تدفقت من كل زوايا الأفق، لم تكن سوى صرخة الفرح الجماعية والمسعورة التي أطلقتها بابل زهواً وكبرياءً في استقبال ملكها الظافر!

وفجأة، توقف موكب نبوخذنصر تحت الشمس الحارقة التي شعر صدقيا بحرارتها اللاهبة تنعكس على حدقتي عينيه المنطفئتين. لكن الأسوار القريبة منه، ألقت بظلها عليه، فأحسَّ كأن معطفاً ندياً قد رطَّب جسده.

ومن بوابات بابل المصنوعة كلها من خشب الأرز المغروزة فيه المسامير الحديدية والملبس بالبرونز، والتي تدور مصاريعها ببطء على محاور نحاسية، سُمعت زمجرة صمَّاء كزمجرة الأسد الفاغر فمه أمام فريسته. فمن داخل المدينة ومن كل الأحياء، تدفقت الجماهير لتشاهد عرض النصر الذي أعدَّه نبوزرادان وناريغليصار. ولهذه الغاية غادر النبلاء قصورهم، والباعة حوانيتهم، وحتى النساء حملن أطفالهن وتركن منازلهن.

ورافق العرض المرح والموزون للجنود البابليين، هتاف حماسيّ شقَّ عنان السماء! ثم انصبت الشتائم وانطلقت قهقهات الهزء والسخرية عندما مرَّ الأسرى الإسرائيليون أمام البابليين بتمهل وبأرجلهم الدامية، وأخذوا بناءً لأمر مقتضب صدر إليهم باللغة الآرامية، ينشدون بحناجرهم التي زمَّها العطش والألم، إرضاء لهؤلاء الرعاع القساة القلوب وتمجيداً لنبوخذنصر، أجمل الأناشيد التي كانوا ينشدونها في الهيكل قبلاً تمجيداً ليهوه. وكانت ترافقهم في الإنشاد يومذاك القيثارات والصنوج والمزامير: « تتألق في مجدك وعظمتك على الجبال، حيث تنقضُّ على فريستك »...

ومع تضاعف الشتائم وصياح الهزء، حاول الرعاع ترديد المزمور الإلهي

باحتقار وسخرية كما يرددون اللازمة. وهذا الصياح الأشد ضراوة من النباح، أعاد صدقيا بالذاكرة إلى اليوم الذي جاء فيه كسفير إلى بابل. فيومذاك رأى الجمهور ذاته محتشداً في الشوارع ومتجمعاً على السطوح، وفي عمق نظراته نفس الحقد الذي يسمعه اليوم ويتردد صداه على شفاههم... لكنه آنذاك كان يسير حراً طليقاً والكل يفسحون له في المجال.

وفيما كان صدقيا شارد الفكر مسلوب اللب، هزَّته صرخات ألم حادة... صرخات نسائية تقشعر لهولها الأبدان! فعرف من بين الصارخات استغاثة أمه ونسائه... وعرف أن الجلادين قد ثقبوا أنوفهن وألسنتهن ليمرروا بها السلاسل الذهبية، استعداداً لاستعراضهن مربوطات وراءه بعربة المنتصر. فاستجمع كل قواه كي يحطم قيوده... لكنه عبثاً فعل! فيداه المتصالبتان وراء ظهره وفوق كلوتيه الأليمتين، لم تشعرا إلا بأن السلاسل قد غرزت أكثر في لحمهما المرضوض، وأن الجلاد قد اقترب منه وربط من جديد لسانه بالسلسلة الذهبية، ليبقى فمه المشوه فاغراً من شدة الألم!

وسمع وقع خطوات الجنود البابليين يمرون أمامه في استعراض، مصحوبين بغنائمهم هذه المرة. وكان في طليعة هذه الغنائم المغمورة بموجات الغبار، قطعان الماشية المسلوبة: الجمال على اختلاف أشكالها وأنواعها، والثيران الخائرة وسط قفزات العجول المرتعبة. ثم تضاعفت صيحات الجماهير، وكانت صيحات فرح وطمع وإعجاب. فقد جاء دور الآنية المقدسة، وأعمدة هيكل الرب، والأدوات الذهبية، والدروع الجميلة، وهذا ما ألهب حماس البابليين وغمر قلوبهم بالفرح والبهجة.

وفجأة خيَّم الصمت ودام طويلاً، ومسك الحشد أنفاسه! ثم سمع صدقيا صرير عربة، وكَدَمات جياد، فصرخة حب وغطرسة هائلة انطلقت وكأنها من حنجرة واحدة، تلاها دويّ الطبول وقرع الصنوج... فخمَّن صدقيا بأن نبوخذنصر قد ترجل ووقف متألقاً وبهيئة كهنوتية في منصة تعلو الشعب، ليظهر

في مجده وعظمته كأنه العبقرية بالذات لتلك البابل التي لا هدف لها سوى الترف والفتوحات التي تعود بالنفع والفائدة على تجارتها.

وأخذ رجال الحرب يدفعون بصدقيا وراء عربة المنتصر، والملك المهزوم والممثل لشعب ذي أحلام سماوية، يسير مستسلماً لحدثان الدهر، ولما أصبح عليه من واقع أليم!

وانبرى الشعب البابلي الممتلىء حماسة يهتف لملكه بصوت مرتفع، بهذه المدائح الموجهة إلى الإله مردوك، في اللوحة السابعة للخلق: « إن كلامه ثابت وراسخ. فكلام فمه لا يلغيه أي إله. وعندما يستشيط غضباً، لا يستطيع أن يقاوم غضبه أي إله! ».

فسكر نبوخذنصر من هذا التأليه الذي تاق إليه طويلاً. ومن كل ما سمعه من هتاف وما رآه من حماسة وتمجيد لانتصاراته، امّحى من أمام عينيه كل مشهد، ولم يبق عالقاً في ذهنه سوى هذه الكلمات المتعلقة بمستقبله: « إلى أن تزول البشرية، وإلى أن تشيخ الأيام وحتى الأبد، ستبقى قائماً ومتعاظماً بدون انقطاع! ».

وسط هذه المسيرة الحماسية التي كانت تدفع بعربة المنتصر نحو قمة الأمجاد، لم يسمع صدقيا سوى أنين أمه ونسائه، والشتائم التي تنصب عليهن! وقد بلغ اهتياج الرعاع حداً لم يعد يروي غليله ما هم عليه أعداؤه من شدة وألم وضيق، بل بات يتوق إلى أنواع أخرى من العذابات وإلى أساليب أخرى تلحق بهم المزيد من الخزي والعار...

لكن جوقة « النارو والكالو » المصحوبة بالطبول الضخمة، عطلت عليه ذلك، إذ أخذت تنشد نشيد التعظيم لنبوخذنصر، فيما كان هذا الأخير يدور حول مرقب قلعة قصره. وهذا النشيد خلّد عودة مردوك من بلاد عيلام[1]: « إن

(١) عيلام هو أحد أولاد سام. قطنت سلالته في البلاد الواقعة بين خليج فارس ومادای وبابل، وتركت آثاراً فنية معتبرة يرقى عهدها إلى الألفين قبل المسيح.

سكان البلد يتأملون قامته الممشوقة. وبسبب روعة جلاله وعظمة سيادته، الكل ينظرون إليه بوجوه مشرقة بالفرح. إنه يعود ليقطن في مكان راحته، وقد امتلأ باب المجد وصرح سيادته بالابتهاج والتهلل ».

وعندما ابتعدت أصوات المنشدين، اجتُذب صدقيا جانباً، فتعالى رنين سلاسله تحت إحدى القباب، وسمع صريراً بطيئاً لمصاريع تُفتح بصعوبة، ثم لفحه الهواء البارد. . . فأدرك أنه في مدخل قلعة القصر، حيث سيكون سجنه ولا شك. وفي الواقع، حالما وصل إلى ذلك المكان، شدوه إلى جدار رطب وبارد، واندفع الرعاع نحوه يشبعونه ضرباً بجماع الأكف وركلاً بالأرجل. . . وهو يترنح ويتعثر!

إن نبوخذنصر لم يعامل صدقيا كما كان أشوربانيبال يعامل أسراه في نينوى، إذ كان يربط بالقرب منهم خنازير برية كي تنهك قواهم وتقزز نفوسهم. لكنه سمح للشعب المنتشي عجرفة وكبرياء، بأن يستمر فوق سجنه سبعة أيام متوالية، يأكل ويشرب ويعربد على هواه. أما نفس صدقيا المعذبة في تلك الأثناء، فقد كانت تعزيتها الوحيدة نبوءات إرميا، التي تبشر بالنهاية الحتمية لأولئك الذين يعيشون دون رجاء ولا إيمان.

*

لم يعرف الشعب منذ أحد عشر عاماً، أي منذ الحصار الأول لأورشليم، عيداً مثل هذا العيد، لأن الملك لم يكن ليسمح بمثله إلا بعد الانتصار. ففي باحات القصر، فرشت الأبسطة المتعددة الألوان بناء لأوامر آسبيناز، كي يجعل من هذه الباحات قاعات فسيحة للوليمة العظيمة، يسرح الشعب ويمرح فيها على هواه طيلة أيام العيد السبعة. ووضعت مقاعد الأبهة والمقاعد العادية تحت تصرف الجميع، ولم يتوانَ العبيد عن تلبية أي طلب، عملاً بالأوامر المعطاة لهم. فتدفق الرجال والنساء والأولاد بالألوف، ومن كل الطبقات والأعمار، حتى ضاقت بهم الأمكنة على رحابتها، مما اضطرَّ الوافدين متأخرين إلى البقاء

واقفين على طول الجدران المتوجة بالألوان المتعددة، بانتظار دورهم، وعيونهم مشتعلة فرحاً وشهية إلى ازدراد الطعام كغيرهم، فيما كانت رائحة اللحم المشوي يختلط دخانها بأبخرة الأنفاس الحارة.

فعلى النار المستعرة قرب المطابخ، كانت تشوى العجول والخرفان والماعز، فيما كانت الحركة دائمة بين الولائم وفي قاعات الطعام، تنفيذاً لرغبة الملك بأن تقدم اللحوم والخمور إلى الجنود وفق رغباتهم، وبمقدار ما يشتهون. وقد أثارت وفرة الطعام والشراب الشهيات وزادت في جشع المعدات وتعطُّش الحلاقم وتحرقها، مما جعل القارورات والقرب الحاوية خموراً من آشور وعيلام وسوريا ومصر، تفرغ حالما تُملأ، والخمرة المسفوحة على الأرض بقعاً كبيرة حمراء ينزلق عليها العبيد بعض المرات، فيُسمع الرنين الصافي لوقع الأطباق الفضية الكبيرة على الأرض. ويمكننا القول بأنه لم يبق، في المدينة كلها، عقل منيع باستطاعته أن يقاوم هذا الإفراط في شرب الخمرة، وهذه النشوة التي عصفت بالشعب كله، وجعلته في دوامة من السكر والعربدة!

وفي قاعة العرش، ووفق التقاليد، كان نبوخذنصر يستضيف كبار القادة العسكريين وضباط القصر والوزراء، ويتأمل وهو ممدَّد على سرير الأبهة المنتصب في نهاية القاعة المذكورة، الطاولات التي كل منها مخصَّص لأربعة أشخاص، والقائمة في أرجلها الأربع المصنوعة بشكل أسد على قواعد ذهبية. وكانت هذه الطاولات مرتبة بشكل مستطيل وتكسوها أغطية « الموسلين » البابلي الخالص، فيمتزج البريق المتألق لبياضه الناصع مع انعكاسات الإحمرار الزاهي للكؤوس الذهبية التي كانت تتسع من أعلاها بشكل أشداق أسود غاضبة. وعلى طول الجدران وبين الطاولات، وُضعت الجرار المصنوعة من الطين المشوي ستاً ستاً على خزانات الأطباق الحديدية، فتقابلت عليها الفسيفساء المتنوعة والمتناسقة الألوان بما تمثل من أزهار ونباتات.

جلس ضيوف الملك وقد ارتسمت على وجوههم المتقابلة إمارات البهجة والسرور. وكانت الأرض كلها في هذه المناسبة مفروشة بالسجاد المصنوع من

الصوف المبرقش، وقد صُفَّت على مدى النظر المناضد التي زُيِّنت زواياها برؤوس الأكباش. وعلى يمين السرير الملكي، تجمع أبناء نبوخذنصر وفي مقدمتهم وريث المملكة إيفيل ماروداخ، فناريغليصار، فنابونيد، ثم الوزراء على مسافة منهم. وكانت مواكب طويلة من العبيد، تطوف بدون انقطاع على ضيوف الملك بشعورهم المجعدة، وستراتهم التي لم تتجاوز في قصرها سيقانهم العارية. ودورياً، كانت الطاولات تغطى بالأصفاد المطيبة بالتوابل، وبالجراد المقلي الذي كان في ذلك الوقت من المآكل الفاخرة. ثم بلحوم الطرائد، والظباء، والأرانب، والحجال، والعجول البرية، والحمير الوحشية، وغيرها من اللحوم النادرة. وأخيراً جاء دور الثمار التي تكدست كالإهراءات، فكانت عناقيد العنب المسترخية بين البطيخ الأحمر، والليمون، والتين، والرمان، والبطيخ الأصفر، خير شواهد على وفرة البساتين البابلية.

وكانت القيثارات تعزف تقسيمات مخنوقة ومنسجمة مع الأصوات المرتفعة من الجوقة المرافقة. وفي الفسحة المحاطة بالطاولات وسط قاعة العرش، اصطفت مجموعة من الموسيقيين بلغ عددها ستة وعشرين موسيقياً، وانبرى سبعة منهم يضربون على ثمانية أو تسعة أوتار لآلة موسيقية تشبه القانون ومثلثة الزوايا، واثنان يضربان بمقرعة باليد اليمنى، وينقران باليد اليسرى على عشرة أوتار لنسطورين معلقين في عنقيهما، وآخر يضرب على طبلة صغيرة شُدَّ جلدها إلى إطار مستدير. والمحيطون بهم من الشمال واليمين، وكانوا ست نساء وتسعة أولاد، يغنون بأصوات حادة، ويرفقون غناءهم بتصفيق موزون، فيما كان خصيّ يدير ظهره إلى الضيوف، يحرك وفق الإيقاع قصبتين يمسك طرفيهما بيديه المفتوحتين. فكانت هذه الجوقة الموسيقية من البهاء والروعة بحيث لم يُسمع بمثلها من قبل! فرغم الأطعمة الشهية ووفرة الخمور، لازم الصمت الضيوف ولم تعد صرخات الرعاع الحادة في الباحات سوى ضوضاء بعيدة ترافق، بانسجام أكثر رحابة وأكثر إنسانية، النشيد الذي كانت مقاطعه الشعرية تحمل إلى الملك محبة شعبه وعرفان جميلة.

وفي زاوية من زوايا القاعة، كان الخصيان المولجون بتقديم الخمور، يقومون بمهماتهم وفق الطقوس والشعائر. فحتى أعتق الخمور وأطيبها، يجب أن لا تقدم إلى الضيوف كما ترد من بيت المؤن، بل يجب أن تضاف إليها الطيوب والتوابل المختلفة كي يتطور شميمها وتزداد قوة تأثيرها. والعديد من هؤلاء الخصيان، كانوا يسحقون بواسطة المطارق الحجرية مواداً مسكرة ويبلونها بخلاصات نادرة، حتى إذا ما أصبحت عجينة ذات رائحة أفرغوها بملاعق ذهبية في قارورات طينية، وفي أخرى من الفضة المنقوشة يبلغ علوها مستوى صدورهم. وبدون انقطاع، كان السقاة يأتون بالكؤوس ليملأوها من القوارير ويقدموها إلى ضيوف الملك.

وما أن هبط الليل حتى كانت الخمرة قد دارت في الرؤوس وأصبح الضيوف كلهم مجموعة من السكارى، وعمَّ الهرج والمرج كل الطاولات. ونتيجة للضوء المتذبذب، أو الأبصار المضطربة، أخذت المشاعل تتراقص وكأنها جذلى هي الأخرى، واستسلم الكل لأحلام السعادة... فأورشليم قد دمرت، وصور لن تقاوم بعد الآن، ومصر انفتحت أمام أطماعهم. فيا للثروات التي ستتدفق عليهم! لقد أصبح بإمكانهم أن يمدوا أيديهم الجشعة إلى العالم بأسره، وأن يضيفوا إلى تجاراتهم تجارات جديدة بالكنوز الجديدة، وأن يضاربوا وينعموا بالثراء الدائم!

وللحال انتفت كل الرسميات القاسية بين الملك العظيم وضيوفه. لكن جوَّ المرح الذي ساد الوليمة، لم يمنع الخوف من أن يضغط على الخناجر، ويكون له تأثير على كمّ الأفواه أقوى من أبخرة السكر. ألا تكفي كلمة تُفسَّر عكس معناها، أو كلام فيه الكثير من الحرية، كي يفقد الواحد حظوة الملك... وربما يؤدي به الأمر إلى قطع رأسه؟! لقد كانت عينا نبوخذنصر في ذلك الوقت، تحت عصابة رأسه المتلألئة بالأحجار الكريمة على شكل ورود أو نجوم، تحدقان وتبحثان عن صدى للأفكار المتسلطة عليه، عن ذلك التوق بأن يضمن الخلود لمجده. فإلى جانبه، وعلى القسمات الذاوية لوريث العرش، رسمت الغباوة

قناعاً من العجز، ولم يكن في نظرات ناريغليصار سوى الجشع والحقد. وحولهما، رسم السكر على الوجوه أحطَّ الميول الفطرية، والرغبات التي لم تتعدَّ الملذات المتمثلة في ما قُدِّم لأصحاب هذه الوجوه، من خمور، ولحوم، وذهب، ونساء...

واستمرَّ الملك في حلمه، فيما استمرت صيحات السكر والعربدة تتعالى في باحات القصر، حيث الجمع البشري الغفير تفلتت غرائزه بشكل لا يقاوم!

وأتاح النور في إطار الباب رؤية اتساع الهالة الوردية اللون، وتصاعد ألسنة اللهب في البعيد، المترافقة مع صرخات الألم.... أنها الأتاتين، يلقى فيها الذين سُلخت جلودهم وهم أحياء، نهاية عذاباتهم... وفي مكان آخر أقرب من هذه الأتاتين، كانت تسمع صرخات حادة قصيرة... إنها صرخات فتيان إسرائيليين، قد تخلوا إلى الظافرين عليهم، عن رجولة إسرائيل إلى الأبد!

لكن نبوخذنصر، كأن واحداً قد تجرأ وناداه، أدار رأسه فجأة، وأخذ يحدق في ركن معتم من إحدى زوايا قاعة العرش الفسيحة، حيث كانت جماعة ساكتة وغير مبالية بلهيب النار المستعرة! فعرف فيهم نبوخذنصر، أكثر مما كان يعرف، الفتيان الإسرائيليين الذين تأدبوا في مدرسة القصر.

هؤلاء الفتيان، كان يلذُّ لهم، وسط هذا الاحتفال بهزيمتهم، أن يكاشفوا بعضهم الحنين إلى الوطن، وأن يحيوا في أعماق قلوبهم، ذكرى مدينتهم المدمرة، وذكرى هيكلهم المهدوم. فلماذا في هذه العيون السوداء، التي وحدها يجب أن تكون حزينة، لاحظ نبوخذنصر إشراقة الأمل؟! لقد كانت شفاههم تتحرك... فبماذا كانت تتمتم فيما هم ينظرون إلى قاهرهم مبتسمين؟ أبالنبوءات أيضاً يا ترى؟.. إن مشهدهم قد جعل نبوخذنصر يسترخي في مقعده، وقواه تخور، وتسري الرعشة في كل مفاصله... إذ تذكر فجأة نبوءة النبي إرميا الأخيرة المتعلقة به، والذي فاه بها باسم رب الجنود: « سوف أُسكر

أمراءه وحكماءه، وحكامه وقضاته ومحاربيه. وسيرقدون في نعاس أبدي لا يستفيقون بعده ».

وأخذ الدويّ بصدغي الملك... فترك، كمن أصيب بالخبل، الإناء الذهبي يسقط من يده، لتنبسط على الأرض أمامه بقعة حمراء كبيرة، جعلته يرتعش ويرتعد... فما هذه الجلبة البعيدة التي طغت زمجرتها على الهتافات والصراخ والأغاني في مهرجان الاحتفال بانتصاره؟! هل هي توقلات جيوش عدوة؟ وهبَّ من الذعر منتصباً... أليس هناك على باب قاعة العرش، محارب فارسي يتطاول ظله رويداً رويداً باتجاهه؟ ولكن في إطار الباب، لم يكن هناك سوى الفجر الذي انبلج، فسوَّر الأفق بشريط من الضوء الوردي اللون!

عيد رأس السنة في بابل

في الأول من شهر نيسان العام ٥٨٧ قبل المسيح، عاشت بابل يوماً من أسعد أيامها. فعلى مصطبات الهياكل، ومنذ الفجر، عبقت رائحة البخور، وازدحمت الناس في الشوارع تتنزه بثياب العيد، ولا هدف لها، كما بدا عليها، إلا أن تعبّر عن غبطتها التي عمّت المدينة بأسرها، وهزّت المشاعر لدرجة جعلت المغتبطين يتعانقون ويقبلون بعضهم البعض! إنها الاحتفالات التقليدية بمناسبة عيد رأس السنة، وقد زادها حماسة هذه السنة بلوغ بابل أوج مجدها وقوتها. فأورشليم قد دُمِّرت، والمدن السورية محاصرة ولن تتمكن من الصمود طويلاً، ومصر، فريسة الخلافات والاضطرابات الداخلية، باتت قلقة تنتظر السيد الذي سينقذها.

لقد أيقظ هذا العيد القومي التقليدي ما لم يسبق أن أيقظه من عميق المشاعر، إذ جعل القلوب مفعمة بالجذل والحبور، والأنفس توّاقة إلى التعبير عن ضمير الوطن. فخلال اثني عشر يوماً من الابتهاجات الصوفية الشبيهة بابتهاجات القيامة السعيدة لدى المسيحيين، بعد أسبوع الآلام الذي يسبق عيد الفصح، اختلط سكان المدينة بأناس جاؤوا من كل أنحاء المملكة، مصحوبين بحميرهم، وبغالهم وجمالهم، وأيضاً بأفكارهم وشهواتهم وأهوائهم.

وكان على هذا الشعب المدهش في حيويته ونشاطه، أن ينتقل خلال اثني عشر يوماً، من التأمل والخشوع، إلى النوح والعويل، فالفرح العارم. وأن يعيش بنفسه السر العظيم لخلق الكرة الأرضية، والسماء، وعناصر الطبيعة، والآلهة والبشر. فالاحتفالات المقدسة التي كان العامة يطلقون عليها اسم « آكيتو »

أو « زغموكو »، قد اتسعت وازدادت شمولاً، بانتظار الوحي الإلهي الذي سيحدد مصير المملكة ومستقبلها، وذلك في اختتام المهرجانات التي وحدَّت، في مشاركة حميمة، مصالح السلطة الدنيوية للمملكة، ومصالح السلطة الروحية للكهنة.

والشيء الأساسي الذي كان مطلوباً، هو أن ينال ملك بابل من الإله الأكبر مردوك، الموافقة الإلهية على المشاريع التي يحلم بها العاهل البابلي، إرضاءً لطموحاته وتحقيقاً لرفاهية شعبه. فالماضي كله، منذ نشوء الأمم، لم يُستحضر إلا لجعل النفوس البشرية تحسُّ بصورة أفضل، كم المستقبل مرتبط بالماضي، وكم الماضي يبرر الإيمان الصلف الذي تنتظر بابل منه، أن يؤكد المستقبل هيمنتها العالمية.

فالجوهري في هذا العيد القومي، هو أن يساهم الكل خلاله في إثارة الحماس والحمية، حباً ببابل ذاتها، ثم بثرواتها، وعلمها، وملكها، وآلهتها!

وكانت بابل، بدافع الحداد، قد حُرمت من هذه الأعياد طوال العشرين سنة التي خضعت خلالها لنينوى. أما اليوم، فقد انعكس الوضع، وتميز الاحتفال بانتصار مردوك، إله بابل، على يهوه، إله اليهود الوقح، الذي يزعم بأنه يحكم العالم بأجمعه!

هناك مدن بابلية أخرى، كأور، وأرش، وحران، كانت أيضاً تحتفل بعيد « آليتو » كما يحتفل المسيحيون اليوم في كنائسهم بالصوم الكبير. إلا أن المتعبدين فعلاً للإله مردوك، كانوا يقصدون بابل من كل بلدان العالم، كي يتباركوا بنعمه في مناسبة نهاية السنة، ويتوسلوا نعمه من أجل السنة الجديدة.

في اليوم الأول من الاحتفالات، كانت تظهر العجائب في الهياكل، فيتخلى السكان عن مشاغلهم اليومية، وفي كل مكان ينطلق الغناء والموسيقى، ويدور اللغط الرتيب والمشبوب العاطفة، كدعوة إلى القلوب كي تفرح وتبتهج. وفي المساء، وبعد أن يتكاثف الغسق فوق السطوح البابلية، فتتَّخذ لها شكل

الحدائق الوهمية المعلقة بين الأرض والسماء، ينتصب معبد مردوك، الإيزاجيل، بكتلته الضخمة، كأنه رؤيا الحلم!

وفي الظل المتعذر سبره للمعبد المرتفع في لغز كبير، جاء « الأوريغالُو » قبل الفجر بساعتين، وخرَّ ساجداً أمام إلهه بثوبه الكتاني. وعلى النداءات المؤثرة في الاحتفال الليلي الذي جرى حول الهيكل، أجاب « الأوريغالو »، بخضوع واسترحام، بهذه الصلاة الإلهية المتسامية فوق الملذات الدنيوية:

« إيه بعل، يا من ليس لغضبك نظير، أيها الملك العطوف وسيد الأقطار، الذي جعل كبار الآلهة مؤيدين له. يا سيد الملوك، ونور الإنسانية الذي يوزع الحصص، ويمنح السلطة، ويراقب بنظره أجوبة الآلهة.. يا سيد أقطار مدينتك، بابل، إشمل بعطفك أولاد بابل ».

وكهذه الصلاة، كانت حركات « الأوريغالُو » التي ترافقها، من تأرجح وانزلاق محببين، هي أيضاً صلاة محددة وفق تقليد قديم. وكان « المسماسو » وراءه، وكأنهم في رقصة إيقاعية يطهرون المعبد بمياه الفرات. و « الأريب - بيتي »، يريقون الخمر على الطاولة. و « الكالو »، مسكّنو قلوب الآلهة، يناشدون الآلهة بترانيم غامضة.

وفي اليوم الثاني، تستمر الصلوات والترانيم داخل الهياكل، فتتأثر الأنفس بالحماس المتزايد، ويزاول القلق الجميع، فلا يعود أحد يفكر بما يعانيه، ولا بهموم الحياة اليومية، بل بالمستقبل وحده، الذي قد يولّد موجات من البهجة والانشراح لا حدَّ لها، وقد يولِّد قلقاً وانشغال بال.

أما في اليوم الثالث، فتبدو ضوضاء العيد كأنها على وشك الهدوء. فبعد بزوغ الشمس بثلاث ساعات، يأتي الأشخاص المولجون خدمة الهيكل كي يعدّلوا في وضع التماثيل الإلهية على نحوٍ شعائري، ويتوقف الرقص والغناء المدنسين للقدسيات لتحلَّ مكانهما الصلوات الدينية! وينتهي ذلك اليوم بما انتهى به اليوم السابق، بغموض لا نهاية له يغلف القلوب بحجاب من الحزن

والقلق. ولكن مع الغسق، تعود الحياة فتتجدد بالفرح. إنه المساء الأخير الذي، من المحتمل أيضاً، أن يُبقي الحياة خالية من همومها ومشاغلها، لأن البدء بالاحتفال الرسمي بات وشيكاً. فالشوارع قد ازدحمت بالناس والحيوانات، وعلى طول الفرات امتدت سوق السمك، المادة الغذائية الأساسية للعاصمة، وفاحت رائحة لا تحتمل من الزنخة والماء المملح. وأخذ الطهاة في الهواء الطلق، يقدمون للمارة أطباق السمك المقلي، فيما كان مئة تاجر منهمكين حولهم في حركة دائمة.

وقد انقضَّ الزبائن على باعة السلع المقرفصين وراء بسطاتهم وأحاقوا بهم من كل جانب، فما عادوا استطاعوا حتى طردهم بواسطة مكانسهم المصنوعة من سعف النخل. وكان القيم الملكي يتجول نافخ الصدر نظراً لأهميته، ليقوم بوظيفة مراقبة المعاملات، لأن الملك له حصة في كل الصفقات والمشاريع المتعلقة بعيد السمك في المملكة.

فبالقرب من المركب الراسي في محاذاة الرصيف المخصص لبيع أسماك البحر، جاء هذا القيم يطلب من الوكيل البابلي « ساب ـ سين »، أكبر تاجر في لارسا، لوحة الحسابات الخاصة بالمركب بعد أن باع كامل حمولته. فكل شيء وفق النظام والقانون، والخزينة الملكية ستحظى بحصتها كاملة غير منقوصة. بعدئذ، توجه القيّم إلى سوق الأسماك المصطادة من المياه الحلوة. وكانت عمليات البيع في هذه السوق ما زالت ناشطة رغم الساعة المتأخرة، ورغم مضايقات رجال الشرطة. فالمقيمون على ضفاف الأنهر والقنوات والمكلفون بتنظيف مجاريها، ولهم وحدهم في ذات الوقت الحق بالصيد فيها، قد زودوا السوق بغزارة احتياطاً لأيام العيد. وكانت أنواع السمك متعددة وبشكل يرضي الزبائن، بدءاً من السمك الشعبي « لول ـ آ ـ ها » ذي الذنب الغليظ الذي كل ست مئة سمكة منه تباع بمثقال واحد، حتى سمك « النيتوغ »، مأكل الأمراء، الذي كانت كل سلة منه تحتوي على أربعين سمكة، تباع بشاقل.

وفجأة، لمح القيّم الملكي بائعاً ضخم الجثة اعتاد أن يسخّر ضميره، لأنه تاجر جشع يهوى تجميع المال وتكديسه، وقد تلقى عدة شكاوٍ ضده. فهو عدا أنه محترف ماهر في رفع الأسعار، لا يتورع عن مزاحمة جيرانه المقيمين على ضفاف الأنهر في اصطياد السمك الذي من حقهم، ومضاربتهم في الأسعار. فاستدعاه إلى مكتبه سراً وقدم إليه لوحة تحمل هذه الكتابة التي قلبت سحنته:

« بلغني أن زوارقك قد اندفعت حتى أقطار « رابيم وسمكانيم » سعياً وراء اصطياد السمك. سوف انتدب ضابطاً من ضباط القصر الملكي ليضع حداً لتعدياتك. فعندما يصل إليك هذا الضابط، عليك أن تعمل اللازم لسحب زوارقك الموجودة في أقطار « رابيم وسمكانيم ».

عندما قرأ التاجر البدني اللوحة، ارتبك وقفل راجعاً إلى بسطته وقد ترخمت أذناه. . . فسيتوجب عليه، كغرامة، أن يسلم إلى كهنة مردوك حمولة مركب من سمك التِّرس، وسلال سمك الخفش التي ما زالت غير مباعة.

ورويداً رويداً أخذت السوق تخلو من المزدحمين فيها. فالدعوة إلى الصلاة قد جذبت الجماهير نحو معبد الإيزاجيل، الذي كان المؤمنون على طول الجدران المقدسة حوله، قد اصطفوا صفوفاً طويلة ومنتظمة، ثم خروا ساجدين وأخذوا ينشدون ويرتلون بصوت واحد ورتيب. أما ساحة المعبد، فقد خلت إلا من بعض الفضوليين، وقد أحاطوا برجل يزعق ويصيح فوق دكة، وهو مسلح بكلاليب ضخمة، ثم سحب بيأس من حنك مريض فاغر فمه، أحد أضراسه بإحدى كلاليبه، فيما كان هذا المريض يطلق صرخات قوية طغى عليها قرع الطبول المدوية. إنه طبيب الأسنان الذي يقوم بعمليات قلع الأضراس كل يوم في السوق المذكورة. وكان طبيب الأسنان هذا قبل كل عملية، يرنم هذه التعزيمة الطقسية:

« بما أن آنو خلق السماء والأرض، وبما أن الأنهر خلقت القنوات، وبما أن المستنقعات خلقت الدودة. فقد مثلت الدودة أمام شمش وآيا، وأخذت تبكي

وتذرف الدموع. ثم سألت الإله شمش قائلة: ماذا ستهبني كغذاء؟ فأجابها شمش. سأهبك تيناً ناضجاً وشراباً محلّى. فقالت له: ماذا سأصنع بالتين الناضج والثمر المحلّى؟ دعني أُقيم بين الضرس واللثة، فمن الضرس سأمتص الدم، ومن اللثة سأنخر أصول الأسنان».

وبعد انتهاء عملية القلع، كانت تتضاعف الصرخات مع تضاعف قرع الطبول، فيقفز الطبيب منتصراً إلى أمام الفضوليين، ويمسك بالضرس المقلوع معتزاً، ويكمل تعزيمته بهذا القول: «لأنك هكذا قلت أيتها الدودة، فليقتصَّ منك آيا بيديه القويتين».

وبناء لأوامر الشرطة المكررة، يحزم طبيب الأسنان أمتعته ويتفرق الفضوليون. ثم يجر أحد الشرطيين المريض، فيما هو ينظر إلى هذه الوصفة التي سلّمه إياها طبيب الأسنان، وما زال منذهلاً ومرتاباً: «عليك أن تمزج معاً: جعة بيلّيتي»، و«الكيلُّو» والزيت، ثم تتلو الرقية ثلاث مرات فوق هذا المزيج، وتدلك به مكان الضرس».

ووقف الكل في إحدى زوايا الساحة واستداروا نحو محمل تقوم الشرطة بحراسته، وعليه رجل في حالة النزع. فوفق عُرف بابلي قديم، جرت العادة بأن يأتوا بالمرضى الذين هم في حالة ميؤوسة إلى الساحة العمومية، بعد أن يكون الأطباء والمنجمون والسحرة قد استنفدوا كل وسائلهم، حتى إذا ما كان هناك واحد باستطاعته، بما لديه من خبرة وعلم، مساعدة هؤلاء المرضى على التخلص من أوجاعهم، فعل. وكثيراً ما دلت التجارب على فعالية هذه الاستشارة الجماعية والنهائية.

وخلال أيام عيد رأس السنة هذه تكون المناسبة مؤاتية بوجه خاص للمشورة وإبداء الرأي. فانحنى زبائن طبيب الأسنان على مريض المحفل المسكين الذي رغم صفرة الموت التي علت وجهه النحيل، كان بريق عينيه الشاخصتين إلى الوجوه المجهولة في قلق وتساؤل، ما زال يدل على أمل في

الحياة. لكن بقاء الكل صامتين، جعل خيط الأمل واهٍ لديه. إلى أن تنطَّح أحد الفضوليين وقصَّ عليه كيف استطاع شفاء مرض شبيه بمرضه بفك السحر. وذلك بعد أن صنع وجهاً من الطين شبيهاً بوجه المريض، وقدم هذا الوجه البديل إلى الشيطان الذي كان يعذبه، مما جعل المريض يشفى من مرضه شفاءً تاماً! فلم يسمع الرجل المسكين شيئاً مما قاله له ذلك الفضولي. لكن ابتسامة ارتسمت على وجهه المتشنج، وأخذ يبحث بنظره المحجوب في الغسق الوردي اللون عن معبد الإيزاجيل، تعبيراً عن شكره للإله المحتفى به، مردوك!

*

عندما توارت الشمس وراء الأفق في اليوم الرابع، اجتاحت الشعب البابلي موجة من الشعور الصوفي الذي فصله نهائياً عن كل الحقائق المألوفة، وعن كل الشؤون التي كانت غرام حياته اليومية، وأصبح عيشه مقصوراً فقط على انتظار المأساة الكبرى المتمثلة في موت مردوك. وباشتراك الشعب في إعادة إحياء هذه المأساة التي، الملك والكهنة يشاركون في إخراج فصولها، سيتحد مع المملكة والألوهية في ذات التمجيد لبابل القائمة منذ بدء الخليقة، والمقرر مستقبلها منذ الأزل، والتي بفضل مردوك سيتأمن لها عِلمها وثروتها حتى انقضاء الدهور.

في ذلك اليوم، لم يفكر أي بابلي بالنوم، فالشوارع بقيت مزدحمة بالناس كما كانت حالها أيام الفرحة الكبرى. والذين لم يتمكنوا من ولوج الهياكل المحتلة منذ أربعة أيام، تجمعوا في الساحات وعلى مفارق الطرق، وأخذوا يراقبون الذاهب والآتي من الكهنة، تمهيداً للتطواف الذي يسبق المأساة. في هيكل مردوك تصاعدت الترانيم والصلوات بحرارة، ورفع «الأوريغالُّو» يده أمام تمثال إله بابل، وقدَّم إليه الابتهال التالي:

«إيه مردوك، يا سيد المناطق وملك الآلهة، أنت الذي يحدد المصائر السماوية، ويهب الصولجان المقدس للملك الذي يهابك، كن رحيماً بمدينتك بابل».

واستدار بعد ذلك نحو « بيليتي ـ زاربانيت »، الموسس الإلهية المفضلة لدى مردوك، كي يشركها في توسله بقوله:

« هي قادرة، وهي إلهة، زاربانيتو الأكثر تألقاً بين النجوم التي تقطن « الإيديل ». حددي مصير الملك الذي يخافك، وامنحي الحياة لأطفال بابل ».

ثم خرج « الأوريغالو » من الإيزاجيل متبوعاً بالكهنة كافة، فأثار مشهدهم حماس الجمع عندما رأى موكبهم الطويل على الطريق المقدس، يسير باحثاً عن الإله مردوك الذي خانه « بعل ـ حيتيتي » وجرحه. وأمام مدخل « باب ـ بيليت »، كان هناك كهنة آخرون ينتظرون، وقد وقف وراءهم رجال ونساء لصق بعضهم البعض، وأنارت المشاعل جمهرتهم المتحركة، فخدَّد النور الوجوه المنتظرة دورياً، بأقنعة اليأس وأقنعة الأمل. وعلى الأثر، أخذ الكهنة الذين انطلقوا عبر المدينة يفتشون عن مردوك، يطرحون باهتمام لاهث السؤالين التاليين:

ــ أين هو موجود، أين هو مسجون؟

وأخذت النسوة يصحن مولولات: « أعيدوا الحياة إلى مردوك »، وأذرعهن مبسوطة نحو السماء، ونحو الأرض، في توسلهنَّ إلى سِن وشمش. فكان جواب الكهنة الواقفين في ظل الباب: « بعد أن سجنته الآلهة، أُغمي عليه وتلاشى. وهناك، بعيداً جداً عن الشمس والنور، تركوه يموت ».

إثر هذا الجواب تعالى النواح والعويل. وانضمت الكاهنات إلى جوقة الممثلين المقدسة، فأخذن يمزقن ثيابهن، ويجرّحن وجوههن بأظافرهن، ويدعونَّ إلى الانتقام صائحات بأصواتهن التي كان يقطِّعها النحيب والحوزقة: « إن الجراح التي أُصيب بها تنزف، ودماؤه تتجمَّد ». عندئذ، ابتعد كاهن عن مدخل « باب ـ بيليت »، وأخذ يقلد الخائن « بعل ـ حيتيتي » الذي قتل مردوك، فتعاظم الغضب في القلوب، وامتدت القبضات مهددة، وانهالت

الشتائم واللعنات على ذلك الكاهن المسكين، مما اضطره إلى أن يصيح قائلاً: « أنا لست ذلك الشقيّ الشرير ».

فمن هذا الرجل الذي جسّد كل الأعداء وكل المحن والشدائد، شاء الشعب المحتشد أن ينتقم لكل ما أصابه من خيبات أمل، وعذابات ومشقات على مدار السنة، فأخذ يصيح بحقد طالباً الانتقام. عندئذ، حلّ سجين محل الكاهن ـ الممثل. وعندما بانت هيئته الشبيهة أيضاً بهيئة « بعل ـ حيتيتي » على ضوء المشاعل المدخنة، وهي تتأرجح مشنوقة في إطار بوابة « باب ـ بيليت »، وتنتفض انتفاضاتها الأخيرة، انطلقت من الأفواه نحوه صرخة واحدة، هي صرخة الفرح الذي ما بعده فرح، وصرخة الأمل الذي لا حدود له !

وقفلت الكاهنات عائدات ببطء، وفي موكب حزين، باتجاه الشعرية المأتمية، ليبحثن بيأس عن إلههنّ، وكانت نبراتهن الخفيضة أو الحادة، تشكل مع نواحهنّ وعويلهنّ، سمفونية عجيبة غريبة! وسار المحتشدون في المدينة، فشقوا بمشاعلهم طريقاً من النار في ذلك الليل المظلم. ومثّلت إحدى الكاهنات دور زاربانيت، معشوقة مردوك، فأخذت تنشد بصوتها الأبح أنشودة رتيبة حزينة. وعلى البلاط الملتمع بنور القمر الشاحب، لحقت بظل تلك الكاهنة بقعة أرجوانية اللون، إنها قطعة من الصوف المبلل « بدم قلب مردوك ».

*

مردوك الآن في قبره، في عمق هرم « إيتامانكي »، بالقرب من بوابة « باب ـ سا ـ إيزاجيل ». وفي سرداب الدفن المستطيل الشكل، حيث الظلمة الكثيفة تنشر الرعب المقدس، جلست الكاهنة التي تقوم بدور عاشقة الإله، إلى جانب مردوك الذي بالكاد أن يميز في ذلك الفراغ المظلم. وكان نحيبها اليائس يتردد صداه كأنه نداء الهلع الشديد: « بدافع الحب، وكي تتحسن حاله، هبطت إلى هنا، بانتظار قيامته !».

لقد غمر النفوس كلها يأس لا يُحد، وأُقيمت مآتم النواح والعويل على مردوك في كل مكان. فالعالم المحروم من إلهه لا يستطيع العيش بدونه: « بعد أن مضى مردوك إلى الجبل، تمردت المدينة تعبيراً عن حبها له ». وتقدم المعزمون بوجوههم الشاحبة، مكشرين من اليأس الفظيع، نحو زاربانيت التي كانت تنتحب في عزلتها المظلمة، وقدموا إلى الإلهة ثياب وحاجيات زوجها. فامتزج اليأس القاتل بالشفقة التي لا تُحد، في جواب زاربانيت هذا:

« آهِ أخوتي، هذه ثيابه التي حملت إلى « بيليت ـ أوروك »، وهذا ثوبه الذي نُزع عنه !».

وخارج نطاق الهيكل، استمرت المأساة على شدتها. فطاف الكهنة في المدينة صائحين: « يجب العثور على الماء العجائبي الذي يردُّ الحياة إلى مردوك ». وانطلق من أعلى مصطبة عشتار وزاماما، صوت ضخَّمه سكونُ الليل، يحثُّ الشعب المحتشد ويثير حميته. إنه صوت بعل ـ شوميسكوم رئيس المجوس، الذي خلف هذه السنة بالذات، والده ناريغلاصَّر، بعد أن تقدم هذا الأخير في السن، ولم يعد عمره يسمح له بأن يلعب دوره في إسماع صوته للشعب. فاندهش الشعب واعتراه الذهول. . . إن قصيدة الخلق القديمة، التي فاه بها كبير المنجمين بأعلى صوته، وبلهجة مليئة بحماسة الشباب واندفاعه، جعلت الكل يصغون إلى هذا السر الإلهي: « عندما في الأعلى، لم تكن السماء قد سُميت. وفي الأسفل، لم يكن للأرض اسم، ولم يكن قد نُطق بأي اسم، ولا حُدِّد أي مصير، خُلقت الآلهة أزواجاً متعاقبة وجرت الأزمان ».

لكن « طيامات »، تلك القوة الفوضوية العمياء، ولدت مجموعة من المسوخ، قادها « كينغو »، قرين قلبها، وهاجم بها السماء! وضدَّ هذا الرهط من القوى الشريرة، انتفض جيش الآلهة، ومردوك وحده، كان الجدير بقيادته !

ونحو المرنم المنفرد وغير المنظور لقصيدة الخلق، ارتفع صخب وصياح الجمهور معظماً رفعة وتفوق مردوك، إله بابل. وإذا كان مردوك قد اختارته

الآلهة ليكون سيدها، ألم تُختر بابل لتكون سيدة العالم؟ ومن أعلى المصطبة، وكمثل الوحي الهابط من السماء، أطلق صوت رائع نداء مردوك إلى الآلهة: « إذا كنت أنا، المنتقم لكم، عليّ أن أكبّل طيامات وأُحييكم، فاعقدوا مجتمعاً، وأثيروا الهمم، واعلنوا قَدَري ».

وتضخم الصوت وأعلن بزهو وكبرياء: بعد الانتصار، حدَّد الآلهة الكبار قدر مردوك، المنتقم لهم، بأن أعدوا له مسكناً أميرياً وقالوا له: « لقد وهبناك الملك على العالم بأجمعه. فليكن قدرك الأول بين الآلهة، وليكن الهدم والخلق منوطاً بكلامك. ولكن انتزع الحياة من طيامات ».

فلم يتردد مردوك. بل ألقى شبكة على طيامات، وكالسمكة قسمها إلى قسمين، ومن هذين القسمين تولَّد الليل والنهار، وتكوَّن العالم! وغدا صوت بعل ـ شوميسكوم أكثر غموضاً، عندما روى قصة خلق الكواكب: « لقد شاد مسكناً لكبار الآلهة، وهي النجوم التي على صورته، وقسَّم السنة إلى إثني عشر شهراً، وجعل سِن، القمر، يتألق، وعهد بالليل إليه ».

والشعب الذي يعرف الأسطورة القديمة لأنها هدهدت طفولته، صمت ليصغي إلى ولادة الرجل الذي خلقه مردوك على صورته ومثاله، كي يمجد هذا الرجل الخالق بصورة دائمة: « سأجبل دمي، ومنه سأكون الإنسان، وعلى هذا الإنسان أن يقيم النُصُب لعبادة الآلهة ». ثمَّ، وبدون أن يتوقف، قرأ بعل ـ شوميسكوم بصوت واضح، اللوحة السابعة والأخيرة، وهي تتضمن لائحة بخمسين إسماً، يمجدون ويعظمون مردوك، بما كتب تحت هذه الأسماء.

وهنا، اشتعل رئيس المجوس حماسة، وأخذ يرنم بصوته الرخيم والقويّ معاً، المصطلحات التعبيرية الخاصة بالطقوس المقدسة. ولم يعد الشعب ليراه... فقد ضاع في ظلمة الليل التي حجبت السماء. ومعظم الحضور، لم يفهموا كل ما صاح به الصوت الغامض. لكنهم كلهم، كانوا صامتين وفاغرين أفواههم، وقد مطّوا رؤوسهم نحو السماء التي يستحيل اختراقها، باحثين عن

تفسير لهذه الأساطير، التي كانت توقظ في مخيلتهم وذاكرتم أوهام ماضيهم وتاريخهم، عبر القصيدة المبهمة للمعتقدات اللاهوتية.

كذلك عندما أخذ هذا الصوت الرهيب يقطّع المدائح لمردوك، اقشعرت أبدان الكل تأثراً، وأخذ الكل يرددون بفخر واعتزاز وعرفاناً بالجميل، هذه المقاطع الشعرية المقدسة: «ليعظمه البشر ويمجدوه، السيد الذي أخذته الشفقة على الآلهة الأسيرة، فخلق البشرية كي تنقذها... ليمتلك الماضي والمستقبل... وحتى الأبد!».

وفي أعماق «الأيتاميننكي» حيث يستريح مردوك، وحيث الكاهنة دائمة السهر بالقرب من ناووسه الذهبي، تحطّم صوت رئيس المجوس على أبواب المعبد، دون أن يعكر عليه صفو التأمل. وفي الغرفة المأتمية، تردد صدى بكائه ونحيبه الطقسي... إن مردوك قد مات، وعمَّ الحزن العالم!

*

عند فجر اليوم الخامس، دوّى داخل الهيكل صوت الطبل القُلْزي، وحمل الأوريغالُو محرقة الطيب والمشعل، وأخذ يطهر المعبد. وهذا الكاهن ذو القامة النحيلة والمديدة، والغارق في ثوب من الصوف الأبيض، مثقل بالزركشات القيطانية، والتطريزات والشراريب، بقي ساجداً وثابت البصر دون حراك، أمام تمثال الإله الذي عليه تتوقف مصائر بابل، ونحوه امتدت كل الأيدي حاملة البخور المتصاعد دخانه مع أمنيات البشر. وفي الخارج، تجمّع الشعب أمام وحول الإيسزاجيل، والكل على أهبة الاستعداد لاستقبال الملك والخمسة والثلاثين أو الأربعين إلهاً، الذين سيهرعون للعمل على بعث مردوك وقيامته.

كان الشعب صامتاً، ولم يعد مأخوذاً بأفكار الموت والأسى كما كان في العشية. لكنه بقي تحت رحمة الشك واليأس بانتظار الفرج. وعندما حان الظهر، وسخّنت حرارة الشمس الهيكل الأحمر الجبار لبابل، والعتمة ذاتها مالت إلى الزرقة في عمق المعبد، وكل الأشياء أشرقت بنور الحياة، وبدا القرميد مسحوقاً

تحت الحرارة اللاهبة، ومشدوداً إلى بعضه البعض ليعضد التكوم الهائل للمعابد والقصور، بسط الغبار الأصهب حجابه الكثيف في كل مكان، وأثار رائحة قوية من البخور والطيب. وشيئاً فشيئاً، أخذ صخب الصاخبين يتلاشى، والنشيد تلو النشيد يخفت ويتوقف.

وعلى صفحة الفرات، كان هناك مركب يتقدم جليلاً مهيباً، وقد تجاوز بساريته الذهبية المزدوجة وقبتها الأثرية المصنوعة من الذهب غير المجوف، علوّ الأسوار، وأخذت هذه السارية تتهادى بالريش الأبيض الكبير المزخرفة به... وتحت القبة، كان «نابو» الضخم المصنوع من الذهب، والذي خرج من هيكله، يتقدم بجلال وعظمة! فشعر نبوخذنصر الذي كان ينتظره أمام طاولة ذهبية على إحدى ضفاف الفرات، بنظرات الإله تثقل عليه ولا يستطيع مقاومتها.

وعندما انزلق التمثال الذهبي الأثري إلى الوراء على قاعدته ذات الأسطوانات كي يبلغ حافة النهر، قدَّم نبوخذنصر إلى من ولاّه العرش منذ سبعة عشر عاماً، التقدمة الطقسية المؤلفة من إثني عشر رغيفاً على طبق من ذهب، كما قدَّم إليه العسل والملح في أكواب ذهبية أيضاً. ومن كل الاتجاهات، وكل المعابد التي فتحت أبوابها في بابل، أقبل الآلهة على عربات، وعلى قوارب أو محامل ذهبية، لينضموا إلى الإله الأكبر نابو: إنها نجوم ساطعة هبطت إلى الأرض من حول الشمس!

كانت مواكب الآلهة تتقدم ببطء بسبب ضخامة التماثيل وثقلها، فيما كان البخور يتصاعد أمامها من الآنية المخصصة: من طريق نيبور، جاء الإله إينليل. ومن طريق أوروك، جاء آنو، أب الآلهة. ومن طريق كيش، جاءت عشتار. ومن طريق لاغاش، جاء بايو ونينجيرسو. ومن الطريق الآتية من أقاصي حران، جاء سِن. ومن طريق سيبار، جاء شمش وغولا. ومن طريق كوتا، جاء نيرغال.

توجه كل هؤلاء الآلهة ليوقظوا سيدهم المضطجع في قبره: الإله مردوك الذي لن يبقى بهاؤه وقوته في انعدام دائم. وقد أمسك نبوخذنصر بيد نابو ليقوده

في الطريق المقدسة بمحاذاة الفرات، وحتى باب إيراس في معبد الإيزاجيل. وزحف وراءهما، خطوة خطوة، التطواف الإلهي. وهكذا جرى استعراض كل آلهة السماء على اختلاف أشكالها، وهي محاطة بمجامع كهنتها. فكان البعض منها منقولاً على العربات، والبعض الآخر محمولاً على الأكتاف ومتأرجحاً، بسبب هيجان الشعب وتزاحمه لرؤية آلهته.

لقد كان الازدحام من الشدة بحيث يتعذر وصفه. إذ اختلط فيه الموظفون والكتاب والجنود وعامة الشعب، وكان الكل في نشوة من الإيمان الصوفي ما بعدها نشوة!

تابعت التماثيل تقدمها نحو الإيزاجيل، الواحد تلو الآخر، ودخلت سور الهيكل فيما اصطفت الجماهير حوله صامتة ومتهيبة. وفي كل برهة، كانت تتدفق من الشوارع المجاورة موجات جديدة من البشر، تتجدد معها الجلبة على طول الجدران. وكان على نبوخذنصر أن يتحمل التجارب من جديد، وأن يجدد الطقوس المقدسة التي رافقت حفلة تتويجه.

وعندما أقبل الشفق بأسراره، تطلع نبوخذنصر من باحة الهيكل إلى ما وراء جدران القرميد الأحمر، فرأى زاكورة الأتيمننكي الصامتة والمتعددة الألوان، مضاءة بأشعة الشمس الذهبية كعادتها عند غروبها اليومي، وقد بدت كأنها تدعم السماء الملتمعة بالألوف والألوف من النجوم. وكانت هذه القبة المتلألئة تزيد من قلق الملك، بفضائها اللغزي المزروع بالنجوم والكواكب السيارة التي قد تزول في يوم من الأيام، وقد تبقى خالدة إلى الأبد.

وفيما كان نبوخذنصر مستغرقاً في التأمل، اقتلعته من تأمله ظلال متحركة. إنها ظلال الكهنة، وقد جاؤوه بثور أبيض. فنحر الملك الحيوان بسكين التضحيات على المذبح الذهبي، ورفع يده وقدَّمه إلى الآلهة بقوله: « إيه أيها الثور الإلهي، أنت الضوء الساطع الذي يبدّد الظلمة ».

وعندما لفَّت الضحية ألسنة اللهب المنيرة، وتصاعد الدخان نحو التمثال الذي شعَّت من ذهبه انعكاسات حمراء، مدَّ الكهنة أيضاً أيديهم نحو آلهتهم متوسلين قيامة مردوك، وانطلقت من أفواههم الترانيم الوقورة، مقدَّمة للأفراح الدائمة وتجدد الحياة!

*

وفجر اليوم التاسع، حضر إلى باب القبر في معبد الأتيمننكي، حاملو الماء العجائبي من الكهنة، ودفعوا الحراس بقوة. فتراجعت في العتمة قرب التمثال الذهبي الكبير، الكاهنة التي كانت تنوح وتبكي موت مردوك منذ أربعة أيام. وتضاعف نحيبها كي تؤكد حقها في الحزن الشديد على موت إلهها. لكن الكهنة أبعدوها، ودوّى نداؤهم كأنه نشيد النصر والحبور: « أخرج يا بعل، إن الملك بانتظارك ! ».

فانقاد للأمر تمثال مردوك الذهبي الكبير، وتدحرج على اسطواناته الخشبية حتى « باراكو » المصائر والأقدار. وباراكو المصائر والأقدار، كناية عن غرفة مظلمة ومقبَّبة، حفرت عميقاً في بطن الأرض. في هذه الغرفة، تجمَّع الآن كل الآلهة الذهبية استعداداً لاستقبال ملكهم، المصدر الأعلى لألوهتهم. فمن العدل والإنصاف والواجب، أن يوفُّوه حقه بالتكريم في يوم قيامته المجيدة، وأن يطلبوا الدعم من قوته الخارقة، ليتمكنوا من الانتصار على الشياطين والأرواح الشريرة، فلا يكون لها في السنة المقبلة إلا الدور الزهيد في تقرير مصير بابل. لكن مردوك وضع على هذه الآلهة، الشروط التي وضعها في الأيام الأولى للخلق:

« إذا كنت أنا، المنتقم لكم، علي أن أمنحكم الحياة، فأثيروا الهمم وقرروا مصيري. ولسوف يحدد كلام فمي المصائر، ككلام فمكم. وكل ما سأفعله لن يتغير أو يتبدل !».

وعندما تألقت الشمس في منتصف السماء وأصبح الوقت ظهراً، فتح

باب «كاماخ»، الباب الرئيسي لهيكل الايزاجيل، وخرج مردوك العظيم من غبشة المعبد الخفيفة، ليشعَّ بكسوته الذهبية في النور الساطع لأشعة الشمس المحرقة. ووقف نبوخذنصر في ظل إلهه، مرتدياً بزة الاحتفالات الخاصة بالملوك الكلدانيين، التي كانت المطرزات والمزركشات عليها متنوعة وذات ألوان عديدة. وكان الزنار العريض الذي يبرز قامته، مزخرفاً هو أيضاً بالكشاكش على شكل معينات هندسية، وبخنجرين طويلين استتر نصلاهما تحت الطيات السميكة لثوبه المتموج ذي الأكمام الضيقة. وعلى رأسه الملكي، ربض التاج الكهنوتي بثقله وعلوّ تجويفته الأسطوانية، وتوزعت على العصابة المعدنية التي تعضده، الورديات والنجميات المشعة بالأحجار الكريمة، وأبرز النقش على حاشيته جياداً مجنحة في وضع كهنوتي. أما قدما الملك، فقد كانتا مكسوتين بنسيج ذهبي لَدْن!

ووحده محنيَّ الظهر، كان رئيس المجوس المسنّ ناريغلاصَّر، يمشي وراء الملك بوجهه الشاحب وثوبه الطويل المميز. وبالقرب منه، مشى ابنه بعل ـ شوميسكوم والكاهن الأكبر الحالي لمردوك، الذي كان ينتصب بتاجه المرصع بالزمرد والماس، فارضاً سلطته على فريق «الكالو» المرتدي الثياب البيضاء. وقد كان هذا الفريق يرافق بقرع طبوله، الأصوات المبحوحة لجماعة «النارو» التي كانت تنشد بتناغم احتفالي رتيب، نشيد التعظيم للإله مردوك:

« أريد التسبيح بألوهته، وإعلان سلطانه، والتغني بقوته، وتعظيم قدره! مردوك الشفوق، الرؤوف، الذي يفيد من يلجأ إليه. إنه هو، الذي يرهف السمع إلى صلواتي، ويمنح الحظوات التي تسكّن قلبه ».

أكمل التطواف الإلهي سيره ببطء، وسط الجماهير المحتشدة التي كانت تشق له الطريق مفتونة، وتحييه بالتصفيق الحاد والهتاف الحار. وعندما تمت

الأعجوبة مرة جديدة، وقام مردوك من بين الأموات، بلغ الحماس الشعبي أوجه، فضاعت معه أصوات الصنوج، وأخذت تماثيل الآلهة تتراقص فوق الرؤوس التي جُنَّ جنونها، وتتقدم مندفعة مع الجماهير المهتاجة! وكان في طليعة الآلهة نابو، محاطاً بالأوريغالُّو على عربته الذهبية. فحيًّا فيه هذا الخليط العجيب من الجمع، بزعيق الفرح وصراخ الغبطة، الإله الذي يهب الصولجان إلى ملوك بابل !

وفجـأة، ازداد حمـاس الشعـب حمـاسـة. . . فقـد بـدت للعيـان زاربانيت، «مصدر الإنجاب»، تحمل طفلاً على ذراعيها. وقد كانت محاطة بخصيانها «الكورغارُو» والأزينو»، وبكاهناتها وفتيات اللذة التابعات لها. وهؤلاء الأخريات، كنَّ يتقدمن وهنَّ ينشدن ويرقصن، ترافقهن أصوات الشبابات المبحوحة. وكانت ثيابهنَّ الناعمة، تترك وراءها نفحات من الطيب تعطِّر الأنفاس وتنشيها !

وها هي الآن «عشتار ـ بابيلي»، إلهة المعارك وملكة الانتصارات، التي تقود الجيوش إلى ساحة الوغى، تتأرجح كأنها معلقة فوق الجموع التي تحييها بصيحات الحرب، وهي منتصبة على أسد ومسلحة بالقوس والكنانة والسهام، وعلى رأسها الشامخ بدا التاج المثقل بالجواهر خفيفاً. ومن أفواه الحشد الهائل، انطلق نحو الإلهة التي جعلت بابل تنتصر على أعدائها، نشيد الحب والثقة.

مع ذلك، ورغم هذا الجو الحماسي المنقطع النظير، كانت هناك في ركن مظلم من منزل واطىء، جماعة من الإسرائيليين ترتدي ثياباً طويلة وزرية مصنوعة من القماش القاتم، تجلس حزينة كئيبة، إلا أن البريق يلتمع في عينيها. فيهوه كان دائم الحضور في أعماق قلوبها. وبعيداً عن عشتار، كانت أفكار هذه الجماعة تتجه نحو إلهها، لأنه جميل بها وأفضل أيضاً، أن تأمل منه في أيام الفقر والخزي، ما تأمله منه في أيام الثراء والانتصار. ففي يأسها المزمن والشديد، كانت في أعماقها إشراقة وحيدة ما زالت تومض، هي الأمل في إعادة بناء أورشليم، المدينة المقدسة، كي تسود على العالم بإشعاعها المثالي فقط.

ومع ضرب الصنوج والصراخ الشديدين حول هؤلاء الإسرائيليين، استمرَّ عرض التماثيل الذهبية، محمولة على النقالات بواسطة اثنين أو أربعة من الكهنة. فكان الثالوث الإلهي، آنو، وإنليل، وإيا، بجسد سمكة ورأس بشري. وسِن، الإله القمر الذي يحدد الأزمان، باللحية الطويلة اللازوردية والإكليل الذي يعصب جبهته. وشمش، الإله الشمس، وإله سيبار والديان الأعلى، جالساً مع زوجته غولا على عرش ذهبي. فأباد أو نينورتا، «الإله الذي ينير الأمم كالشمس»، ورب الشجعان، وسيد القوة، ومدمر الأعداء. وأخيراً نيرغال، إله كوتا، «البطل الأكبر وسيد المعارك»، الذي ينتصب رأسه المرعب متغطرساً على جسد أسد.

ثم أوقف السمحو والكاكورو، صانعو تماثيل الآلهة. والنيحاتيمو، الذين يقدمون التضحيات. والمارو، خدمة الهياكل المتواضعون، أوقفوا مسيرة الموكب الذي كان يتقدم خطوة خطوة وبأبهة وسط حشد هائج، وارتفع البخور ببطء ممزوجاً بالغبار الأحمر، ليجمد دخانه في الهواء الخانق متموجاً وبأشكال خيالية.

كان آخر إله ما زال على الطريق المقدسة، عندما وصل التطواف إلى أمام «باب ـ بيليت»، مدخل الآلهة. وقد حجب الجمهور المحتشد هناك تحت أشعة الشمس المحرقة قناة «ليبيلهيغالا»، تلك القناة التي أقام عليها نبوبولاصرَّ، والد نبوخذنصر، جسراً موقتاً، يعود الفضل إليه في ترميم وإصلاح الجزء الأول من الطريق المذكورة. ومن الجهة الثانية لـ «بيليت ـ بابيلي»، أحاط نبوخذنصر هذه الطريق التي تواصل امتدادها بشكل مستقيم، بالأسود البهية التي بدت كأنها تماشي التطواف باتجاه هيكل «بيت ـ آكيتو» المغمور بالأسرار، والذي برزت خطوطه الهندسية جافة في عمق السماء الذهبية اللون!

وبالقرب من باب عشتار، أحاطت مجموعة من الأسرائيليين بالنبي حزقيال والنبي باروك، التلميذ الوفي لإرميا الذي وصل مؤخراً إلى بابل. وكان الكل أمام العرض الذي لا نهاية له للآلهة الذهبية، صامتين لا ينبسون ببنت شفة! لكن

عيونهم كانت تلتمع بالاشتهاء، وأيضاً بالغضب، لأن الميل إلي الترف والثروات اختلط، علي كرهٍ منهم، بتقواهم المهانة.

والحنين القلق إلى الوطن، الذي حفظته في أعماق قلوبهم وعود يهوه لهم بالسلطان والسعادة، جعلهم يزدادون تأثراً وألماً من رؤية الآلهة العدوة تبرق ساطعة ومتعجرفة أمام أعينهم. لكن النبي باروك، أجاب على قلقهم الدائم بهذا الرجاء:

« سترون في بابل آلهة من الفضة والذهب والخشب والحجارة، تُحمل علي المناكب وتُلقي الرهبة علي الأمم. فاحترزوا أن تتشبهوا بالغرباء وتأخذكم منها رهبة. وإذا رأيتم الجموع أمامها ووراءها يسجدون لها، فقولوا في قلوبكم: لك يا ربِ ينبغي السجود، لأنها هي لا تستطيع أن تتقي الصدأ ولا الدود ».

وقوّم حزقيال، تحت قفطانه القاتم الحقير، قامته المديدة التي أضناها الحرمان وجعلها نحيلة، دون أن يرتفع صوته، وذلك خوفاً من أن يلفت انتباه المحتشدين إلى جماعته المحافظين على وفائهم له. لكن نظره استعاد بريق الشباب عندما مدَّ إصبعه الطويلة العظيمة بعناد وشراسة، نحو التماثيل الذهبية.

في ذلك اليوم من البعث الوثني، نفح صوت باروك في قلوب مواطنيه روح إسرائيل، فجدد الإيمان الأمل في نفوسهم، وشعروا بهذا الأمل، رغم ما كانوا عليه من بؤس وشقاء، كأنه المنُّ الهابط عليهم من السماء!

وأكمل التطواف الباهر طريقه بتمهل، مخترقاً الجماهير الغفيرة إلى أن وصل إلى أمام الباب الثالث الضخم، «بابو ـ إيللو»، حيث توقف بمحاذاة قناة آرحتو، التي احتشد على ضفتها جمع من العبيد والأسرى، أخذوا يتسابقون في إكمال وتجميل المعبد الذي كان نبوخذنصر قد أمر مهندسه الأمين لاباشي في بنائه. هناك، وبصوت واحد، أنشدت الجماهير المحتشدة النص الطقسي الشهير، الذي هو عبارة عن طلبة لمردوك تحمل مئة اسم له. فكانت المقاطع

الموزونة لهذه الطلبة، تتصاعد بنبرات حادة وقوية مع البخور، كأنها التنفس اللاهث لذاك الجمع المبتهج.

وعلى المياه الهادئة لقناة آرحتو، كان المركب الضخم «ما ـ كويا» بانتظار مردوك. وعلى هيكله النحاسي الذي تعلوه ساريتان من ذهب، كانت الشمس تتلاعب وتتراقص على الحجارة الكريمة المرصعة، فتشعّ بالألوان المتعددة، وتبدو للعيان كأنها تعزف سمفونية ضوئية لا أبهى ولا أجمل! وفي مقدم المركب ومؤخره، انتصبت رؤوس حيات متصلبة ومتعجرفة. وعلى الحافة الثانية من القناة، كانت أشجار الأرز والطرفاء، تلقي بظلها الخفيف على التطواف الذي بات على مقربة من «بيت ـ آكاتو»، فيما كان الملك يرافق مردوك الفخور داخل باحة المعبد الفسيحة والمحاطة بالأسود والمصطبات التي نما عليها النبات البري وتفتحت أزهاره البهية. وكانت القنوات في كل مكان، تقطع الصمت في ذلك الفردوس الذي تبلغ مساحته ستة عشر هكتاراً. فمياهها الجارية، كانت تُطرب بعض المرات برش رذاذها على ظل أشجار الأرز، والسنديان، والميموزا، والأكاسيا.

وفي الروعة الساكنة للشفق، لمح نبوخذنصر فوق باب الهيكل، الذي كانت مصاريعه الذهبية اللون والقرمزية مفتوحة على مداها، النقش البارز الذي يمثله تحت رسم للإله مردوك المجندِل لطامات. وعندما أقبل المساء من كل زوايا الأفق، والنور الذي تبدلت ألوانه بروعة وفتنة، انطفأ على عتبة المعبد، انغلقت مع الليل وراء الملك، المصاريع الثقيلة الحمراء والذهبية. وكان الكهنة قد ازدحموا في الغرف الثلاث التي تتقدم الفناء الكبير وأخذوا يرتلون. فخنقت سماكة القرميد، تحت القباب التي حجبها الظلام، وبين الصف الثلاثي للركائز العالية والمربعة، الضجة العميقة التي نتجت عن تراتيلهم الرتيبة. وفي الأعماق المسوَّرة للهيكل، حيث كان النور الشحيح يومض وميضاً ضئيلاً، تمت العجيبة المجيدة، وقد مثَّل الملك فيها دور مردوك... إذ عندما أخذت عيناه رويداً رويداً تألف الظلمة، لمح في اتجاه الجدران البيضاء والعارية، كل الآلهة في

وضع قتالي، كما كانت الحال في الأزمنة المقدسة. وتميز بينها الوجوه المرعبة لطامات وأولادها، فتقدم نحوهم، وبحركة واحدة فصل رؤوسهم عن أجسادهم!

عندئذ، أعلن الكهنة على الجمهور خارج المعبد انتصار مردوك، وانطلق من أفواههم نشيد النصر مدوياً، فأثارت كلماته الحماس في النفوس وأسكرتها: «أيها الحبيب، والملك، والسيد الجليل، والقادر على كل شيء، أنت الذي يدعم الأرض المسكونة كلها، ويمسك بأطراف القبة الزرقاء، والجبار بين الآلهة!».

وأخذ المؤمنون بمردوك يتقدمون، صفوفاً طويلة ومبرقشة، نحو نبوخذنصر الخارج من الهيكل. وانفجر عرفانهم بالجميل ترتيلاً جذلاً: لقد قام مردوك من بين الأموات، وأعاد إليهم الملك إله أجدادهم الحامي لمدينتهم. واتّحد العيد الوثني بالعيد الصوفي، وانتظم التطواف من جديد، ليسير على أضواء المشاعل، مخترقاً بالنور والذهب المشع، متاهات الشوارع والقباب، والحدائق، والمصطبات.

وعندما أصبح الموكب هذه المرة على الطريق المقدسة، لم يستقبل بالتأمل والخشوع كما جرت العادة، بل بالهتاف والصراخ والغناء من الجمهور المحتشد بمحاذاة الأسوار العالية. وكان هتافه وصراخه وغناؤه، تعبيراً عن مشاعره الملتهبة نحو التطواف الفخيم العائد إلى الإيزاجيل، حيث مردوك المنتصر، سيحدد مصائر الأمبراطورية لسنة جديدة.

وفي الظلمة العميقة لـ«باراكو المصائر»، «دوّازاغ أو إيكوّا مردوك»، مشعل واحد جعل ألف نور يتألق في القبة الذهبية، التي اصطفّ تحتها خمسة وثلاثون إلهاً يستحيل فهمهم، واستتر في ظلهم الكهنة الذين يمثلونهم، ليوجهوا إلى الإله المنبعث التحية التي تكرس تفوقه الإلهي: «إيه أنت، أيها المجلُّ بين الآلهة العظام، إن مصيرك لا يعادله مصير، ولا مَردَّ لكلامك بعد الآن. المجد

والذل رهن قدرتك، أنت يا مردوك المكرس من جديد، ملك الآلهة ! ».

ومع النهار الذي طلع من جديد، بدت بابل في زهوها وجبروتها. فما كان يقلقها قد ذهب مع آلهة الشر التي طردها مردوك. وفي كل مكان، ظهرت إمارات السعادة للحياة المتجددة مع نور الصباح، وكل واحد غدا مستعداً لأن يستبدل حياة البؤس التي عاشها بحياة الفرح والسرور، لأن الأمل قد عاد إلى القلوب كلها.

وكي يثبّت مردوك المصائر المجيدة التي وعد بها بابل، عليه أن يذهب ويتّحد صوفياً بزاربانيت. فبواسطة هذا الاتحاد الإلهي، كل الكوائن الوفية لعبادة آلهتها، ستعرف الخصب والحب. لذلك، ومع فجر اليوم الثاني عشر، يوم «زغموكو»، وعندما كان الصمت ما زال مخيماً والسماء الفائقة الحد لا لون لها، خرج مردوك من الإيزاجيل مصحوباً بنبوخذنصر، فاجتازا مصطبة عشتار ومصطبة زاماما صامتين، باتجاه «بيت السرير» في الأتيمننكي.

وخفية، كما تقول لنا النصوص، جاءت زاربانيت الشهوانية لملاقاة زوجها. وكامرأة عاشقة ولهى، اقتربت من المضجع الذي تراءى لها في الأعماق الساكنة من الظل الخفيف جداً، وبسرعة تمددت عليه ملبيةً رغبات إلهها... وعندئذ، فاضت الخيرات والنعم على بابل ! « وانقضى الليل وجاء النهار، فارتفع شمش، شمس بابل، من الأرض نحو السماء ».

وفي قصره المشرف على المدينة، وسط ساحاته الخالية، كان نبوخذنصر ينام سعيد النفس مطمئن البال، بعد أن اتفق مع مردوك على تحديد المصير السعيد للأمبراطورية في السنة الجديدة. فالخصب والثروة سيغمران البلد، والسعادة ستغمر قلوب البابليين.

إن الآلهة قد استأنفت حراسة المدينة لمدة سنة كاملة، نزولاً عند أمنيات الشعب وصلواته، وعمَّ الفرح العارم بابل بأسرها. ففي كل شوارع العاصمة، جرت الاحتفالات بالعيد بشكل جنوني، وشملت موجة الفرح والحماس سائر

طبقات الشعب، الأكثر فقراً منها والأكثر ثراءً، ولم يعد بالإمكان التمييز بين النشوة الصوفية لدى الشعب، والنشوة التي أحدثتها الإغراءات والشهوات! فكلا النشوتين قد تفلتتا من البؤس اليومي، ومن مخاوف العيش وقلق الحياة.

وكان قرع الطبول وضرب الصنوج يدويان في كل مكان، وقد اختلطت رائحة العطور والبخور برائحة المطابخ والعرق. وانصرف إلى اللهو ورشف الملذات سائر شبان الطبقة الأرستقراطية، الذين بدوا «كمثل الأمراء». فكان هؤلاء الشبان الوسماء يلبسون القفاطين الصوفية الحمراء فوق قمصانهم الكتانية البيضاء والمسترسلة في الطول حتى أقدامهم. وتحت قلانيسهم اللبدية العالية والمقرنة، كانت تتفلت من شعورهم خصلات مضمخة بالطيب. ومن أعناقهم كانت تتدلى العقود الذهبية، وقد علقت فيها اسطوانات ظهرت في دوائرها الزمردية المتلألئة، صورة الإله الذي ألقوا إليه مقاليد أمرهم ومصيرهم. وكانوا، وهم يبعدون الرعاع عنهم باحتقار بواسطة عصيهم الطويلة، يضحكون ويتجهون نحو «غوتا»، حيث كانت تقام في ظل أشجار النخيل الخضراء وعلى سهلة من التراب المركوم، سوق لعرض الخطيبات... فعملاً بتقليد قومي قديم، كانت تجتمع في هذا المكان كل سنة الفتيات البالغات من بابل والقرى المجاورة، اللواتي ضحين بعفافهن في تلك السنة من أجل عشتار!

اختلط جمهور الفضوليين بالمرشحين للزواج، وازدحم الكل وراء الحبال المشدودة بانتظار المزاد العلني، وأخذوا يتبادلون النكات والمزاح في أحاديثهم التهكمية. وفيما هم على هذه الحالة، وقد سرت الرعشة في إجسادهم بفعل الشهوة الجنسية، صعد المنادي إلى مصطبة قرميدية صغيرة ونادى أجمل الجميلات بين الخطيبات بقوله: حُمَّا التي من غوتا.

فنهضت «حُمَّا» وأخذت تتقدم على طول الحبال بخطوات بطيئة متراخية، كي تعرض جمالها الصاعق على أنظار الفضوليين من الرجال المحتشدين. وقد برَّر سحر أنوثتها وأناقتها، سعرها المرتفع الذي أعلنه المنادي بصوته الحادّ،

وهو ثلاثة آلاف مين من الفضة ! وفي الوقت نفسه، ابتهجت الفتيات البشعات والقليلات الحظ بالحصول على أزواج ما لم يكنَّ يملكن مهراً، لأن النتيجة ستتيح لهن أيضاً بأن يصبحن مرغوبات من الرجال، على اعتبار أن هذا السعر سيوزع النصف منه كبائنة على أمثالهنَّ.

وبعد أن مرَّت «حُمَّا» أمام بالاتسو، التاجر الغني في بابل، رفع يده ليؤكد بأنه على استعداد لدفع الثمن. وقد صعد الدم إلى وجهه عاكساً انفعاله وشهوته المتأججة، مما جعله يرتبك. وعندما انهالت عليه عبارات التهنئة من المازحين، ازداد ارتباكه، بينما أخفضت «حُمَّا» عينيها احتشاماً وخفراً، إذ تأكدت بأن مصيرها سيكون بالقرب من هذا الرجل الضخم الجثة والحديث النعمة، وأن جمالها الآسر سيجعل منه عبداً لمشيئتها ونزواتها. إضافة إلى ذلك، ألا يمنحها قانون حمورابي ضمانات وحقوقاً، إذا ما طبقت، تضمن لها حريتها واستقلالها؟ إن القانون المذكور يمنحها الحق بالاحتفاظ بكل ما تملك، وبأن تورثه أولادها دون أي حق بالاعتراض من قبل زوجها بالاتسو. وبما أن بالاتسو ثريّ وأعماله مزدهرة، فلم يعترِ «حُمَّا» أي خوف بأن يضعها زوجها في حال العبودية عند أحد الدائنين لمدة ثلاث سنوات، كما يسمح له القانون. وبالاتسو رجل قوي البنية، ونضارة بشرته خير شاهد على سلامة صحته. لذا لن تبقى «حُمَّا» لديه امرأة عقيمة دون أولاد، فيجيز القانون لزوجها بأن يدفع لها نصف مين ويطلقها. وهي واثقة من سحر أنوثتها، فلا تخاف إطلاقاً من أن يتَّخذ بالاتسو لنفسه زوجة ثانية، كما تسمح له الشريعة. زد على ذلك، أن قانون حمورابي لا يسمح للزوجة الثانية المزاحمة بأن تتساوى مع الأولى. فحمَّا تعرف ذلك جيداً، وتعرف بأنه يتوجب على الزوجة الثانية بأن تغسل رجلي الزوجة الأولى، وبأن تحمل لها مقعدها إلى هيكل الإله مردوك.

وأخيراً، إن بالاتسو، رغم أساليبه الفظة ومنظره المتوحش، ليس بشعا إلى درجة تحمل الجميلة «حمَّا» على رفضها الامتثال للواجب الزوجي. ولماذا القلق إذا جاء يوم وجدت فيه نفسها وقد فقدت شجاعتها فيما يتعلق بهذا الواجب؟ إن

القانون لم يعد قاسياً بالنسبة إليها كما كان في الماضي. فهي لن تُلقى في المياه، بل باستطاعتها العودة بكل بساطة إلى بيت والديها. وكي يجوز طلاقها أو إنزالها إلى مرتبة العبيد في البيت الزوجي، يجب أن تكون قد أثبتت عدم جدارتها في إدارة شؤون البيت. وحتى إذا، عرضاً، انساقت وراء نزواتها وتذوقت طعم الحب المحرم مع عشيق أكثر شباباً وأكثر جمالاً من بالاتسو، فلديها من المكر والرياء والغنج النسائي، ألف حيلة وحيلة للتخلص من العقوبة الشائنة التي ينص عليها قانون حمورابي، والتي تقضي بإغراق الزانية في مياه الفرات المرتفعة.

إذن ابتسمت حُمَّا لبلاتسو، وهي واثقة من تأثير سحرها على هذا الرجل الضخم والمتكرش، الذي أثارت حتى شهوته لها، رغباتها الدفينة. وشاءت «حُمَّا» أن يتمّ الزواج بسرعة، فحدَّد اليوم الأخير من شهر «سبَّاط» كتاريخ للاحتفال بهذا الزواج. وقد دُوِّن ذلك مع اسمها واسم زوجها على شكل زيتوني من الطين المشوي، قدَّمه بالاتسو لها كي تلبسه في عنقها شهادة على اقترانهما.

وبعد أن اختفت «حُمَّا» بين ذراعي بالاتسو تحت أشجار النخيل الزرقاء التي تظلل بابل، تابع المنادي مهمته من على المصطبة التي اختلط حولها الجدال بالضحك والغناء في تآلف متنافر وفرح، فقدم إلى الجمهور الفتاة مانِّيتاما، التي كانت جميلة هي الأخرى بعينيها الواسعتين السمراوين، والمظللتين بأهداب تسبل على خديها بحياء وخفر. وقد تقدمت معها «بيليت نيسوكين» التي كانت تمشي بكبرياء وتثير الغرائز بسحرها وفتنتها. فأخذ إثنان من الأسياد الأغنياء، هما بيكيت آلسي وحاكان، يتنافسان في المزاد عليهما. وكانت ثروة كلٍ منهما تسمح له بالحصول على الزواج من إحداهما بسهولة. ويشهد على مرتبتهما المرموقة في المجتمع وعلى نجاحهما في ميادين الأعمال، عدد الزوجات والسراري لديهما. فضلاً عن أن قانون حمورابي يوفر لهما وسيلة الطلاق الدائمة، التي لا تكلفهما سوى نصف مين من الفضة، حتى وإن لم يقدما الدليل على أن الزوجة المنوي طلاقها قد ارتكبت بعض الأخطاء المعيبة.

ومع متابعة المنادي مناداته، كانت الفتيات الشابات تتوالى على طول الحبال. وكنَّ بعض المرات يتقدمن بخطوات راقصة، وهن يغنين بأصوات طفولية حادة وعالية. وما طال الوقت، حتى لم يعد وراء الحبال إلا شبان من عامة الشعب وذوو أمكانيات محدودة. فعرض المنادي للبيع الفتاة «حالات»، التي كانت ترتدي قفطاناً طويلاً أحمر اللون، اعتقدت بأنه سوف يخفي عرجها. وأمَّلت الفتاة المسكينة بأن المهر الذي توفَّر لها من ثمن شراء الجميلة حُمَّا، سوف يجعلها مقبولة في عيون البعض. وفعلاً تقدم من المنادي صانع الآجُرّ، المعلم مارنيريخ، وأخذ يتفرس في الفتاة المسكينة بنظره الجشع القاسي، ثمَّ استعلم عن المهر وقبل الصفقة. فتبعته «حالات» مرتعشة وهي تفكر: هل ستكون سعيدة يا ترى ؟

ولما أخذت سوق المزايدات تهدأ شيئاً فشيئاً، بعد أن انتزعت، الواحدة تلو الأخرى، من باقة الفتيات المتعددة الألوان في ساحة المعرض، تقدم من الحبال «نابو ـ آحا ـ إيدين»، وهو بابلي ثريّ جداً، كان قد عقد اتفاق شراكة مع «كالبا» الذي يملك خمارة سيئة السمعة، سلمه هذا الأخير بموجبه عبيده، من رجال ونساء، كي يبيعهم ويحتفظ لنفسه بثلاثة أرباع الريع! وكان المنادي يعرفه منذ أمد طويل، فسأله عمَّا إذا كان لديه إذن من زوجته الشرعية يسمح له بشراء زوجة ثانية. فلم يثبت «نابو ـ آحا ـ إيدين» هذا الإذن فقط، بل قدم أيضاً إلى المنادي، التفويض المعطى له من ثلاثة تجار أغنياء، كي يختار لهم من معرض الخطيبات ثلاث شابات ليتخذوهم كزوجات أخريات. وقد دفع «نابو ـ آحا ـ أيدين» مبلغاً محترماً كثمن للفتيات اللواتي وقع عليهن اختياره، ورجع مع النساء الأربع مطمئناً راضياً.

وعندما هبط الليل، تسلق القمر السماء بسرعة، فأنعش نوره البارد الذي انعكس على مصطبة المعرض، الأشباح اليائسة للفتيات الباقيات قرب المنادي الذي صمت، ورقدت بابل منهوكة من أيام العيد التسعة، ومغمورة بنوره الخفيف. وفي الضواحي، جلست البغيات، «تلك الفتيات المفعمات بالحلاوة

والعذوبة»، على عتبات أبوابهن بقاماتهن المشدودة بالزنانير المصنوعة من الحبال، وأمام مواقد يحرقن فيها عجمات الزيتون من أجل آلهتهن، يتربصن بالشبان الأسياد العائدين من المعرض، وقد تدلى من أعناقهن وتأرجح بين نهودهنَّ المكشوفة تقريباً، حجر الزانيات وعدم الحبل، «آبان - إيري». حتى إذا ما أقبل عليهن فتى مراهق وقد احمرَّ وجهه، قالت الواحدة منهن لجارتها: « ها هو، انظري إلى وجهه، إن إشراقة النبل ومظاهر القوة عليه، وجسدة كله يلتهب باللذة ». فيتقدم الفتى، على أثر هذا الإطراء، ويتمتم: « إنهن مملوءات باللذة، إنهن مملوءات بالشهوة ».

وبصوت عذب ولطف حييّ، تخاطب الفتاة الجميلة غرور ذلك الشاب، الذي يكفيه الإطراء كي ينصاع لرغبات المرأة، بهذا الكلام: « أنت جميل، أنت كإله، فلماذا تسرع ؟». فيجيبها الشاب بصوت مخنوق: « إن كلامك لطيف وعذب، فهيَّا واذهبي بي، يا فتاة المتعة ». ويترك الفتى رفاق العيد، ليمسك بطرف الحبل الذي يلف ثياب البغي الشابة. فعليه هو، أن يجرها عبر زقاق مقفر، إلى تحت شجرات المصطكا. وتأخذ الفتاة، الفخورة بغنجها ودلالها، في الهزء من اللواتي لم يقع الخيار عليهن في ذلك المساء، ولم يجدن من يمسك بأطراف الحبال المشدودة بها خصورهنَّ.

في هذا الوقت، وفي باحات هيكل الإيزاجيل، تكون سُمَط الأضاحي قد مُدَّت بوفرة. فمردوك العظيم المصنوع من الذهب، والممثل لقوة بابل ومجدها لسنة جديدة، قد عاد إلى مقره الأبدي، «الإيزيدا». وفي القنوات المخصصة، يجري كثيفاً وغزيراً دم العجول والحملان التي ينحرها الكهنة المسلحون بالسكاكين الذهبيه ثم تفيض هذه القنوات، ليبسط الدم على بلاط الباحات، بساطه الأحمر!

وقرب القصر الملكي، وراء حاجز من الأسوار تحجب مناظر البؤس، والبغاء، والفقر المدقع في الأحياء الأخرى، يشكل حي «ميركاس» في بابل، مدينة في حد ذاته، وعالماً مغلقاً يقطنه أبناء الطبقة الأرستقراطية في العاصمة.

فوسط الفسحات الكبيرة فيه، تظلل الأشجار الخضراء القصور الفخيمة والمنازل الغنية، ولا تتعرج الشوارع وفق تقلبات الزمن أو أهواء البنائين. فحمورابي الذي أحبَّ النظام، وضع قانوناً قاسياً للسهر على شبكة الطرقات في هذا الحي الأنيق، وشقَّ فيه الشوارع التي لم تكن مبلَّطة، لكنها كانت أولى الشوارع المستقيمة في مدن العالم، وكلها كانت تفضي إلى الطريق المقدسة دون التواء. وفي عهد حمورابي، كما في عهد سمسويلونا، أو آميديتانا، كان ممثلو الأرستقراطية الكلدانية القديمة، يطمحون لأن تكون لهم منازلهم في هذا الحي، «ضاحية سان جيرمان» البابلية.

إن قصر ناريغلاصر يشرف على حي ميركاس هذا، بمساحته الواسعة وما يمثل من أبهة مدهشة. فمداميك الأساسات الضخمة فيه، ترفع أرضيته إلى علوٍّ يزيد على مستوى الشارع بمتر ونصف المتر. وفي محاذاة سوره الضخم الذي ينغلق، في ثلاث باحات، على المباني الشهيرة لـ «منزل ميركاس الكبير»، ما زالت تشاهد بقايا المساكن التي يؤكد قرميدها الحامل اسم كادشمنتورغو وكوريغلزو، على نبالة الطبقة التي كانت تقطن هذا الحي في غابر الزمان. والمساحة الكبيرة التي تنغلق عليها الجدران الطويلة، المنبسطة والمسننة، دليل على الثروة والقدرة التي كانت وراءها.

في ذلك المساء، احتشدت مجموعات عديدة عند الباب الخارجي لذلك القصر الذي كان مستوياً كلياً وخالياً من الزخارف التي عرفتها الأبواب التقليدية ذات الأبراج الصغيرة والسلالم، وحتى من إطار القرميد المطليّ بالميناء. وكان الخصيان عند هذا الباب، بعضهم منتصباً والبعض الآخر جالساً القرفصاء، يستقبلون ضيوف سيدهم وعيونهم الكبيرة في وجوههم السمراء، تدور وتجول مدققة في الأسطوانات الصغيرة التي حُفر عليها نصُّ الدعوة: «باستطاعتك أن تقسم بـ « إنانا وآمال»، وبحياة الملك وحياة الملكة، بأنك ما لم ترَ عينيَّ، لن تتناول طعاماً أو تشرب شراباً. وما لم أكلمك؛ لن تجلس على مقعد ».

وكان على المدعوين، بعد أن يتركوا غرفة الانتظار الكبيرة إلى اليمين، التي تفضي إلى الأجنحة الخاصة بسيد القصر، أن يجتازوا رواقاً يمتد طويلاً جداً، وتخترق جدرانه البيضاء المصاريع المزدوجة للأبواب العالية التي ينبعث من خشبها العتيق الصدىء، عند فتحها، صرير حادّ ورتيب. وقد انفتح أحد هذه الأبواب على قاعة فسيحة للانتظار تفضي إلى الفناء الداخلي الكبير، ظهرت فيها على أضواء المشاعل التي كان يحملها العبيد الأفاريز المصنوعة من القرميد الصغير المطلي بالميناء، والمزدهر بالورود والنجوم وباقات الزهر.

إلى جانب هذا الفناء، كانت تتألق قاعة الولائم. وهي عبارة عن رواق فسيح يبلغ طوله أربعة عشر متراً وعرضه ثمانية أمتار. وعلى علو رجل من جدرانه، كان السجاد البابلي يتوهج بألوانه الزاهية، كذلك كانت أرضه مفروشة بمثل هذا السجاد المتميز عن سجاد الجدران بالألوان الغامقة.

في صدر الرواق، جلس أرباب البيت على مقاعد عالية، ووقف الخدم عن يمينهم وشمالهم يلوحون بالمذبات. وحول عدد من المناضد الصغيرة التي لا تحصى، تكوم الضيوف أمامهم. وكانت النساء، « فتيات الكلدانيين الناعمات والشهيات المستسلمات إلى الملذات، والحريّات بالمداعبة والملاطفة »، قد ارتدين الأثواب الطويلة المصنوعة من النسيج الموصلي الأحمر الشفاف. والكلاب الهندية التي ألفها كل هؤلاء الأغنياء، كانت تدور حول الطاولات بهيئاتها الغريبه، إذ كانت أذنابها طويلة وملتفة على بعضها كأبواق الصيد، وآذانها الصغيرة منتصبة ومضحكة.

وفي هذا القصر كما في القصر الملكي، كانت الخدمة وافرة وسخية. وما عتم الأمر أن ارتفعت حرارة المناغمة في الأحاديث. « فانحطاط الأخلاق انفجر في اختلاط الجنسين، وانتفى إطلاقاً ذلك التحفظ الذي عرفته الحُرُم في الشرق ». فبعض الشبان الذين تفوح منهم رائحة الطيب، والذين كان لهم الدور الفعال في تنشيط المزايدات التي حصلت في معرض الخطيبات، تكوموا فوق مناضد صغيرة بشعورهم المجعدة، وثيابهم المطرزة اللامعة، وزنانيرهم البراقة،

وعقودهم وأساورهم المشعة بألف لون. وقد صبغ هؤلاء الشبان شعورهم كما النساء، ومثلهن تدلت الأقراط من آذانهم، وخضبوا وجوههم الذابلة بسبب انغماسهم في الملذات، فألبسوها قناعاً من النضارة والحيوية. وكانوا يأكلون، ويشربون، ويغنون ويصخبون، ويطلقون لألسنتهم عنان الهزء والسخرية، والاغتياب والنميمة. وبعد أن أصبحوا في حالة من السكر الشديد، سألوا واحداً بينهم بقي صامتاً وكئيباً، عن سرّ صمته وكآبته. وردّدوا له تحت أنفه، كتلميح إلى خيباته العاطفية، كلمات المثل التقليدي التالي: « لقد ذهبت واستوليت على حقل العدو. لكن العدو، ذهب واستولى على حقلك ».

وعندما رأوا أن هذا المعذَّب قد استاء من مزاحهم، انبروا إلى تعزيته، وفق فلسفتهم، بقولهم: «إن صداقة يوم، هي عبودية دائمة». وحاولوا عندئذ لفت انتباهه إلى طاولة، حيث بعض الفتيات الجميلات اللواتي حافظن على رصانتهن في بدء العشاء، أخذن، وفقاً للعادة البابلية في هكذا مناسبة، يخلعن ثيابهن من أعلى أجسادهنّ. ثم رويداً رويداً، وعند كل طبق، نزعن ملابسهن الداخلية قطعة قطعة، حتى بلغن أكثرها إثارة!

لكن العاشق الكئيب، لم يجد في هذا المشهد ما ينسيه عذابه ويمسح كآبته! فقد تقززت نفسه من فسق وفجور ذلك العصر: « فهذا الأسلوب المعيب في التصرف، لم يعد في بابل حكراً على العاهرات، بل باتت السيدات والفتيات أنفسهن، يعتبرن أن التعري وعرض مفاتن أجسادهن على كل ضيف، هو نوع من التكريم. وكان الأهل والأزواج من جهتهم، يرضون بأن يستجيب بناتهم ونساؤهم لرغبات ضيوفهم، شرط أن يكون السخاء بالدفع شيمة هؤلاء الضيوف ».

فيما كان يجري ذلك، كان بعض القضاة على طاولة مجاورة، يتحدثون برزانة يصبغ عليها الأفراط في شرب الخمرة مسحة من التأثر، عن آخر فضيحة

قضائية تتعلق بولد من أسرة محترمة، وُضع رهينة لاستيفاء ديون أبيه الشائنة، وقد أمر القضاء بعتقه أخيراً، بعد عدة سنوات من العبودية.

وحول طاولة أخرى، كان بعض العسكريين يصخبون ويضجون. فقد كانوا يهتفون بقوة ويربتون على كتف جنرال مسنّ، تهلل وجهه واحمرّ أنفه. فهذا الجنرال، كمثل كل الأزواج الصالحين في بابل، لم يشأ أن يطلق زوجته لأنها عاقر ولم تلد له أبناء، فسدَّ هذا النقص في حياته بأن تبنَّى ولداً أمَّن استمرار محتده، وذلك عندما قصد صباح ذلك اليوم صديقاً من أنسبائه، فقيراً ورب عائلة كبيرة، فرضي هذا الأخير بالتنازل له عن ابنه الأصغر، لقاء مبلغ من المال. وتمت عملية التبني بوشم الولد بالحديد المحمَّى في أخمص القدمين، أمام قاضيين وبعض الشهود. وبعد هذا الإجراء الشكلي، سجل الولد المتبنَّى في سجلات العائلة. وذلك المساء، أريقت الخمرة مرات عديدة، تكريساً لأبوة ذلك الجنرال الطاعن في السن، وعلى سبيل الشكر للآلهة!

مع النشوة والسكر، أخذت الوليمة تتحول إلى عربدة وتهتك، وعمت الفوضى بشكل أدّى إلى التصرف الفاحش والكلام البذيء. فاختلط الصراخ والغناء والضجة برنين الكؤوس المعدنية الواسعة، وبقرقعة الآنية المتصادمة قبل أن تصبح فارغة. وتابع الموسيقيون العزف على آلاتهم دون التقيد بأصول أو قاعدة. مع هذا، عندما حدث نقص مفاجىء في قوارير الخمر المستديرة على الطاولات، أسرع حشد من العبيد إلى إملائها!

في أثناء ذلك، كان قرب الباب عدد من البابليين المتقدمين في السن، والذين أثروا في تجارة القوافل، يتحدثون باشتهاء عن الجمال الصارخ لأولئك النساء اليهوديات اللواتي اشتهرن بمغامراتهن في العاصمة. إلا أن عليهم أن يحذروا، لأن مظاهرهن قد تكون خادعة بعض المرات، إذ تكون بينهن محتشمات وعفيفات، كتلك المدعوة سُوسَنَّة، ابنة حِلقيا وزوجة يوياقيم، التي غدت فضيلتها مضرب المثل في بابل. فقد فوجئت سوسنة المذكورة برجلين شيخين من كبار موظفي المملكة يكمنان لها في حديقة زوجها بقصد مطارحتها

الغرام، بعد أن هاما بها هياماً شديداً. وفيما كانت تغتسل إطفاء لحرارة الشمس، أطبقا عليها. ولما لم تمكنهما من نفسها، استعملا نفوذهما ومكانتهما وشهدا عليها بالزنى مع شاب جميل تحت إحدى شجرات الحديقة، فحكم عليها الشعب بالموت. وفيما كانت تُساق للموت، « نبّه الله روحاً مقدساً لشاب حَدِث اسمه دانيال فصرخ بصوت عظيم: أهكذا أنتم أغبياء يا بني إسرائيل كي تقضوا على بنت بغير أن تفحصوا وتتحققوا الأمر؟ » ثم طلب دانيال مثول متهميها أمام مجمع الشعب كي يثبت براءَتها. ولما مثل الشيخان، سأل دانيال الأول منهما على انفراد: « إن كنت فعلاً رأيتها تزني، فقل تحت أية شجرة رأيتها. فأجاب: تحت الصِروة. ثم عاد فسأل الثاني على انفراد أيضاً. فأجاب: تحت السنديانة ». ففضح هذا التناقض الشيخين وأقنع الشعب ببراءة سُوسَنَّة فحكم عليهما بالموت عوضاً عنها.

وعندما أصبح الصباح وقرس المدعوين ببرودته، أخذ الشبان والصبايا الأنيقون يتركون قاعة الوليمة فريقاً إثر فريق. وكانوا، وهم في الشوارع، يطلقون الغناء البذيء والمستقبح بأصوات مبحوحة، فترد عليهم الديوك المستيقظة مع ضياء الفجر، بصياحها المستحب. وفيما هم يصخبون ويضجون، تقدم منهم خفية كاتبان، وأخذ كل منهما يهزهز الختم الأسطواني المتدلي من عنقه. وكان الختم المعلق في عنق «ليهبني»، كاتب النساء، يحمل رسم صبية عارية ترقص، تحت تهديد السوط، أمام امرأة عارية مثلها وجامدة، وقد حُفر رسمها على العقيق. فأغرى هذا الوعد الإيحائي بعض الشبان البابليين ولحقوا به. وتجمَّع آخرون حول «إينيجال»، القيم على بيت للنساء والذي بالكاد تجرأ وأظهر ختمه الأسطواني، وساروا وراءه عبر المتاهات المظلمة للأزقة القذرة، مكتفين منه بشرح المضمون الشهواني للكتابات الشهيرة التي تزين الغرف الفردوسية. وعندما وصل بهؤلاء الشبان الأسياد إلى عتبة البيت المذكور، انحنى أمامهم ورحّب بهم بهذه الكلمات: « في مكان اللذة هذا، يصبح قلب الإنسان أسيراً، توافقاً مع بيت الشهوات والغرائز الجنسية ».

وشيئاً فشيئاً، أخذت ضوضاء المدينة تهدأ، وبرزت واضحة تحت سماء شاحبة: الهياكل، والقصور، والسلالم، والأسوار. وعلى نهر الخابور وراء المدينة، حيث وسّع النور دائرته الوردية، كانت هناك بقعة بيضاء مغمورة باخضرار الصفصاف والجميز. إنها البيت الصغير للنبي حزقيال، الذي دعا إلى الصلاة في ذلك الصباح، القبائل اليهودية المتجمعة حوله. فأقبلت وتحلّق أفرادها كالأشباح والظلال، لترتفع أصوات الرجال والنساء سوية، وعلى إيقاع الكنانير، بهذا النشيد: « إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكرك، إن لم أُعلِ أورشليم على ذروة فرحي. يا ابنة بابل الصائرة إلى الدمار، طوبى لمن يجزيك ما كافأتنا به ».

في هذه الأثناء، كان الكهنة الجالسون حول المناضد الصغيرة ذات الأرجل الأسدية الشكل، وقد غاصت أقدامهم بدماء الأضاحي واستندت بطونهم إلى المناضد المذكورة، يطلبون من إلههم أيضاً، بواسطة شراهتهم في الأكل وإفراطهم في شرب الخمرة، بأن ينعم ببركاته الأولى على بابل وعلى السنة الجديدة

سيِّد العالم

في صباح ذلك اليوم من العام ٥٨٥ قبل المسيح، زحفت الجماهير المتراصة في بابل نحو القصر الملكي. وفي ظلال الأسوار العالية، وقفت هذه الجماهير كأنها بحر بشري، تنتظر قلقة ولكن ببرودة أعصاب، نابونيد صهر الملك، الذي عاد أمس إلى العاصمة. إذ كان على نابونيد في هذا اليوم بالذات، أن يمثل أمام الملك، ليقدم إليه تقريراً عن مهمة التوسط التي كلفه بها لدى ألياط ملك ليدية، وسياكسار ملك الميديين. فهل سيحمل إليه نابونيد أنباء الحرب أم أنباء السلام؟ إن حرباً مع ميدية، كذلك مع ليدية، ستكون حرباً خطرة، لأنها ستتيح لليهودية وصور ومصر، بأن ترفع رؤوسها.

وقبل أن يحين موعد المقابلة بساعة، كان نبوخذنصر يذرع قاعة العرش، وقد شعر بأن كبرياءه في منعطف من طريقها. فعندما احتفظ نبوبولاصَّر لنفسه ببلاد ما بين النهرين وفلسطين وسوريا، بعد سقوط نينوى، ووهب بلاد الآشوريين إلى حليفه سياكسار، ملك الميديين، لم يدر في خلده أن هذا النجاح السهل لسياكسار، سيشجعه على بسط سيادته على الوادي الأعلى لنهر دجلة، ثم على وادي آراكس، وأنه بعد أن يحتلَّ المربَّع الفائق الحد من الجبال الذي يمتدُّ من الصحراء جنوباً حتى القوقاز شمالاً، ومن بحر قزوين شرقاً حتى سلسلة جبال طورس الشرقية غرباً، ستقوده جيوشه المظفرة حتى كبادوكيا تقريباً، وحتى حدود الاتحاد الأبطيري.

لقد بدأ نبوخذنصر يقلق من هذه الأمبراطورية الجديدة، التي أخذ حليفه سياكسار يمدُّ حدودها كل يوم ويعزز نفوذها. وفكر بأن سياسته الآسيوية يجب

أن تأخذ بالحسبان هذا الوضع الجديد، وأنه لا مفرَّ من مجابهة هؤلاء الميديين الذين أثبتوا قدرتهم العسكرية أمام نينوى، عندما انتصروا على الأشوريين. إلا أن نبوخذنصر اعتقد بأن السياسة أفضل من الجيوش لوضع حدّ لنفوذ ميدية المتعاظم التي غدت إمبراطورية موحدة وقوية متاخمة لحدود مملكته، بعد أن كانت مدناً وشعوباً متفرقة ومنقسمة على نفسها، تتآكلها الفوضى وتبرر التدخل المفيد في أمورها دون كبير مجازفة.

إن النفوذ الميدي قد بلغ مداه ما بعد دجلة، وامتدت له تشعبات باتجاه الفرات. فمدينة حران الموقرة من كل الساميين، تمركز فيها السقيتيون وباتوا يهددون عبر تخوم بلاد ما بين النهرين، السلطة الكلدانية ذاتها، وخاصة طرق المواصلات ما بين بابل وأقاليمها الغربية التي تؤمن منافذها على حوض البحر الأبيض المتوسط. وكان لدى نبوخذنصر شعور بأن «حليفه الأمين» سياكسار، قد فاوض خفية عنه هؤلاء السقيتيين المستعدين دائماً لركوب المغامرات، ولتحقيق طموحاتهم بأية وسيلة كانت. وأن سياكسار سيؤمن لهم الحماية اللازمة.

لم يكن نبوبولاصّر يتوقع بأن حليفه سينهض بالإمبراطورية الميدية المنهارة في أقل من ربع قرن، عندما حوّل المطامح الليدية نحو مضيق الدردنيل. لكن ولده نبوخذنصر، منذ ارتقائه العرش، عرف كيف يقوّم السياسة التي يقتضي اتباعها. فبعد أن وطّد ألياط، ملك ليدية، دعائم حكمه بمهارة من إيولية حتى طروادة وبيتينية، وبعد أن عقد اتفاقاً مع ميلاتس أتاح لهما تدمير ما تبقى من إزمير والتحالف مع أفسس، وضمن لنفسه المنافذ الأكثر أهمية على البحر الأبيض المتوسط، من البحر الأسود حتى مصر، عرف العملاء السريون لنبوخذنصر كيف يوجهون أنظار إلياط مجدداً نحو الحدود الشرقية لمملكته، حيث رأت المملكة الميدية مطامحها تنبعث مع نجاحات سياكسار. ولما كانت ليدية وميدية عدوين يُبطل أحدهما مفعول الآخر، فإن بابل ستكدس ثرواتها على حساب مطامعهما المتنافسة.

وفعلاً، ساور القلق إلياط عندما رأى جيوش سياكسار تشق طريقها بانتصار عبر وادي هاليس وتصل إلى أمام أبطيريا ذات الموقع الحصين، والمنتصبة على صخورها الضخمة قلعتها المنيعة التي، إن استولى عليها الليديون، ضمنوا تحقيق فتوحاتهم، وإن استولى عليها الميديون، انفتحت أمامهم أبواب آسيا الصغرى.

وذات مساء، وبعد أن رجع إلياط إلى عاصمته سرديس، جاءه قوم من السقيتيين الرحّل يتوسلون حمايتهم من سياكسار. فهؤلاء السقيتيون قد كلّفهم ملك ليدية بأن يعلّموا أولاد الأسياد من حاشيته استعمال القوس والنشاب، وقد عانوا الكثير من غضبه وظلمه. فكي ينتقموا لأنفسهم منه، أكلوا له، متبلاً بصلصة «كاندول»، أحد تلاميذهم الفتيان وولّوا هاربين!

وجد عملاء نبوخذنصر في هذا العمل خير مناسبة لهم لبث روح العداء بين حليفي الأمس، خدمة للمصالح البابلية. فعندما جاء رسل سياكسار مطالبين إلياط بتسليم اللاجئين إليه، غلّب هؤلاء العملاء في مجالس الملك الرأي القائل بأن كرامة ليدية لا تقبل بمثل هذا الطلب. واقتنع إلياط برأي الذين منحهم ثقته، فرفض طلب سياكسار.

ونتيجة لهذا الرفض، تلاحقت الحرب بين الملكين المذكورين لمدة ست سنوات، دون أن ترجح كفة واحد على الآخر. وتابع نبوخذنصر باهتمام تطورات هذه الحرب التي أضعفت خصميه الأكثر رهبة وخطورة، وأبعدت عنه كل قلق وهمّ، فيما كان يوطد سيطرة بابل على فلسطين ومملكة يهوذا وسوريا في الجنوب. واتّبع نبوخذنصر سياسة حكيمة جداً كي لا يسمح لأحد المتحاربين بأن يحقق انتصاراً حاسماً على الآخر، فيجد هو نفسه أمام غالب قد أثار الانتصار حماسته.

لقد هددت الأعمال الحربية المتمادية الحركة الاقتصادية في بابل، لأنها جعلت منافذها على حوض البحر الأبيض المتوسط غير مستقرة إطلاقاً. إلا أن

وساطة ناجحة مع هذا الخصم أو ذاك، كانت تؤمن مزيداً من النشاط الاقتصادي المضمون دون مجازفات كبيرة. وأضيفت المشاعر العاطفية إلى المصالح السياسية، عندما ذكَّرت الملكة آميتيس نبوخذنصر، بأن عليه واجبات تجاه ميدية التي كانت حليفته فيما مضى، ودفعت جزية الصداقة.

فحتَّمت على نبوخذنصر المصلحة، وحب التدابير المفيدة، وهمُّ التوازن الآسيوي، بأن يتفق مع سيانيسيس، ملك قيليقية، كي يقدما معاً وساطتهما المشتركة إلى المتحاربين، عشية معركة بدت أنها ستكون حاسمة.

وهذه المهمة التي عُهد بها إلى نابونيد في الثامن والعشرين من أيار عام ٥٨٥، سهَّلها كسوف كامل للشمس، أغرق الجيشين المتواجهين في الظلمة والرعب. وقد تأثر إلياط وسياكسار بهذا الكسوف، مما جعلهما يقبلان مقترحات نابونيد بسرعة لا يعادلها سوى خوفهما المشترك.

استعجل نبوخذنصر كي يسمع من فم صهره بالذات، تفاصيل هذه المفاوضات السعيدة. فبمعزل عن بنود المعاهدة التي تهم بابل مباشرة، كان نبوخذنصر يتوق إلى الحصول على تفاصيل تتعلق بالأمبراطورية الليدية المديونة بمقدار إلى الحضارة والعلم الكلدانيين. لكنَّها عرفت كيف تكيّف هذه الحضارة وهذا العلم، وكيف توفق بينهما وبين الحضارتين اليونانية والفينيقية، كي تتباهى وتزدهي.

وسرديس، عاصمة ليدية الواقعة على الطريق الطويلة التي تمتدُّ من الخليج الفارسي حتى بحر إيجه، كانت أمام هذه القارة الجديدة، التي يجهلها نبوخذنصر لكنه يعرف مواردها، الحارس المتقدم للحضارة الشرقية. فسرديس المشبعة بالحضارة البابلية المتفاعلة مع الفنون الفينيقية الانتقائية، أيقظت في اليونان الميل إلى حضارَة كانت حتى ذلك الحين غير مشكوك فيها، مما طوَّر المهارات الشخصية لدى الحاذقين من اليونانيين، وأبرز تفوقهم النموذجي في الخلق والإبداع.

وقد سبقت إلى سرديس، حتى خبر الهدنة بين إلياط وسياكسار، شهرة تاليس الميلاتسي الذي كان قد تنبأ، ببراعة فائقة في النشر والانتهازية، بالكسوف الشهير الذي سهَّل وضع حدٍّ للنزاع بين إلياط وسياكسار. ولم يخطر ببال أحد، أن تاليس هذا قد استغل التكهنات العلمية التي استنبطها سحرة نبوخذنصر من لوحات الهياكل الكلدانية. هذه النبوءة أرعبت نبوخذنصر، إذ كان تأثيرها عليه كتأثير النجاحات التي حققها أنكسيمندرس الميلاتسي، واقتنعت بها سرديس. فأنكسيمندرس هذا، عرف أن يرسم على لوحة نحاسية شكلاً للعالم، في الوقت الذي كانت فيه خرائط العالم متداولة في بلاد بابل، وعلى جهتي الطريق الملكية لأمبراطورية نبوخذنصر، كانت هذه الخرائط تعين حدود الشعوب والممالك التي تحيط بها.

بالإضافة إلى ذلك، أخبر نابونيد الملك، بأن اثنين من هؤلاء اليونانيين الشبان المقيمين في جزيرة ساموس، وهما روكوس وثيودوروس، لم يخشيا من أن ينسبا إلى نفسيهما الفضل الأول في تحقيق عملية صهر المعادن، في حين أن أشور وبابل كانتا تمارسان هذه العملية منذ سنوات طويلة.

رأى نبوخذنصر في هذا الإدعاء ما يقلقه، ومؤشراً جديراً بأن يضع، في يوم قريب، حداً للتوسع الاقتصادي والسياسي للمملكة الكلدانية نحو الغرب، وبأن يخنقها بإغلاق كل منفذ لها على البحر الأبيض المتوسط، في الوقت الذي كان فيه منفذها البحري على الأوقيانس الهندي متزعزعاً جداً وغير مستقرّ. فشاء أن يستعلم من نابونيد ذاته، إلى أي حدّ شعر بهذا النفوذ الغربي الذي لا يُرجى منه خير للمملكة البابلية.

والقضية أبعد من أن تكون أخلاقية وحسب. فنبوخذنصر يعلم كم هي خطرة «الأفكار» الآتية من الغرب، والتي اعتنقتها سرديس واعتمدتها. فإذا كان نظام الملكية المطلقة الاستبدادي، قد استمرَّ فيها منذ الملك جيجيوس الشهير الذي خضع في سالف الزمان إلى الأشوريين، فإن هذا النظام لم يؤسس إلا على القوة والجيوش، بعد أن غدت ألوهية الملك الممسوح بالزيت الإلهي، لا أهمية

لها. ففي البلدان المحيطة بليدية، حيث تقاليد السلطة أقل قوة، انهارت الأقليات الحاكمة الواحدة تلو الأخرى، طوعاً للمطامح المتمثلة فقط بالفصاحة، والعنف، والمكر، والخداع. وهكذا قضي على فيدون في أراغوس، وعلى أندرياس في سيكيوس، وعلى كيبسيلوس في كورنثوس، الذين بلغت أخبارهم نبوخذنصر. لذا على نبوخذنصر كما قال له نابونيد، أن يعتمد في حكمه على كل طبقات المجتمع دون تفرقة ولا تمييز، حتى على الذين ليس لهم حق الوجود في بابل إلا من أجل العمل. ففي سرديس ذاتها، وفي ظل النظام الليدي الاستبدادي بزعامة إلياط، يبدو أن الأصل والمحتد، بطلا أن يكونا مقياس الأهلية والجدارة لإدارة شؤون الدولة، واقتصر الأمر على الثروة وحدها.

فهَزَّ نبوخذنصر رأسه استغراباً. عليه أن يكون مجنوناً كي يقبل في مجالسه، عندما يكون الأمر متعلقاً بإدارة المصالح العامة للمدينة أو المملكة، رأي كل الناس بلا تمييز، سواء كان أصحاب الرأي أغنياء أم فقراء، نبلاء أو من عامة الشعب، في حين أن أرادة واحدة تكفيه، إذا كانت هذه الإرادة مستوحاة من الإله الأعلى، سيد السماء والأرض! وكيف يمكنه التفكير بالاعتماد على المساواة، وعلى حرية أناس غير مستنيرين بالأسرار الإلهية، ولا نقّاد أو مدفوعين بالطموح والكبرياء، في إرساء قواعد السلطة على المبادىء القويمة، وخلق تيار فكري قوي ملتزم بخدمة الوطن؟

وشاء نبوخذنصر بأن يقص عليه صهره بالتفاصيل أخبار تلك البدع البغيضة التي انتقلت إلى بابل المحافظة على تقاليدها بواسطة الأمبراطورية الليدية، والتي توقع نبوخذنصر بأن تكون سبباً لهلاكه. فارتفع صوت نابونيد مضخماً في الظل الخفيف السائد على قاعة العرش، ليروي مشاهداته أثناء المهمة التي قام بها، وقد تذكر تحت القباب القاتمة تلك الحضارة التي غزت قلبه ولطفت بسحرها قساوة روحه. وبنفاد صبر رسم صوته بسرعة لوحة جافة وموجزة عن الهدنة التي استطاع أن يقنع الخصمين العنيدين في إبرامها، وقد جاءت في بنودها لا تحمل الذل لأي منهما، كما أنها لا تمنح أياً منهما سلطة مقلقة على الآخر. وعدَّد

متباهياً المكاسب التي حققها بالنسبة للتجارة البابلية التي سيكون لها منفذها الحر على البحر الأبيض المتوسط، وستشهد قسماً من القوافل الآتية من الهند وشبه الجزيرة العربية، تعبر بابل إلى شواطىء آسيا الصغرى، بعد أن كانت هذه القوافل تبلغ الشواطىء المذكورة عبر مصر وسوريا.

وأوضح نابونيد بأنه، وفاءً للتقاليد القديمة، ثقب كل من ألياط وسياكسار ذراع الآخر اليمنى برأس خنجره، وتبادلا مصَّ الدم من جرحيهما. وبهذه الطريقة التزما بعهد الشرف في المحافظة على ميثاق المحبة الأبدية بينهما، الذي أبرماه في ذلك اليوم، والذي قضى فيما قضى بأن تزف لابياس، ابنة ألياط، إلى أستياغوس، ابن سياكسار، كعربون لهذا التحالف.

وفجأة، أصبح صوت نابونيد أكثر رقة، وتوقف مع شيء من التحسر الشهواني عند اللوحات التي استحضرها في ذاكرته عن سرديس، عاصمة ليدية، حيث ذهب به ألياط فور إبرام الهدنة.

فعند غروب الشمس ذات مساء، خرج نابونيد من مضيق كاتاكيكومينس لينطلق في سهل متدرج، نصبت فيه سرديس كتلة هائلة من أسوارها ذات الفتحات كأنها حلم سحري، أو باقة زهر من الحجارة البيضاء وسط الإخضرار والماء. وكانت قلعة الأكروبول، والهياكل ومركز الخزينة الملكية، تشرف على هذه اللوحة الطبيعية الحارة، وتبرز بوضوح على شاشة جبل ثمولوس الذي تمتد سلسلته القاتمة طويلاً، وتتعرج بغموض وإبهام.

فاجتاز أول ما اجتاز حياً فقيراً، ثم المصاطب ذات الشكل النصف الدائري، إلى أن بلغ المدينة التجارية أمام الأكروبول، حيث التقى الشرق والغرب في متاهة مبهمة من الأزقة المتداخلة وسط البياض الغامض للبيوت، واختلطت صناعة الماضي الخالية من الزخرف والبهاء، بالصناعة الحديثة الزاهية التي تلتمع وتدهش، ثم تفتن وتغري.

عن هذه المدينة التجارية أعطى نابونيد وصفاً حياً للمخازن، والخانات،

وسوق الجلود، وحي الحاكة حيث أقمشة البرفير تلتمع، وخصوصاً لحي العطورات الذي كان يباع فيه عطر «باكاريس» الشهير، والعطور المشتقة من الزعفران التي كانت تعطر الجو، وتحمل الذين لا هدف لهم سوى الإغراء، على نسيان كل شيء. في هذا الحي، أقام بعض الكلدانيين الذين كانوا يبيعون، بحلوٍ وظرافة معشرهم، التعاويذ التي تفتح أبواب الأحلام المستحضرة بواسطة هذه العطورات.

وأكثر ما أدهش نابونيد، هو أن المظهر الفظ للحضارة البابلية، الحية دائماً في سرديس، قد تلطف وأصبح مشرقاً يهزأ بالخشونة التي بدونها، في نظر هذا الشرقي، لا يمكن فهم القوة. إن تفاعل الحضارتين في عاصمة ليدية، قد أيقظ أفكاراً ورغبات وحاجيات، كانت لم تزل مبهمة في كلتيهما. ففي كل مكان من الأحياء الشعبية، كذلك في القصور ومنازل الأمراء، كانت هناك جماعات من الناس تتجول نابضة بالحياة، وتلاحق نابونيد بنظراتها الساخرة، مندهشة من الأقمشة السميكة الخشنة الغارق فيها حتى أذنيه، ومن البذخ في التطريز عليها، بينما كانت أجسادها هي، تتحرك بحرية تحت أردية ذات ثنايا عريضة ومصنوعة من الصوف الناعم.

استقبل ألياط نابونيد في قصره، وأقيمت على شرفه الولائم العديدة، فأكل خلالها «الكاريس والكاندول» المشبعين بالتوابل المثيرة للشهية. وعند المساء، ذهبوا به إلى حدائق القصر وغاباته، فشاهد هناك في ظلال الأشجار الوارفة والملتفة على بعضها، مدينة قائمة بذاتها، مدينة اختلطت فيها رائحة الورود الناعمة برائحة الخضاب القوية، خاصة في المواخير المستترة من «ميدان النساء المسور» الذي أضفت عليه الطبيعة جواً من الروعة والسحر، كما أضفت عليه الهياكل، وخاصة هيكل الإلهة سِبِلَّة، جواً من الألوهية التي أباحت ممارسة السكر والعربدة والتهتك.

في هذا المكان، بدت مومسات سرديس بفساتينهن الطويلة والمسترسلة حتى أرجلهن، أكثر إغراء من بنات بابل، إذ أبرزت شفافية هذه الفساتين تقاسيم

أجسامهن البديعة، فأثارت لدى الشبان الشبق والشهوات. وكان دورهن كدور البابليات في هيكل ميليتا، اللواتي كنَّ يلبين نداء كل غريب.

احمرّ نابونيد حتى أذنيه، وانخطف في حلم لذيد... عندما استعاد ذكرياته معهن، أثناء سرد مشاهداته لنبوخذنصر. ومثل أمام عينيه الوجه المنتشي للكاهنة الصغيرة التي شاركها المضاجعة الإلهية في الظل الحار والعابق بالطيب... وترددت في أعماق قلبه أصداء الألحان الأسيوية القديمة للأغاني التي كان بعضهن ينشدنها، برفقة المزمار أو القيثارة، فيما كانت أخريات، تقدمن بلا كلل ولا ملل، وعلى إيقاع بطيء لطيف، رقصات ساحرة ومثيرة!

لكن نبوخذنصر كان قد توقف عن الاستماع إليه منذ برهة... فهو قد اكتفى بما يجب عمله كي يتخلص من الوساوس والهموم التي سبَّبها له خصماه في ميدية وليدية، اللذين إن استمرَّ النزاع المحفوف بالمخاطر بينهما، سيضطر إلى التدخل، والتدخل في هكذا نزاع مجازفة لا يرجى منها أي مكسب حقيقي.

فعندما احتفظ نابونيد لبابل، بموجب معاهدة السلام التي كان عرابها بين سياكسار وألياط، بمنفذ حرّ على البحر الأبيض المتوسط عبر آسيا الصغرى، أرخى قبضة المدن الفينيقية، إذ لم يعد باستطاعة هذه المدن، التمادي في غطرستها الاحتكارية بفضل موقعها الجغرافي الذي أتاح، لها وحدها، استغلال الأقطار الأسيوية في العالم. فستكون في مجابهتها، مدن آسيا الصغرى، وطروادة، واليونان الأسيوية كلها، خير عملاء للتجارة البابلية. وبابل، بفضل المضاربة التي ابتكرتها، سيكون لها غنم وفائدة في هذه المدن، إن بالنسبة لتصريف إنتاجها، أو بالنسبة لمشترى حاجياتها الاستهلاكية. ومن هذا المنطلق، يكون نبوخذنصر قد تحرر من هموم الأمس، وأخذ يفكر بذهنية جديدة لتحقيق طموحات الغد.

وفيما كان نابونيد صامتاً، رأى نبوخذنصر حلم مجده وكبريائه في هذا الرجل السديد الرأي، الهادىء الأعصاب، الطيب القلب، الذي كان يحبه كأحد

أبنائه. فهو من أقنعه بأن الإكثار من الفتوحات وضمّ البلدان كما كان يفعل الأشوريون قديماً، لم يعد كافياً. لأنه حتماً سيأتي يوم على الفاتح تقتله فيه فتوحاته، إن لم تُبرَّر بغايات اقتصادية، وإن لم يقم وراء الجيوش الظافرة في الأقاليم المفتوحة، نظام دقيق للحياة والثروات.

فهناك، على التخوم الجنوبية للبلاد العربية، كانت البضاعة المكدسة في مرفأي كَنَّة وعدن، مستوردة من الهند، تلك البلاد المكتنفة بالأسرار والتي كانت مصدر كل الثروات التي أسكرت العالم: كالذهب، والحجارة الكريمة، والقصدير، وخشب الصندل، والتوابل. وعبر الطرق غير الخاضعة لسلطة بابل في البلاد العربية، كانت القوافل تنقل هذا المعين الذي لا ينضب من الثروات، إلى المرافىء والأسواق الفينيقية. وإلى هذه المرافىء والأسواق ذاتها، ومن أجل المقايضة بالتوابل، والعطورات، والأحجار الكريمة، والذهب، كانت سوريا تأتي بقمحها وزيتها، وخمرها. وفينيقيا بمصنوعاتها الخزفية. وقيليقية بالزعفران. ووادي الأردن بالحديد، والبرونز، والأنسجة الأرجوانية.

ونتيجة لهذه المقايضات، ازدهرت التجارة ازدهاراً كبيراً. وبات على بابل، أن تعمل لتكون سيدة هذه التجارة. فمصر قديماً، في عهد مجدها وبهائها، بذلت قصارى جهدها كي تجتذب نحو البحر الأحمر تدفق هذه الثروات، فوضعت في تصرف القوافل التي كانت تتعرض للسلب والنهب وفرض الأتاوات، من قبل اللصوص والبدو الرحل على الطرقات غير الثابتة عبر البلاد العربية والصحراء، القناة التي كان الفرعون سيتي الأول قد شقها من النيل إلى البحر الأحمر... لكن هذه القناة مطمورة الآن بالرمل، والوكالات التجارية الفينيقية على الخليج الفارسي، تبدِّل لمصلحتها وحدها، اتجاه ثروات الهند، مما يجعل بابل في وضع يكلفها غالباً كي تحصل عليها فيما بعد.

أسهب نبوخذنصر في التحدث مع نابونيد عن عظمة الهند وما فيها من بذخ وترف، والجشع والطمع يعتملان في نفسه للحصول على ثرواتها غير المحدودة في الأقاليم الواقعة شرقي بكتريانة، حيث جبال مشتاغ وعماوس، موطن

الذهب، واللازورد، والعقيق، واليشب الأسمر، تلك الحجارة الكريمة التي تُجنى فيها كما يُجنى الشعير على ضفاف الفرات!

أما الزمرد واليشب المتعارف عليه، فقد كانت صحراء منغوليا الكبرى موطنهما. ففي هذه الصحراء، كانت تجمع الحجارة الكريمة تلك من قبل الفرسان الذين يقصدونها في فصل الرياح الشمالية، عندما تهب هذه الرياح وتجرف الرمال. زد على ذلك، أن كل الجبال هناك تحتوي على الذهب، والسيول الجارفة تجعله يستقرُّ في مجاريها. وفي المياه الحلوة التي تغمر جزيرة سيلان، كانوا يستخرجون نوعاً من اللؤلؤ يستهوي البابليين ويتجملون به، ويفضلونه على اللؤلؤ المستخرج من مياه الخليج الفارسي.

ومن هذه الأقاليم السعيدة، كانوا يأتون أيضاً بالكلاب التي كانت الطبقة الأرستقراطية تقتنيها لتدرأ عنها خطر الوحوش المفترسة. فكانت هذه الكلاب رفاقاً لأبناء الطبقة المذكورة لا يستغنى عنها في رحلات الصيد، وحتى في تنقلاتهم وحروبهم.

وبفضل «حشرة المغافير» في مقاطعة لاكا الهندية، التي تتوالد في الأراضي المجاورة لينابيع نهر الهندوس، كانت الهندستان تزوّد بابل بالأصبغة التي لا مثيل لها، والتي كانت أنيقات بابل يتسابقن إلى التجمل بها.

وفي هذه المقاطعة أيضاً تنبت البهارات التي تعطي الطعام مذاقاً طيباً، وهي له كما البذخ والترف بالنسبة للحياة، خاصة القرفيات منها، تلك القشور اللغزية التي «تحملها الطيور إلى أعشاشها، وبالحيلة ينتزعونها منها».

كل هذه الثروات يجب أن تتدفق على بابل دون أن يأخذ عليها الفينيقيون أو العرب أو المصريون، كرسم مرور، العشر الذي يزيد في ثمنها. فبابل، «المدينة التجارية العظيمة»، كما كان يقول دائماً النبي حزقيال، يجب أن تكون المستودع الوحيد لكل هذه الثروات، ومركز المقايضة بها. على هذا قرر نبوخذنصر وهو في مجده المنيع. فعلى كل الطرقات المتجهة من شبه الجزيرة

العربية نحو آسيا الصغرى، ستوفر جيوشه الأمن للقوافل. وستقوم ورش العمل لديه بصيانة الطرقات والقناوات كي تصبح بابل مركز السيادة التي لا تزاحم. ويوم تجعل منها اللعبة الطبيعية للقوى الاقتصادية، القيِّمة على التجارة العالمية، ستؤكد سيطرتها الجلية على كل الممالك.

ولكن، واحسرتاه! فكي تصبح بابل في آسيا «طريق الهند الوحيدة»، ما زالت هناك عقبات كثيرة تعترض هذه الطريق، وقد ارتسمت هذه العقبات في مخيلة نبوخذنصر، فأوردها أمام نابونيد على الوجه التالي:

يجب أولاً ضرب كبرياء أولئك الفينيقيين، مغتصبي ثروات بابل، وذلك بتدمير مدينة صور، قلعتهم الرئيسية على حوض البحر الأبيض المتوسط، وقطب الاجتذاب للقوافل التجارية.

ويجب أيضاً تدمير المرافىء العربية في «بلاد العرب السعيدة»، التي تحول اتجاه المراكب المنطلقة من الهند نحو الخليج الفارسي. وهذه الموانىء، هي: كُنَّة وعدن في اليمن، وظُفار في مَهَرة، ومسقط على شاطىء عمان.

وفيما بعد، يجب الاستيلاء على طريق اليمن التجارية، لإفساد نظام العبور المألوف للقوافل عبر شبه الجزيرة العربية، فيصبح من الطبيعي أن لا يبقى أمام المراكب العائدة من بلاد الثروات مناص من اتِّباع الخليج الفارسي، كي تبلغ مصب الفرات، الشريان الآمن الوحيد والسريع الذي بواسطة بابل، يقودها نحو كل الأسواق الآسيوية والغربية.

وكان نبوخذنصر منذ سنتين، قد أنشأ في كاردونياش، (أو تيريدون) في عمق الخليج الفارسي، مرفأ هاماً يربط بين نهري «ملكا وأراكان»، تلك الترعتين العظيمتين اللتين شقهما كي يتاح للمراكب ذات الحمولة الثقيلة أن تصل إلى بابل. وفي ذات الوقت، كان منهمكاً في تأمين الملاحة من الفرات إلى بابل، وحتى إلى أبعد منها، إلى طفساغ، حيث تصبح طريق القوافل إلى البحر الأبيض المتوسط قصيرة جداً. وبذلك، تصبح بابل كمرفأ على الخليج

الفارسي، «بحرها»، سوقاً رحبة للمقايضة بثروات العالم، ومركزاً لتصريف كل ما ينتجه ويستهلكه العالم القديم.

أصغى نابونيد إلى عاهله وأخذ يفكر، مخطوفاً بهذه الملحمة البطولية التي وضع تصاميمها نبوخذنصر، بأنه كي يتحقق هذا الحلم، لا بدَّ من تشييد عاصمة أخرى للأمبراطورية البابلية التي أصبحت واسعة جداً، يكون موقعها في قلب البلاد العربية، وفي منتصف طرق القوافل العائدة من بابل والذاهبة إليها فقط، كي تؤكد هذه المدينة سلطة وإرادة الحضارة البابلية.

*

على الرمول التي لا نهاية لها، انتصبت الخيام صفوفاً صفوفاً، وانتصبت في أعلى الصفوف خيمة مميزة بألوانها الزاهية البهية، لتشرف على ما عداها من خيام. في هذه الخيمة كان نبوخذنصر وحده ساهراً مع الحراس، فيما كانت شبه الجزيرة العربية أمامه، ذلك السديم الهائل الشبيه بالغرانيت، نائمة هادئة، والقمر يؤرجح في السماء هلاله المشرقي الدقيق، والصمت عامّ شامل، والسكينة مخيمة على البشر والأشياء المتعبة من حرارة الشمس وتراقص السراب. وفوق الخيام المنصوبة، كانت سعف النخل تتأرجح هي الأخرى في الظل المائل إلى الزرقة، فتبسط ستارة ناعمة كأنها قنزعات وعفرات متحركة!

من تلك الواحة، سرَّح الملك طرفه على مدِّ النظر، إلى حيث يرقد جيشه على ذلك البساط من الرمال الذي كان لونه الوردي ما زال مبهماً تحت ضوء القمر، ومتموجاً في منخفضاته العميقة المغمورة بالظل. فشرد به الخيال وحمله التفكير إلى تلك المسافات الخالية التي لا تحدّ، ليستقرَّ به عند ذلك الخط المتعرج والقاتم الذي يحجب وراءه الأفق، حيث التموجات الأخيرة لتلك الصحراء السورية التي شهدت تخومها الأخرى منذ ثلاث وثلاثين سنة، مسيرته الموحشة والقلقة نحو العرش.

وعبثاً حاول أن يلمح أيضاً عبر هذه التموجات المشبعة بالحرارة

والرطوبة، المستنقعات التي تتلاشى فيها مياه دجلة والفرات، «نهريه»، قبل أن ترتمي في عمق الخليج الفارسي، «بحره».

فاستدار نحو الغرب، علّه يرى القوافل عند حدود السماء الشفافة والمتلألئة، وهي تسير الهويناء وبصمت، في الضوء الغامض والضارب إلى الزرقة. أليست عند تخوم مملكة دوما، تقوم طريق القوافل الشهيرة الممتدة من بلاد عُمان، ومن ميناء مسقط، وفي محاذاة «كل بحره الفارسي»، حاملة في الغالب، وهي تجتاز شبه الجزيرة العربية من جهة إلى أخرى، من غزَّة إلى مِدْين، البضائع الهندية باتجاه فينيقيا، ثم منها إلى ليدية وقبادوقية، متجاهلة بابل ؟!

لقد رأى نبوخذنصر، على الطريق التي شقها قبله سنحريب وأشوربنيبال، مراحل أحلامه واقعاً ملموساً، ترسم معالمها الخرائب التي تشهد على مرور الفاتحين الأشوريين العظيمين اللذين هما أيضاً، قد شعرا بأن إمبراطوريتهما لن يكتب لها الاستمرار والبقاء، ما لم يتمكنا من إخضاع مصر وشبه الجزيرة العربية وتسخيرهما لمصلحتها، سيما وإنهما الخزانان الهائلان من البشر والثروات، خاصة الذهب الذي أصبح عصب الحرب والغزوات.

وعند فجر اليوم التالي، ودون أن يلقي أية نظرة إلى الوراء، زحف نبوخذنصر بجيشه في اتجاه ذلك المجهول الذي يجتذبه، وحيث يبدو الموت والخراب يكمنان تحت شمس محرقة. وكانت مملكة دوما البهية إلى شماله، لم يبق منها سوى الركام البائس والمحاصر بالرمول، وسوى ذكرى «يَثْرَب»، تلك المرأة التي ضمها سنحريب إلى حرمه، كي يضعها فيما بعد على عرش هذه المملكة التي قضى التقليد بإبعاد الرجال عنها.

وما أن انحرف نبوخذنصر عن تلك المناطق التي تركها الغزو الأشوري أثراً بعد عين، حتى شعر بانجذاب نحو تيماء، نقطة التقاء القوافل الكبيرة المتجهة

نحو جرها، وبتراء، وسبأ، وبابل. فهل توقع بأن نابونيد سيجعل من تيماء هذه، العاصمة الثانية للأمبراطورية ؟

وببرودة، كانت معها إرادته أقوى من رغباته، استدار ودفع بجيشه نحو الجنوب. فهناك، على شاطىء بلاد العرب السعيدة، يجب أن يحوّل اتجاه القوافل الكبيرة عند انطلاقها، وأن يسترجع الطريق التي كان أشوربنيبال قد شقها في غزوته الكبرى.

وبلغ نَجْد عبر صحراء النُفُود، فإذا بالجبال البعيدة ترتسم سوداء على الرمال الذهبية اللون، وإذا بقفار جديدة تتكشف له. فهذه الصحراء الكبيرة التي عُرفت بالدهناء وأُطلق عليها اسم الربع الخالي، كناية عن سهل من الرمال والحجارة لا نهاية له، ينبسط في اتجاه بحر كانوا يتنبأون بوجوده في ذلك الوقت. ولم يكن في هذا السهل العظيم من أثر، سوى مواطىء أقدام خفيفة تركتها دعسات القوافل التي اجتازته. وكانت هذه القوافل، إذا ما أدارت ظهرها نحو الخليج الفارسي، انقسمت إلى مجموعتين، واحدة اتجهت نحو الغرب، نحو الكعبة المكرمة على شاطىء البحر الأحمر، والأخرى نخو الجنوب، نحو مملكة سبأ المدهشة العجيبة. لقد بدا مفرق الطرق هذا، كأنه خالٍ إلى الأبد. إلا أنه في منخفض من الأرض، حيث تخفي إحدى الواحات مياهها الجارية تحت أشجار النخيل، انتصبت خيام خشنة، ودار حولها عجاج من الفضول والرعب. إنها خيام قبيلة الجُرْهُم البدوية، التي أخذتها المفاجأة، فلم تفكر بمقاومة جنود نبوخذنصر، ولا حتى باعتراض سبيلهم.

وكان معظم رجال هذه القبيلة يلبسون الثياب الرثة، ويفنجرون عيونهم ببلاهة وغباوة. فالبعض منهم قد تعتعه السكر، والبعض الآخر لم يكن مبالياً بسوى التحلق حول جسد جمل مقطَّع، ليقترعوا على أشلائه ويتخاطفونها. لذا لم يعترِ نبوخذنصر أي خوف من هؤلاء المقترعين والسكارى الرحَّل، بل بكل

بساطة، طردهم بواسطة جنوده الذين أعملوا سياط الجلد في أقفيتهم وظهورهم، ونصب خيامه مكان خيامهم.

وبضرب هذه القبائل الرحالة، مع ملوكها الصغيرة، وبضائعها، وعبيدها، استهدف نبوخذنصر ضرب الازدهار والرفاهية في صور. فصور قد عرفت أن تستغل جهل وسذاجة هذه القبائل كي ترضي جشعها النهم، وتحقق مطامحها التجارية، وتؤمن لنفسها المكاسب والمغانم.

وما أن انتهى الأمر مع الجراهمة، حتى أبصر نبوخذنصر في هالة وردية، موكباً كبيراً قادماً من مملكة سبأ، وقد يكون من عاصمتها مأرب. لقد رسم هذا الموكب فجأة ظلالاً سوداء عند الأفق، وفي ذات الوقت الذي ظهر فيه، خفت وقع أقدام الرجال والبهائم على الرمال. ولم يكن هذا الموكب سوى قافلة كاملة العدة والعدد، ما أن لمحها نبوخذنصر وتميَّز أنها مجموعات متلاحقة تشكل عرضاً لا نهاية له من الرجال السائرين بخطى مرنة، والمسلحين بالحراب والرماح، ومن البهائم المترنحة والمحملة بالطرود الهندية التي أفرغت محتوياتها في كَنَّة خلال الفصل الأخير، حتى استعادت ذاكرته قول النبي حزقيال الموجَّه إلى صور:

« العرب وجميع رؤساء قيدارَ هم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس. فإنهم بهذه اتجروا معك. تجار سبأ ورعمة متجرون منك وبأفضل كل طيب وبكل حجر كريم وبالذهب أقاموا أسواقك. حاران وكَنَّة وعادان متجرون معك. هؤلاء يتجرون معك بالأنسجة الفاخرة، بأردية من السمنجوني والوشي، وبالنفائس من الثياب. . . ».

وأصدر للفور أوامره، فتحركت العربات البابلية وفق خطة مرسومة. وما أن غربت شمس ذلك اليوم، حتى كانت الرمول الذهبية خالية إلا من الجثث المشوهة بفظاعة ووحشية. . . فهنا رجال يتخبطون في دمائهم، وهناك جمال

منقلبة على ظهورها وقوائمها متصلبة نحو السماء الوردية اللون. وتحت الخيام البابلية، انصرف القادة الظافرون إلى إحصاء الغنائم.

وفي اليوم التالي، لم تنتصب الأطياف السوداء لقافلة المقايضة عند الأفق المقابل، لأن هذه أيضاً، قد أصبحت جثثاً مجندلة.

وبعد أن بلغ نبوخذنصر أقصى حدود نَجْد، اقتفى بعزم آثار أشوربنيبال واتجه نحو طريق اليمن، تلك الطريق الأخرى للقوافل، التي تمتد مباشرة من مملكة سبأ على طول البحر الأحمر، لتجتاز الحجاز نحو الوكالات التجارية الفينيقية في تيماء وبلاد أدوم ذات الجبال الكئيبة الجرداء.

دخل نبوخذنصر الحجاز إذن، فإذا بالأبعاد الشفافة، وبنتوءات الصخور الصوانية، ترسم في السماء أشكالاً وهمية، زرقاء أو وردية، وقد بدت هذه المناطق أقل وحشة من سواها. فعلى رمالها، كانت تفوح من بعض النباتات الهزيلة، أطيب العطور المجهولة. ونحو السماء من على الكثبان الضخمة المرتفعة، كانت تتصاعد ألحان موسيقية كأنها نداء عذب وغامض، أغنية الضوء على الرمال والمياه الجارية.

أمام مكة، جمع عدنان المتحدر من إسماعيل، قبائل الأنباط وقبائل الجُرْهُم القحطانية النازلين في تلك البقعة، وسار على رأسهم في محاولة لإيقاف الكلدانيين والذود عن الكعبة المقدسة، هيكلهم القومي.

وصباح يوم من الأيام، دارت معركة حامية الوطيس بين الفريقين في «وادي الأراك» كانت من القساوة والفظاعة بمكان، إذ قام الفرسان العرب بهجوم جنوني على الوحدات البابلية الهامة. ولكن فجأة، وبعد قتال مرير، دبَّ الرعب في المهاجمين، وولُّوا هاربين في كل اتجاه.

وعكس أشوربنيبال الذي انطلق أثناء غزوته صعوداً من هذا المكان باتجاه الشمال، فإن نبوخذنصر هبط بلا تردد باتجاه الجنوب، وسار في محاذاة البحر

الأحمر على طريق القوافل الآتية من مملكة سبأ الأسطورية. وكان جيشه يتصدى لكل قافلة جديدة تسلك الطريق المجانبة للبحر، فيسلبها ما لديها ويقضي عليها.

أخذت الطبيعة تتلطف وتعتدل رويداً رويداً كلما ازداد نبوخذنصر هبوطاً نحو الجنوب. وما طال الوقت، حتى تراءت له ذات مساء، وفيما كانت الشمس تلملم خيوطها الذهبية استعداداً للغروب، كل ثروات مملكة سبأ.

فهنا وهناك، كانت السهول التي لا تحدّ تموج بسنابل الشعير الأخضر. وكانت الصخور المنيعة الشاهقة، تشكل لهذه السهول أسواراً مغلقة، وقلاعاً حصينة لكبار الإقطاعيين والأسياد اليمنيين، وقد تجمع حولها وتحت حمايتهم المزارعون والحرفيون.

وسط هذه الأرياف السخية والمليئة بالحيوية والنشاط، ووسط المدن اليمنية الوافرة الثروات والتي تضج بالحياة، ترك جيش نبوخذنصر وراءه الخراب والدمار والجثث، كما فعل على طول الطرق الصحراوية.

ولكن أي ربح لم يجنه هذا الجيش في تلك البلاد، التي كانت فيها مرافىء المكلا، وكَنَّة، وعدن، ومُخَا، مخازن للبضائع الآتية من الهند؟ فالناس، كما قال أغاثرشيد، كانت منازلهم تحتوي على كميات لا تصدق من الآنية والأدوات من كل فن وطراز، وكلها من الذهب والفضة الخالصين، وعلى أسرَّة وركائز فضية. وكانت أعمدة الأروقة في الصروح مكسوة بالذهب وتعلوها تيجان فضية، والأفاريز وأُطر الأبواب مسلحة بالمشاجب الذهبية المرصعة بالحجارة الكريمة.

وفي مأرب، عاصمة مملكة سبأ التي دخلها الكلدانيون بلا مقاومة، والتي قبلت أن تدفع الجزية، لم يستطع نبوخذنصر إلا أن يبدي إعجابه بحضارتها الأكثر تقدماً من حضارة بابل. فقد رأى فيها قنوات الري، والخزانات، والسدود، والأسوار، والقصور المشرفة على المدينة والمتألقة بالبياض والذهب المتعاقبين. كذلك رأى البرج المرتفع فوق قصور الملوك بطوابقه السبعة البارزة

والمبلطة بالمرمر، وعلى زواياها الأسود الضخمة الفاغرة أشداقها، حتى إذا ما عصفت الريح فيها انطلق منها ما يشبه الزئير والزمجرة !

بعد أن تحقق النصر للفاتح العظيم، طارت شهرة جيشه على جناح السرعة وعمت سطوته كل مكان، فأخذت القبائل الرحل تفرُّ من أمامه ولا تجسر على مجابهته. لكن الحرمان الذي أصابه والتعب الذي أنهك قواه فيما هو يسير ملزماً تحت شمس محرقة، مما جعله يضل طريقه غير مرة، قد أجبر نبوخذنصر على التوقف أمام المجهول الموحش في صحراء الدهناء الكبرى. لقد شاءت كبرياؤه أن تتغلب على الطبيعة ذاتها، وحاول المستحيل كي يثير حمية جيشه بالسراب الذي وضعته قدرته المبدعة في خدمة طموحه غير الراضي، لكن تذمر جنوده الذي كان يزداد ويتفاقم كلما توغلوا في المجهول تحت شمس الصحراء اللاهبة، قد أوقفه، كما أوقف نابوليون، فيما بعد، جيشه في ثلوج روسيا.

عندئذ، عزم نبوخذنصر على التراجع. وكانت وراءه قبائل بكاملها، هي قبائل أهل الوَبَر والحَضَر التي فرضت عليها بابل القيود والضرائب وهي لا تعرفها، وبالتالي لا تودُّ التعرف إليها.

ثم ببطء وكأنه مكره، أخذ يصعد باتجاه الجنوب دون أن يكون قلقاً، تاركاً وراءه بين القبائل الأكثر بعداً، شهرة مليئة بالمجد والعظمة، جعلت الناس يعتبرونه مرسلاً من السماء، فبقيت تنسج حول اسمه ولعدة قرون، الأساطير الوهمية العجيبة التي تتحدث عن أمجاده المستمرة. ومثل هذه الأساطير، وحدهم الشرقيون يتقنون سردها بأسلوب مضخَّم ومغالى به !

وعادت الشمس الساطعة فغمرت بنورها من جديد بلاد العرب، وجعلت الرمول والصخور الصوانية تتوهج وتتألق. وكانت وحوش الفلاة قد انتهت من تقطيع الجثث وأخذت الرمول تغطي الهياكل العظمية البشرية شيئاً فشيئاً، كذلك هياكل الجمال وصغار الجياد.

وخلت الطرق المرسومة والعريضة من القوافل التجارية وخيم عليها الصمت، باستثناء نعيق البوم ونعيب الجوارح والكواسر، وعواء بنات آوى.

وأخذ كل واحد من زعماء القبائل الرحّل الذين لم يعرفوا بالضبط ما الذي حدث، يردد على مسامع الآخرين ما يكون قد سمعه، ومعظمهم كان يروي القصة التالية كما جاءت في تاريخ الطبري، محرفة أحياناً وأحياناً بدون تحريف: « إن بطنصَّر قد مرَّ، وهوقائد سنحريب، مع جيش عظيم مؤلف من خمسين ألف رجل، وثلاثماية قائد، وثلاثة حكماء. لقد استولى على أورشليم، وأمر جيشه بأن يذهب إلى الصحراء، وكل واحد من أفراده مزود بكيس كبير، كي يملأوا هذه الأكياس تراباً ويرموا بمحتوياتها على أورشليم فيطمروها كلياً ».

في طريق عودته، فكر نبوخذنصر بأن هذه الرحلة الطويلة، التي قدَّر بأنها لن تتكرر، استطاعت على الأقل أن تحوِّل لبعض الوقت نحو بابل، قسماً من التجارة الهندية التي كانت تمرّ حتى ذلك الوقت عبر مملكة سبأ، كما استطاعت القضاء على النفوذ الفينيقي في بلاد العرب.

لكنه، كي يحقق النجاح الكامل والدائم والمفيد، عليه أن يصبح سيد مصر، لا سيد الموانىء المصرية على البحر الأحمر وحسب، حيث الفينيقيون هم أرباب السفن هناك. وعليه الاستيلاء أيضاً على موانىء الدولة وتدمير مدينة صور إلى الأبد!

وبينما هو سائر ومستغرق في تفكيره وأحلامه، جارّاً وراءه قبائل وأمراء من الحجاز، مثل أمامه ساعي البريد القادم لتوّه من بابل، وأبلغه كلمة الرب الأخيرة إلى النبي حزقيال، وهذا ما جاء فيها: « ها أنذا أجلب على صور من الشمال نبوخذنصر، ملك بابل وملك الملوك، بخيل وعجلات وفرسان وجمع وشعب كثير، فيدمرون أسوار صور ويهدمون بروجها ويجعلونها صخراً عارياً، فتصير منبسطاً للشباك في وسط البحر ونهباً للأمم ».

*

من خلال الجذور العملاقة لأرز لبنان، لمح نبوخذنصر بحر الغروب بمناظره البراقة، وأضوائه وألوانه السحرية. وبدت صور في قسميها البري والبحري، وضمن أسوارها الثلاثة، وقد فقدت كل انعكاس لها على المياه الساكنة سوى انعكاس الخراب والدمار الذي يمثل منظر الموت والكآبة والشقاء. فالمدافعون الأواخر عن المدينة المتغطرسة ببسالة عزَّ نظيرها، لم يعودوا يسيطرون سوى على القلعة البحرية، التي منها، كان قد انقضى عليهم ثلاث عشرة سنة وهم يتصدون لجيش نبوخذنصر المخيم تحت أسوارها!

وقد برزت هذه القلعة في المياه كأنها نجمة بحرية هائلة، تستمد نورها من شعاع وحيد على الشاطىء. فليلاً نهاراً، كانت تكللها بالأضواء الألسنة النارية المتصاعدة من مجمرة هيكل ميلكرت، حيث كانت تلقى المواليد الجديدة كذبيحة للإله المذكور، ومن مجمرة قصر إيتو بعل، ملك المدينة.

وبعيداً عنها، كان الأسطول الحربي ينتظر هبوط الليل كي يزود المحاصرين بالمؤن. وقد عرف نبوخذنصر من اللون الوردي لكتان الأشرعة، سفن الأسطول الفينيقي، ومن اللون الأبيض لهذه الأشرعة، سفن الأسطول المصري، الحليف الأمين لـ «سيدة البحار!».

وبالنسبة لنبوخذنصر، كانت صور هي العدوة اللدودة، المتغطرسة والمستعصية! فقد قاومت قبله شلمنصَّر، وانتصرت على نينوى. ومع أنها خضعت لسيطرة سرجون وسنحريب وأشوربنيبال، إلا أنها كانت دائماً تسترجع استقلالها وتعيد بناء ثرواتها.

فالصوريون هم مغامرون لا مثيل لهم، وقد حملتهم مغامراتهم على تأسيس صور ثانية على سواحل مجهولة غربي القارة المصرية، هي قرطاجة التي منها اجتازوا البحر واستعمروا بلداً آخر كانوا منه يأخذون القصدير[1]، ثم

---

(١) من المرجح أنه إسبانيا التي كان اسمها يومذاك تارسيس.

يخوضون غمار محيط مجهول باتجاه الشمال، قاصدين بلداً مليئاً بالضباب، هو انكلترا الحالية.

وعبر شعبة بحرية، بلغ الصوريون شواطىء مجهولة، ومنها قادهم أحد الأنهر إلى مدينة أليزية في فرنسا، حيث ساروا بمحاذاة نهر آخر، هو نهر رودانوس الذي أوصلهم إلى بحر المغرب، فأسسوا عند مصبه مرفأ، هو مرفأ مرسيليا.

وفي كل مكان، تركوا بصماتهم وأقاموا وكالات تجارية، بعد أن غدت صور المدينة الأكثر غنى والأكثر مهارة، إذ خاضت سفنها كل البحور، وجاءت إليها كل شعوب العالم بقصد المتاجرة معها.

أوَلم يكن أيضاً، قد شهد الكل منذ عهد قريب، لهؤلاء الصوريين بالشجاعة والريادة في اقتحام المحيطات، وسعياً وراء اكتشاف القارات في الطرف الجنوبي من الكرة الأرضية دون اجتياز بحر المشرق؟

لقد دامت رحلتهم هذه ثلاث سنوات، لأنهم كانوا يتوقفون في نهاية فصل الصيف من كل سنة، لتمضية فصل الشتاء على الشواطىء، وكانوا يزرعون القمح على الشواطىء التي ينزلونها، وينتظرون موسم الحصاد ليتزودوا بالمؤن مجدداً، قبل أن يعودوا إلى البحر ثانية.

ولكن مهما يكن من أمر شجاعتهم، فإن ما أوحى به يهوه إلى النبي حزقيال، سيتحقق:

« ها أنذا أجلب عليك يا صور نبوخذنصر ملك بابل من الشمال، ملك الملوك. وينزل جميع رؤساء البحر عن عروشهم ويجلسون على الأرض ويرتعدون كل لحظة ويدهشون عليك. ويُشيدون عليك بالرثاء ويقولون لك: كيف هلكت أيتها المعمورة من البحار، المدينة الموصوفة التي كانت ذات قوة في البحر! ».

أصدر نبوخذنصر أوامره إلى جيشه كي يحاول اقتحام القلعة مهما كلّف الأمر. فقام البابليون بأعنف هجوم، ودام اشتباكهم مع المدافعين عن القلعة عدة أيام، غدا البحر خلالها ركاماً من الجثث العائمة بين ألوف من الأشلاء المبعثرة! وأسوار القلعة التي اقتحمها جيش نبوخذنصر بدفقات متواصلة من المقاتلين، غدت بين الدخان والشرر المتطاير كأنها مدرّج متهدِّم فائق الحد. وذات مساء، وفوق البحر المصبوغ بالدم، تصاعدت ضجة هائلة طغت على أنين الجرحى وحشرجات المحتضرين. إنها صيحات الفرح التي أطلقها المنتصرون بعد أن نجحوا في تسلق الأسوار ودخول القلعة، فسقطت صور مغلوبة على أمرها!

وبعد عدة أيام، وقف نبوخذنصر على أنقاض مدينة صور البرية عند شاطىء البحر، ليستعرض جيشاً لا نهاية له من الأسرى الذين نجوا من الذبح والقتل: «أولئك الذين كان كل حجر كريم كساءً لهم، من الياقوت الأحمر، والياقوت الأصفر، والماس، والزبرجد، والجزع، واليشب، واللازورد، والبهرمان، وعلى شرفهم كانوا يقرعون الطبول وينفخون في المزامير». هؤلاء لم يعودوا سوى جماعة متضورة جوعاً ترتدي الأسمال، وعلى رأسها رجل يتعثر بسلاسله وقيوده ولم يبق منه سوى قامة عالية دامية، بعد أن فقد وجهه كل ملامح الإنسانية: إنه الملك إيتو بعل، الذي صمد في وجه المحاصرين ثلاث عشرة سنة، وقد سار وراءه بعض خدم بلاطه، وبعض المحاربين بهيئة الوحوش المرتعبة عندما تسقط في الفخاخ...

إيتو بعل هذا، وأمراء، ومحاربون، ونبلاء، كلهم كانوا في الطريق إلى السجون البابلية، بعد أن دُكّت صور وأصبح البحر أخيراً تحت السيادة البابلية!

*

بعد سقوط صور، ما الذي يطمح إليه نبوخذنصر بعد؟ ألم يتوصل إلى إحكام قبضة الأمبراطورية البابلية على بحر المشرق وبحر المغرب على السواء؟

لا، فهناك قارة أيضاً ما زالت تعترض سبيله، هي تلك التي استطاع الأشوريون فتحها. وهذه القارة، كانت تستهويه أكثر من كل فتوحاته، لأنه قد اضطر إلى التوقف أمامها وهو في العشرين من عمره، عندما بلغه خبر وفاة والده نبوبولاصر، فاضطرَّ أن يعود إلى بابل ليخلفه على العرش، قبل أن يغتصبه أخوه. إنها أفريقيا، مع تلك المصر التي اكتشفها دائماً وراء مؤامرات ودسائس أعدائه.

ولكن، أليست المغامرة شاقة وصعبة؟ إن الملك بات يشعر بالشيخوخة! فهو في السنة السابعة والثلاثين من ملكه. وفي السنة الواحدة والستين من عمره. لكن قلبه ما زال فتياً، وما زالت نفسه على كبريائها. لذا، وتلبية لأمره، زحفت جيوشه الظافرة ذات صباح مشرق من العام ٥٦٨ قبل المسيح نحو الجنوب، لتنضم إلى الجيش الذي مضى عليه سنتان وهو يحارب في مصر، وقد أشبعها سلباً ونهباً وتخريباً وتدميراً حتى قلعة أسوان، وحتى الحدود الإيثيوبية.

وقبل أن يلحق بجيشه، صعد نبوخذنصر إلى هيكل مردوك كي يستشير الإله، سيده، بشأن هذه الحملة ومقدار حظه بالنجاح. فمع مرور السنين، باتت جرأته أقلَّ اندفاعاً، وأصبح ميالاً إلى الاعتماد على ظواهر الإرادة الإلهية. وأمام التمثال الذهبي الكبير للإله، مُدَّت على طاولة ذهبية نعجة مذبوحة. وحمل الكاهن العراف موقداً، ووضع على منضدة صغيرة أربعة آنية مليئة بالسمسم، وثلاث دزينات من الأرغفة، ومزيجاً من السمن والعسل، وأخيراً كمية من الملح.

وبعد أن ألقى الكاهن في الموقد قليلاً من الزُنْجَفر، قال:

« لقد أُلقى الزنجفر في اللهب، فإذا احترق، يكون الفأل سعيداً، وإذا تفلَّت من اللهب، يكون الفأل سيئاً ».

ثم دمدم العراف مخاطباً اللهب الذي ارتفعت ألسنته النيرة، مؤكدة النوايا الموافقة لمردوك:

« أنت العليم بكل ما سيحدث، الذي يحدد المصائر والأقدار ».

بعد ذلك استفهم من نبوخذنصر عما يتمناه، وذهب به إلى قرب النعجة المذبوحة، وقال: « باستطاعة هذه الذبيحة في الصباح، أن تكون مقبولة ومستحبة من الألوهية الجليلة، بدافع فضيلة هذه النعجة المؤلفة من لحم وأشكال كاملة ».

وأغاص العراف يده في أحشاء الحيوان وسحب كبده. ثم أخذ يتفحصه بانتباه، بينما كان نبوخذنصر ينتظر الفأل قلقاً. ومن شدة قلقه، لم يشعر حتى بالدم الساخن الذي لامس رجليه، بعد أن اتسعت رقعة دم الضحية على البلاط !

ولما بدا على الكاهن العراف أنه «غير واثق من الجواب الإلهي، مع أن الإله قد أظهر إيجابية جيدة، لكنه لم يَعِدْ بالنصر الحاسم»، عيل صبر نبوخذنصر. فأنَّب الكاهن بصوت أصمّ وغاضب، مما جعل هذا الأخير يتناول قليلاً من زيت السمسم، وقطرة قطرة، أخذ يسكب هذا الزيت في قدح عريض وقليل العمق مملوءٍ بالماء، فانبسط الزيت على سطح الماء وشكّل دائرة منتظمة ومتماسكة، فصاح الكاهن: «نصر! نصر!». وفيما بقي هذا الأخير ساجداً أمام مردوك، وثب نبوخذنصر إلى عربته كي يلتحق بجيوشه. وقد أثار صوت الكاهن وحركته الحماسة لديه، فأطلق العنان لجياده السورية كي تعدو بأقصى سرعتها. وقد زاد في حماسته، خادمه آسبيناز الجالس إلى جانبه، عندما قدَّم له ألف دليل آخر على أن الآلهة معه وأن النصر سيكون حليفه.

وبلغه في العشية، أنه في شارع مجاور للقصر الملكي، وُلد طفل بشعور بيضاء، مما يؤكد بأن شيخوخة الملك ستكون شيخوخة سعيدة. كذلك أبصر النور ولد آخر، في شارع مجاور، وكانت أسنانه ثابتة، مما يثبت للملك بأن ليس فقط سيعيش عمراً مديداً، بل أيضاً ستكون بلاده هي الأقوى بين كل البلدان الأجنبية. وأخيراً في حي ميركاز الأرستقراطي، ولد طفل بلحية مسترسلة، وهذا دليل لا يقبل الشك على هبوط الأمطار الغزيرة. فضلاً عن ذلك، فإن فم الطفل

الذي كان شبيهاً بفم رجل شيخ، هو دليل قاطع على الرفاهية والازدهار: « إن الإله سِن، سيهب بابل موسم حصاد عظيم، وسيجعل البحبوحة والرخاء يعمان البلد ».

وفي الأكواخ القائمة على أطراف بساتين النخل في مدينة الحلة، أكّد سكان هذه الأكواخ إلى آسبيناز، أن فرساً قد ولدت مهراً له رأس أسد! وهذا فأل لا يقبل الشك، بأن البلد ستزداد رقعته اتساعاً.

استمرّ نبوخذنصر يستعجل جياده في الجري وقلبه مفعم بالفرح، خاصة على طريق أورشليم وعبر كثبان الرمل المقفرة على طول شاطىء البحر حتى غزة، لأنه كان واثقاً من النصر كل الثقة. فمصر أصبحت من الضعف بمكان بعدأن تحولت غزوة الفرعون آبرياس في القيروان إلى كارثة، وهو الفرعون الذي لم يتردد مع ذلك في قبول لقب «الأكثر سعادة بين الملوك الذين حكموا قبله». لكن التمرد في صفوف جنوده، أجبره على التنازل عن العرش إلى آماسيس، فأعقب ذلك اضطرابات داخلية مخيفة، أدت إلى انقسامات في قوى المملكة عوضاً عن توحيدها.

فوجد نبوخذنصر أن الفرصة جدُّ مؤاتية للانقضاض على فريسته بسهولة، وتدفيع مصر ثمن مؤامراتها ضدَّ السيطرة البابلية على سوريا وفلسطين، والقضاء لمدة طويلة على كل مطمح لدى الفرعون، بالقضاء على قوته ومنعه من أن يلعب أي دور في السياسة الخارجية.

ولما كان آماسيس عاجزاً عن مقاومة القوات البابلية بقواته البلدية، فقد استعان بالمرتزقة اليونانيين الذين لم يكن لديه من عون سواهم. لكن هؤلاء المرتزقة، كانوا في الغالب عوناً لأعدائه عليه!

وكما أن الفرعون ضمن لنفسه المساعدة من مرتزقة يونانيين يشكلون وحدة عسكرية هامة، فإن نبلاء جزيرة ليسبوس اليونانية بقيادة أنتيمينيذس، شقيق الشاعر ألكيا، والمزُاحم لبيتاكوس، جاؤوا للانضمام إلى الجيش البابلي.

التحق نبوخذنصر بجيوشه أمام مدينة بيلوز التي، مع قلعتي مِجْدول وتحفنحيس، تغلق مدخل مصر من جهة سوريا على ضفاف النهر المقدس. وكان كل شيء واضحاً ومجمداً تحت فيض من النور الذي جعله غبار الرمول الناعمة أكمد اللون، مما غيَّر الأشكال وجعل خيام جيشه المنتصبة على مسافة شاسعة من الأرض الجرداء تبدو في عيني نبوخذنصر كأنها أهرامات لا عدّ لها ولا حصر!

وفوق نهر العريش ومستنقعاته الكثيرة، كانت بيلوز وراء سورها المبني من الحجارة الوردية اللون، تراقب ساهرة، وهي قلقة جزعة. وعندما سمع نبوخذنصر الأصوات اليائسة للأبواق الطويلة، أمر الأبواق البابلية بأن تردّ عليها بإعطاء إشارة الهجوم: «هلاّلي مصر».

وبعد أن سقطت بيلوز، وقف نبوخذنصر حائراً ومتردداً أمام الطريق التي عليه أن يسلكها لمتابعة زحفه. لكنه بعد أن احتكم إلى إله اليهود، إلى ذلك اليهوه الذي قاد خطواته باستمرار في حروبه، اتجه عبر ذلك البلد الشهيّ الذي جعلته متفرعات النيل بلداً خصباً، إلى مدينة تحفنحيس، حيث التجأ النبي إرميا بعد مقتل حاكمها غوديا، هو وكل الجالية اليهودية التي طردها نبوخذنصر من أورشليم، بانتظار حلول ساعة الانتقام منه.

والنبي الشيخ المستشاط غيظاً أمام الهياكل الجميلة لـ «عشتروت ملكة السموات»، التي انتزعت منه عدداً من تلاميذه ومريديه، ألم ينبىء الفرعون بصوت قوي، كما فعل حزقيال، عن قدوم نبوخذنصر، سيف يهوه؟

لقد روى جندي فارّ من تحفنحيس بأنه على المصطبة، أمام القصر الملكي، جمع النبي اليهودي قرميدات كبيرة وأعلن بواسطتها أن عرشاً سيُنصب لملك بابل، بعد أن يكون قد اقتصَّ من مصر: «ها أنذا استدعي ملك بابل نبوخذنصر، عبدي... فالذين هم للموت، موتاً سيموتون! والذين هم للسبي، سبياً سيسبون! والذين هم للسيف، بالسيف سيؤخذون!».

جيَّش نبوخذنصر كل قواه على تحفنحيس، المدينة الهامة، حيث قصر الفرعون القرميدي الفخيم يرتفع وسط معسكر جنوده الأيونيين. وقبل المعركة التي ستقرر مصير هذه الحرب، استولى القلق على نبوخذنصر، عندما تساءل: ألن يتبرأ يهوه الذي دمَّر هيكله في أورشليم، من نبيِّه إرميا، فيتخلى عنه وينتقم منه؟ ألم يجتذبه إلى مأزق حرج ؟

ثم استدعى كاتبه وأملى عليه هذا الابتهال الحارّ إلى الإلهة غولا:

« إيه غولا، أيتها الإلهة التي تقضي على أعدائي،
التي تفرح قلبي على حساب الذين أحاربهم،
والتي تهب يديَّ الغنائم، ثم تمنحني الراحة،
عظِّمي شهرة مملكتي!

فوق كل الملوك، اجعلي بسالتها وشجاعتها!
احفظي ملكها، واعطفي على جنوده!
ومن ذاك الذي هو عدوه، اقتربي،
واقبضي عليه. إيه أيتها الإلهة غولا ! ».

ومرة جديدة توَّج النصر البيارق البابلية بالغار، وأتاح لنبوخذنصر بأن «ينصب خيمته الملكية في الفناء القرميدي الذي كان مدخلاً لقصر آماسيس، هذا الفناء الذي اكتشف من قبل فلندرز في العام ١٨٨٦ ».

وبعد جولة سريعة ومشهورة في مصر التي كانت تتخبط في أسوأ اضطرابات داخلية، بعد أن توفي الفرعون آماسيس وحلَّ محله على العرش أبرياس، أملى نبوخذنصر هذه الكتابة الانتصارية التي تضع نهاية للحرب:

« في السنة السابعة والثلاثين لملكه، نبوخذنصر، ملك بابل، ذهب إلى مصر بقصد الحرب.

« آماسيس، ملك مصر، جيَّش جيوشه. . .

« وهبٌ لنجدته «كو» من مدينة «بوتو ـ جافان. . . »

« مع العديد من الجيوش والجياد التابعة لأقاليم مصر البعيدة عن وسط البحر.

« لكن نبوخذنصر، لم يقف أمامهم متمهلاً. بل تصرف واثقاً من آلهته.

« فسحقهم. . . وأبادهم. . . وأزالهم من الوجود. . . ».

إثر هذا الانتصار الساحق الذي حقق به نبوخذنصر أحلام شبابه كافة، بجعل بلاد العرب، ومصر، واليهودية، وسوريا، وفينيقيا، والبحار، والمرافىء، وتجارة القوافل، تحت السيطرة البابلية، قفل عائداً إلى عاصمة مملكته وكله فخر واعتزاز بما حققه لبابل من أمجاد ولشعبه من ثروات، تاركاً وراءه «بابل المصرية» التي بناها جنوده على دلتا نهر النيل.

وكأنه في العشرين من عمره، ترك الملك الشيخ طريق القوافل والجيوش، وانطلق في عربته كالسهم نحو بابل عبر الصحراء السورية، معتبراً أن ساعة تأليهه قد حانت. فالتقليد والشريعة يسمحان له، منذ وقت طويل، بأن يدعي الألوهية كما سبق لأجداده كلهم أن فعلوا.

لكنه هو، شاء قبل الألوهية أن ينجز عمله البشري على أكمل وجه، حتى إذا ما أصبح حلمه العظيم واقعاً ملموساً، آمن كل البابليين بأن ما حققه ملكهم هو معجزة لا يستطيع تحقيقها إلا من كان إلهاً، فجاءت ألوهيته أقوى رسوخاً في ذهن الشعب وإيمانه، وبدت له كأنها الضريبة العادلة لقاء الثروات التي تدفقت عليه والرفاهية التي بات ينعم فيها. فالبابليون ليسوا كاليهود المجانين، الذين يعبدون إلهاً على أنقاض هيكلهم!

إن نبوخذنصر الآن، بعد أن جعل من بابل سيدة العالم، سيكون بالنسبة لرعاياه، الإله الأكبر، والأكثر عبادة. فضلاً عن ذلك، فإن الشعب، وكما حدث في عهد حمورابي العظيم، لم ينتظر ارتفاع تمثاله الإلهي، كي ينادي أولاده الذكور: بنو ـ كور ـ إيزور ـ إيلو، الذي معناه: «نبوخذنصر هو إله»، أو

نبـوكـودور ـ إيـزور ـ شمشـي، الـذي معنـاه: «نبـوخـذنصـر هـو شمسـي»، أو نابوش ـ باني، الذي معناه: «نبوخذنصر هو خالقي».

وعندما أصبح التمثال معروضاً لعبادة أتباعه، فرض التقليد هذه العبادة فرضاً على الجميع. فحتى قبل السلالات البابلية، ألّه ملوك مملكة سومر الفخورون أنفسهم. فغوديا، ملك لجش، ارتفع تمثاله المصنوع من الصخر البركاني المتبلّر في الإينيُّو، هيكله المحبوب، ودرجت العادة منذ ألفي سنة، أن يخصص شهر كل سنة لتبخيره، وتقديم التضحيات له، وإنشاء الأناشيد التي تسبح بمجده.

وبعد سرجون، أحد خلفائه المدعو «نارام ـ سين»، أصبح «إله آكاد» و «إله بلده». وعلى المسلة التي تخلد انتصاراته، يبدو وعلى رأسه التاج المقرن، الذي سماه آغوم ـ كاكريمي، ملك الكسيين، « تاج السيادة ذو الخاصة الإلهية ».

وأخيراً حمورابي العظيم، بعد أن أعلن شريعة بابل، قنّن التقليد القديم، واتخذ لنفسه لقب «إله الملوك، إيلو سارّي».

والطغاة الآشوريون أنفسهم، خاصة أشوربنيبال، استمروا على هذه العادة وأقاموا لأنفسهم التماثيل الذهبية الضخمة.

لكن تمثال نبوخذنصر، كان أضخم تمثال رأته عين! إذ بلغ علوه ستين ذراعاً، وعرضه ستة أذرع، واستعمل لصنعه، على الأقل، مئة وأربعون ألف كيلو من الذهب... ونبوخذنصر يتذكر الشكوى التي حملها إليه ساعي البريد، عندما كان في الجليل قبل سنة، وتتلخص هذه الشكوى في أن اثنين من موظفيه قد اختلسوا الذهب المخصص لصنع تمثاله:

« إلى الملك سيدي، من خادمك آراب نابو، السلام على سيدي الملك.

« ليمنح شمش، وزاربانيت، ونابو، وتاسميت، وعشتار، الآلهة القديرون وكبار حماة المملكة، ليمنحوا حياة الملك مئة سنة، ويكثروا عبيد وأولاد الملك، سيدي !

« إن الذهب الذي دفعته في شهر تشرين إلى المستشار الخاص (توكولوف) وإلى مدير القصر (آها - هيكال)، ثلاث تالانات من الذهب الخالص، ثم أربعة تالانات من الذهب الخالص، سُلِّمت يداً بيد إلى «راب - دانينو». هذا الذهب هو من أجل صنع تمثال للملك (وأم الملك)، لم يسلَّم إلى العمال. ليصدر الملك أمره إلى المستشار الخاص وإلى مدير القصر برد الذهب، وإعطائه إلى الجنود في مدة شهر من الآن كي يتصرف به هؤلاء الجنود كما يجب تماماً » .

فكان جزاء الموظفين أن رفعا على خازوقين. وتمَّ صنع التمثال ليرفع على ربوة دورا الصغيرة، الواقعة جنوبي بابل، والمشرفة على كل سهول بلاد ما بين النهرين، وذلك أمام الملوك والأمراء الذين هزمهم نبوخذنصر، والذين يعيشون في بابل عيشة الذل والعبودية، وهم: ملوك وأمراء صور، واليهودية، والحجاز، ومصر، وعيلام.

كان نبوخذنصر يقطع بعربته عدواً الصحراء السورية، وقد بدا كالهالة وسط الغبار الرملي الذهبي اللون. ومع هذا، فقد سبقته شهرته إلى بابل بواسطة مئة فم، أخذت تزعق وتصيح معلنة انتصاراته !

وفجأة، تغيَّر المنظر القاحل وأطلت عليه الطبيعة بحلاوتها المغمورة بنور أكثر شفافية، وتلاحقت عند نهاية الرمول البراري الشاسعة وغير المحدودة، المزخرفة بالأزهار والبهيجة بالمياه الجارية.

وعلى امتداد السهل الوافر الخيرات، كانت الحياة في حركة دائمة: هنا الفلاحون حانون على الأرض الخصبة، وهناك الخراف الملتفة على بعضها البعض في صفوف متراصة، وهنالك مواكب الماشية تسير إلى المراعي... فأوقف نبوخذنصر عربته مأخوذاً بهذه المشاهد التي تدل على ثراء مملكته. ولكن

هناك، في البعيد، في لانهاية الشعير الأخضر، من تكون هذه الأجسام القاتمة والمتحركة، التي تسير من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، متجهة نحو بابل؟ إنها كل الأقطاب، والولاة، والحكام، والقضاة، والخُزّان، والفقهاء، والمُفتون، وسائر أمراء أقاليم الإمبراطورية، الذين جاؤوا بدعوة من بعل زونوكوم، لتدشين التمثال الإلهي للملك نبوخذنصر.

فتحت الشمس المحرقة التي تلهب السهل، وفي مواجهة الملك المبهور، كان هناك نبوخذنصر آخر من ذهب، يتألق متوهجاً في الأفق. . . وأمام التمثال، ازدحمت جماهير لا تحصى من الشعب، لتقف صامتة مشدوهة، فيما كانت أبواب المدينة تخترقها كل لحظة، جماهير أخرى صاخبة وفوضوية، قاصدة التمثال الإلهي.

ودفعة واحدة، ومن كل الهياكل والمعابد، خرجت عربات يحملها على الأكتاف كهنة، وفوقها مظلات تظلل كل آلهة بابل، وفي طليعتها بعل ومردوك. فقد جاءت هذه الآلهة للاشتراك في إجلال نبوخذنصر وتكريس مجده وألوهيته!

وفيما كان نبوخذنصر يتقدم، انطلق الهتاف المدوي من ألوف الأفواه العابدة، فملأ السهل وشقّ عنان السماء:

« في عهد الملك، إلهي، العجَّز يقفزون، والأولاد يغنون، والبنات يتهللن فرحاً، والنساء في نشوة وسرور، يلدن صبياناً وبناتاً. أولئك الذين كانوا مرضى منذ أيام عديدة يشفون، والجياع يشبعون، والضامرون يسمنون ».

وفيما كان دخان البخور يتصاعد نحو السماء الصافية، كان دم الأضاحي ينساب على الطاولات الذهبية، وهتافات الشعب تدوّي كأنها العواصف في بحر الشرق: « ما لم يُعمل في السماوات، عمله الملك سيدي على الأرض، ونحن شاهدناه! ».

وأمام التمثال خرت الجموع ساجدة على الأرض. والنساء المحملقات في التمثال الذهبي الضخم، بسطن أذرعهن نحوه بمواليدهن الجديدة، صائحات

بأسماء ثمرات أحشائهن: نبوكودور ـ أوصور ـ إيلو (نبوخذنصر هو إله) نبوكودونوزور ـ شمشي (نبوخذنصر هو شمسي) نبوكودونوزور ـ باني (نبوخذنصر هو خالقي).

*

ها هو الإله نبوخذنصر وحده الآن على شرفة قصره، يسبح بنظره إلى ما وراء الأفق، فيرى حول بابل التي أصبحت مقره المركزي، عالماً يعيش ليعبده، بعد أن أصبحت بابل كالأخطبوط الهائل الذي يبسط مجاسّه على الأرض كلها! فعلى الطريق الشمالية، يمتد شريط قوافله التجارية متحركاً باتجاه أكبتانة عاصمة منافسته ميدية. ومن هناك، يسلك الممرات الجبلية الضيقة لمدينة قزوين، إلى أن يبلغ الإسكندرية الآسيوية، حيث تفترق القوافل التجارية، ليذهب البعض منها نحو بكتريس، والبعض الآخر نحو الهند، بلد الخيرات والثروات. فيغزو قسم من التجار البابليين مدن البنغال وتكسلا في الشرق، وقسم آخر يتوغل جنوباً حتى ملتقى نهر الغانج في باليبوترا، فبكتريانة وحدود نهر «سير ـ داريا».

وفي الغرب، كان شريط آخر من القوافل التجارية يتحرك باتجاه البحر الأبيض المتوسط، فيسير مستقيماً باتجاه الشمال على طول نهر الفرات حتى أنتيميرنا، حيث يصبح عدد القوافل كبيراً لدرجة لم تشهده المنطقة من قبل. وبما أن بلاد العرب قد غدت مدمرة كلياً، كان على هذه القوافل أن تنحرف إلى الغرب متشعبة عبر طرقات ضيقة، تخترق بلاد الفينيقيين، فالإسرائيليين، فالمؤابيين، هبوطاً حتى مدينة بيلوز المصرية، ناقلة إلى هذه الأقطار فيضاً من الثروات البابلية.

وفي الشمال أخيراً، تقود طريق حديثة قوافل الجمال والجياد المحملة بثروات الهند التي أخذت تتدفق على كل البلاد البابلية، نحو سوسة وسوريا. ثم تجتاز هذه القوافل قيليقية وفريجية كي تصل إلى سرديس، حيث أولئك اليونانيون المدهشون، المتبجحون والمهرجون!

بالإضافة إلى ذلك، إن بابل تتصرف الآن بشواطىء ومرافىء على كل البحور التي كانت تمخرها قبلاً سفن عدوة. وقد غدت المرافىء الكلدانية مزدهرة بعد أن دُمِّرت المرافىء الفينيقية والمصرية. أما مرافىء البحر الأحمر ومرافىء بلاد العرب، فإن الذكرى الوحيدة التي عاد بها عنها نبوخذنصر بعد حملته المظفرة، هي أن هذه المرافىء قد أصبحت مهجورة إلى الأبد، وأن الحياة إذا ما دبَّت فيها بين الفينة والفينة، فبإذن منه ومن أجل حاجاته فقط!

بعد أن أمضى نبوخذنصر وقتاً ليس بقصير على شرفة قصره، بالكاد استطاع معه أن يتذكر الحدود المتحركة لأمبراطوريته، وبعد أن تعبت عيناه من التطلع إلى البعيد، عادت نظراته فانحسرت لتصب على عاصمته المنبسطة بجلال وعظمة، بين أسوارها الهائلة التي تتحدى كل الهجمات، فيما كانت الشمس تلملم آخر خيوطها الذهبية عن القصور، وقباب الذهب، والفضة، والنحاس، التي تعلو معابدها الأربعة والخمسين، تلك المعابد التي شيَّدها نبوخذنصر لكل الآلهة التي تنتسب إلى إلهه الأوحد بعل وابنه مردوك، حاميين مملكته، واللذين لمجدهما ارتفعت الزاكورتان الرائعتان بأبراجهما الضاربة نحو السماء، والمتألقة شرفاتها بالبديع من الألوان المتراوحة بين الأسود، والأبيض، والأرجواني، والأزرق، والقرمزي، والفضي، والذهبي!

وعندما أصبحت الشمس في مستوى الأفق، بدت قرصاً أرجوانياً هائلاً أخذ يذوب بروعة وفتنة وسط فيض من نور كأنه وهج الجمر وتألق البنفسج... فانتصب الملك بزهو وكبرياء، وصاح بصوت انبثق من أعماق قلبه:

« أليست هذه بابل العظمى التي بنيتها أنا كمقر لملكي بقوة عزتي وبهاء مجدي! ».

وما أن توارت الشمس وراء الأفق، حتى ارتعش نبوخذنصر... إذ أظلم كل شيء أمامه، وغمر مدينته ومملكته غبار رمادي اللون، جعل الجو مكفهراً!

الشمس الإله!

عند خيوط الفجر الأولى من ذلك الليل، بدا الجو مغبرّاً حال دون إدراك الأفق. وبدا معه الريف منبسطاً كئيباً كأنه مرآة خلا ظهرها من القصدير، تنعكس عليها مناظر لا جاذبية فيها ولا سحر. فالطرقات المعقودة فوقها حلقات الغبار، ظهرت بتعرجاتها كأن نزوة البشر والحيوانات وحدها هي التي خطتها. إذ إن هذه التعرجات غير مبررة بأية عقبة ولا بأي هدف، سوى الأوهام ربما، أو الحاجة إلى قتل الضجر بالتحايل على رتابة الطبيعة المملة.

وبدت مياه الفرات المتفلتة من الضفاف والسدود والمنبسطة بغزارة، كأنها سماط غرينيٌّ لا حدود له فوق أرض عارية: سماط من المياه الراكدة والخالية من أي بريق، والتي، مع هذا، كانت تهب الحياة لكل البلاد البابلية، وتجعل أرضها خصبة معطاء!

على إحدى هذه الطرق، كان يسير رجلان: الأول هو جيميل ـ مردوك، وزير نبوخذنصر، والثاني هو خادمه وكاتبه. وكان هذان الرجلان في العتمة التي طال أمدها، يتبادلان الحديث ويتناقشان بحدة. لكن اللهجة الحادة في نقاشهما، لم يكن لها أي صدى في ذلك المدى غير المحدود، فبقيت مجرد حركات غامضة وآراء غير واضحة.

وفجأة، أطلت الشمس، وتألق شمش في أول القبة السماوية. وعلى الطريق التي شقها مردوك، أخذ ذلك الإله يتدرج مرتفعاً ليبلغ أوج مجده عند الظهيرة. ومع تألق شمش، فاض السهل بالنور، وانجلى خط الأفق واضحاً بلونه الأرجواني، وبسطت الطرق أقواس تعرجاتها الشاردة. وحول النهر، حيث

مجراه أكثر انضباطاً، رسمت سواقي المياه الجارية شبكة من الجداول الفضية، التي نمت عالية حولها الأعشاب المتماوجة مع هبات النسيم الصباحية، وقد شقت عبرها الأرانب والغزلان وحمير الوحش الهاربة، ممرات عريضة قليلة الضوء، وانتصبت أكواخ القصب المجدول بسقوفها المصنوعة على شكل قوس قوطية، وأخذت الماعز تنطلق منها لتتشتت وتتفرق، فيما الكلاب تلاحقها بنباحها.

لم يتأثر المسافران بمشاهد الحياة الريفية، بل استمرا يحثان الخطى في طريقهما التي اتسعت وازدحمت بالناس والحيوانات، مما أدّى إلى عرقلة السير عليها، فيما كان النمل يطن، والشمس تبعث الدفء في الأرض الطينية، دون أن تلهبها بأشعتها الحادة.

وكان هناك، في البعيد، قد ارتفع سور بلون الرغام فوق السهل، فشكّل مصطبة هائلة يتراوح علوها بين الستة والعشرة أمتار، وذلك لمقاومة فيضانات النهر. هذا السور «الأبدي» (أول ـ رو ـ آ) المبني بالقرميد المشوي، والمقوّى بالأبراج المربعة، قد أحاط وأشرف بشرفاته الرتيبة كأنها التطواف المقدس، على مدينة سيبار، مقر الإله شمش، التي قدمت كل ما عندها إلى سيدها. وسيبار، «مدينة السهل الشمسي الكبير»، إثباتاً لما ترمز إليه، قد ارتفعت متوهجة فوق بادية من الرمل الأحمر والمياه الأرجوانية.

فما أن وصلها جيميل مردوك وخادمه، حتى خرّا ساجدين على الأرض تسبيحاً منهما لبابار شمش، «ضوء الآلهة، آبائه»، المتوهج وراء المدينة الملتهبة بأشعته، والذي يدفع بعنف، على سلسلة الجبال التي تحيط بالعالم، عربته المعتولة بالحمير الوحشية التي لم تعرف عراقيبها الوهن إطلاقاً!

فوق القنوات العديدة التي تطوق المدينة، تصاعد نحو السماء بخار خفيف كأنه تموجات لطيفة من البخور، تسبيحاً لسيد الأرض والمدينة والمياه، الإله

شمش، «قاضي البلد وحَكَم شرائعه الذي، مع الضوء والحرارة النافعين، ينشر الحقيقة ويوزع العدل على أوسع نطاق»، وأخذ المجتمعون يحيونه بهذا النشيد:

« أيها الشمس المنتصب على أُسِّ السماوات، أنت من يرتج المزاليج التي تغلق السماوات المتلألئة، وأنت من يفتح أبواب السماوات !».

ثم رفعت أشجار النخيل المزدحم فيها المكان، دفعة واحدة، سعفها نحو السماء، لتتأرجح كالمباخر على إيقاع الصلوات !

عندئذ، نهض جيميل ـ مردوك والكاتب، وتقدما من إحدى البوابات الثمانية المفتوحة في السور. وكانت هذه البوابة قد غصت بخليط من الخراف، والماعز، والحمير، والناس، وأيضاً بالعربات المثقلة بالخضار والثمار، مما سبَّب ازدحاماً لا مثيل له في مقدمة البوابة المجانبة لزوايا البرجين المنخفضين، حجبها من جهة الريف، وجعل ولوجها من المستحيل. وبلغ هذا الازدحام أشده، وأصمَّ الصخب الآذان، في الفناء الكبير المبلط الذي يسبق الممرَّ المقبب البالغ طوله سبعة وأربعين متراً، والذي هو بمثابة مدخل إلى المدينة. فاضطر جيميل ـ مردوك أن يرجع القهقرى، وأن يتبع السور الذي تعلوه الشرفات باستمرار.

وكان، فيما هو يسير، يفكر بصعوبة المهمة التي انتدبه إليها سيده. أليست سيبار أكثر المدن البابلية قدماً ؟ في حين أن الإله مردوك، إله بابل المحلي، كان يفرض نفسه كبعل الأسمى بإرادة حمورابي الذي، بفضل حمايته، دمج في مملكة واحدة وتحت المظلة البابلية، بلدي سومر وأكاد، وبقيت سيبار وفيَّة لإلهها شمش. ومنذ أكثر من عشرين قرناً، وهذا الإله يؤمن التفوق التجاري والمادي للمدينة !

عندما كلف نبوخذنصر جيميل ـ مردوك بأن يذهب ويطلب الحسابات من «سانغو ـ سيبار»، أمير المدينة، ومن «الغابو» حاكمها، لم يكن يجهل بأن

سيبار الثرية والمتغطرسة، قلقة من العظمة المتزايدة والثروات الطائلة التي حققها الملك لبابل وإلهها مردوك.

لقد كانت فخورة بوضعها المصون على الفرات، متمسكة بعبادة شمش وشرائعها الخاصة، وخصوصاً بكنوزها التي جعلت منها أهم مركز للأعمال التجارية في كل العالم القديم. وكانت دائماً تعارض بابل معارضة خفية ومتصلبة، ولا تخشى من أن تسلم نفسها إلى أعدائها بعض المرات، طمعاً بالفائدة القصوى لخزينتها. ورغبة منها في أن تبقى فوق الصراعات من أجل السيطرة الآسيوية، كانت تقرض هذه الدولة أو تلك، فتقاوم أمبريالية نبوخذنصر التوسعية، بأمبريالية مالية واقتصادية، علّمنا التاريخ المعاصر كم هي مظهر من مظاهر الترفع المخادع. ويمكننا القول أنها في وضعها مصلحتها فوق مجدها، كانت «السمسار الشريف» الذي يكافأ بسخاء على خيانات يقوم بها وكأنها مساعٍ حميدة!

توقف جيميل ـ مردوك كي يتأمل المدينة، فبدت له صغيرة بالنسبة لمكانتها ونفوذها، إذ باستطاعته أن يستعرض كل مساحتها بنظرة دائرية واحدة. ولاحظ المدينتين المتصلتين بها، تلك المخصصة لشمش، مدينة الهياكل، وتلك التي تحمل اسم عشتار، نجمة المساء التي تسبق ظهور القمر، وأيضاً نجمة الصباح التي تبشر بقدوم الشمس. هاتان المدينتان وراء السور لم يكن يسكنهما أكثر من خمسة عشر ألف نسمة. وكانت سلطة سيبار، قائمة على تقليد عمره عشرة قرون. فسابقاً، في عهد ثلاثة ملوك من السلالة البابلية الأولى التي حكمت كِلْدة لمدة ثلاث مئة وأربع سنوات، وافق الإله الشمس على أن يقدم القروض من خزينته إلى سكان سيبار، خاصة من أجل البذار أو الحصاد. «شمش، السيد العظيم في سيبار التي بعد أن كان الأعداء الشريرون قد دمروها أثناء الاضطرابات والفوضى التي عمّت آكاد، أمدّها ملك بابل بتقدماته المنتظمة، وأقام عليها عرافاً، أكوم ـ سوم ـ أوزاليزي، كاهن سيبار».

وعندما تابع المسافران سيرهما، ظهرت لهما بوابة أخرى، هي بوابة «آبولا ـ آنزاكار»، التي تحول درجاتها الإحدى عشرة دون دخول العربات والحيوانات. عند مدخل قبة هذه البوابة، يقوم على الحراسة ثوران هائلان برأسين بشريين، طول جسد كل منهما بطول الجانب الداخلي لجدار القبة، وقد وقفا في مواجهة القادمين بصدريهما العريضين. هذان الثوران هما الحارسان الصوفيان للمدينة، والمدافعان عنها ضدَّ الأعداء، وأيضاً ضدَّ المصائر السيئة والأفكار الشريرة. لقد كان رأساهما متوجين بتاجٍ السلطة الدينية ذي القوس الثقيلة، التي تخفف انحناءتها عصابة من القرميد المطليّ بالميناء، وتعلوها عفاريت مجنحة تتجابه إثنين إثنين.

انحرف جيميل ـ مردوك عن الحي الشعبي، المكون من أكواخ صغيرة مصنوعة من القصب، وبيوت واطئة مشيدة بالقرميد المشوي، تعلوها قباب مخروطية الشكل على الطريقة الآشورية القديمة. فلديه وما هو أفضل أن يعمله، حتى من التفكير بتأدية المهمة التي كلَّفه بها سيده نبوخذنصر، عليه أن يبعث بتحياته وعواطفه المشبوبة إلى محبوبته، لأنه لم يستطع أن ينتظرها في بابل ليجتمع بها. وأخذ يسير في محاذاة الأسوار من الداخل، وهو يعلم أن في ظلالها أقيمت الأنزال التي يقطنها الأغراب، كذلك الحوانيت والخمارات. ورغم الساعة المبكرة، وجد نزلاً مفتوحاً ومنه تتصاعد ضجة كبيرة، هي الوحيدة التي ميزته عن غيره من الأنزال الملزوزة إلى بعضها البعض والمتوازية السطوح، والتي لكل منها واجهة من الآجُرّ مرتفعة على عدة صفوف من القرميد.

دخل جيميل ـ مردوك ساحة كبيرة مستطيلة في وسطها بئر مظللة بشجرة جميز، وقد اجتمع حولها باعة وكتاب وأخذوا يتناقشون في أعمالهم التجارية، ويملون العقود، وينصُّون الطلبات والعرائض. وحول الغرف الصغيرة التي تتألف منها طبقات النزل كانت حركة الذاهبين والقادمين على أشدها، وقد جاء هؤلاء الضيوف لمعالجة أوضاعهم مع الإله شمش وكهنته فيما يتعلق بدفع الأتاوات وإيجار الأراضي، كذلك للحصول على قروض نقدية واستئجار أراضٍ

جديدة، ومناقشة الشروط الموضوعة للحصول على المعدات أو الحيوانات اللازمة من أجل الحراثة. فالإله الكلداني السابق لعطارد، لم يكتفِ في الواقع بأن يكون كخلفه اليوناني ـ الروماني، حامي التجار واللصوص، بل هو علاوة على أنه إله التجار، والصيارفة، وباعة الماشية والقمح، كان يهتم اهتماماً نشيطاً بما له من حق اجتماعي بأعماله التجارية. كذلك إن هيكل شمش في سيبار هو أقدم مؤسسة مالية يعود تأسيسها باسم، «شركة الإله الشمس»، إلى القرن السادس والعشرين السابق لعصرنا، وقد استمرت قائمة ثلاثة أو أربعة آلاف سنة.

لم يتأثر جيميل ـ مردوك بالمساومات والأخذ والعطاء، بل استدار نحو قاعة واطئة قرب غرف كبيرة كانت تستخدم كمستودع للبضائع. وكانت هذه القاعة مخصصة للمشروبات، فاتخذ له فيها طاولة منعزلة وجلس وراءها مع كاتبه الذي، بناء لأمره، استحضر لوحته المصنوعة من الطين الناعم جداً، وأخذ بخنجره المثلث الزوايا الذي أمسكه بانحراف حسب النهج الموافق، يضغط برفق على اللوحة ليدون هذه الرسالة التي أملاها عليه سيده، وهي شكوى أبدية من العاشق القلق:

« إلى بي ـ بازا أقول: أنا جيميل ـ مردوك الذي حباً بي، شمش ومردوك سيمنحانك الحياة الدائمة. أكتب إليك طالباً أخباراً عن صحتك. ها أنذا قد استقريت في سيبار، دون أن أراك. إني قلق جداً عليك. إبعثي لي خبراً عن وصولك، كي تفرح نفسي وتبتهج. تعالي في شهر آراح ـ سمنا. باستطاعتك أن تعيشي دائماً من أجل حبي ».

لكن جيميل ـ مردوك ليس لديه وقت للأحلام. لذا أسرع إلى الهيكل فور الانتهاء من كتابة رسالته إلى محبوبته. وكان المسافران كلما تقدما قليلاً، كلما اشتدت حركة السير. فقد اختلطت العربات بالمشاة، وكان النموذج السامي العريق من الأسياد يختلف كل الاختلاف في مظهره عن البورجوازيين وأفراد الشعب، وهذا الاختلاف جعل جيميل ـ مردوك يزدهي ويتكبّر، فهو خير شاهد

على فتوحات سيده وأسلافه الذين عرفوا أن يقودوا على طريق الأسر ويؤقلموا، من أجل مصلحة المملكة، عبرانيين من السامرة أو من أورشليم، بملامحهم المتجلية على وجوههم، وميديين من اكبتانة، بشعورهم الشقراء وعيونهم الزرقاء، والكثيرين من الأرمن والعرب الرحل بأشكالهم الدقيقة والمميزة.

كانت البيوت المتباعدة أكثر جمالاً من سواها، إذ كانت مكسوة بعض المرات، لا بالآجرّ الملون، بل بالقرميد المطلي بالميناء، المستوحى زخرفه من الفن الحتي والفن الآشوري. وكانت ألواح الأبواب الواطئة والمقوسة المصنوعة من الخشب النادر، وبعضها من خشب الأرز، غنية بالزخارف، وهي الفتحات الوحيدة على الخارج، باستثناء بعض الكوات الصغيرة في أعلى الجدران.

وبين هذه البيوت، كان أغناها زخرفاً «الكيرو آنونيتوم» الواقع وسط جزيرة صغيرة خضراء، اشتهرت في كل المدينة بوفرة النبات والثمار فيها، وهو البيت الذي اتخذته «نارابتو» مسكناً لها في عهد حمورابي. ونارابتو هي الوريثة الثرية لـ «آبوبيام»، الكاهنة التي سحر جمالها شمش فهام بها! وقد ارتفع هذا البيت على تقاطع ساحة تتصل بها من ثلاث جهات كل أحياء المدينة، بينما تتصل بها من الجهة الرابعة مدينة الهياكل القائمة على مساحة من الأرض مرصوفة بالقرميد، تحيطها دائرياً طريق طويلة تفصلها عن الأحياء الأخرى.

في هذه الساحة، تبلغ الحياة أوجها من الحيوية والنشاط. فالعربات، والماشية، والناس، تغمرهم هالة من الغبار الذهبي اللون، يندفعون عبر أبواب عريضة مزدوجة، رفعت مزاليجها المغروزة في البلاط، وانفتحت مصاريعها البرونزية على مداها.

فاليوم، هو الثاني عشر من شهر أيار، وهو يوم مقدس وعيد سنوي، شهد فيما مضى تنازل تغلاتفلاسّار وأسرحدون عن عرشيهما إلى ولديهما، كما شهد فيما بعد اعتلاء لاباشي ـ مردوك العرش. وحسب تقليد لم يكن التملص منه ممكناً، فرض كاهن سيبار الأكبر على المواطنين والمؤسسات كافة في سيبار، هبات من الماشية، والعلف، والقمح، والرطب، والعسل، والزيت، والحديد،

والنحاس، والسبائك الفضية والذهبية، دون أن يفكر واحد بالتهرب مما فرض عليه.

فالعدل يقضي، بالنسبة للإله الذي يحمي المدينة ويدافع عنها، ليس فقط بأن تقام له أجمل الهياكل، بل أيضاً بأن يؤمن لهذا الإله وكهنته إيرادات تتناسب مع أفضاله على المدينة. ومن العدل أيضاً أن لا تقتصر الإتاوة المعبرة عن تقدير الشعب لإلهه على تقديم كل ما هو ضروري لزاده اليومي، بل أن يرفق ذلك بالعبيد، والأراضي الزراعية، والمعادن الثمينة!

لمح جيميل ـ مردوك في مستوى أدنى من الهياكل، وعلى طول قناة «ليبارو» التي بفضل حمورابي، وصلت الفرات بدجلة، بيوت المال «البيتساغا»، التي كانت بمثابة مستودعات مقدسة وذات تسميات مغوية، يتكدس فيها الذهب، والفضة، والنحاس، واللازورد، والأحجار الكريمة، والأخشاب الثمينة! وأمام هذا التكديس للثروات، لم تبدُ هذه اللعنة التي كتبت وراء تمثال شمش ضد من يجرؤ على لمس هذه الحرمات وتدنيسها، قوية بما فيه الكفاية في نظر جيميل ـ مردوك:

« من يجرؤ على لمس هذه الحرمات سينحر كثور في أوج نشاطه، وكالثور البري سيصرع وهو في كامل قواه، وسيحل بهذا الرجل كما يحل بكل رجل يتصرف بسوء تجاه سيده، فلا يجد له مأوى تحت القبة السماوية ولا في أية مدينة ».

غير أن جيميل ـ مردوك، فيما كان يتأمل الجمهور المحتشد تحت أبواب مدينة الهياكل، دافعاً الثيران والجياد والخراف، وحاملاً الأكياس الثقيلة المملوءة بسبائك الذهب والفضة، وشاقاً الطريق بالعربات المحملة بأكياس القمح والطحين وجرار الزيت، اعتقد بأن تقوى المؤمنين، باستطاعتها أن تعوض بسرعة عن الخسائر والأضرار التي قد يلحقها في مدينة المعابد، سيف الأجنبي أو جشع السيد القليل الذمة. فبفضل الإدارة التجارية الماهرة واليقظة

للكهنة والهيئات الدينية الملحقة في خدمة الإله، والتي تؤلف إقطاعية دائمة، يتأمن مردود وافر يكفي، وبسخاء، لسد حاجات الإله ونفقات كهنته. فكملاك مؤجر للأراضي وللناس والحيوانات، وكبائع للغلال، وصيرفي يمارس قبول الودائع بفائدة، وإعطاء القروض البسيطة والقروض مقابل رهن أو كفالة، وصاحب مصنع للمنتجات الصناعية، باستطاعته مزاحمة الإله شمش في ممارسة نشاطه المالي والتجاري والصناعي: فطالما أن الأراضي، والأبنية، والأرقاء، وعبيد الأرض، والماشية، والفضة، والمواد الأولية التي كان يبيعها، أو يؤجرها أو يقرضها بتعريفات مرتفعة جداً، هي هبات مقدمة إليه بصورة اختيارية، لا مجال لأية مجازفة أو خسارة في أعماله التجارية، بل هي أعمال مضمونة الربح والمكسب!

دخل جيميل - مردوك مدينة الهياكل من «باب كاليكو»، وهو الباب المخصص في الغالب للتقدمات، وقد وقف بعض الكهنة تحت قبته المعتمة. فكان بينهم «السانجو» المعروف بشعره المستعار وتاجه الأسقفي، يستقبل التقدمات، وبالقرب منه «الكيبو» المولج بالتدقيق فيما يُقَدَّم، ومراقبة كتَّاب الجمعيات الدينية التابعة للهيكل، للتأكد من أنهم يدونون بدقة على لوحاتهم الهبات الجديدة التي ستضاف إلى ثروات الإله، فتزيده قوة وتعزز نفوذه ومكانته الخاصة. وفي ذات الوقت الذي ولج فيه جيميل مردوك الباب المذكور، كان «الكيبو» يعدُّ قطيعاً من الثيران والأبقار، هو تقدمة الماشية التي فرضها شمش على بلدية المدينة، وقد قام الكتاب بجردها وتدوينها على الوجه التالي:

« ثوران غير خصيَّين إلى شمش. ثوران غير خصيَّين إلى ماليك. بقرة إلى يونان. بقرة إلى سيدة سيبَّارا. بقرة إلى آنونيت. بقرة إلى غولا، بقرة إلى حدد. بقرة إلى إله السلاح. بقرة إلى إلهة السلاح ».

كان جيميل - مردوك، وهو يلحق بتطواف المؤمنين وقطعانهم، أو مواكب تقدماتهم، يتقدم بصعوبة عبر متاهة من الشوارع تأوي بيوتها الكهنة، والجمعيات الدينية، وعبيد الأرض، والأرقاء، والمخازن، والمصانع،

والحُرُم، ومدارس الإله، بالإضافة إلى مجامع النساء والرجال الذين يتعبدون إلى الإله بأجسادهم، فيستسلمون إلى المؤمنين به. واستمرَّ هكذا يتقدم، إلى أن بلغ الهيكل الأكثر جلالاً ومهابة. إنه الزاكورة التي تشرف على كل المدينة، باسطة ظلها الرهيب من الشرق إلى الغرب.

على المداميك العريضة في أُسِّ هذه الزاقورة التي تضم كنوزها، يرتفع بيت الشمس «أ ـ بارّا»، بطبقاته السبع المزخرفة بتربيعات مبرنقة ومملَّطة بالقار. ومن هذا التكديس البنائي العجائبي، تتصاعد بانسجام رائع نحو السماء، الجدران القائمة على دعائمها العريضة والمنعطفة إلى الداخل، باسطة نحو شمش أُطرها التي توحي بالقوة المتمثلة في هذا «الجبل الإلهي!».

في الفناء الداخلي الكبير للزاكورة، تدب الحياة وتبلغ أوجها من النشاط والحيوية. إنه ممرّ الذهاب والإياب الدائم للمؤمنين، والمزارعين، والكتاب، والعبيد، بين المخازن والمكاتب. فالمعبد الصغير في أعلى الزاكورة، العالق بين الأرض والسماء، لا تترسخ قيمته الإلهية إلا على أسس هذه القاعدة المادية المتينة. فالكلدانيون شعب واقعي، والألوهية بالنسبة إليهم، لا يمكن إدراكها ما لم تكن إنجازاً فائقاً للثروة البشرية المتألقة، المعبر عنها بالثراء والرخاء، وبهذا السلطان المادي الذي يجعل من كل مؤمن مديناً للإله، أو مزارعاً أو عبداً له. فحرمة المعبد كانت تزداد قداسة واحتراماً، كلما قويت فيه الحركة التجارية ونشطت.

عندما دخل جيميل ـ مردوك إلى أحد مكاتب هذه «البورصة الإلهية»، تأكد مندهشاً، وسط الهزج والمرج في المعاملات التجارية الجارية فيه، أن الخديعة والاحتيال لم يتسربا إليه. فقد رأى أحد الكتبة يقرأ هذا النص الطريف على مزارع، قبل أن يوقع عليه بخاتمه:

« ثور بكامله عمره ثلاث سنوات، باعه نابونادنياخ، ابن نيرغال ـ نادين، إلى هيكل «أ ـ بارّا»، بنصف مين من الفضة، لكنه لم يقبض الفضة. الثور هو

من أجل الذبيحة المقدسة، جرى ذلك أمام نابو ـ بيل ـ أوسور، في ١٢ أيار من السنة ٤٢ لعهد نبوخذنصر، ملك بابل».

كانت البيعات الصورية هذه تثير حماسة المؤمنين، فتدفعهم إلى المضاربة، وتتيح هذه المضاربة رفع الأسعار أثناء البيع من قبل هيكل الهبات التي قدمت إليه. وهذه الحماسة المحمومة، كانت لها ميزتها الخاصة في سيبار، عاصمة الأعمال التجارية في العالم القديم.

فزاكورتها المنتصبة شامخة، ربما كانت مكانا للصلاة، إلا أنها كانت بنوع خاص، شبيهة «المصرف المركزي» الذي ينظم ويراقب كل النشاطات الاقتصادية في البلد، حتى تلك التي تجري وراء الحدود، وذلك بفضل ما تملك من ثروات جامدة ومتحركة، ومن كنوز تفوق قيمتها الكنوز التي يمتلكها سيد الإمبراطورية نفسه. فالمهارة التي كان يظهرها رجال الدين المشرفون على هذه الزاكورة، كي ينمُّوا أعمالها التجارية والمصرفية، إذا جاز التعبير، لم يظهر لها مثيل إلا بعد خمسة عشر قرناً، عندما اكتشفت الإمبراطورية البريطانية أن قواعدها الراسخة، هي في احتياطها النقدي في مدينة لندن، أو عندما في بداية القرن العشرين، وُضع «وول ستريت»[1] في نيويورك، في خدمة سياسة الولايات المتحدة الأميركية، فوطّد سلطانها الاقتصادي على عالم أنهكته الحروب.

وعلى غرار الشركات المغفلة التي ينشئها اليوم رجال الصناعة والتجارة، استمع جيميل ـ مردوك إلى نصّ الشراكة التالي، الذي كتبه إثنان من موثقي العقود في هيكل الإله شمش، وجرى الاحتفال بالتوقيع عليه أمام كاهن، وكاتب، وسبعة عشر شاهداً:

« إيريب ـ سين ونور ـ شمش، أنشآ شركة. لقد جاءا إلى هيكل شمش لتمديد نصّ العقد لمشروعهما. إن الفضة، والبضائع، والعبيد الذكور والإناث، التابعين لهما، سواء كانوا خارج البيت أو داخله، لكل منهما حصة متساوية فيهم.

---

(١) الشارع الذي تقع فيه بورصة نيويورك.

لقـد تحقـق مشـروعهمـا، فضـة بفضـة. . . لـن يجـادل الأخ أخـاه، حتى بلـوغ المنفعة ».

لقد كان الكاهن الأكبر لشمش، يقوم مقام الصيرفي، وموثق العقود، والمـأمـور الإداري، فيصـدق بـاسـم الكهنـة الإداريـيـن، «الكيبـو والشتـونـو»، وبموجب سلطته الرباعية: السياسية، والدينية، والقضائية والإدارية، على صحة وقانونية العقود، مستوفياً عن كل عقد، وبشكل مكافآت شرفية أو عمولة، ميناً كاملاً لمصلحة الإله.

وجيميل ـ مردوك، كإداري حي الضمير، وكموظف ذي حمية، حرص على التأكد بأن رعايا سيده ليسوا مستغّلين، وبأن معدل الفائدة المنصوص عنه في قانون حمورابي، محترم ومعمول به، وهو عشرون في المئة بالنسبة للقروض النقدية، وثلاثة وثلاثون في المئة بالنسبة للقروض العينية. فتحرَّى الأمر لدى الكاتب المختص، كما تحرَّى الأمر عما إذا كانت الشروط الملحقة بالعقود، لم يضرب صفحاً عنها عند التوقيع عليها. فمع أن قانون حمورابي قد قضى بحكم الموت على بعض المخلين بالواجب والأمانة في الوظيفة، وعلى فارضي الربا الفاحش بواسطة الغش والاحتيال، فإن المهارة في التحرير والكتابة، كانت تتيح تأويل القانون، وتبرير رفع الفائدة إلى الحد الأقصى أو خفضها إلى الحد الأدنى، وذلك بإضفاء الصفة الشرعية عليها.

إن المالية سلاح خطر إذا ما سيرتها الغايات الدينية والسياسية، لأنها عند ذاك تشكل ضغطاً قوياً على أعمال الدولة. فباستعمال الأسلوب الذي أصبح تقليدياً مع مرور السنين، لم يخش الإله شمش في بدء عهد نبوخذنصر، من أن يخفّـض معـدلات الفـوائـد علـى السلفـات التـي كـان يسلفهـا مـن خـزينتـه، إذ أصبحت ٢٠ ٪ على القروض العينية، و ١٥٪ على القروض النقدية. لأنه في تلك البرهة التي حقق فيها نبوخذنصر انتصاراته على مصر وعلى الإسرائيليين، تعرضت الهيمنة المالية الألفية لسيبار للخطر، بسبب تدفق الثروات والكنوز على بابل، واجتذاب رؤوس أموال كل العواصم إليها.

وحرص جيميل ـ مردوك أيضاً، بأن تكون كل التدابير متخذة، تحسباً لعجز المدينين لخزينة الإله عن الوفاء. لأن نبوخذنصر، هو ممثل الإله ونائبه المختار بالنسبة لهذه الخزينة، بينما كاهن سيبار الأكبر، ليس سوى والٍ مسؤول عن إدارتها. فقد أبدى استغرابه أمام الكاتب، لأن هذا الأخير لم يذكر في عقد القرض المعطى إلى إيريب ـ سين ونور ـ شمش، من أجل تأسيس شركتها، أي رهن أو ضمانة. وعندما أفاده الكاتب بأن أياً من المدينين لا يملك حقلاً أو بيتاً كي يرهنه، أجابه جيميل ـ مردوك: «وإن يكن. فهما إن لم يكن لديهما حقول وبيوت، سيكون لديهما بعض الأثاثات، وإن لم يكن لديهما بعض الأثاثات، سيكون لديهما بعض الأدوات المنزلية، وحتى إن لم يكن لديهما بعض الأدوات المنزلية، باستطاعتهما أن يرهنا زوجتيهما وأولادهما».

فقال الكاتب دون أن يفاجئه هذا الكلام:

« ليبارك الإله شمش سيدي. لكن إيريب ـ سين ونور ـ شمش، قد سبق لهما وعقدا قرضاً مع إيتي ـ مردوك ـ بالاتو، الوكيل الصاحب الشأن لأعمال سيبار، وقد استرهن هذا الأخير كضمانة، بيت المدينين ومحتوياته. وورد نص صريح في العقد المتعلق بالقرض، جاء فيه: «لا حقَّ لأي دائن آخر على هذه الرهونات، قبل أن يستوفي إيتي ـ مردوك ـ بالاتو كامل دينه مع الفوائد».

عندئذ، قال جيميل ـ مردوك مقترحاً:

« حسناً جداً! ولكن، ألم يكن ممكناً أن يُقتطع من رهن إيتي ـ مردوك ـ بالاتو، لصالح شمش، باب بيتهما المصنوع من الخشب النادر الثمين؟ هكذا جرى بالنسبة لمين الفضة الذي، في العام ٢١ لمُلك سيدي نبوخذنصر، أحد «البانيا» وزوجته، شا ـ نانا ـ شي، اقترضاه من نابو ـ باني ـ آحو، فأخذ رهينة عنه «باب مسكن البواب في بيت ساليمو».

فردَّ الكاتب قائلاً:

« إن إيتي ـ مردوك ـ بالاتو، هو رجل فطن يا سيدي، فقد ارتهن الباب مع البيت ».

فسأله جيميل ـ مردوك: .

«ألا تعتقد بأنه من الممكن إقناع إيتي ـ مردوك ـ بالاتو، بأن يكفل دين إيريب ـ سين ونور ـ شمش، على الأقل فيما يتعلق باستيفاء رأس المال، شرط أن لا يكون للكفالة دورها إلا بعد أن يستنفد الدائن الوسائل كافة مع المدين ؟ ».

فقال الكاتب:

« ليمنح الإله شمش والإله مردوك، الرفاهية والحياة لإيتي ـ مردوك ـ بالاتو، إن هو قبل بذلك. لكني أعتقد، وهو الرجل الفطن جداً، بأنه لن يكفل من هما مدينين له ».

وأردف الكاتب يقول:

« لكن إذا إيريب ـ سين ونور ـ شمش، لم يقوما بالتزاماتهما عند الاستحقاق، سوف نقودهما إلى أمام عدالة سيدنا في بابل، لإنزال مرتبتهما إلى مرتبة العبيد، إلى أن يدفعا كامل ديونهما. إلا إذا فضّلا استعمال الحق الذي تمنحه المادة ١١٧ من قانون حمورابي، والذي يجيز بأن يحل محلهما كعبيد ذكور أو أناث لمدة ثلاث سنوات، نساؤهما أو أولادهما ».

فأجابه جيميل ـ مردوك بوقار:

« إن الإله شمش لا يحب إنزال مرتبة الناس الخاضعين له إلى مرتبة العبيد. من الأفضل الحصول على موافقة ابن نور ـ شمش، الذي يشغل مركزاً مرموقاً في بلاط بابل، بأن يتعهد بدفع دين أبيه. إني أفوض الأمر إليك كي تكتب العقد جيداً، وبصيغة قانونية ترضي كل المنتفعين، فلا يكون هناك مجال لأي منهم فيما بعد، لإعادة النظر فيه ».

اكتفى جيميل ـ مردوك بهذا الإلحاح، وتوجه إلى مكاتب إدارة الهيكل كي يكمل فيها مهمته التفتيشية. وما أن وصل إلى الفناء المكتظ بالمؤمنين والتقدمات، وبالكهنة والكتاب، حتى عمت المكان موجة من البهجة والسرور، وسط المجادلات التجارية والترتيبات المالية، مصدرها فتيان أخذوا يخرجون من أحد أجنحة الطبقة السفلى من الزاكورة « أ ـ بارّا ». وفيما كان جيميل ـ مردوك يقرأ على عقد قبة الباب هذه الكتابة البسيطة: « الذي يبلغ الصف الأول في مدرسة الآداب، سيأتي يوم يسطع فيه كالشمس ». إذا بأحد هؤلاء الفتيان اللعوبين يقترب منه ويخزه في جنبه، ثم يفرّ عبر جمع أخذ يسخر من المسكين جيميل ـ مردوك. هذه الروح العدائية للعاصمة بابل، ستنقلب ولا شك إلى خيانة فيما بعد. وكهنة شمش الذين يعلّمون في الهيكل، هم المسؤولون عن هذه الروح، بقدر ما هم مسؤولون عن سمعة مدارس سيبار المرتبط إشعاعها ونفوذها ارتباطاً وثيقاً بسمعة الهيكل ذاته الذي يضمها.

دخل جيميل ـ مردوك البناء المدرسي الذي بدا له أن الفتى الخسيس الذي جعله سخرية الناس دون وجل قد خرج منه، فوجد أن القاعة الأولى فيه محاطة بمكتبة تتكدس فيها اللوحات الغضارية التي يرجع بعضها إلى حمورابي. هذه اللوحات المشتملة على نماذج في الخطوط، ومصنفات في القراءة، والشروحات، وموجزات تاريخية، وصيغ عقود، وعلم الحساب والموازين والمكاييل، كانت خير شاهد على وفرة البرامج التي ترهق عقول التلامذة على مقاعد الدراسة، مما يبرر شيطنتهم في الخارج . . .

فما أن رآه «الشنجو»، الذي هو صاحب الأمر والنهي في المدرسة، حتى أقبل وأطلعه على لوحة استطاع أحد التلامذة أن يكتب عليها نصاً مؤلفاً من اثني عشر سطراً في سماكة لا تتجاوز الثماني مليمترات، ضمنها كل تمنياته، فغدت هذه اللوحة طلسماً يتسابقون على تقلدها بغبطة وحبور، وكأنها حلية ثمينة !

فوعد جيميل ـ مردوك «الشنجو» أن يقدم تقريراً عن هذه النتائج المدهشة إلى الملك الذي سيُسرُّ بها دون شك. وكان قد سبق له أن قام بدورة تفتيشية

على عدد كبير من المدارس المنتشرة في كل مدينة وقرية، وثبت له أن الثقافة باستطاعتها أن تخدم السيادة البابلية بصورة أفضل من الجيوش، عدا أنها أفضل من الجيوش لهذه السيادة وأقل كلفة منها. لذا سأل «الشنجو» عن المناهج التعليمية المتَّبعة، فعلم أنها تبدأ بقراءة وكتابة العلامات البسيطة بواسطة لوحات الهجاء والمفردات، مع دروس في مختلف مدلولاتها الصوتية، وذلك بقصد تنمية ذاكرة الطالب في مرحلة يكون فيها عقله ما زال في طور التكوين. ثم تدريجياً، ينتقل المعلمون إلى تلقين تلامذتهم كيفية تركيب الجمل، برسم الرموز المعبرة عن أفكارهم المحدودة، إلى أن يتوصلوا بهم إلى كتابة التعابير الشائعة، فيصبح بإمكانهم إذ ذاك درس المواد المقررة وفقاً للمنهج الموضوع للصفوف العالية. لأنه إن جاز أن يكون التعليم في مدارس المدن الريفية الصغيرة مقتصراً على قواعد اللغة الأولى، وعلى الجمع والطرح والضرب والقسمة في الحساب، وعلى بعض المبادىء القانونية والتجارية، ففي مدينة كسيبار، يجب أن يكون منهج التعليم أكثر شمولية، فيندرج فيه بالإضافة إلى التعليم الديني، علم التنجيم، والفلك، والحقوق، والتاريخ، وقراءة النصوص القديمة، وعلم النبات الذي هو الركيزة الأساسية في علم الطب.

أبدى جيميل ـ مردوك إعجابه مما سمع ورأى، وقال للشنجو مختتماً زيارته التفتيشية لمدرسته: « إني معجب ومقدر لهذا الأب الذي سمعته الآن على باب المدرسة يقول بفخر لابنه الذي هو تلميذك: لقد أُدخلت المدرسة كي تتعلم الكتابة، وأمك ستثابر كل يوم على حمل المأكل والمشرب إليك من البيت. إن الذين يعلمون أولادهم القراءة ومعاني الكلمات في محراب الهيكل، هم قوم من الحكماء والمثقفين ».

وهكذا تراجع جيميل ـ مردوك عن فكرة التأنيب التي كان مصمماً عليها، وانتقل إلى مكاتب الإدارة دون أن يتعرض هذه المرة لأي حادث. وهناك طلب مقابلة الكاهن الأكبر بذاته، من قبل سيده نبوخذنصر، كي يبلغه المهمة التفتيشية التي انتدب من أجلها، بعد الشكاوى العديدة التي وصلت إلى بابل. وبما أن

الكاهن الأكبر كان غائباً، فقد حضر شمش ـ إيربا، أحد أفراد الشنجو القائمين على خدمة الهيكل، وقال له: « ليبارك شمش أخي، موفد والدنا المحبوب نبوخذنصر. لكن كاهن سيبار، سيدي، هو غائب، فقد اضطر أن يتوجه بنفسه إلى صور لينجز صفقة شراء هامة من الأرجوان لصالح الإلهة آنونيت ».

مع هذا، كان كل شيء منتظماً في إدارة الخزينة، حتى في غياب الكاهن الأكبر. وبالتأكيد، ليس بسبب الشكاوى المقدمة ولا حملة التفتيش التي كان يجهلها هذا الشنجو، كتب هذه الرسالة إلى الكاهن الأكبر على لوحة قدمها إلى جيميل ـ مردوك، فقرأ عليها ما يلي:

« لوحة من شمش ـ إيربا إلى كاهن سيبار، سيدي. في كل يوم أتضرع إلى بعل ونابو من أجل حياة سيدي. إن الازدهار يعمُّ الهيكل والمدينة وبيت سيدي. كل ما يتشوق إلى معرفته سيدي، سوف أبلغه إياه. بخصوص الأرجوان الطبري والأرجوان البنفسجي للإلهة آنونيت، على سيدي أن لا يرتكب أي إهمال ».

اكتفى جيميل ـ مردوك موقتاً، بدافع الدبلوماسية، بهذا الشرح وهذا الادعاء، وأسرع شمش ـ إيربا مفرطاً في المجاملة، فوضع نفسه بتصرف موفد نبوخذنصر، وأخذ يطوف به على مكاتب المحاسبة والمراسلة والمحفوظات. وقد لفتت نظر جيميل ـ مردوك، أول ما لفتت، دوائر المحاسبة التي كانت تشغل الكثير من القاعات، والعديد من الكتاب الممسكين بأقلامهم والمنكبين على العمل، الذي كان محوره الدائم عمليات الشراء والهبات. فلقاء إيصال مزدوج كانت تدخل البضاعة إلى مخازن الإله، والماشية إلى زرائبه، والمزارعين إلى أراضيه. كذلك لقاء عقد مزدوج يودع في المحاسبة، كانت تتمُّ عمليات الشراء والتأجير. وهكذا بالنسبة للحيوانات الضرورية لتقديم الأضاحي، ومأكل وكسوة الكهنة أو الخدم. أما بالنسبة إلى البذار المقترض أو الموهوب، فكان أمين المخزن يدون ذلك على مستند يحدد فيه الغاية التي من أجلها سُلِّم هذا البذار، كذلك السلطة التي أخذت على نفسها مسؤولية إخراجه من المخزن.

فكمستندات حسابية تستوجبها هذه الحركة المالية والتجارية التي تفوق كثيراً في تنوعها حركة شركاتنا العصرية المحدودة الهدف والغاية، أعدَّ الكتاب والكهنة الإداريون لزاكورة «أ ـ بارّا» لوحات غضارية كبيرة، كانت بمثابة سجلات للمحاسبة الإلهية دُوِّنت عليها كل شاردة وواردة. فعندما انحنى جيميل ـ مردوك على أحد الكتبة الذين يقومون بهذه المهمة، رأى على لوحته أعمدة كثيرة ملأى بالأرقام التي تبين حصص القمح والتمور المتوجبة كل سنة لخزينة «أ ـ بارّا»، على المزارعين الذين استكروا الأراضي الزراعية الخاصة بالإله ـ الشمس. وكان الكتبة عند اقتطاع هذه الحصص، يأخذون بالاعتبار مساحة الأرض وموقعها، كذلك المواسم الجيدة والمواسم العاطلة، قياساً على محاصيل القمح وكمية البذار.

وقد شرح هذا الكاتب لموفد الملك نبوخذنصر، كيف أنهم اضطروا بسبب المواسم السيئة الأخيرة ومحاصيلها القليلة، إلى إعفاء كل المدينين للإله من سدس الحصة المتوجبة عليهم. وبالفعل، لقد تأكد جيميل ـ مردوك ذلك بشيء من عدم الرضى، عندما لاحظ أنه على العمود الخاص بالملاحظات في لوحات عديدة أخرى، قد أُشير إلى الضرر الذي ألحقه بالموسم مرض القمح الذي كان معروفاً باسم «أمبيستو»، فطلب استدعاء مستأجري الأراضي التي ضربها المرض المذكور إلى الهيكل، وهما: شمش ـ باليت وشمش ـ ماليك، كي يقدما إيضاحات إلى الكهنة، وما لديهما من اقتراحات لتدارك هذا الخطر.

وعندما تصفح جيميل ـ مردوك الكشوفات الإحصائية التي رفعها إليه الكتاب، والمتعلقة بمبيعات العقارات، والملكيات الريفية، والغابات، وأشجار النخيل، والبساتين، والبيوت المبنية، تأكد بأن الإله ـ الشمس هو ملاك عقاري كبير، وأن اعتماده على العقارات والأراضي المنتجة، أضمن له من اعتماده على السبائك المعدنية، والحبوب، والمنسوجات، والأشياء القابلة للتلف والتي، عدا أن قيمتها غير مستقرة، تشكل غنيمة أسهل لجشع الغزاة المحرومين من الموارد والثروات. بالإضافة إلى ذلك، فإن الإمكانيات التي كانت توفرها

المقايضات، والإيجارات، وتأجير الأراضي الزراعية، والرهونات، كان الإله يستعملها لتوسيع أملاكه الثابتة وزيادة مردودها. كذلك كان يقبض عمولة صغيرة ومعتدلة، مقابل وضع خاتم سلطته على معاملات البيع والشراء التي تجري بين أتباعه والمؤمنين به. فقد قاد «الشنجو» جيميل ـ مردوك نحو كاتب وقف أمامه باحترام وصمت، جمع من المزارعين البسطاء المرتدين ثياب العيد، ليقرأ عليهم بصوت عالٍ، هذا النص الذي دوّنه على لوحة غضارية:

« ساران وأربعة جنات من الأرض المبنية إلى جانب بيت شمش ـ رابي ابن شمش ـ ناسير، قد اشتراها من هذا الأخير شمش ـ باني، ابن كيشو نينجيزيدا، ودفع الثمن بكامله، ثلثاه من النحاس وتسعة مثاقيل من الفضة. انتهت الصفقة واطمأنت القلوب، ولن تقع خصومة قط بين الواحد والآخر. وقد أقسما بأسماء شمش، وآيا، ومردوك ».

وذكر الكاتب في اللوحة، بأن عقد البيع قد تمَّ في الثاني عشر من أيار، من السنة التاسعة عشرة لعهد الملك نبوخذنصر الثاني. وزيادة في الدقة، أضاف بأن السنة المذكورة، هي السنة المجيدة التي بسط الملك خلالها، بقوة آنو وبعل، سلطته على يهوذا، وطرحت يده أرضاً صدقيا، ملك بلاد يهوذا.

ثم طلب الكاتب من المشتري والإثني عشر شاهداً بأن يخدشوا بأظافرهم أحد جوانب اللوحة الغضارية، وحدد هو خدش كلٍ منهم بمثل هذه الكتابة أمام كل خدش: «خدش زابوداميك، خدش أشكيا». وبعد أن دقق المشتري بنظرة مشككة في نصّ العقد، وخصوصاً بعد أن وزن سبائك النحاس والفضة، سحب خاتمه الصغير المصنوع من اليشب الأحمر، والذي كان يتأرجح في عنقه كأنه حلية ثمينة، وبصم به رسماً يمثل البطل الأسطوري جلجميش.

واكتملت هذه الشكليات عندما ردد الفريقان المتعاقدان وراء الكاتب، القسم باسم نيس ـ شمش ونبوخذنصر، بأن الصفقة تمت بالطرق القانونية.

*

لم يكن باستطاعة جيميل ـ مردوك أن يتأخر أكثر مما تأخر. فالنهار قد أوشك أن ينتهي، وإذا شاء أن يطَّلع اطلاعاً وافياً على نصوص العقود وأوضاع المحاسبة، لتوجب عليه أن يبقى في سيبار أياماً طويلة، فيما الواجب يفرض عليه بأن يعود إلى سيده في أسرع وقت ممكن. عدا أنه لا يستطيع تجاهل نداء قلبه بالعودة إلى بابل، حيث محبوبته بانتظاره هناك.

ولما كان باستطاعته إذا ما تفحص المراسلات الواردة إلى الهيكل، أن يعرف عما إذا كان رعايا سيبار لا يتشكون من إدارة الكاهن الأكبر، فقد ذهب به «الشنجو» نزولاً عند رغبته، إلى المكاتب التي تضم الكتبة المكلفين بشؤون البريد، وكان عددهم لا يقل عن عدد المحاسبين في الجيش! وهناك، ما أن اطَّلع على بعض اللوحات، حتى ظهر له جلياً إهمال الكاهن الأكبر لسيبار، وعجزه عن القيام بالواجب، كي لا يقول تواطؤه في بعض الحالات. وهذا ما جعل أحد المستخدمين، يقدم بمرارة وألم، هذه الشكوى التي استرعت أمثالها انتباه الملك في بابل: «أنا لم أطرد شخصاً، ولم أرتكب ذنباً بحق شخص. مع هذا، لم يقف شخص إلى جانبي. العمل الذي قمت به، قمت به وسط الخبثاء والأشرار...».

وقد ثبت لجيميل ـ مردوك بما لا يقبل الشك، إهمال الكاهن الأكبر وسوء إدارته، عندما تبين له أن هناك عمالاً وموظفين لم يقبضوا أجورهم: « التمور التي ما زال السيد يكلم عليها الخادم، لم يعطها السيد. ها قد مضت سنة وأنت تؤخر هذا الدفع. على السيد أن يعطي الآن هذه التمور، وأن يسدد خادمه، علاوة على ذلك، خمراً وسمسماً... وإذا لم يرسل السيد، فإن العمل سيتوقف». هذا ما جاء في لوحة بعث بها بيل ـ أوباليت إلى كاهن سيبار، أخيه. وفي لوحة ثانية إلى جانبها تظهر الخاتمة المنطقية لهذه الإهمالات: « لوحة من بعل ـ كيزير: «كل يوم ، أتضرع إلى بعل ونابو من أجل حياة أنفس سيدي، وامتداد أيامه، وسعادة قلبه وجسده. منذ أن طلب مني السيد القيام بالعمل، لم يدفع أجرة العمال. لذلك، كل المزارعين تركوا العمل وهربوا ».

وبعد أن قطّب جيميل - مردوك ما بين حاجبيه وفكّر بعقوبات رادعة، وقعت عيناه على لوحة انبسطت لها أساريره لما انطوت عليه من طرافة. . . لكنه عاد فاقتنع بضرورة فرض العقوبات عندما تلاحقت الشكاوى أمامه. فمثل هذا الإهمال في اعتقاده لا يجوز، ولن يتساهل معه نبوخذنصر. وهنا ابتهجت نفسه لوثوقه بأن التقرير الذي سيرفعه إلى الملك فور عودته إلى بابل، سيثبّت حظوته لديه بصورة دائمة. وبعد أن قرر ما قرر، قفل عائداً إلى دار الضيافة حيث توقف صباح ذلك اليوم، بعد أن ودّعه «الشنجو» بالانحناءات الكثيرة والتحيات المقرونة بالدعاء والتمنيات. وفيما هو في الطريق إلى دار الضيافة، لاحظ عدم المبالاة به من قبل الجمهور المحتشد في الشوارع والأزقة بصورة دائمة.

وكانت أشعة الشمس المائلة إلى الغروب، قد جعلت ظل الزاكورة يتطاول، كأن الإله شمش، شاء بذلك أن يبسط سلطاته على المدينة والريف وحتى حدود الأفق! أليس أنه في سيبار قد أقام الأساسات الأكثر سلامة وثباتاً للقوة الكلدانية ؟ فهذه المدينة التجارية منذ أكثر من ثلاثة قرون، تنعم بالرفاهية والازدهار، بينما مدن أور ولجش ونينوى حولها، قد قضت الغزوات المجنونة على رونقها وبهائها. فهل سيأتي غداً دور بابل؟ إن القوة التي تعتمد على تفوق الجيش وحده، هي زائلة لا محالة. فالحضارات تشيخ كما البشر، وكل هدف إن لم يحقق في يوم من الأيام أحلام الرفاهية التي يطمح إليها البشر كي ينسوا ما يعترضهم من شقاء وبؤس، يموت في الأنفس البصيرة المحررة من الأوهام. لأن الهدف المفروض بالقوة كواجب نحو الدولة، أو هكذا تفرضه السماء على الأرض، ليس سوى امتياز. فالحكومات، والإمبراطوريات، تتعاقب وتتقوض في سبيل الربح والمكسب. وحدهم رجال المال والأعمال يستفيدون من الثورات والحروب، ولا يهتمون بالمطامح القومية والاجتماعية والمعنوية، إلا من أجل الاستغلال وتقوية نفوذهم. وهم إن لم يستفيدوا من الجنون العام ويتذوقوا طعم السلطة، فلأنهم لا يريدون، ولأن هذه السلطة تبقى أقل واقعية من سلطتهم التي وحدها ترضي طموحهم وكبرياءهم.

اكتشف جيميل ـ مردوك هذه الحكمة لدى كبار الكلدانيين المترسخة في طبيعتهم، واقتنع بصوابيتها وهو في طريقه إلى دار الضيافة. لذلك رأى من الأوفق بدلاً من أن يقدم إلى سيده نبوخذنصر شكوى ضد كاهن سيبار الأكبر، أن يستغل مهمته التفتيشية ويتفاوض معه بشأن شراء مكتب وافر الدخل، وبشروط جدَّ مرضية في هيكل الإله شمش[1]، وبذلك يضمن الثروة لنفسه ولحبيبته الحلوة، بي ـ بيزا، التي تنتظره في بابل. ومن جديد، عصف الحب في قلبه بعد أن أمَّن الثروة اللازمة لتحقيق حلمه، وبرَّح به عذاب الفراق أكثر مما برَّح به في الصباح. لذا، ما أن وصل إلى دار الضيافة، حتى أملى على كاتبه هذه الرسالة الغرامية:

« لوحة من جيميل ـ مردوك إلى بي ـ بيزا، محبوبتي اللطيفة. في كل يوم ابتهل إلى بعل ونابو من أجل حياة وسعادة قلب محبوبتي الحلوة. لا تجزعي عليَّ، فأنا في حماية الآلهة... إن إلهيَّ بعل وبيليت يصليان من أجلي. لماذا لا تصلني أخبارك، وكل الرسائل التي بعثت بها بقيت من دون جواب؟!».

ثم كبا جيميل ـ مردوك على الطاولة أمامه منهوك القوى، وغفا ليعيش بعمق أكثر حلم مجده وحبه!

---

(١) كانت سلطة الكاهن الأكبر تخوله بيع مكتب في الهيكل لمدة خمسة أيام في السنة، يكون الدخل خلالها من حق الشاري، ويكون لأبناء الشاري حق الخلافة والوراثة من بعده.

الجنون

مع شفوف الفجر، استيقظت بابل على تألق مجدها المجسم في معابدها الفخمة، وأسوارها المنيعة، وأبراجها المرتفعة القباب، الشامخة نحو السماء، والمدرجات المستطيلة بارتفاع وتيه ودلال وانتظام كأنها صفوف الجنود الخافقة الرايات، هي جنائنها المعلقة الشهيرة بسحر روعتها البهية، والمخلدة كإحدى أروع القصائد الصوفية التي تقدمها العاصمة إلى الآلهة، عربون شكر على ما نالته بفضلها من عظمة ورفاهية وازدهار.

هكذا بدت عاصمة نبوخذنصَّر العظيم، فارضة مهابتها وجلالها وسطوتها، رافلة بهذا الثوب القشيب تحت سماء مغبرة اللون، ترش رذاذها عليها فتنساب قطرات الماء من خلال أشعة الشمس، وتنهمر عليها كأنها خيوط من الذهب!

والكرى الجافل من عيني نبوخذنصَّر يؤرقه ويضجره، فيترك فراشه ويصعد إلى سطح قصره... ومع خيوط الفجر، بدأت تتراءى أمامه سطوح القرميد ضمن إطار الأسوار، والشوارع والأزقة، وأرتال العربات المنطلقة من أبواب المدينة، والقوارب المنزلقة على صفحة مياه القنوات وهي محملة حتى حروفها. لقد أخذ النشاط يدب في كل مكان من أحياء المدينة. فالكتاب يمارسون أعمالم على مفترق الطرق، والحوانيت والمعابد تزدحم بالناس، والمزارعون والعمال ينكبون على أشغالهم في المصانع والمزارع بهمة وحيوية فائقتين.

وفي ظل باب عشتار، وقف رجلان يتحدثان بكآبة، إنهما غوبارّو، الجنرال الشاب الذي عهد إليه نبوخذنصر حديثاً بإدارة بلدان الجنوب، والآخر هو عجوز ارستقراطي صديق لوالده، التقاه في الطريق فاستوقفه وأخذ يهنئة على

مركزه الجديد، ويقدم إليه النصح كي يكفَّ عن الاسترسال في المضاربات التجارية بقصد مضاعفة ثروته وتوسيع رقعة أملاكه. إلا أن غوبارّو المفعم بالحيوية، والذي اعتاد على العيش المرفَّه والمنعَّم، قد تضايق من معاتبة العجوز وملاحظاته، فهو لا يهمه إلا مصلحته المادية التي دفعته فيما بعد إلى خيانة بلده والعمل لمصلحة «قورش» ملك الفرس، إذ أنه هو الذي سهَّل لهذا الفاتح سبيل الاستيلاء على بابل عاصمة بلاده.

ولنفتح هنا هلالين كي نشير إلى أن الأسطورة الخالدة عن «جنون نبوخذنصَّر»، مصدرها الوحيد سفر النبي دانيال الذي استند إليه كل المؤرخين القدماء والمعاصرين. وما عداه ليس إلا أضواء تنير القارىء ليستطيع تحديد مقدار إمكانية الاعتقاد بما جاء في سفر دانيال النبي.

إن حقيقة جنون نبوخذنصَّر تستند إلى ظروف ملائمة، أكثرها رزانة هو الصمت المطبق وخلوُّ الكتابات المتروكة عن نبوخذنصَّر، من أية إشارة تدل على ممارسته لأعماله أو لأي نشاط آخر طيلة السنوات الست الأخيرة من حياته. ثم إن سقوط بابل المذهل بسرعة لم يكن لها مثيل في التاريخ، عززت الاعتقاد بشيخوخة نبوخذنصر العاجزة والحزينة. والكتابة المشهورة والخاصة لعهد هذا الملك، جاء في العمود الثامن منها ما يجعلنا نعتقد أيضاً بأن نبوخذنصَّر قد أُبعد عن الحكم أربع سنوات.

واليوم، على ضوء المعلومات المتوفرة لنا عن أحداث ألفين وخمسماية سنة تصرمت، كانت السنوات الستون الأخيرة منها خصبة في الاكتشافات العلمية، نسمح لأنفسنا أمام نهايات أخرى حزينة كنهاية نبوخذنصَّر، لفاتحين كبار وممالك كبيرة، بأن نصحح الوقائع باعتمادنا على الوثائق البابلية المتعلقة بالسنوات التعيسة الأخيرة من حياة نبوخذنصَّر.

« حتى القرن الماضي، كانت شرعة سفر دانيال مقبولة من قبل كل اليهود والمسيحيين ». هذا ما كتبه «روس» في العام ١٨٧٩ في تفسيره للتوراة. وفي

نهاية القرن الثامن عشر، طُرح الرأي القائل بأن هذا السفر قد ألفه في الواقع أنطيوشوس سوتر الرابع، العام ١٦٧ قبل المسيح، فعارضه البعض، وناصره البعض الآخر. والسفر في كل الأحوال، قد وصل إلى أيدينا بحالة مؤسفة، فالترجمة لكلمات تعود لغتها إلى عهد نبوخذنصر، لا بدَّ من أن يساورنا الشك فيها. وحقيقة نبوءات دانيال المعلنة بطريقة غير مألوفة، أثارت هذا الشك لدى بعض الكتاب.

واليوم، أصبح شبه أكيد أن سفر دانيال قد أُلِّف في بابل في عهد الملك أنطيوشوس سوتر العام ١٦٧ قبل المسيح، وأن مؤلفه هو رجل يهودي كانت بحوزته وثائق تاريخية هامة، وقد جرى ذلك في فترة اجتاحت الشعب اليهودي خلالها مأساة رهيبة قضت على قتل العشر منه، وكان هذا الشعب بحاجة إلى دعم أدبي ومعنوي[(١)].

إن سفر دانيال، كما وصل إلينا، يؤكد في فصوله الستة الأولى، أن يهوه لا يتخلى أبداً عن الذين يؤمنون به. فكما فعل مع الشبان الثلاثة في أتون النار، إذ عاقب المتغطرس ثم عاد فعظَّمه بعد أن تأكد من توبته الحقيقية، هكذا فعل مع نبوخذنصر في جنونه وشفائه. وفي كل الأحوال، إن سفر النبي دانيال يحتوي على معطيات تاريخية مدعومة بالوثائق، ولا أثر لمثلها في أية كتابة مقدسة أو دنيوية.

على سطح قصره المشرف على العاصمة المغمورة بالضجيج والنشاط الفائق الحيوية، وقف نبوخذنصر جامداً مستنداً بقبضتيه على حافة الحاجز القرميدي، شاخصاً ببصره إلى الأمام. فالمشهد الماثل أمام عينيه، يشهد على عظمة وحقيقة مجده! مع ذلك، لم يركز نظره عليه، بل أشاح عنه، لأن عينيه

(١) ان كبار المؤرخين، أمثال رولينسون، يستندون إلى الوثائق الواردة في سفر النبي دانيال لتأكيد الحضارة البابلية الجديدة.

كانتا تفتشان عن أحلام ترضي نفسه القلقة، بشكل أفضل مما ترضيها هذه الأمجاد الماثلة. إن كل أطماعه المسعورة التي غذاها من شبابه، هي الآن ماثلة في فتوحاته التي حلم بها عندما كان يافعاً، وكأنها قصص خرافية من الماضي السحيق. وكل هذه النجاحات وهذه الثروات الخيالية التي لا يمكن تحقيقها إلا بواسطة الآلهة ومن أجل مسرتها، قد حققها نبوخذنصر بفضل عبقريته ورضى الإله مردوك عليه. وفي أعماق قلبه الواجس من هذا المجد اللاإنساني، أخذ يشك بقيمة هذه الأمجاد المادية التي حققها. إنه ما زال يأمل ويرغب ويطمح بفتوحات جديدة، تكون أفضل من الأراضي والكنوز. . . وحتى من المعابد، كذاك المعبد الذي ينتصب فوقه تمثاله الذهبي المهمل منذ الآن! فكل ذلك غدا باطلاً في نظره. . .

إن تشاؤمه الآن، يجاوب دون إدراك منه، على التشاؤم القابع هذه الساعة تحت باب عشتار، والذي يعترف بالتعارض المؤلم بين القيمة المدعومة بالقوة المادية التي تجد دائماً حدود نهايتها، وبين القيمة المدعومة بالقوة الأدبية والروحية التي تبقى الرغبات والآمال فيها بلا حدود حتى الموت.

وعندما خرج للمرة الأخيرة بعربته المجرورة بالخصيان، أخذ يدور بتمهل حول البيوت التي يقبع الناس في الظلال الندية لأبوابها مثرثرين هاذيين. فتألم من هذا الخمول الذي يبدو أنه قد تفشى في سائر طبقات المجتمع البابلي! إذ لم يعد يسمع ذلك الحماس العنيف والهذر المقدس من أجل أمجاد بابل وثرواتها ومصالحها المادية، التي اندفع هو وراءها من نينوى حتى ماجيدو، ومن فينيقيا حتى شواطىء النيل، ومن مصر حتى أورشليم، ومن أورشليم حتى الجزيرة العربية، فصور. لقد كان طموحه في خلال كل هذه الفتوحات راضياً بأن وراءه شعباً ذا قابلية حماسية دائمة، وهو وإن كان يكره بطبيعته الأمجاد التي تحققها الجيوش والأعمال العسكرية، إلا أنه راغب في أن يحقق بواسطتها الثروات التي تدعم قوته وتفتح بالتالي أبواباً جديدة أمام تجاربه، وأن يجعل بنوع خاص من بابل المصرف المركزي للتبادل الاقتصادي في كل العالم القديم، فيفخر بأنه

حقق كل هذه الأمنيات بواسطة شعبه المدفوع بنهم الجنود الذين لا مثيل لهم.

وها هي بابل الآن، بفضل نبوخذنصر وعبقريته، وتفوق رعاياه في عالم التجارة وولعهم بالربح، تبسط سيطرتها من البحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الهندي، وتجذب إليها التجارة العالمية، فارضة عليها ضريبة العشر وضريبة شرفية كرسم مرور.

لكن البابليين المسنين والمغمورين بالمجد والثروات، لم يعد يهزهم أي طموح أو رغبة، سوى الرغبة التي كانت وراء اندفاعهم باسم الوطن والأمجاد، ألا وهي تأمين حريتهم واستقلال وطنهم.

ورويداً رويداً، ساد الأجنبي على سائر أنحاء بابل، وهيمن على شوارعها ومعابدها، وقضى على القوى الحية في الأمة، فأصبحت بابل بلا قضية، وأصبح المواطنون بلا إيمان، يشعرون كأنهم منفيون في هذه المدينة ولا يعيشون فيها إلا بحكم العادة والضرورة، غير مبالين بسوى تحقيق المكاسب المادية.

وطبقة الأشراف ذاتها، التي كانت اللبنة في ملاكات الجيش وفي جهاز الكهنة والإدارات العامة، واستمرت طوال ألفي سنة تمدُّ بابل بالقوة وتذود عنها بالدماء، غدت قلقة على استقلال بابل ومركزها. وبابل نفسها لم تعد بحاجة إلى هذه الطبقة الأرستقراطية الفارغة الأشغال والمنعمة بثرواتها، وهي لم تعد تنتظر أو تأمل شيئاً من هيمنتها ولا من آلهتها، طالما أن الترف والملذات أصبحت كل أهدافها وغاية وجودها.

وتذكر نبوخذنصر أن بين هذه الجموع التي تغصُّ بها شوارع العاصمة، ولا همَّ لها سوى طلب الكسب والمتع والمسرات، رجالاً صفراء الوجوه هزيلين، يفكرون في أبعد من ممارسة الشهوات وتحقيق الثروة والمجد المادي، وهنا يكمن الخطر الحقيقي... إنهم اليهود الذين يعتقدون في كل الأحوال، في حالتي النصر والهزيمة، بأنهم شعب يهوه المختار، فلا يجادلون في أحكامه. إن

آسبيناز كان على حق عندما قدم إليه النصح بأن يفنيهم عن بكرة أبيهم. . . وأن يطفىء عيونهم الحاقدة التي تلاحقه في كل مكان وتقضُّ مضجعه.

ولكن موعد تحقيق آمالهم ما زال بعيداً. إنهم يجلسون الآن على ضفاف الأنهر في بابل يبكون وينحبون، وقسماً كبيراً من أبنائهم قد ترعرع بين الشعب البابلي الغني والسعيد، ناسياً يهوه وأنبياءَه.

إلا أن الكثرة منهم، التفت أكثر من أي وقت مضى حول بعضها البعض، تدفعها الأحقاد والآمال، غير مبالية بإغراءات العلم والفلسفة البابلية. فهي لا تحلم إلا بأورشليم المثالية التي يجب أن تعيد بناءَها. وهكذا حول حزقيال المقيم في بابل، التفَّ الشعب اليهودي في منفاه، متمسكاً بأفكاره كما سبق وعرفه نبوخذنصَّر حول الهيكل في أورشليم. وبإيمان لا يتزعزع، كان النبي حزقيال يذكر من دون كلل ولا ملل هؤلاء المنفيين بأن يهوه سيحقق لهم إعادة بناء أورشليم ومدن يهوذا.

فمند العام ٥٩٥ قبل المسيح، كان حزقيال يطمح في بناء هيكل مثالي، يكون مركزاً لتيوقراطية خالصة لا حكومة عسكرية أو مدنية فيها، بل تكون تحت الإمرة المباشرة لنبي وملك في آن واحد. كما كان يطمح إلى تقسيم الأرض المقدسة إلى إثنتي عشرة مقاطعة، بعدد القبائل القديمة، كي تصبح هضاب أورشليم حتى البحر الميت، غابة عظيمة من الأشجار المثمرة التي تنتج الثمار على مدار أشهر السنة، وتكون هذه المملكة مصدر الحياة والنقاوة لعالم المستقبل.

وفي مصر، وقف إرميا ذات الموقف معلناً باسم يهوه: «إن طريق العودة تُعدّ، والعبادة ستمارس في صهيون، وسأشيدك يا أورشليم من جديد وأعيد بناءَك، لأنني أحببتك الحب الأبدي».

لم يعد نبوخذنصر يتجرأ على الخروج من قصره، خشية أن يعترض سبيله هؤلاء المجانين. إلا أنه فوجىء بحشدهم الصاخب مرة، فحطَّ أحدهم نظره

الحاقد عليه، وقبل أن يستطيع استقصاء المصير الذي يريده له، والملتمع في حدقتيه المظلمتين، توارى عن أنظاره مع رفاقه، تاركين في أعماق قلبه من البؤس والألم، أكثر مما تركته التفسيرات المظلمة التي اضطرَّ إلى الاستماع إليها من أفواه السحرة والمنجمين. فمنذ بعض الوقت، وفي كل يوم، الفؤول السيئة هي إياها... ومع كل محاولاتهم، ما استطاعوا إلا إعطاء هذه التفسيرات المظلمة:

« إن النساء ستلدن أطفالاً بآذان مشوهة، علامة الحداد وتقلص البلد... وهناك كلب غريب تمكن من أن يتبختر في القصر، وأن يدنس العرش بالتبول عليه، علامة على أن الملك سيموت، وأن أعداءه سيتقاسمون البلد!.. كما أن كلاباً أخرى غريبة وسوداء شوهدت في المعبد، كما شوهدت كلاب صفراء في القصر، وهذا دليل على أن المعبد لم يعد مستقراً، وأن القصر سيزول! وفي بابل، لن تلد الكلبات إلا جرواً واحداً في كل مرة، وهذا يعني أن المدينة ستدمر! أما أمعاء الحمار التي استنطقت برعب، فلقد وُجدت منحنية إلى الشمال، مفتولة وسوداء، وهذا يعني أن الله لن يسمح بعد الآن للمملكة بأن تمدَّ حدودها وتوسع أراضيها!!».

إن هذه الفؤول والتفسيرات المتوافقة مع أحاسيس نبوخذنصر الشخصية وهمومه، قد جعلته يفكر بفتوحاته التي استمرت تتجدد فحققت السيادة لبابل، إلا أنها في الوقت ذاته قد قضت على مستقبلها. فالأمة الكلدانية الفاتحة والمعتزة والنشيطة، ستجد نفسها بعد قليل منغمسة في مجاري الدم من جديد، وستفقد بالتالي ميزاتها وفضائلها.

إن العناصر الغريبة التي جمعها نبوخذنصَّر حول شعبه بفضل عبقريته وانتصاراته، قد تكاتفت كلها مستهدفة إبادته والقضاء عليه. ففي كل الإدارات المدنية والعسكرية، اختلَّ الانضباط وعمَّت الفوضى المنبثقة من رفاهية المملكة بالذات، وانطلقت الشكاوى من كل طبقات الشعب. فالتقرير الذي قدَّمه جيميل ـ مردوك عن مهمته في سيبار، يكشف النقاب عن أنه إلى جانب الرفاهية

العامة، هناك جهل وإهمال فاضحان، سيكونان كمرض الجذام المعدي الذي إذا ما تفشى، سيقوض تدريجياً أسس المملكة كلها.

وكان آسبيناز قبل تقرير جيميل مردوك قد قدم لنبوخذنصّر صورة عن رسالتين تشهدان بألم على هذا الانحلال البطيء، بينما ينبسط الترف غير البريء بوقاحة في كل مكان. وهذا ما جاء في إحدى هاتين الرسالتين الموجهة من موظف إلى أخيه، يستحثه فيها على العمل لتأمين قوته:

« إلى أخي يجب أن أقول: أنا «زيمي ـ أرام»، لتكن لك الحياة الدائمة بحق شمش ومردوك، والصحة والعافية. أبعث إليك بهذه الرسالة طالباً أنباء عن صحتك، أخبرني عن صحتك. أنا مقيم الآن في «دور ـ سين» على نهر «بيتيم ـ سيكيريم» حيث المواد الغذائية مفقودة... لذا تراني مرسلاً إليك ثلث مثقال من الفضة، راجياً أن ترسل لي فيه سمكاً جيداً وغيره من المأكولات ».

وفي الجيش، هذه المؤسسة التي كان نبوخذنصر يفخر بها، تكاثر الفرار من الخدمة، ولم يبق مواظباً على عمله إلا الذين في المكاتب. وفيما عداها، أصبحت الملاكات كلها ناقصة، والإحصاءات والمعلومات التي قدمت للملك، كانت كاذبة وخادعة!

ومع صرخة الموظف المؤلمة تتجاوب صرخة الخطر هذه، التي أطلقها أحد القادة العسكريين:

«لوحة من «آنو ـ سار ـ إيوسور» إلى أخويّ: «نابو ـ موكين ـ آبلي، ونابو ـ آهي ـ إيدين ».

« ليمنح بعل ونابو كل يوم الصحة والحياة لأخويّ. إن ضابط التموين «كالبي مردوك»، قد نقل إلى هنا جنودي حيث دللته على نبع ماء. ولكن الجنود الذين بقوا في هذا المكان كم هو عددهم؟ إنهم فقط مئة وعشرون لا غير... أما الباقون، فقد هلكوا أو هربوا...».

وجاء في أمر له بشكل رجاء من الضابط «كالبي مردوك» ما يلي: .

« سأبعث رسالة بهذا الموضوع إلى الجنرال غوبارو، لذا قبل أن تصلني تقارير الحكام المدنيين، لا تقل شيئاً إلى غوبارو بهذا الخصوص. فمن بين الجنود الذين وضعوا تحت إمرتي في عهد نبوخذنصر ونيريغالوصَّر، أي واحد منهم لن يموَّن قبل تموينكم جميعاً. الجنود الموتى سيسحبون إلى الوراء، والفارون سيعادون كلهم. فلا ضرورة كي أعلم غوبارو ».

ويترنح نبوخذنصر! فهذه السلطة القادرة على كل شيء، والتي ثمل بها وبواسطتها استحق من الآلهة إعلان إلوهيته، هل ستصاب بنكسة على يد غيره، أو بإرادة فائقة من أحد الآلهة ؟

باستطاعة نبوخذنصَّر أن يناضل أيضاً مناضلة الند للند وأن ينتصر، لأنه لم يعرف الهزيمة إطلاقاً ولا يستطيع أن يقبل بها. لكنه مع هذا الفساد المتغلغل بتؤدة يشعر أمام كبريائه الثائرة بأنه مجرد من سلاحه! فهذا النصب الهائل المجسم عظمة إمبراطوريته، هل يقوم على أرجل من الفخار؟ إن نبوخذنصر، أمام الشعب الفارسي النشيط والرابض على الحدود نافد الصبر ملجوم الطموح، يشعر بأنه ما زال سيد مصيره، غير أن تفسخ البابليين أنفسهم، جعله مرتعداً غير واثق بمستقبل بابل وسلطتها !

فحواليه الآن في ظل تألقه، تثار الشكوك وتتحضَّر الخيانة. . . فيشعر بها ويتأكد منها، إلا أن همومه تلاحق هذه الأشباح ولا تستطيع تحديد الفريق الذي يخدمه، والفريق الذي يخونه.

فهناك حزبان يتنازعان السلطة منذ سقوط نينوى، ولا يقبلان ممارسة نفوذهما تحت إرشاده ونصحه إلا على أساس تحضير خليفة له. الحزب الأول ينحدر من «كالدو»، تلك الزمرة العسكرية التي خلصت بابل من نير الآشوريين، وهي تلتف الآن حول ناريغلاصر، صهر نبوخذنصر، ذلك الجنرال السعيد الذي سيحقق لها أطماحها في ممارسته لطموحه.

والحزب الثاني يمثل زمرة ترى في «دابيل - إيفيل - ماروداخ»، الابن البكر لنبوخذنصر، الألعوبة التي ستكون بين أيديها وتتيح لها، كفريق يمثل الكهنة، بأن تفرض مشيئتها على الدولة، بحجة أنها تحقق إرادة الآلهة في السماء التي تمثلها هي على الأرض!

ويتساءل نبوخذنصر: ما فائدة كل هذا المجد وهذه السلطة طالما أنه لا يستطيع تحقيق الرغبة الدفينة في قلبه التي اختارت كخليفة له على العرش، الشخص الوحيد الذي باستطاعته أن يملأ فراغه بعبقرية مماثلة لعبقريته وروح مماثلة لروحه، هو نابونيد، ابن ساموا دانجا»، المرأة التي هام بها نبوخذنصر، وهو في شرخ شبابه، وهي منذ أربع وعشرين سنة تخدم معبد «سن» ككاهنة. فأي «أم ملك» عظيمة ستكون؟!

وإذا كانت عقبة واحدة كهذه تعترض إرادته ولا يستطيع إزالتها، فهذا يعني أن نبوخذنصر قد فقد فعلاً سطوته، وتعطلت دوافع نشاطه، وزعزع الشك والخوف توازن شخصيته القوية التي ابتدأت تتوارى مع تحقيقاته الضخمة. إن كل شيء ينهار، وطالما أنه لا يستطيع عمل كل شيء، فمن الأفضل له أن لا يرى شيئاً. ومن قمة مجده وعظمته وغبطته أخذ نبوخذنصر يتجرد من كل شيء أحبه، ومن السلطة بنوع خاص، لأنه شعر ببلوغه آخر حدوده...

إن نبوخذنصر لم يعد يتوق للحكم، لكن إذا كانت إرادته لم يعد بإمكانها إرضاء طموحه، فإن كبرياءه التي ما زالت تلتمع في نفسه المشوشة، تأبى أن تكون هناك مطامح أخرى تستطيع فرض إرادتها عليها وإذلالها. لذا عندما كان يذرع أرض قاعة قصره مغموراً بالحزن، غير مكترث لمملكته ومصيرها، وتدوّم في رأسه ظلمة موحشة، لم يفكر أبداً بالتنازل عن العرش، لأنه ما زال قوياً لدرجة لا يستطيع معها أحد أن يفكر بخلعه، حتى وإن كان ولده أو أحد أصهاره. فهم لن يتجرأوا على تحقيق أطماعهم لأنها ستقابل بمعارضة محبطة،

عدا أن كبير السحرة «بيل ـ سوم ـ إيسكوم»، يستطيع باسم الملك أن يحقق رغبات الآلهة ويمارس السلطة مكانه . . .

أما جنون نبوخذنصر، فتفسيره سهل جداً، وحوله تندر الأنبياء والفلاسفة والأدباء ليعيبوا كبرياء الأطماع البشرية. فالجنون والصواب، لا يمكن أن يكون لهما حدود ونهاية إلا في وظيفة القوة العقلية التي يختصمان عليها. فهل من الممكن أن تعطي الأحلام البشرية مقياساً مشتركاً واحداً ؟

إن الكلام عندما يدور على عبقرية نبوخذنصر، من الأفضل أن ننسب إليه انهيار الأعصاب، من أن ننسب إليه الجنون. إلا أن المؤرخ لا يكتفي بهذا القدر، فهو لا يمكنه إلا أن يؤكد عدم ممارسته لسلطاته مدة أربع سنوات.

إن اختلال التوازن الذهني كان دائماً فدية الجبروت، وإرادة نبوخذنصر المغموسة بحزن الرجل الذي يقترب من مصيره، قد تضعضعت ولم يعد بإمكانها ممارسة وظيفتها. وكيف لا تتأثر عبقرية نبوخذنصر وهو يرى وراء أحلامه التي تحققت، خميرة النجاح ذاتها، تقضم لحمة مطامحه الراضية؟ إن الاختلال لدى فاتح كنبوخذنصر، سببه التبصر بالفساد الذي كان يقضي ببطء على ما حققه، قبل أن يبلغ طموحه أقصى أمانيه. ومثل هذا الفساد، سيحمل جرثومة الانحلال والفناء لكل فاتح جديد.

ويظهر التاريخ هموماً أقل قساوة من تلك التي سببت «جنون» نبوخذنصر. فأشوربنيبال، قد دوّن يأسه المرّ على قرميدة، إذ قال:

«عملت كل شيء من أجل الآلهة والناس، فلماذا ابتليت بالحزن والأمراض، والبؤس والنحس؟. . إن هموم الفكر وعذاب الجسد تنهكني. . . وبالدموع أستدعي نهاية أيامي. . . ».

والكتب المقدسة تحمل إلينا صدى الكآبة الحادة التي عانى منها سليمان الحكيم في أواخر أيام مملكته. وأحشويروش، الملك الفارسي، يُعتقد أنه قد جُنَّ بعد أن خسر أسطوله في معركة سلامين. كما أن الأسكندر الكبير، أصيب

بالدوار في رأسه والبلاء في قلبه، عندما رفض جيشه عبور نهر الغانج !

وفي الأزمنة الحديثة، تعكس مذكرات سان سيمون والوثائق التاريخية في جزيرة القديسة هيلانة، الضلال الرهيب الذي أصيب به إثنان من كبار الفاتحين، اعترضت تحقيق مطامحهما عقبات كانت نابعة من الانحلال البطيء الذي كانا يحسانه يتفاقم، ومصدره مطامحهما بالذات. فنابوليون بونابرت، قد ترك وثيقة تعكس أحاسيسه في محنته، هذا بعض ما جاء فيها:

«. . . وإذا عنَّ على بال أحد أن يدوِّن بأنه قد أصبح لي جلد مكسوّ بالشعر كجلد الحيوانات، وأني غدوت أدبُّ على أربع قوائم، فسيجد أناساً يصدقون هذا القول، ويزيدون عليه بأن هذه هي إرادة الله الذي شاء أن يعاقبني كما عاقب نبوخذنصَّر. . . أما أنا، فليس باستطاعتي أن أفعل شيئاً !

*

في قصره، أطبق نبوخذنصر العزلة على نفسه وامتنع عن مقابلة الناس، باستثناء بعض الأقارب. وفي أرجائه، عاش مع نفسه الحزينة التي كانت تستنفد جسده، كما تستنفد الغمد نصلة السيف! . .

إنه مريض، ومرضه يزداد خطورة يوماً إثر يوم، دون أن يتمكن من إيجاد وسيلة لتلطيف مخاوفه، فأخذ يتساءل: لماذا لا يكون العالم بمقياس أحلامه؟! لماذا تسمح الآلهة بتقويض أعماله التي لم يحققها إلا لمجد مردوك، إله بابل ؟

وفي كل نسمة هواء كانت تهبّ عليه وهو على سطح قصره، أخذ يفتش عما يخفف عنه هذه الضائقة المحمومة. وفي همسات الخدم المتوارين من أمامه، كان يتصور له بأنه يسمع الشكاوى التي سبق لجده «لال ـ أور ـ آليما»، ملك نيبور، أن صعَّدها زفرات من أعماق قلبه، عندما تداعى عرشه بتخلي الآلهة والشعب عنه. هذه الشكاوى التي ما زال الشعب البابلي، بتقاليده الموروثة، يتناقلها كأنها الصدى الدائم لكل اللآلام البابلية الحادة :

« لقد انهارت قواي وبشير الشؤم يتراقص أمامي،
على سريري أتلاشى كمثل الثور،
وإلى قبري المفتوح أدخلوني قبل أن أموت،
وتكامل النحيب علي. . .
التعاسة تلاحقني، كأنني يا إلهي لم أقدم لك الضحايا بانتظام،
أو كمثل ذاك الذي أخرسوا الصلوات في فمه.
فيما يخصني، لقد كانت الصلوات تأملي، والضحية شريعتي ».

وكمثل جده «لال ـ أور ـ آليما»، ارتسم هذا السؤال الكبير على شفتي نبوخذنصر :

« من باستطاعته إذن، أن يعرف نوايا الآلهة في السماء ؟
ونصيحة الإله، أي كائن خزفي سوف يفهمها ؟
وما الطريقة كي يفهم البشر صوت الإله ؟».

وفي المدينة، كما في سائر أنحاء المملكة، كان الرأي العام قلقاً ! فهو يريد فتوحات جديدة وأصداء مدوية تنبىء البابليين بمستقبل زاهر. إن البراءات والإرادات الملكية لم تعد تحمل خاتم الملك! والعيون الشاخصة بجدران القصر السميكة، وببرجه الجبار المحاط بالأسوار الهندسية، تحاول النفاذ إلى داخل هذا القصر لمعرفة حقيقة الصمت المخيم عليه. ماذا يفعل ابن مردوك وسيد الأرض داخل هذا القصر؟ هل طلبوا إليه تحقيق أعمال فوق طاقته ؟

وداخل القصر وفي الأزقة خارج أسواره، أخذ الناس يتهامسون قائلين: إن الأنبياء قد عاقبوا كبرياء الظافر لأنه دمَّر مدينة الله المقدسة أورشليم. والعزلة القاسية المحيطة بنبوخذنصر، وصراعه مع نفسه، والهلع المسيطر عليه، كل هذه الأشياء جعلت الناس يصدقون خرافة الانتقام.

وأخذ نبوخذنصر، غير مكترث بقلق شعبه، يتبرم ويتشكى مما أصبح عليه. وبرغم يقينه بأن مطامحه وأحلامه كلها قد انهارت، فقد أبى الاستسلام

لهذه النهاية. لذا أخذ يتنزه في قاعات قصره وعلى مصطباته، تحف به الظلمة، ولكن ليس كالمصروع، بل كالرمز المجسم للإنسان الذي انصبت عليه التأثيرات القاتلة أكثر من أي إنسان على الإطلاق!

وسواء اعتبروه مجنوناً أو اعتبروه مريضاً، فإن كل المواطنين في مملكته خلصوا إلى نتيجة واحدة، وهي أن ملكهم قد ارتكب إثماً! وشريعتهم تقرُّ بغضب الإله على الرجل الخاطىء. كما أن اللاهوتية الأخلاقية عند البابليين، تعتبر أن المرض هو القصاص العادل الذي يجب أن يعاقب به الإنسان من قبل الآلهة، ليكفِّر عن خطاياه قبل موته!

ورويداً رويداً، وكلما انطلقت الإشاعات من القصر إلى سائر أنحاء المدينة مؤكدة مرض نبوخذنصر، كانت الجماهير تقصد القصر كل يوم مدفوعة برغبة الاستقصاء، مقتنعة بأن ملكها قد أثار غضب إلهه عليه بسبب خطاياه، وأن عليه أن يكفر عن ذنوبه بشكل لائق ومحترم، لأن الآلهة لا تنتظر موت الإنسان كي تعادل بين الخير والشر بفرض القصاص عليه.

والتمع بريق خافت في دماغه: إذا كانت هنا حقيقة العقبة الوحيدة التي تعترض مجده وأحلام حياته وإرضاء كل مطامحه، فليس من العيب في شيء الخشوع أمام إلهه، لأن الخشوع أمام الإله كالخشوع أمام الضمير لا يذل الكبرياء.

وفي صباح يوم، وبسرية تامة، انحنى نبوخذنصر أمام «الأشيبو»، الكاهن المخصص لتنقية النفوس، ملتمساً الصفح عن خطاياه بقوله هذا:

« أيها السيد، إن خطاياي عديدة وأغلاطي فادحة.

أيتها الإلهات التي أعرفها أو التي لا أعرفها، إن خطايا عديدة وأغلاطي فادحة ».

قال هذا، وفجأة عاد إلى نفسه، فانتفضت كبرياؤه بغضب وقال:

«الخطيئة التي ارتكبتها لا أعترف بها،

والغلطة التي ارتكبتها لا أعترف بها ».

لكن ثورته هدأت بإشارة من الكاهن، وشعر بأنه لا مفرَّ له من إكمال الواجبات الدينية، فأخذ يتمتم بينه وبين نفسه:

« يريد أن أتكلم على أعمالي، إني لا أريد أن أتكلم عليها ».

ومع هذا، بقي نبوخذنصر وقتاً طويلاً مطاطىء الرأس يكاد يلامس الأرض، وهو يعترف أمام الكاهن المرتعب، بشهواته التي لم تشبعها الغزوات والفتوحات بعد، وذلك بصوت تخللته بين لحظة ولحظة نبرات السيطرة الأمبراطورية.

ثم، وكأن خطاياه قد غُفرت له، أخذ يتلو على مهل فعل الندامة والغفران الإلهي ويقول:

« ليهدأ الغضب في قلب السيد.
ليهدأ الإله الذي ثار ضدي.
أعلنْ خلاصي وليهدأ قلبك.
خلاص جسدي المعذب، المملوء بالاضطرابات والقلق.
خلاص قلبي المتألم، المملوء بالدموع والتنهدات.
خلاص فؤولي الحزينة، المضطربة والمبلبلة.
خلاص بيتي المغمور باليأس والناطق بالشكاوى .
خلاص نفسي المثقلة بالدموع والتأوهات ».

وعادت إلى ذاكرته فجأة، الصلاة الرائعة التي لم يكن باستطاعته فهمها عندما كان شاباً، والتي دوّنها أشوربنيبال، برغم كبريائه:

« ليبدد نظر العناية الإلهية الملتمع في وجهك الأبدي حزني، ويبعد عني غضب الإله وسخطه. وليصفح عني جميع الخطايا والاعتداءات التي ارتكبتها لأنني لست إلا خادمه. ليأتي وجهك القوي لنجدتي، وليتألق كالسماء ويغدق عليَّ الغبطة والثروة ».

وبعد أن انسحب «الأشيبو»، بقي نبوخذنصر ساجداً ووجهه يكاد يلامس الأرض! فقلق عليه خادمه الأمين آسبيناز، ومن دون أن يخشى غضبه، دخل عليه ووقف أمامه بكل احترام وخشوع. ولما رأى نبوخذنصر بسمة مشرقةً على وجه خادمه، قال له:

- أيها العبدُ، استمع إليَّ.
- نعم يا سيدي، نعم.
- إذهب رأساً وجئني بالماء كي أغسل يديَّ وأقدم التقدمة لإلهي.
- إفعل يا سيدي، فالذي يقدم التقدمة لإلهه يكون قلبه فرحاً، وما يقدمه سيعطى بدلاً عنه.
- لا أيها العبد، لا أريد أن أقدم التقدمة لإلهي.

أجاب آسبيناز بدهائه وخبثه اللذين بفضلهما، كان يتآمر على سيده مع هذا الفريق أو ذاك:

- لا تفعل، لا تفعل يا سيدي، ستعلِّم إلهك المشي وراءك كالكلب! وإذا ما احتاج إليك، سيسجد لك ويكون شيئاً آخر!
أجاب الملك:
- استمع إليَّ أيها العبد.
- نعم يا سيدي، نعم.
- إذهب تواً وأحضر لي الماء كي أغسل يديَّ، أريد أن أتناول الطعام.
- كلْ يا سيدي، كلْ. فالأكل يفتح القلب، وعندما تأكل بقلب فرح ويدين نظيفتين، يُقبل شمش.
- لا أيها العبد، لا أريد أن آكل.
- لا تأكل يا سيدي، لا تأكل! يجب أن تجوع ثم تأكل، ويجب أن تعطش ثم تشرب، هذه هي حاجة الإنسان.

وفي اليوم التالي، لمح نبوخذنصر كبير السحرة «بعل ـ سوم ـ إيسكون»، فعاد إلى هذيانه:

ـ أيها العبد، استمع إليَّ.

ـ نعم يا سيدي، نعم.

ـ أريد أن أثير العصيان...

ـ أثرْ يا سيدي، أثرْ. فإن لم تثر العصيان أي فرح يكون فرحك؟ ومن يعود يعطيك ما يلزمك لملء معدتك؟

ـ لا يا عبدي. لن أثير العصيان أبداً.

ـ لا تثره يا سيدي، فمن يثير العصيان هو مجرم يفقؤون عينيه، أو يمسكون به ويطرحونه في السجن.

لم تغمر السكينة نفس نبوخذنصر ولم يخلّصه الإله من ضيقه. وفيما هو واقف في الظل يعاني من متاعبه، تذكر الوصايا الأخلاقية التي تنظم سلوك البابليين، منذ حمورابي، فأخذ يردد بصوت رتيب متوافق مع ضربات رجله الخفيفة، المقاطع المخصصة بالاعتراف السلبي:

« ألم يخلَ سبيل السجين ؟

ألم يفكَّ المغلول ؟

هل قال نعم وهو يقصد لا ؟

هل قال لا وهويقصد نعم ؟

هل تلفظ بكلام بذيء ؟

هل سار مقتفياً إثر الشر ؟

هل اجتاز حدود العدالة ؟

هل فعل ما ليس جميلاً ؟

وهناك، عند أسفل الأسوار التي تحيط بالمدينة الملكية، أخذت الأمواج البشرية تتدفق بلا انقطاع إلى أمام الأبواب الضخمة المغلقة، يساورها القلق وتخيم فوقها الكآبة. لكن نبوخذنصر غير المتحسس بها، استأنف مشيته البطيئة،

وأكثر فأكثر أخذت الفكرة، بأن الإله المنتقم حاضر إلى جانبه، تلاحقه وتحاصره، فتزيده رعباً ولا يستطيع الفرار منه. فهو يشعر بوجود هذا الإله المؤنب ويكاد يلامسه... فمن يكون هذا الإله يا ترى؟ أيكون مردوك؟ وماذا يريد منه؟ أعليه أن يصلي ويسجد ويتذلل له أيضاً؟

وبعد هذا التساؤل، كاد نبوخذنصر أن يصرخ... لكن صرخة الضيق توقفت على شفتيه. فكبرياؤه لم تمت بعد، وهو ما زال سيد إرادته. فانتفض واقفاً بشعور الإنسان الذي وقع في الفخ، وهرول مدفوعاً بالغضب العاصف الذي لا يوصف... إنه لم يرتكب أية خطيئة، ولم يقاوم الآلهة. فالحب... الحب وحده ينقصه، وهو الضرورة التي لا بدَّ منها لدعم أمجاده.

واتجه نحو آسبيناز الحاضر دائماً، وصرخ به قائلاً:

ـ استمع لي أيها العبد.

ـ نعم يا سيدي، نعم.

ـ أريد أن أعشق امرأة!

ـ إعشق يا سيدي، إعشق. فالرجل الذي يحب امرأة ينسى كل همومه وأحزانه.

ـ لا أيها العبد، لن أعشق امرأة.

ـ لا تعشق إذن يا سيدي، لا تعشق. إن المرأة هوة سحيقة وشرك لا قعر له. المرأة سيف قاطع في عنق الرجل.

عند ذاك، صاح نبوخذنصر: مردوك، مردوك إذن... واسترسل مع الليل المقبل بكوابيسه وضيقه، في النحيب والتشكي والصراخ، داعياً السحرة لإجراء طقوس التكفير، فتجمهر على صراخه موظفو القصر. وفيما كان يحاول الهرب من شبح الرعب، كان هذا الشبح يدفعه أمامه في الممرات والقاعات والسطوح، ويتصوره ملاحقاً له في ظلال خطواته المتسارعة!

وفجأة، التمعت شعلة، كانت الوحيدة في ذلك الليل التي بددت الظلمة في الباحة الثالثة من القصر، وضمن دائرة نورها المتموج، لمح نبوخذنصر

السحرة المسرعين للقيام بالطقوس المقدسة. وانطلقت صرخة مفاجئة انزلقت معها رجله على البلاط، وشعر كأن تياراً بارداً وحاراً في آنٍ واحد قد لفَح جسده! إنه دم الحمل الذي ذُبح... وأخذت عيناه تتفرسان في العتمة حيث الرجال والنساء كالأطياف هناك. ومن هذا الجمع المغفل الصامت انتشرت رائحة مرهم «نينورتا» الذي تدهنوا به ليسبغوا على أنفسهم صفة القداسة، فزادت ضيقه ضيقاً.

وفجأة، وجد الملك نفسه وحيداً وسط الباحة! ثم قام الساحر بحركة بطيئة وشعلة التطهير في يده، انبطح بعدها على الأرض أمام الهياكل السبعة التي انتصبت على مدى الأسوار، وكان الملك يرى عليها تقدمات البلح والعسل والخمر والعطور. ثم عاد الساحر فوقف أمام الملك، وامتزج دم الخروف بخمر التقدمة، ولفَّت الملك دائرة النور الكبيرة التي كوَّنتها الشعلة، فتعالى صوت الكاهن الرهيب في ذلك الليل بالتعزيم والتعويذ الأسمى: «عاصفة جبارة تمضي في السهل...».

لم يعد نبوخذنصر يشعر بالخوف، فهو منهوك من التعب، لم يشعر بنفسه إلا وقد ارتمى على أريكة قاسية في القاعة الأولى التي ولجها. إنه يرتجف مطبق العينين! وبغتة، أخذ القلق يحثه وهو في نعاسه المضني، فيوقظه الكابوس الجلي شيئاً فشيئاً...

ومرَّت أيام وليالٍ جديدة من دون أن يجد، مع سكينة نفسه، الشفاء لجسده. فانزلق لاشعورياً، في منحدر من اليأس الطفولي ووهنٍ في العزيمة لا نهاية له!

وفي صبيحة يوم، قال لآسبيناز بصوته الحزين:

ـ أيها العبد، استمع إليّ.

ـ نعم يا سيدي، نعم

ـ سأقدم منفعة لبلدي.

ـ إفعل يا سيدي، إفعل. فالذي يؤمن منفعة لبلده يجد منفعة لدى مردوك.

ـ لا أيها العبد، لن أقدم أية منفعة لبلدي.

ـ لا تقدم يا سيدي، بل اصعد أنت بذاتك إلى خرائب المدن الأكثر قدماً، وانظر في جماجم الذين ماتوا مبكرين والذين ماتوا متأخرين، هل تستطيع أن تعلم من هو الخبيث فيهم ومن هو صانع الخير ؟

فهزَّ الملك المرتعب آسبيناز بيديه المتشنجتين، وهو في أعلى درجات اليأس، وصاح به:

ـ أيها العبد، استمع إليّ.

ـ نعم يا سيدي، نعم.

ـ ما هو الصالح الآن ؟

ـ إسحق عنقي وعنقك واطرحهما في النهر، هذا هو الصالح! من هو هذا الطويل بمقدار يسمح له أن يصعد إلى السماوات؟ ومن هو هذا العريض بمقدار يستطيع معه أن يغطي كل الأرض ؟

ـ لا أيها العبد، أريد أن أقتلك أولاً وأرسلك قبلي.

ـ حينئذ، لا تستطيع يا سيدي أن تعيش إلا ثلاثة أيام بعدي...

*

ثلاث سنوات تصرمت، كان نبوخذنصر في خلالها يتخبط في يأسه كالأعمى، «كان بمقدوري...» هذا ما كان يتمتم به من دون أن يدرك أن هذه الشكوك التي خلقها حوله، هي ذاتها التي منعته من أن يبقى سيد إرادته وسيد مصيره. وتزدحم الصور في مخيلته، ولكنه لا يفتش بينها ولا يحتفظ منها، إلا بتلك التي تسمح له بأن يشك بهذا المستقبل الذي يشعر بأنه ما يزال يتململ في أعماق قلبه، غنياً بالوعود والمجد.

وفيما كان جالساً على إحدى مصطبات قصره ذات صباح، انطلقت من أفواه الشعب الكئيب الزاحف بلا انقطاع باتجاه الأبواب، هذه الأنشودة المفعمة بالأمل والحب:

« لتكن شبكة القنوات ملكاً له.
ليكن الجبل الذي منه القبائل ملكاً له.
لتكن مراعي القفار التي منها القبائل ملكاً له.
لتكن حدائق الأشجار المثمرة ملكاً له.
ليدم ملكاً وراعياً للشعب.
ليقبض على الشمس بيده اليمنى.
ليقبض على القمر بيده اليسرى.
ليدخل الشيطان الملائم والعملاق الملائم، اللذان يسودان ويحكمان المملكة، في جسده ».

إن نبوخذنصر يعرف هذا النشيد الذي سبق لرعاياه أن أنشدوه له فيما مضى منَ الأيام الغامضة، يوم كان يتلاعب بمستقبل المملكة، كي يعربوا له عن كامل ثقتهم وكامل تقديرهم. وإن شعبه ما زال يأمل فيه وينتظر منه العجائب، وهذا هو اليوم المبارك الذي يحمل إليه مع نداء الشعب، صفح مردوك.

وانحنى نبوخذنصر على قلب آسبيناز وتمتم بهدوء:
« أعرف وقتاً أدركت دموعي فيه نهايتها.
فالذي أخطأ تجاه حزقيال، ليأخذ العبرة مني ».

الهزيمة الوحيدة والحاسمة

وقف نبوخذنصر على أعلى سطح في قصره، فيما كانت الساعة المنيرة التي تسبق غياب الشمس، تذهّب أشجار الأرز الشامخة برغم تراقص النور الشفاف عليها. هذه الأشجار التي بدت حزينة باهتة الاخضرار، ككل شيء أُهمل في القصر، بعد أن غاب عنه سيده مدة أربع سنوات.

لقد عاد نبوخذنصر لممارسة سلطاته، بعد أن قوّست السنون ظهره، وقرضت العلة جسده وأنهكته. فوقف يحاول في نداوة المساء، نسيان تلك المرحلة من الحكم الذي استعاد مقاليده الآن، برغم أن الحزن ما زال قابعاً في أعماق قلبه. وطافت نظراته المتعبة فوق المدينة والريف، وذلك السهل العظيم المغمور بالأزهار والاخضرار، فتذكر أيام شبابه، وأنه فوق هذه الرقعة الفسيحة، عرف أفضل ساعات عمره وحقق أجمل أحلامه. وتواردت إلى ذهنه ذكريات الماضي، مع الخطوط الطويلة اللامتناهية التي يرسمها الفلاحون، فأثارت في نفسه شعوراً لا يوصف!

فهذا الأفق الذي يطوق السهل من كل نواحيه، وتضيق دائرته شيئاً فشيئاً على المدينة مع ظلمة الليل المقبلة، أليس هو إياه الذي يطوق الآن حياته ويفتح عليها التطلعات العريضة لرغبته غير المحدودة، في الوقت الذي يرى فيه هو حدوده ماثلة أمام عينيه؟ فبأي سكرة كان خياله وكبرياؤه منذ أربع سنوات، يلتهبان حماسة أمام هذه الأماكن التي تستكتب تاريخ عظمته ومجد مملكته؟

إن هذا التكدس الهائل من القرميد فوق القصور والمعابد الشامخة في السهل البهي، وهذه الثروات التي وفّرها، خير شهادة له على ما حقق وما أعطاه

من طاقته الجبارة. وكان يأمل بعد كل هذا، الخلود لنفسه، كي يجعل من مصيره المعافى مصير شعبه والعالم القديم كله، الذي افتتحه بقوة جيوشه التي لا تقهر، وحضارته التي لا تضاهى.

وهذا المساء، بعد أربع سنوات من تلاشي إرادته كملك، تبدو أمام عينيه كل هذه الآمال، كلوحة رهيبة عظيمة يحف بها الإهمال والكآبة !

ومع هذه الغشاوة على عينيه، ما يزال قلبه يخفق بهذه القوة الحية المغلوبة على أمرها التي تدغدغ ظلمة نفسه المقبلة مع ظلمة الليل بعد انقضاء النهار، فيصيخ بأذنيه رغماً عنه إلى هذه الأصوات التي تحنُّ لأورشليم، والتي منذ الصباح كانت تصل إلى مسامعه مع نبرة إرميا العنيفة. كما أنه من منفاه البعيد وراء النيل، كان النبي العجوز يقدِّر بأن بابل قد أكملت المهمة التي انتدبت إليها من قبل يهوه، فأبادت ملوك يهوذا الفاسدين، كي تبقى مدينة أورشليم تلك الشعلة المضاءة بيد الله.

إن فتوحات نبوخذنصر قد انتهت، ليس فقط لأن الإله لم يعد بحاجة إلى سيفه، ولكن لأن هذا الإله يريد أن ينتقم منه أيضاً، لأنه تمادى ولم يقف عند حدوده.

« اصطفوا كلكم ضدَّ بابل، وأنتم أيها الرماة، أطلقوا سهامكم عليها ولا تدخروها، إن بابل ستصبح كومة من الأطلال وحجراً لبنات آوى ».

هكذا انطلق إرميا يبشر بأفول نجم بابل. وبعد أن سبق له ووقف على أطلال أورشليم يمجد عاصمة نبوخذنصر، ها هو اليوم يدعو إلى تدميرها وخرابها :

« أهبطي من عليائك إلى الحضيض يا بنت بابل، واجلسي على الأرض لا على العرش يا ابنة الكلدانيين، فلن يدعونك بعد الآن بالمرهفة والمغرية. خذي حجارة الرحى واطحني الحنطة. إنزعي الحجاب عن وجهك، وارفعي ثوبك، ثم اكشفي عن ساقك لتعبر السيول. أبيحي عريك ليشاهدوا عارك. تقوقعي في

صمت واستتري في الظلمة يا ابنة الكلدانيين، فلن يدعونك أبداً بعد الآن بملكة الممالك ».

لقد توارت الشمس الآن، إلا أن حديقة القصر، تبدو في إطار المدينة الغافية كأنها تتململ، برغم الإهمال الذي تعانيه، فيشعر نبوخذنصر بأن قلقه ينساب من نفسه ببطء، مع الرائحة الطيبة التي تنشرها أشجار الأكاسيا والتين. فيأخذ مع سكينة المساء يحدق يائساً بالخط الأحمر في الأفق البعيد الذي يفصل بين الأرض والسماء، فيراه يتمدد ويطول ويصبح في منتهى الدقة، فيفتش فيه عن مصيره الغامض. لكنه أمام التحديق المركز، يتكون السراب شيئاً فشيئاً ويتضح أمام عينيه !

إن بابل أخرى تنتصب هناك وراء الأفق، سوف يحكمها صهره المفضل نابونيد، المهمل لتقاليد وأعراف شعبه، والمتخلي عن آلهته ومعابدها لآلهة غريبة !

وأطبقت عينا نبوخذنصر على الرؤيا التي تخفق بعيداً في السماء كصورة للتخليات والتنكرات، إنها سراب. . . وأحلام وجنون. فالحقيقة ماثلة أمامه. إن بابل المظلمة، تبدو بكاملها كقلعة رهيبة، وعاصمة حصينة لأمبراطوريته، وقاعدة لمجده. فأخذ يتفحص بنظره القلق الجدران المتدرجة بعضها وراء بعض، والأبراج التي تحمي الأبواب. ثم أبعد من ذلك، الخنادق ومجاري المياه والمستنقعات والقنوات، فقدر أهمية الاتكال على نابونيد للمحافظة عليها. إن بابل حاضرة دائماً أمامه، معلنة له قدرتها على الصمود.

وفجأة، يشيح بعينيه ويبسط ذراعيه، طارداً الشبح الذي انتصب دامياً أمامه. . . إنه شبح ابنه «إيفيل ـ ماروداخ»، بوجهه الشاحب تحت التاج المستدير، رمز الملوكية. ووراء هذا الشبح، تراءى له ناريغلاصر، صهره الآخر، وهو يخفي خنجراً يقطر بدم ابن حميه! وتصوره يمدّ يده باتجاه رأس الجثة الغائصة بالدم. . . فأدار نبوخذنصر رأسه بهول. . .

لكل بابل، هذه البابل التي رفع أمجادها كي تكون قاعدة سيادته، والتي عرف كيف يجعلها منيعة لا تقهر، يجب على أعدائها أن يثيروا الشعب ضدها أكثر من الجيش كي يحاصروها. إلا أنها ستبقى محرمة على كل مغتصب، برغم الإهمال الذي سيلحقها من قبل الذين سيخلفونه.

وفي ذلك الليل، لاحق بصر الملك الشيخ، مع الإقرار بالجميل، مجاري مياه الفرات المتعرجة التي عرف كيف يروضها ويستخدمها في الدفاع عن العاصمة، فرأى تألق السماء ينعكس على صفحة مياهها الحامية للمدينة. ثم توارى هذا التألق بسبب الغيمة التي حجبت نور القمر. فتذمر نبوخذنصر... يجب أن يعود لهذه المياه الحامية تألقها. وانحنى يتفرس في ظلمة الليل... ما هذا التحرك المفاجىء وهذه الضوضاء المضطربة؟ إن النسيم يتلاعب برؤوس أشجار الأرز الشامخة! وهو يريد أن يرى، أن يرى كل شيء، ماذا يجري يا ترى؟ وفي القصر أيضاً تضاء المشاعل...

وأخذت أذناه تطنان! إنه يسمع صراخاً وأناشيد! فما هذا القصف وأي عيد ماجن يحتفلون به؟! وهناك من جهة الفرات، يتصاعد الصخب المصمُّ فيصل إليه من فوق الأسوار، ثم ينتشر ويغزو المدينة كلها، فيسمع طرق أصدائه على أبواب القصر بالذات!.. فيتراجع مصعوقاً! ويتكاثف الظلام أمامه. لكن الضياء ينير بصيرته، فيرى في النهر الذي تحول مجراه نحو البحيرة الاصطناعية «أرادريكا» التي حفرها من أجل ازدهار العاصمة، يرى عوضاً عن الماء، الرجال المسلحين المسرعين بين الأسوار العالية، فيتعرف بينهم إلى خوذ الرماة الفرس، الذين كانوا يصعدون ويصعدون باستمرار، بينما كان القصف والمجون وراءه قد أصبحا داخل القصر... بصخبهما وضجيجهما الهائلين!!

«نابونيد، نابونيد!»، أخذ يصرخ نبوخذنصر دون أن يسمع أي صدى لصراخه... فنابونيد أمام سيبار التي أخلاها ثم سقط هو أسيراً بيد قوات الفرس المتقدمة! ولم يبق على رأس بابل المتجبرة إلا امرأة وولد هزيل، هما بلتازار زوجة الملك وابنها.

« مردوك، مردوك! أنقذ عاصمتك، عاصمتك التي بنيتها لمجدك ». هكذا تابع نبوخذنصر صياحه. ولكن من يكون هذا الأمير الأجنبي في الإيزاجيل، في ظل الزاكورة التي شاءها نبوخذنصر أكثر ارتفاعاً وغنى من أية زاكورة أخرى للإله الظافر بعل. إنه ملك الفرس... قورش، الممسك بيد الإله !

ولم يتقوض شيء... ولا انهار شيء! فمردوك غير المتأثر، يخضع الآن لسلطة الأجنبي، وكأن السنوات الخمس والعشرين في خدمته، لم تكن! فتمتم نبوخذنصر بهذا الكلام وهو مغمض العينين:

« وأنت أيضاً يا مردوك، يا إلهي!.. ».

لكن كبرياءه انتفضت من جديد، وصاح قائلاً: « لتفنَ بابل ولا تكون قاعدة لأجنبي ! »، ثم أخذ يتطلع إلى السدود عند أبواب المدينة التي ليس عليه إلا أن يعطي الأوامر بفتحها، كي تغمر المياه الأسوار رويداً رويداً، فتتهادى وتنهار. وفجأة، أمام عينيه المبهورتين، ارتسم السراب مجدداً، فتراءت له بابل كومة من الأنقاض... هذا ما حلَّ بها، ولكن ليس بإرادته الملكية هو، نبوخذنصر، بل نتيجة الغضب المحق لأحد ملوك الفرس، بعد مضيّ قرن، هو الملك أحشويروش الذي لم يتورع حتى عن انتهاك حرمة قبر الإله بعل ! وهكذا لم يبق من أمجاد نبوخذنصر وإنجازاته في بابل، إلا بعض المدرات الثقيلة الدكناء اللون، والمسحوقة بأشعة الشمس، التي حولتها الأمطار إلى بقع قاتمة مبددة فوق الرمال التي لا تحدّ، فأصبحت أثراً بعد عين !

وبعد أن استعمل المنتصرون حتى الأنقاض ذاتها، لم يبق القرميد المطليّ بالميناء على امتداد مملكته، يعكس فوق الزاكورات الجميلة أشعة «شمش»، ولا أشعة «سن». وفي الريف المجاور، غطت رمال الصحراء القنوات والمروج والأزهار !

وسرت قشعريرة في جسد نبوخذنصر هزَّته من أعلى رأسه إلى أخمص قدميه، فاختلط معه هذيانه بحمَّاه! وعلى السطح المكنس بالهواء الشديد البارد،

تصور بأن التموجات التي تبسطها الصحراء حتى حدود الأفق الدائرية، ستلفه وتجذبه لتدفنه في رحابة تلك الصحراء اللامتناهية، التي لا تعرف من الحقائق إلا الأوهام والأحلام. والأوهام والأحلام، أليست هي العوامل الأفعل لتجدد الأمل باستمرار ؟

ومع الحمى المرتفعة، أخذت المدن التي دمَّرها نبوخذنصر، وفي طليعتها أورشليم مدينة الله، تتراءى أمام عينيه. . . ومع ذلك، بقي على سطح قصره مغموراً بالأسى حتى انبلج الفجر. ساعتذاك، انتفض واقفاً وأسرع فأيقظ خادمه آسبيناز، وقال له بلهجة الأمر الشديد:

- «ينبغي أن يجتمع كل أفراد البلاط، وكل الكهنة والقواد العسكريين، وكل الموظفين والخدم، وحتى العبيد! كلهم في هذه اللحظة يجب أن يلحقوا بي إلى السطح. . .».

فأسرع الكل إلى تلبية الأمر الخطير، يسود عليهم الصمت المطبق والخوف المرعب! ولما اكتمل عددهم، انتصب نبوخذنصر أمامهم بهيكله الرهيب، وفي عينيه بريق وحشي، وصرخ بهم قائلاً:

« أنا نبوخذنصر، أتنبأ لكم أيها البابليون بالبلاء الذي سيقضي عليكم، ولن يكون بمقدور «باليس» الذي خلقني، ولا بمقدور الملكة «بالتيس»، أن يقنعا آلهة القدر بتغيير مصيركم هذا.

« سيأتي بغل فارسي تسانده آلهتكم ليفرض عليكم سلطته ويستعبدكم. وسيتواطأ معه ملك ميديا الذي انتصر عليه الآشوريون، وهو سيروق للآلهة التي استطاع مرضاتها، قبل أن يخون مواطنيه ويتلاشى ويفنى في الهاوية السحيقة، أو في البحر، أو أنه سيتجه نحو طرق أخرى فيتوه في الصحاري حيث لا مدن ولا طرقات مداسة بالأرجل، بل وحوش مفترسة تمرح بحرية، وطيور تخفق بأجنحتها وتطير، وسيكون الكائن الوحيد بين صخور الأغوار العميقة. أما أنا، فباستطاعتي أن أدرك أجلي المفضل قبل أن تدخل هذه الفكرة إلى نفسي ».

أنهك الجهد نبوخذنصر، وأخذ الكل ينفضُّون عنه صامتين، وقد لاحظ الملك الشيخ وراء الرعب والخوف في وجوههم الجامدة، اللامبالاة في نبوءته الرهيبة، هذه اللامبالاة النابعة من اقتناعهم بأن مرضه الأخير قد سبَّب له الجنون!! إنهم غير مبالين حتى بمستقبل بابل التي لم يعد ينتظرون منها شيئاً غير تحقيق «الصفقات التجارية» مع أسيادها الجدد.

فأرغى نبوخذنصر وأزبد! وشعر بالرغبة الملحة ليمسك بهم كلهم ويشحن طاقتهم بإرادته المتشوقة إلى فتوحات جديدة! ثم انتصب فجأة كأن قيد المجرم قد صفعه... فوضع يده بصورة غرائزية على قلبه. إذ شعر بالألم الحاد العميق يحزُّ في جسمه فيصرعه ويسحقه ويرميه على أديم الأرض...

ولماذا الصراع بعد؟ إن شبح الموت يتراقص أمام عينيه... وأصبح من جديد وحده على السطح، وحده مع حمّاه، ومع الألم الذي حزّ في صدره! الموت... إنه هنا... وهو الهزيمة الكبرى!!

وها هو النهار يقبل والنور يفيض، فيتميز الأفق وتتضح التموجات، وتمضي النظرات الحزينة المتعبة لنبوخذنصر، تنتقل من هذه التلة إلى تلك، متسائلة معه: أي منها ستضم جسده البالي بقوة الإرادة التي لا تقهر؟

وارتسمت البسمة على شفتيه عندما وقع بصره على جبل «شادارابي» في الشمال، الملتمع كأن الذهب يشعُّ من خاصرتيه! هناك يقع مدخل البلد الذي لن يعود منه، «الأرالُّو» الرهيب، مملكة عالم ما تحت التراب، الوطن الذي لا يمكن قهره، والمعدّ لأولئك الذين حققوا مصيرهم على هذه الأرض.

هناك على الجبل الملتصق بالأفق، تقع قمة «شاد ماتاني» التي تلامس السماء، موطن الآلهة. إنها القمة المليئة بالأسرار! قمة الكون! قمة نبوخذنصر! القمة المعدة لأولئك الذين لا يجوز دفنهم في القبور. هناك ستكون «آكيمو» نبوخذنصر (روحه) مصانة من كل ما في هذا الوجود من ضلال وتعاسة.

إن جسم نبوخذنصر، عندما يأتي يومه، ورغماً عن الآلهة، سيسجّى في ناووس فخاري ويدفن في خاصرة القصر الجميل الذي أحبه، وذلك كما تقضي التقاليد، وكما دفن أجداده من قبله. أما نفسه المنفصلة عن جسده، فستبقى ماثلة هناك في الشق الذي يعتقد أنه يراه بين صخرتين على قمة جبل «شادارابي».

ولما فتح عينيه على نور النهار، أخذ الكهنة يعلمونه كغيره من البابليين، كيف ستكون نهايته الأخيرة. فمنذ ثلاثة آلاف سنة، التقط السحرة رأساً من أفواه الآلهة هذه المعلومات، وكتبوها على الألواح التي خلدت القصة التي تروي كيف «خلقت الآلهة الكون، وخصّت البشر بالموت، واحتفظت بالحياة لنفسها !!».

وقيلقامش ذاته، البطل وابن الإلهة «آرورو»، الذي كانت الملوك والأمراء وعظماء العالم ينحنون أمامه خاضعين، أراد أن يقوي المصير المشترك، فأطلق نحو السماء هذا التساؤل:

« هل يجب أن أموت أنا أيضاً ؟.. كلا، لا أريد أن أموت، لأني أشعر بأنني لن أبعث على الإطلاق ».

ونبوخذنصر كي يخفف من وطأة يأسه القاتل، لم يجد إلا هذا الجواب الفظ الذي أُعطي للبطل قيلقامش: « إن الحياة التي تفتش عنها، لن تجدها! لأن الآلهة عندما خلقت البشر فرضت عليهم الموت، واحتفظت بالحياة الخالدة لنفسها! ».

« أين إذن يجب أن أذهب طالما أن الموت ينتظرني قرب سريري؟ ». هكذا ألحَّ في تساؤله قيلقامش البطل. ثم قادته إرادته الحديدية التي لا تعرف اليأس، عبر العالم كله، منقباً عن غرسة الحياة، وما أن وجدها بعد جهد جهيد، حتى اختلستها منه حية... فتركته معذباً يائساً مضطراً للرضوخ أمام سلطان الموت الذي لا مفرَّ منه !

كان نبوخذنصر يحلم بأنه باستطاعته كجده «إيتانا»، أحد الملوك الإثني عشر من سلالة «كيش» الأولى، أن يحاول تسلق السماء! فهو إذا رفعه «النسر الإلهي»، لن يعرف الفشل الذي لحق بجده «إيتانا»، ولن يسقط، بل سيبقى يرتفع ويرتفع حتى يصل إلى قصر الآلهة ويحظى بالمجد قرب شمش، ووالده مردوك. . .

ثم عاد فتساءل: «لكن آداباً» ابن «آيا» المملوء حكمة، لم يتمكن من الحصول على الحياة الأبدية!». واستطرد قائلاً: « ولكن أين حكمة «آدابًا» من مجدي أنا. . . نبوخذنصر؟ » ثم كيف يمكن لمردوك والده، الذي خدمه أفضل خدمة « وهو يردّ الحياة للموتى »، أن يقاوم رغبته هذه ؟

وبشيء من الشك والريبة تساءل: هل إن مردوك سيفرض إرادته على الإله «نيرغال» والإلهة «اللات»، اللذين ينحنيان تحت نيرهما الصلب وسط شياطين الظلمة والليل، فيما يتعلق بكل الباقين من الأجيال الماضية، دون اكتراث منه أو تمييز، بين الصالح والطالح ؟

ثم طرح على نفسه السؤال التالي: « أليس من الأفضل إنكار مردوك، وطلب هذا الخلود من يهوه، الذي تقول الأنبياء ذاتها بأنه يجدد مصائر البشر ؟ ».

غير أنه استطرد يقول: « لكن إله اليهود البائس هذا، لم يظهر جدارة في حماية شعبه على هذه البسيطة !!».

وفيما هو بين الشك واليقين في هذه الآلهة وتلك، لم يستطع نبوخذنصر الكف عن التطلع نحو الشق الصخري الصغير عند الأفق. سيبقى أميناً لتقاليد أجداده، وهناك فقط يجب أن «تلتحق حياته بمصيره» وليس في سهل يهوه. وهو سيرتدي كل ثيابه الجميلة كما فعلت «عشتار» ابنة «سن» عندما قررت أن تذهب إلى الأرض التي لا عودة منها، إلى بيت الظلمات، البيت الذي من يدخل إليه لا يخرج منه، إلى الطريق التي لها مدخل وليس لها مخرج !».

وعندما سيصل إلى الباب الأول سيقول للبواب كما قالت عشتار: «إيه أيها البواب، افتح بابك كي أدخل أنا. وإن لم تفتح الباب، سأسحق القفل، وأدمّر العتبة، وأقطع المصاريع !».

وسيجاوبه البواب: «صبراً يا مليكي!». ثم يبادر خادم مملكة الظلمات هذا، إلى نزع التاج الكبير عن رأس نبوخذنصر، ويفسح له في المجال لاجتياز الباب الأول. . .

وعند عتبة كل من الأبواب السبعة الباقية، سيقف بواب لنزع قطعة من ثيابه، لأنه حسب الطقوس، يجب أن يكون « مكسواً كالعصفور بالجناحين فقط !»، كي يسمع الكل يرددون: « لتفتح أمامك الأبواب السبعة للبلد الذي لا عودة منه !».

ولن يكون هناك نور في المكان المعدّ له، كما أنه لن يجد إلا التراب والبقايا النتنة ليتغذى بها ويتطهر!! وفي وسط هذا المكان ينتصب «قصر البلد الذي لا عودة منه»، حيث يقطن الإله «نيرغال» و«الإلهة أريشكيغال» اللذان سيفرحان باستقباله وسيرسلان إليه رسلهما: كاتب الأرض، «بيليت إيري»، الذي سينحني أمامه. و «جيبيل»، حاكم «الأرض التي لا عودة منها»، الذي سيفعل مثله. أما القائد العام لهذه الأرض، «نين ـ جيز ـ زيدا»، فسيسبقه ليعدّ له مملكة الظلمات !

في هذا القصر، وتحت رئاسة «ماميتو» إلهة القدر، ستجري محاكمة «آنوناكيس»، الآلهة السيئين الذين قرروا نهاية حياته. ثم تعين له «ماميتو» مكانه المختار.

وعبر الهذيان الذي تسببه الحمى، رأى نبوخذنصر كل الموتى الشهيرين، وفي مقدمتهم الآلهة الذين ثاروا في بدء الخليقة ضدّ مردوك. ووراءهم جلس بصورة غير منتظمة، « السيد والكاهن، الساحر والنبي، والآلهة الكبار ».

الكل كانوا يتدحرجون على الترابّ جاهلين ماضيهم البشري، غير متطلعين إلى أعماق نفوسهم إلا بالأسف المر والتحرق على فقدان النور. وكان أتعسهم أولئك الذين لم يدفنوا كغيرهم تحت التراب ولم يهتمَّ بهم أحد على الأرض. « كالثوب العتيق كانت الديدان تنخر أجسادهم، والذي يكون في ظلمة لا يهتمُّ به أحد، بل من فضلات الطعام المطروحة في الشارع يقتات !».

ويعرف نبوخذنصر جيداً، بأن الأقل تعاسة من هؤلاء الموتى، هم الذين قتلوا في المعارك، فهم الآن على الأسرة يرقدون ويشربون الماء، بينما آباؤهم وأمهاتهم يرفعون رؤوسهم، ونساؤهم تنحنين عليهم !

أما بالنسبة لنبوخذنصر، هذا البطل الذي أنجز المآثر والأعمال المجيدة، فإن «آيا» ستأتيه ببضع قطرات من الماء المحيي الموجود قرب قصر «اللات»، هذا الماء الذي يرد الحياة لكل من يشرب منه أو يستحم فيه !

وساعتذاك سيستدعيه مردوك إلى قربه في سماء «آنو» أو في سماء «حدد» أو «شمش» أو «سن»، وهناك سيحظى بالمأكولات ومياه الحياة، لأن هناك، كما يقول السحرة، «بعد أن يستعيد العادلون قواهم كلها، سيدعون إلى وليمة عظيمة !».

والأنشودة الدينية التي سترنم احتفاءً بالعادل نبوخذنصر في وليمة الآلهة، أخذت تدوي أصداؤها هذه في أذني الملك الشيخ:

« إغسل يديك، طهِّر يديك،
الآلهة، أخوتك الكبار، سيغسلون أيديهم، وسيطهرون أيديهم،
تناول الغذاء بصحون نقية،
إشرب الماء النقي بأكواب نقية،
تهيأ كي تفرح بالسلام العادل،
آنتو، زوجة آنو الكبيرة، أمسكتك بذراعيها المقدستين،
إيتو، نقلك إلى مكان القداسة،

صبَّ في فمك الماء السحري،
وفضيلة الماء فتحت فمك ».

أجل، أجل! إن مردوك سيهبه من أجل مجده، الخلود الأسمى المقدس.

«لن أموت». تمتم بهذه العبارة نبوخذنصر وهو يتخيل القرون تتوالى، والعالم يستمرُّ في التحدث عن أمجاده... ثم صرخ: آسبيناز، آسبينازا!.. وأمام آسبيناز المنحني على قدمي سيده، انتصب الملك بقامته العالية، ولم يعد يشعر بأي ألم!! ثم قال لخادمه مشدداً على كل مقطع: «أريد، أريد.... أريد يا آسبيناز، هناك على أعلى سطح في القلعة، أن يرتفع أسد لا أجمل منه ولا نحت النحاتون أكبر منه! أسد فخور بنفسه وبمشيته، له مظهر القوة النبيلة التي تليق بمجدي! وتحت قدميه، أريد أن يسجد إنسان كرمز لهذا العالم الذي أخضعته لشريعتي، وألزمته على الانصياع لإرادتي! والآن، ليتقدم مني كاتب، أريد أن أملي عليه ما يجب أن يكتب على النصب البازلتي الأسود، كي تعلم أجيال المستقبل عظمة مجدي ومجد مردوك أبي!».

ولما جاء الكاتب، أخذ يملي عليه:

« أنا نبوخذنصر، ملك بابل العظيم الجليل، الخاضع للإله مردوك، العابد للإله نابو، الذي ينفذ إيحاءات الآلهة المفعمة بالأسرار، بحسب نظام عبوديتها واحترام عظمتها، الذي فكر ليلاً نهاراً بإحياء «بيت ساغاتو» و «بيت زيدا»، الذي عظَّم مجد بابل ومجد بورسيبا، وزير الآلهة العاقل الذي يثق بسلطتها، الابن البكر لنبوبولاصر، ملك بابل، أنا!

« لقد أخضعت لاحترام الآلهة البلدان البعيدة، والجبال المرتفعة من البحر الأعلى حتى البحر الأدنى، فلم يحد سكانها عن طريق الطاعة ولا انحرفوا، ولم يتجاهلوا شروط الهزيمة ولا إلزامية دفع الضرائب.

« لقد بدَّلت الشعاب العسيرة بالطرق المريحة.

« لقد عاقبت الرجال الفاسدين، ونفّذت بناء «إيمغور ـ بعل»، سور بابل المنيع، هذا العمل الذي لم يقم به أحد قبلي من الملوك أو آبائي.

« أنا نبوخذنصر، ملك بابل الذي عيَّنه مردوك السيد الكبير، من أجل مجد مدينة بابل، أنا !».

وخفت صوت نبوخذنصر، فالألم عاد يحز في صدره! وبسط يديه المتشنجتين إلى الأمام، وأخذ يفتش في الفراغ... ثم ترنَّح وسقط بين يدي آسبيناز !

وفوق الملك وخادمه على السطح، كانت السماء مظلمة! والهواء الشديد يبعثر تجمعات الغيوم، ويُسمع له على قمم الأرزات الكبار، صفير كأنه الشكوى الطويلة الممزقة...

إن نبوخذنصر يرتاح الآن في الغرفة الصغيرة، وفوق رأسه ضوء رمادي غريب مضطرب وحزين، ينبعث من الكوة الصغيرة المفتوحة في القبة التي تثقل بسماكتها الجو على قلبه المتعب المسكين، مما يجعل أذنيه تلتقطان خفقاته المضطربة الصماء !

وحواليه، في هالة مبهمة غامضة، أخذ يتفحص كل الأشكال والأشياء التي عايشها وكانت الشهود على حياته اليومية وعلى أفكاره وأحلامه. وأراد أن يتحرك... فهو لو رفع عنه الغطاء القطني الأحمر لتخلص بدون شك من هذا الشعور بالثقل الذي يضغط عليه ويكاد يخنقه. لكنه بدأ يشعر بتفاقم الألم الذي يحمل إليه الموت...

الموت؟!! إن ذلك غير ممكن، فهو لم يزل في الثامنة والستين من عمره، ومهمته لم تنتهِ بعده، والأسد الذي أمر بنحته كي يخلد أمجاده، بالكاد بُدىء برسمه الأولي. إن هذا الموت السابق لأوانه ليس إلا عقاباً على جريمة! وهو يعرف ذلك !

إنه لم يحنث بيمينه تجاه الآلهة كي تثأر منه بهذه الضراوة! وأخذ يتمتم:

« الصلاة كانت تأملي، والتضحية شريعتي، واليوم المخصص لتكريم الآلهة هو فرح قلبي ». وتساءل مهموماً: « هل سار في طريق الشر! هل تجاوز حدود العدالة ؟ هل فعل ما ليس جميلاً ؟ ».

وبصدد مستقبله، هل راعى الأوامر الألوهية؟ هذه الأوامر التي أعلنها جده حمورابي عندما «فوّضه مردوك كي يسدد خطى الناس في السبيل السوي، ويملي شريعته على العالم واضعاً في فم الملك العدالة والحق ».

وبماذا يمكنه أن يردّ على هذه التساؤلات: « هل رفض أن يخلى سبيل السجين، وأن تنزع الأغلال من يديه المقيدتين؟ هل قال للسجان اسجنه، ولحارس الأشغال الشاقة كبّله؟ هل رفض أن يسمح للسجين برؤية نور النهار؟» .

واجتاحت قشعريرة كل جسده! فانتفض جالساً في فراشه، وانتصبت أمامه أطياف «صدقيّا» و «يواكيم» وغيرهما من السجناء الذين منذ سنوات طويلة وهم يئنون في قيودهم ! إنهم هم الذين أقنعوا الإله كي يترك الأرواح الشريرة تعمل عملها فيه، فتعذب جسده وضميره !

ثارت كبرياؤه من جديد: لا تبكيت ضمير، ولا أسف. . . بل بغضب أخذ يصرُّ قبضتيه ويصرف بأسنانه كي يخنق الشكوى المتصاعدة من أحشائه المتألمة! وسمع آسبيناز صوته العاصف المعترض: « لقد خدمت الآلهة ولست آسفاً على شيء ». ولاحظ آسبيناز على ضوء المساء الباهت والمنساب من الكوة الصغيرة كأنه النور المعكوس من المرآة، وجه الملك المصروع بالألم والمنقبض في إصرار رهيب !

وأطبق نبوخذنصر عينيه. . . وحوله فجأة تحلقت ألف جنية في ظلمة الليل! وهو يعرفها: إنها الأرواح الشريرة المنتقمة للإلوهية المهانة، إنها «الإيتيكّوس» الرهيبة! وازدحمت الغرفة الصغيرة بالوهم المتحرك! ومع

العاصفة التي تزمجر الآن، شكلوا غزوة عليه! إنهم وابل «رامَّان» يتقدمون كالطوفان، وكمثل الغيمة الكثيفة التي تفرش الظلمة في السماء! «إنهم سبعة، إنهم سبعة في قعر الهاوية، ليسوا ذكوراً ولا أُناثاً ولا هم اقتنوا امرأة، لذلك لن يكون لهم أولاد أبداً! إنهم سبعة لا يعرفون الشفقة ولا عمل الخير! لا يستمعون إلى الصلاة ولا إلى التوسل... إنهم مبعوثو الموت وممثلو «اللات». فهل سيلتقون بالرجل الذي أثار غضب الإله عليه، فيذوبون فيه، ويملأونه بالسمّ القاتل، ثم يكبلون يديه، ويربطون رجليه، ويشدون خاصرتيه؟».

إن أجسادهم عظيمة! يحيطون بأجنحتهم الضخمة السوداء سرير نبوخذنصر، وبطرف أذرعتهم الطويلة جداً، يمدون باتجاه جسده أيديهم العريضة والمسطحة، وأصابعهم الشبيهة بالمخالب تغوص في لحمه!

ويحس نبوخذنصر وقع أقدامهم كأنها مخالب النسر تطبق على صدره، «فتسحق قلبه كما تسحق الحنطة!» بينما عيونهم المدورة الكبيرة الشبيهة بعيون الطيور الجارحة في وجوههم المصعرة، تلتمع ببريق السخرية القاسية!

ويتذكر نبوخذنصر تشخيص طبيبه لمرضه:

« إذا بقي مريضاً حتى اليوم الثاني واستطاع القيام في اليوم الثالث، وإذا بقي مريضاً حتى اليوم الثالث واستطاع القيام. ففي المساء سيكون الشرُّ متآمراً!

« إذا أخذ قلبه في اليوم الثالث يئن، وإذا التهبت أمعاؤه، فإنه سيموت!

« إذا بقي حتى اليوم الرابع مريضاً، وإذا الحمى المصحوبة بالعرق صرعته، فإن الشرّ سيكون متآمراً!

« إذا بقي حتى اليوم الخامس مريضاً، وإذا في اليوم السادس تفجر الدم في فمه، فإن الشرّ سيكون متآمراً!

« إذا حاول في اليوم السادس فتح عينيه ولم يتمكن، فإنه سيموت!».

إنه الانقضاض الرهيب!! مع هذا، انتصب نبوخذنصر يريد أن يصارع ويجابه شرذمة الأشرار: «بصقة غضب الآلهة»، فأخذ يزعق أمام وجوههم

الممدودة، ورؤوسهم التي لها شكل رأس الأسد وشعر الأفاعي، والمنتصبة على أجساد بنات آوى ذات الذيول المنتصبة هي الأخرى كذيول العقارب.

ووراء هذه الجوقة المزمجرة، كانت «اللات» ذاتها تحرضها، وهي أشدُّ حقداً من هؤلاء الشياطين الذين تسود عليهم. لقد كانت تنتصب حاقدة بجسدها الأنثوي المكسوّ بالشعر والعديم التناسب، وبخطمها المكشر كخطم اللبوة، وفوق كتفيها ينبسط جناحان كأنهما حجاب الشؤم! وتلبية لندائها، اختار كل شيطان جزءاً من جسد نبوخذنصر: «الأكيمّو» الخبيث أسرع إلى يديه، و «الأيلّو» الخبيث أسرع إلى رجليه، و «اللاساكي» انقضَّ على رأسه، و «الإيتيكو» على قذاله، و «الآلو» على صدره.

وأمام هذا الصراع غير المتكافىء، انهار نبوخذنصر بعد أن استنفد قواه: هذه الشياطين، ألن تنقض بنجاح على الآلهة ذاتها ؟ وانكسافات القمر، ألا تدل على انتصاراتها على الإله «سن؟». ولم يعد يأمل شيئاً، وحتى بعذابه لم يعد يفكر! فالرهبة والخوف قد عطلا فيه كل شعور، وأمام عينيه أخذت تتراقص صور وتتشكل وجوه، تدور حوله ثم تنفصل عنه مع قهقهات الشياطين العالية. ووجه زوجته آميتيس كان أكثر من غيره واضحاً، وأكثر تجبراً، إنه النداء الأعلى لقلبه الذي لم يعد يسمع نبضاته! إنه يشمُّ الآن رائحة العنبر المعدّ لجسده، هذه الرائحة التي طالما أحبها. وها هو الصوت الشهواني يرن، ويناديه خافتاً خافتاً إلى الحد الذي تبدو فيه نبرته كنبرة القانون البعيدة. ثم تنكب من جديد على جسده المسحوق زمرة الشياطين الزاعقة، ويبقى ساعات في هذا الصراع معها... ألا تريد أن تتركه؟ آه لو يأتيه كاهن معزِّم فيطردها... إنه يتخيل التعازيم المنقذة...

وهناك في السواد، ما هذا الشكل المميز وحوله الظلمة أقل كثافة ؟! إن الشياطين أنفسها تتراجع أمامه!

ويسمع نبوخذنصر الآن صوت الكاهن المعزِّم يرتفع جلياً فيقول: « إنكم أنتم يا آلهة الليل من أستدعيكم، ومعكم أستدعي الليل، والخطيبة المحجبة. أستدعي المساء، ومنتصف الليل والصباح. لقد أمسى فرحي تأوهاً، ولم يعد إيماني سوى حزن. انهضوا أيها الآلهة الكبار، واستمعوا إلى شكوتي، وكونوا عادلين معي. أقروا بأفعالي، وليذهب كالشحم بناء لأمر آلهة الليل، الكلام السيء الذي تلفظوا به ضدي ».

لم يفقد نبوخذنصر بعد قدرته على الصراع ! وتلبيةً لنداء الكاهن المعزّم، سيأتيه العون السامي من إلهيه الكبيرين: مردوك ونابو.

وارتفع صوت الكاهن بلهجة الأمر:

« ها هو مردوك يدخل منزل والده «آيا» قائلاً: إيه أبي، لا أعرف ما الذي يجب أن يفعله هذا الرجل كي يشفى. فيرد عليه والده: هل أقول لك يا ولدي ما أنت تجهله؟ إذهب إذن يا ولدي وخذ الرجل إلى حمام كي يُطهر وتزول عنه أضرار السحر التي دخلت فيه. ولترفع عنه، بفضل جاذبية «آيا»، هذه اللعنة المؤذية التي سبَّبها له مجهول. وكمثل فصّ الثوم الذي يقشَّر، وكمثل البلحة التي تقسم قطعاً، وكمثل الغصن الذي يقطع وهو محمَّل بالثمار، إقضي أيتها السماء على هذه الأضرار السحرية !».

وفي الظلمة التي أصبحت كثيفة، بقي نبوخذنصر يرى الشياطين تحيق به. ومع هذا الخلط الرهيب، تيسَّر له أن يستعيد أمله. فأمامه الآن رمز هذا الأمل، إنه ضوء يسطع ثم يخبو، ثم يلتمع مرتعشاً، فيتيح له هذا الضوء المنبعث من المجمرة المنقولة باليد، أن يرى الساحر وهو يقشِّر فصَّ الثوم الذي طلبه الإله، ويقدمه إليه على النار المتوهجة في المجمرة، وهو يتمتم:

« وكما تلتهم النار فصَّ الثوم هذا المقشَّر والملقى عليها، هكذا باستطاعة مردوك، أمير الآلهة، أن يطرد الأضرار السحرية بعيداً عن نبوخذنصر، وأن يحل

روابط الشر التي تنهشه، ويحله أيضاً من كل خطيئة، ومن كل مزلة، ومن كل فساد، ومن كل جريمة ».

إن وجه نبوخذنصر الجامد لم يعد يشف عن أية إرادة أو كبرياء، ولم تعد فيه أية عضلة ترتعش، ومع ذلك تمتم بصوت غريب مخنوق: « المرض الذي في جسدي، وفي لحمي، وفي عضلاتي، هل من الممكن أن ينسلخ عني كمثل فصّ الثوم، ويتلاشى هذا النهار باللهيب المفترس، كي أتمكن أخيراً من أن أرى النور لزمن طويل بعد ؟».

ثم قطع الساحر رطبة عدة قطع صغيرة وألقاها في النار. وفيما كانت تحترق، استأنف ترنيمته الرتيبة:

« وكمثل هذه الرطبة المقطعة والملقاة في النار التي ستلتهما، يستطيع مردوك، أمير الآلهة، أن يطرد الأضرار السحرية. . . ».

وعادت شفتا نبوخذنصر تتحركان وتتمتمان: « المرض الذي في جسدي، وفي لحمي، وفي عضلاتي، هل من الممكن أن ينسلخ عني كمثل هذه الرطبة كي أتمكن من أن أرى النور لزمن طويل بعد ؟».

ويكمل الساحر: « النار تأكل بالتناوب، شعرة من عنزة، فولة من غصن مثقل بالأثمار ». بعد هذا، لم يعد صوت نبوخذنصر اللاهث يُسمع إلا كصفرة غير مميزة. وفجأة، فقد وعيه منهكاً بهذا الصراع العنيف المتلاحق في جسده، بين آلهة الخير وشياطين الفساد.

وعاد ففتح عينيه ليطبقهما مملوءتين بالظلمة! وتوقف الألم الحاد، ولم يعد في جسمه إلا العياء الشديد، كأن يأس الجسد يريد فرض نفسه على الروح التي تريد أن تصارع وتنتصر بعد. . . ثم انتعش النور في عينيه! هل تحقق الانتصار؟ أخذ الساحر يرنم بقوة تعزيمة النار:

« إيه أيتها النار، القائد المتحرك والمعظَّم في البلد. بطل وابن اللجة أنت أيها الإله النار. نارك المقدسة نشرت النور في بيت الظلمات. أنت من يجدد

المصائر. أنت من يذيب النحاس والقصدير ويصهرهما. أنت من يمحص الفضة والذهب. أنت من يجعل الخبثاء يرتعدون في الليل. أنت، يا من يفعل كل هذا، إجعل أعضاء الرجل الذي أصبح ابن إلهه، تلتمع نقية طاهرة. وليصبح هو نقياً كالسماء، متلألئاً كالأرض، ساطعاً كالقبة الزرقاء. وليعجز اللسان الماكر الذي سحره، عن أن يتمكن منه بعد الآن».

المقاطع المقدسة هذه لم تعد ترن في أذني نبوخذنصر الآن، إلا ككلمات للغة مجهولة. فالزبد أخذ يتكوم في فمه ويتجمد، ولم تعد تخرج منه إلا الحشرجة غير المتميزة! فالشياطين تحمله الآن... ولكن لا، ليس الآن أيها الأمل الأسمى. فالقاعة امتلأت برائحة طاغية، إنها رائحة الدواء الذي صبّه الطبيب على أسنان الملك المصطكة، كي تطرد رائحتها جيش الشياطين كله!

وأخذ «الأزيبو» يزعق: «وأنت أيها السيد الرؤوف الذي يعيد الحياة للموتى، بدد ألمه بتعزيمتك المقدسة التي تهب الحياة، كي يصبح الرجل، ابن الله، طاهراً، ساطعاً، متلألئاً...».

لكن الكاهن لم يكمل، لأن الحياة أخذت تفارق الملك... بضع حشرجات، ثم شهقة أخيرة... واستسلم نبوخذنصر مغلوباً على أمره، مصروعاً بالشياطين، وعلى وجهه انطبعت الإرادة الشرسة! وهكذا سجاه الموت، ليذهب إلى قمة جبل العالم في منطقة «الغيوم الفضية»، ولن يرجع أبداً...

*

في القصر الملكي في بابل، لم يكن هناك إلا النواح والعويل. فصراخ الحزن المتواصل رافق الملكة آميتيس التي، بحسب العرف، يجب عليها أن تترك إلى الأبد منزل زوجها الذي اختلط فيه العويل بالنحيب. وعلى الأبواب، وفي القاعات، ازدحم الموظفون وأخذوا يمزقون ثيابهم، وذرعانهم متجملة بالذهب علامة الحداد!..

وعند أسفل السرير الصغير الذي كان يستريح عليه نبوخذنصر، جلس

إيفيل ماروداخ، ابن الملك، يعطي الأوامر. فألبسوا والده ثيابه الملكية، وطرحوا فوقه بدلات القتال. وعلى رأسه، وضع ابنه بنفسه التاج المدور والمزين بالريش، بينما كان الكهنة يمسحون وجهه الجامد وكل جسده بالزيت والعسل، ويرشون حوله مزيج الخمر والماء النقي، وهم يرتلون هذه الأنشودة الدينية:

« مسحتك بالزيت الملكي النظيف،
وحملت إليك المياه النقية،
وبيديه الطاهرتين، جمَّلك «مي - زاديم»، رئيس الصاغة لدى «آنو».
أخذك «آيا» إلى مكان التطهير،
فطلاك بالعسل والزبدة،
وسكب في فمك ماء الرُقية والتعزيم.
فكن طاهراً كالسماء، نقياً كالأرض،
وتلألأ كأنك في وسط السماء. . . ».

وبعد هذه الترنيمة الدينية، بسط إيفيل ماروداخ على جسد والده كفن الكتان الناعم، بينما كانوا في القاعة الثالثة من القصر ينحرون حمل التضحية. وسجّى الكهنة الجثة في ناووس فخاري صغير مقولب على قدِّ قامه الملك. وإلى يمين وشمال الجسد، حرص إيفيل ماروداخ على تزويد والده بالكأس الذهبية، والسيف، والجواهر التي كان يفضلها. وقرب رأسه، وضع مع بعض المأكولات، المخروط الترابي المشوي الذي نقشت عليه هذه الكتابة المأتمية:

« لقد توقف الآن وإلى الأبد، ذاك الذي كان يسيطر على الأرض، ولم يكن له عليها مزاحم !».

« يا إلهي، يا سيدي، إني أعبر القبر بحضور «الآنانوناكي».
« أمام الآلهة الكبار، أشدُّ يدك، وأسمع حكمك، وأقبّل قدميك !».

وتلا هذه الكتابة عبارات دينية تطلب من كل من يكتشف هذا القبر ألا يعكر صفو الميت الراقد في نعاسة الأبدي، وتعد من يتقيد بهذا الطلب،

بالمكافأة التالية: « مكافأتك في الحياة الثانية ستكون بأن اسمك سيبارك، ونفسك ستشرب من المياه الطاهرة. . . ».

وفي الخارج، مزَّقت الناحبات ثيابهن، وأدمين بأظافرهنَّ الحادة وجوههن وصدورهن، فسال الدم على الأرض التي كانت لم تزل تبخّر دم الحمل الضحية، فجبل بالرماد والوحل، وبه طلين رؤوسهن! وتعالى نحيبهن اليائس وتضاعف، عندما ارتفع الناووس فوق أكتاف خدم القصر ولحقته جماهير الناحبين والموسيقيين.

وفي الجدار السميك من الغرفة الواقعة قرب الفناء الثالث، تلك الغرفة التي عاش فيها نبوخذنصر أجمل أيام حياته، وكان يفضلها على سواها لأنها تشرف على المدينة بصورة أفضل، فتحت حفرة تتسع للناووس الملكي، وفيها رقد نبوخذنصر رقدته الأخيرة.

وبعد ذلك، التفَّ الكهنة والمهندسون والبناؤون كلهم حول إيفيل ماروداخ في القاعة الجنائزية، بينما بقي جمهور الموظفين والخدم محتجزاً في الأروقة وفي باحة القصر من قبل خصيان الملك.

وخيَّم الصمت وانقطع النحيب ولم يعد يسمع إلا الضجة المخنوقة للقرميد الذي كانوا يكومونه. . . وللحجر الضخم الذي سُدَّ به باب القبر وأُقفل بالأربطة البرونزية. . . ثم عاد فتعالى صوت إيفيل ماروداخ قائلاً:

« فيما يتعلق بالحجر الآرامي، مكان راحته، فإني قد ختمته وأقفلته بالأربطة البرونزية، وتلوت عليه التعزيمة الفعَّالة كي أمنع عودة المتوفى. آنية من فضة وذهب وكل ما هو ممكن وموافق لقبر، وبما كان يتزخرف به جلالته، قد عرضته أمام «شمش» ووضعته في القبر، مع الوالد الذي منه ولدت ».

وأصدر إيفيل ماروداخ أمره إلى بابل وكل المدن، طالباً من حكام المقاطعات والشعب والجيش كي يبكوا سيد المملكة. كما أعلن الحداد العام

المصحوب بالنواح والنحيب لمدة ثلاثة أيام، وطوال شهر تعطلت جميع الأشغال والأعمال. . .

تمَّ كل شيء، فيما كان إيفيل ماروداخ ينسحب ظافراً وسط تملق الكهنة وإطراء الموظفين، متبوعاً بنابونيد الصامت المتأمل! أما ناريغلاصر الواقف في الظل قرب قادة الجيش الذي أخلص له ونفذ أوامره، فلم يستطع إلا أن يلقي نظرة كئيبة على الولد الهزيل الذي سينادى به ملكاً في هذه الساعة، والذي كان يأمل أن يقتله منذ زمن طويل. . .

هذه النظرة لم تخفَ على خادم الملك الذي توارى في البهو وراء الخصيان، وأخذ يردد بينه وبين نفسه قول إرميا النبي:

« اعلنوا بين الأمم وخبروا. . . إن بابل قد سقطت، وبعل أُخزي، وماروداخ خائر العزم. اهربوا واخرجوا من بابل، انقذوا أنفسكم كلكم. . . لقد سكرت الأرض بكاملها، وكل الأمم شربت من خمرها. أردنا أن نشفي بابل، لكن بابل غير قابلة للشفاء، فأهملوها !».

واندار هذا الخادم صوب الحجر المختوم، وتابع يقول:

« كنت لي كالمهدة، سلاح الحرب، بك كنت أسحق الأمم، وأدمِّر الممالك، بك كنت أسحق الحصان والفارس. . . بك كنت أسحق الأمراء والقادة. كل الشر الذي صنعته لأورشليم، أرده إليك.

« انصبوا الراية وانفخوا بالأبواق بين الشعوب، ادعوا الأمم إلى الحرب. . . إيه بابل، أيتها الساكنة على المياه الغزيرة، يا مدينة الكنوز، هذا الذي جرى لثرواتك، لقد وافتك نهايتك !»

محتويات الكتاب

نبوخذنصّر

لا شك أن التصدي لدراسة «نبوخذنصر»، هذه الشخصية التاريخية الفذة والحربية التي فرضت قوّتها على الفرعون «نخو»، لهو إقدام جذاب يستهوي القرّاء العرب الذين لم يتيسّر لهم حتى اليوم كتاب عن هذا الملك الذي كان يعتبر نفسه إلهاً ابن إله!! فيتصرف ويعيش ويحارب ويحب مسترشداً الفؤول التي كان يفسرها له المنجمون والسحرة بعد استطلاعهم «الآلهة الكواكب!».

في هذا الكتاب الفريد يطّلع القارئ على طرق العبادة القديمة لدى الكلدانيين وفي بلاد ما بين النهرين، وعلى مراسم التتويج العجيبة، وعلى تضحيات الحب لدى الآلهة المختصة، فيعيش في دنيا عجيبة بتقاليدها وعاداتها ومعتقداتها!

أما المعلومات التاريخية التي يقدمها هذا الكتاب عن شخصية نبوخذنصر وعن حياته وحروبه وتدمير مملكة يهوذا وسبي اليهود إلى عاصمة إمبراطوريته بابل، وعن إحراق نينوى وعظمة بابل ومجدها وروعة الحدائق المعلقة فيها، فهي معلومات قيّمة جداً ولا شك، تجعل من هذا الكتاب زاداً ضرورياً لمتذوقي قراءة الكتب التاريخية. وهذا الكتاب الذي تقدمه «دار الجيل» إلى قرائها في العالم العربي، هو الكتاب الوحيد عن نبوخذنصر باللغة العربية، وقد قام الأستاذ فيليب عطاالله بنقله إلى لغة الضاد بدقة وأمانة، وبأسلوب فيه الكثير من رهافة الذوق وسلامة اللغة وفصاحتها...